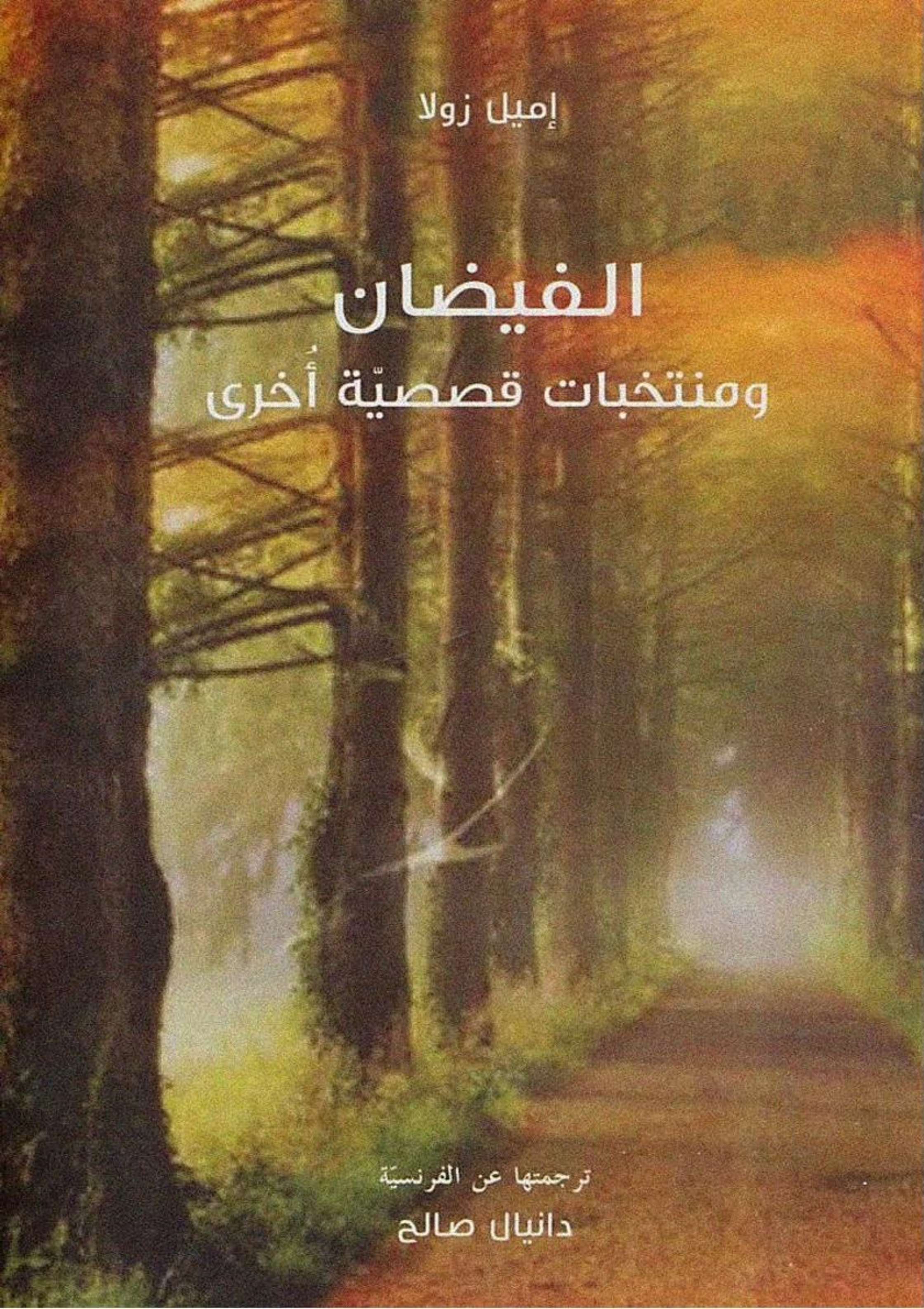

إميل زولا

الفيضان
ومنتخبات قصصيّة أُخرى

ترجمتها عن الفرنسيّة

دانيال صالح

مشروع «كلمة»
كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ

إميل زولا

«الفيضان»
ونصوص أُخرى

منتخبات قصصيّة

ترجمتها عن الفرنسيّة
دانيال صالح

مراجعة
كاظم جهاد

الطبعة الأولى 1435هـ 2014م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة»

PQ2493 S35 2014
Zola, Émile, 1840-1902.
[Contes et nouvelles]
«الفيضان» ونصوص أُخرى: منتخبات قصصيّة / تأليف إيمل زولا؛ ترجمة دانيال صالح ؛ مراجعة كاظم جهاد.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2014.
ص. 453 ؛ 14×21 سم.
ترجمة كتاب : Contes et nouvelles
تدمك: 1-315-17-9948-978
1- كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ المترجم إلى العربية.
أ-صالح، دانيال. ب-جهاد، كاظم.

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Zola, Émile, *Contes et nouvelles*

www.kalima.ae
ص.ب 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

«الفيضان»
ونصوص أُخرى

منتخبات قصصيّة

المحتوى

تقديم 7
المصادر 13

القسم الأوّل (1864–1874)

إلى نينون (مقدّمة لمجموعة «حكايات إلى نينون») 17
بهلول 25
المرأة التي تحبّني 37
أخت الفقراء 55
المصائد 85
عيديّة المتسوّلة 97
الحصان الهرم 101
المصيف 105
ضحيّة من ضحايا الإعلانات 109
نهار كلب شارد 113
زواج حبّ 121
الثلج 129

حوادث الاختفاء الغامضة 137
قفص حيوانات مفترسة 145
المعمّر المئويّ 153
في الدير 157
بمَ تحلم الفتيات المسكينات 165
إلى نينون (مقدّمة لمجموعة «حكايات جديدة إلى نينون») 169
كتفا المركيزة 179
الحدّاد 185
البطالة 191

القسم الثاني (1875–1899)

النّقيب بورل 201
كيف نموت 245
الفيضان 287
نانتاس 321
وفاة أوليفييه بيكاي 361
الهجوم على الطاحونة 397
آنجيلين 439

تقديم

يضمّ هذا الكتاب منتخبات واسعة من قصص إميل زولا Émile Zola (1840–1902) وحكاياته، مقتطفة من مجموعاتٍ له عديدة. وقد يفاجئ هذا السِّفْر الضخم قارئ العربية مثلما فاجأ من قبلُ قارئ الفرنسية لدى صدور نصوص زولا السرديّة الوجيزة في مجلّد ضخم يغطّي 1625 صفحة في سلسلة لابلياد *La Pléiade* المخصّصة لنشر الآثار الكاملة لكبار الشعراء والكتّاب(1). فكما كان الأمر بالنسبة لقرّائه المعاصرين بلغته الأصليّة، يكاد القارئ العربيّ لا يعرف سوى زولا صاحب الرّوايات الضخمة، المولع باللّوحات الوصفيّة العريضة، والرّاصد تحوّلات أجيال متعاقبة. على حين يقبع في الظلّ نوعاً ما زولا الناقد المجدِّد والمنظِّر الأساس للمدرسة الطبيعيّة naturalisme، وكذلك زولا البارع في كتابة النصوص السرديّة القصيرة. للتعريف بوجهَي زولا الإبداعيّين شبه المجهولين هذين قرّرنا، في هذه السلسلة الهادفة إلى تسليط الضوء، عبر ترجمات رصينة ومتقنة، على ما أغفلته الثقافة العربيّة من أمّهات النصوص الأدبيّة الفرنسيّة السّابقة ولادتها للقرن العشرين، قرّرنا أن نخصّ كتاباته النقديّة بمجلّدٍ ماثلٍ للصدور، وحكاياته وقصصه بمجلّد آخر هو هذا. وإليهما نضيف مجلّداً ثالثاً يضمّ ترجمة النصّ الكامل لرواية زولا الكبرى «جَوف باريس» *Le Ventre de Paris*.

(1) Émile Zola, *Contes et nouvelles*, Édition de Roger Ripoll avec la collaboration de Sylvie Luneau, Collection Bibliothèque de la Pléiade, Gallimard, Paris, 1976.

الحكايات والقصص المجتمعة هنا تنقسم على مرحلتين يمثّلهما قسْما هذا الكتاب. تمتدّ المرحلة الأولى على الأعوام 1864–1874، والثانية على الأعوام 1875–1899.

القسمة الحاصلة بين شطرَي الكتاب تبرّرها وتفسّرها حقيقة تاريخيّة خاصّة بسيرة الكاتب توقّف عندها شرّاح أعمال زولا وأخذوا بها في نشرهم لحكاياته وقصصه. مفاد هذه الحقيقة أنّ زولا قد عمل ابتداءً من سنّ السادسة والعشرين في الصحافة الباريسيّة، وكان صحافيّاً بالمعنى الجذريّ والمكتمل للكلمة. كان راصداً مسؤولاً للأحوال العامّة، ومندّداً شجاعاً بالعسف السياسيّ، وناقداً للمجتمع وأعرافه الرّاكدة، ومستشرفاً صاحياً للمستقبل، ومراقباً استنكاريّ اللّهجة للرأسماليّة الصاعدة ولتطوّرات التجارة الحديثة وتفشّي ثقافة الإعلان بما فيها من أحابيل وتلاعب برغائب المواطنين المنظور إليهم كمستهلكين محتملين لا غير. كما كان، على غرار ما كانه بودلير في قصائده ويوميّاته ومقالاته، مصوّراً دؤوباً لعزلة الكائن وسط الحشود، واعياً بشتّى مظاهر الاستلاب التي تجرّها معها حضارة تكنولوجيّة قائمة على المنفعة ولا تقيم للثقافة كبيرَ وزن. وفي الأوان ذاته، كان، عبر نشاطه في الصحافة السائرة، الاجتماعيّة منها والأدبيّة، ناقداً متميّزاً حلّل بأعمق ما يمكن في تلك الفترة الآثار الأدبيّة لسابقيه الكبار، من ستندال إلى بلزاك فهوغو ففلوبير، ومناصراً لعدد من أقرانه، وعلى رأسهم موباسان والأخَوان غونكور. وهي ذاتها الفترة التي نشرَ إبّانها في الصفحات الأدبيّة للجرائد ما يقرب من مائة حكاية وقصّة قصيرة كان يجمعها من بَعدُ في مجموعات، ومنها اخترنا واحداً وعشرين نصّاً تشكّل بمجموعها القسم الأوّل من هذا الكتاب. وكما سيرى القارئ، ففي هذه النّصوص المتنوّعة الأساليب والأشكال

نقف على اللّوحة الشعريّة والبوح العشقيّ والمعاينة الساخرة أو الفلسفيّة والحكاية الفنطازيّة والخرافة والقصّة القصيرة بالمعنى الفنّيّ الحديث للكلمة.

سوى أنّ هذا النّمط من الحضور الأدبيّ في الصحف كان يُجبر زولا على وجازةٍ أثبت هو براعته في الاستجابة لشروطها ومعرفة متينة بشعريّتها الخاصّة، إلاّ أنّها كانت بلا ريبٍ تحدّ من ميله المطبوع إلى التوسّع والتعمّق. من هنا الأهميّة البالغة للدعوة التي تلقّاها في 1875 من صديقه الكاتب الروسيّ تورغنييف Tourgueniev، الذي كان يومذاك يقيم في فرنسا ويجيد لسانها كأغلب الكتّاب الرّوس في تلك الفترة، وله فيها مؤلّفات، أقول الدّعوة إلى التعاون مع المجلّة الرّوسيّة الكوسموبوليتيّة المنحى «رسول أوروبّا» *Le Messager de l'Europe* . تعاون زولا معها طيلة الأعوام 1875–1880، ونشرتْ نصوصه بلغته. شكّل له هذا التعاون تحوّلاً في ممارسته للقصص ودشّن عهداً جديداً تميّز بالمناوبة بين الروايات الضخمة والقصص الطوال. كتب إبّان تلك الفترة وبعدها عدداً من أهمّ قصصه، يحمل منها القسم الثاني من هذا الكتاب سبعاً تُعدّ ذات مكانة تأسيسيّة في فنّ القصّة الحديثة، على رأسها «النّقيب بورل» و«الفيضان» و«وفاة أوليفييه بيكاي» و«الهجوم على الطاحونة». وقد تصدّر النصّ الأخير في إحدى طبعاته المؤلّف الجماعيّ «سهرات مِيدان»[1] *Soirées de Médan*، الذي صدر في 1880 وشكّل ما يشبه بياناً تطبيقيّاً للتيّار الطبيعيّ

(1) نسبة إلى مِيدان Médan، وهي بلدة قريبة من باريس، أقام فيها زولا من 1878 حتّى وفاته في 1902. كان يستقبل في منزله فيها أصدقاءه الكتّاب (وفي عنوان المجموعة نفسه تلميح إلى لقاءاتهم المتواصلة هذه)، وفي مقدّمهم مَن شاركوه المثول في المجموعة: غي دو موباسان Guy de Maupassant، وجوريس–كارل ويسمان Joris-Karl Huysmans، وهنري سيار Henry Céard، وليون إينيك Léon Hennique، وبول ألكسي Paul Alexis.

في السّرد.

دون أيّ رغبة في حرمان القارئ متعة الاكتشاف والتذوّق والتقييم بنفسه، قد يكون سائغاً التذكير ببعض النقاط اللّافتة في منتخبات زولا القصصيّة هذه. في النصوص التالية يعرب زولا، هو المتّهم ظلماً في رواياته بالرّتابة، عن تنوّع كبير في التعبير عن مظاهر الحداثة الأليمة المشار إليها أعلاه، والتي جعل جزءاً من رسالته ككاتب يتمثّل في رصدها في مدينة هي مختبر كبير لتحوّلات العصر، عنينا باريس. تارةً يسلّط على هذه الظواهر لغة السخرية، لا بل التهكّم، كما في «المصائد» و«ضحيّة من ضحايا الإعلانات» و«حوادث الاختفاء الغامضة»، وطوراً يلقي على المشهد العامّ نظرة اكتراث عميق ويتوسّل بتقنيات القصّة الخرافيّة ليضع على لسان الحيوان احتجاجاً مريراً على فظاعات الإنسان. وهناك أيضاً رصد للكوارث الطبيعيّة وإفادة من حصاد الصحف من قضايا وأحداث، كما في قصّته «الفيضان»، التي اخترنا اسمها عنواناً للكتاب كلّه، والتي تعرض بأسلوبٍ شبه ملحميّ وتصويرٍ لمّاحٍ مأساة الطبيعة تجرف البيوت وتطمر أبناءها تحت السّيل.

وعلى الصعيد الإيجابيّ، أي في فسحة النّور التي كان يهمّ زولا أن يُحلّها دوماً في أعماله، نلاحظ عودة ثيماته الرئيسة، من مديح العطاء الصادق، غير المحدود وغير المشروط، كما في قصّته الفنطازيّة «أخت الفقراء»، ومديح الخصب والأمومة، كما في «آنجيلين» التي يوجّه فيها وجهةً جديدةً ثيمة «البيت المسكون» المطروقة قبله مراراً وتكراراً، إلى مديح القوّة الفاعلة والجهد المستأنف دون انقطاع، كما في «الحدّاد»، فتشريح النزعة الإراديّة والإبانة عن حدودها وتراجيديّتها الضمنيّة، كما في «نانتاس».

هذه القصص والحكايات مشبعة كلّها بتحليل بسيكولوجيّ لا يكتفي به زولا (والاكتفاء به أو التعويل عليه أكثر من سواه هو من أولى نقاط نقده لستندال)، بل يرفده ويعمّقه، عملاً بتصوّره للطبيعيّة، برصدٍ ظاهراتيّ، يدعوه هو بالفيزيولوجيّ، إذ كلّ انفعالات الكائن ينبغي أن تظهر عبر سلوكه الجسديّ وتمظهراته العضويّة، وبمُعاينة سوسيولوجيّة للوسط، المحيط الذي تنمو فيه الشخوص أو ترتكس، والذي يكون في اعتقاده مصدر تأثير كبير عليها.

وهنا تجدر الإشارة إلى ما يربط هذه النصوص من عرى وثيقة بأعمال زولا الروائيّة. لا بل تشكّل بعض القصص اختباراً أو جسّاً أوّل لتجارب يعالجها في روايات يكتبها بالتزامن معها أو في فترة لاحقة، وقد تزجّها الرواية في منظور آخر أو تدمغها بفوارق ملحوظة. وهذا كلّه تشير إليه، بصورة وافية، على وجازتها، الحواشي التي استندت فيها مترجمة الكتاب إلى نشرة فرانسوا-ماري مورا لقصص زولا وحكاياته[1]. كما أنّ لهذه الحواشي الفضل في توضيح نشأة كلّ نصّ والتنويه بطبعاته المتوالية وصيَغه المتعاقبة أو تنويعاته.

يبقى أن نشير على سبيل الاختتام إلى ما تبدأ به قصص زولا وما يتوسّطها، ويُهيكل في الحقيقة هذا الصنيع كلّه. فأغلب نصوص القسم الأوّل آتية من مجموعتيه «حكايات إلى نينون» *Contes à Ninon* (1864) و«حكايات جديدة إلى نينون» *Nouveaux contes à Ninon* (1874). وكلّ من المجموعتين تُفتتح بنصّ من النثر الشعريّ (وكلا النصّين مترجم هنا) يخاطب فيه الكاتب صديقة صباه، هذه التي يسمّيها نينون، والتي

(1) Émile Zola, *Contes et nouvelles*, éd. François-Marie Mourad, 2 volumes, GF-Flammarion, Paris, 2008.

قد تكون ابتكاراً يتّخذ منه، كما فعل قبله الكثير من الشعراء والكتّاب، شاهداً على صبواته ومتلقّياً لبوحه الحميم. في النصّ الأوّل يسرد على نينون اندفاعاته الحياتيّة والإبداعيّة الأولى في الجنوب الفرنسيّ، إيكس-أون-بروفنْسAix-en-Provence تحديداً، حيث نشأ هو، رغم ولادته بباريس، وأحبّ. وفي الثاني يسرّ لها، بعد فاصل عشر سنين، بمفارقات الشوط المقطوع منذ صباهما المشترك، والعوائق المواجَهة والخيبات المتخطّاة، مستمدّاً منها، فكرةً كانت أو امرأة، حافزاً جديداً لآتٍ خلاّق.

محرّر السلسلة

كاظم جهاد

المصادر

- النّصوص «إلى نينون» (مقدّمة لمجموعة «حكايات إلى نينون»)»، و«بهلول»، و«المرأة التي تحبّني»، و«أخت الفقراء» مقتطفة من مجموعة «حكايات إلى نينون» *Contes à Ninon* (1864).
- قصّة «المصائد» مأخوذة من مجموعة «تخطيطات باريسيّة» *Equisses parisiennes* (1866).
- القصص والحكايات «عيديّة المتسوّلة»، و«الحصان الهرم»، و«المصيف»، و«ضحيّة من ضحايا الإعلانات»، و«زواج حبّ»، و«الثلج»، و«حوادث الاختفاء الغامضة»، و«قفص حيوانات مفترسة»، و«المعمّر المئويّ»، و«في الدّير»، و«بمَ تحلم الفتيات المسكينات» آتية من المجلّات والصّحف، إذ لم يدرجها زولا في مجاميعه القصصيّة. هذه النصوص تشير حواشيها الأولى إلى مصادرها بدقّة.
- النّصوص «إلى نينون (مقدّمة لمجموعة «حكايات جديدة إلى نينون»)»، و«نهار كلب شارد»، و«كتفا المركيزة»، و«الحدّاد»، و«البطالة» من «حكايات جديدة إلى نينون» *Nouveaux contes à Ninon* (1874).
- القصص «النّقيب بورل»، و«كيف نموت»، و«الفيضان» من مجموعة «النّقيب بورل» *Le Capitaine Burle* (1882).

- القصّتان «نانتاس» و«وفاة أوليفييه بيكاي» من مجموعة «نايس ميكولان» *Naïs Micoulin* (1884).
- القصّة المعنونة «الهجوم على الطاحونة» من المجموعة المشتركة «سهرات مِيدان» *Soirées de Médan* (1880).
- القصّة المعنونة «آنجيلين» لا تمْثل في مجموعة (انظرْ حاشيتها الأولى).

القسم الأوّل

(1874–1864)

إلى نينون[1]

مقدّمة لمجموعة «حكايات إلى نينون»

ها هي إذاً يا صديقتي، قصص صِبانا الحرّة تلك التي رويتها لك في حقول منطقتي العزيزة بروفانس[2]، والتي كنت تنصتين إليها مأخوذةً، وعيناك ساهمتان في زرقة التلال المرتسمة في البعيد.

في مساءات شهر أيّار، في الساعة التي تمتزج فيها الأرض بالسماء ببطء وتنحلّان في سلام مطلق، كنتُ أغادر المدينة وألجأ إلى الحقول. الروابي القاحلة المكسوّة بالأشواك والعرعر، أو ضفاف النهر الرقيق، ذاك الشلّال المتدفّق في كانون الأوّل، المترقرق بتكتّم حين يصبح الجوّ لطيفاً، أو زاوية منسيّة من السهل، تختلج بدفء الظُّهر الملتهب أراضٍ مترامية صفراء وحمراء، مزروعةٌ بأشجار لوز تمدّ أغصانها الهزيلة، بأشجار زيتون قديمة شابت أطرافها وكروم تسري أغصانها المتشابكة متدلّية على الأرض.

يا لتلك الأرض اليابسة تتوهّج في الشمس، رماديّة عارية، بين حقول دورانس الخصبة المخضوضرة وأحراج أشجار اللّيمون الممتدّة على

(1) «إلى نينون» كانت مقدّمة مجموعة زولا الأولى من الحكايات والقصص (وأوّل عمل منشور للكاتب)، صدرت بعنوان «حكايات إلى نينون» *Contes à Ninon* في تشرين الثّاني 1864 في باريس عن دار **Librairie internationale** للناشرين **A. و J. Hertzel** Lacroix،

(2) ولد إميل زولا بباريس، ونشأ في إيكس–أون–بروفانس **Aix-en-Provence** بفرنسا، حيث قضى طفولته وحداثته.

الساحل. أحبّها، أحبّ جمالها الوعر، صخورها الموحِشة، نبْتات الزعتر البرّي والخزامى التي تنمو فيها. ثمّة في ذلك الوادي العقيم هواء يصعب وصفه، لهب من الخراب، وكأنّ عاصفة غريبة من الشغف هبّت على تلك الناحية، خيّم بعدها أسًى عظيم، تاركاً الحقول كأنّها في سبات، لا تزال تتحرّق في رغبة أخيرة. اليوم، في وسط غاباتي الشماليّة، حين أستعيد في ذاكرتي حُبيبات الغبار تلك والحصى، يتملّكني حبّ دفين لتلك البلاد القاسية التي ليست موطني. لا شكّ أنّ مودّة كبيرة ربطت في ما مضى ذاك الطفل الفرِح بالصخور القديمة الكئيبة، وها هو الطفل أصبح اليوم رجلاً يزدري الحقول النديّة والخضرة النضرة ويعشق الدروب العريضة الناصعة والجبال الكالحة حيث سرحت روحه الغضّة في ربيعها الخامس عشر في أحلامها الأولى.

كنت ألج الحقول. هناك، وسط الأراضي المحروثة أو بين المنحدرات، أستلقي ممدّداً تقريباً، تائهاً في ذلك الهدوء المنسدل من أعماق السماء، فأجدك حين أدير رأسي، راقدة متراخية إلى يميني، ممعنة في أفكارك، ساندةً ذقنك إلى يدك، تحملقين فيّ بعينيك الشاسعتين. كنتِ ملاك وحشتي، ملاكي الحارس الطيّب الذي أجده بقربي، أيّاً كان مخبئي. تقرئين رغباتي المكتومة في سرّ قلبي، تجلسين بجنبي أنّى كنت، إذ من المستحيل لكِ أن تكوني حيث لم أكن أنا. هكذا أفهم اليوم حضورك في كلّ مساء. ودون أن أراكِ يوماً قادمةً، لم أكن أتفاجأ حين أصادف باستمرار نظراتك الشفّافة. كنتُ على يقين من أنّك وفيّة، ومن أنّك دوماً فيّ.

يا روحي الحبيبة، كنت تضفين حلاوة على حزن أمسياتي الكئيبة. كان لك جمال تلك التلال الموحش، شحوبها الرخاميّ الذي يشتعل لهباً تحت قبلات الشمس الأخيرة. لست أدري أيّ فكرة خالدة كانت تجعل جبينك

يشمخ وعينيك تتّسعان. ثمّ حين تعبر ابتسامة على شفتيك المتكاسلتين، لكأنّها على وجهك الفتيّ وتألّقه الخاطف شعاع أيّار ذاك الذي يجعل الزهور والنبتات على أنواعها تنبثق من تلك الأرض المختلجة، زهور ونبتات نهار عابر تكويها شموس حزيران. بينك وبين الآفاق تناغم خفيّ وانسجام غامض كانا يجعلانني أحبّ حصى الدروب. الجدول الصغير كان يخرّ بصوتك. والنجوم عند طلوعها لها نظراتك. كلّ ما ينتشر حولي يبتسم بابتسامتك. وإذ تعيرين تلك الطبيعة رقّتك، كنت تمسحين عنها قسوتها الولهة. فتختلط الأمور عليّ بينك وبينها. أراكِ، فأبصر سماءها المتفلّتة الشاسعة. وحين تتقصّى عيناي الوادي، أرى خطوط جسدك الرشيق القويّ في تماوجات الأرض. ومن شدّة ما قارنت بينكما، رحت أهواكما بجنون، دون أن أدري أيّكما أعشق أكثر، منطقتي العزيزة بروفانس، أم عزيزتي نينون.

في كلّ صباح يا صديقتي، تتملّكني رغبة متجدّدة في أن أشكرك على الأيّام الخوالي. أبديت لي رفقا وحنوّاً، فأحببتني قليلاً وعشت في أعماقي. في تلك السنّ حيث الوحدة تؤلم الفؤاد، قدّمتِ لي قلبك لتقي قلبي العذاب. لو تعلمين كم روحاً مسكينة تموت اليوم من الوحشة! هذا الزمن قاسٍ على تلك الأرواح المجبولة بالمحبّة. أنا لم أعرف ذلك الشقاء. وهبْتِني على الدوام وجهَ امرأة أعبده، سكنتِ صحرائي، فاختلطتِ بدمي وعشتِ في فكري. وأنا، تائهاً في ذلك الولع العميق، كنت أنسى، إذ أشعر بك في قرارة كياني. وجدتُ في عشقنا أقصى درجات الحبور، فساندَني لأعبر بسلام تلك البلاد القاسية، بلاد سنّ السادسة عشرة تلك حيث ترك الكثير منّ رفاقي أشلاءً من قلوبهم.

مخلوق عجيب أنتِ. اليوم وأنت بعيدة عنّي، وإذْ بات بوسعي أن

أقرأ بوضوحٍ في روحي، أجد لذّة مريرة في أن أتمعّن في حبّنا وأسترجعه بأدقّ التفاصيل. كنت امرأة، رائعة ومتّقدة، وكنت أحبّك حبّ بَعل. ثمّ أحياناً تصبحين بحيث لا أدري شقيقةً، دون أن تغيب العشيقة. عندها كنت أحبّك عشيقا وأخاً في آنٍ، بكلّ ما في المودّة من عفّة، وكلّ ما في الشهوة من شوق. أحياناً أخرى كنت أراكِ رفيقاً، أستشفّ فيك عقلاً متيناً، عقلَ رجل، وأنت لا تزالين فاتنة، محبوبة أكسو وجهها بالقبلات وأنا أشدّ على يدها مثل صديق قديم. في جنون حناني، كنت أعطي كلاً من مشاعري شكل جسدك الرائع الذي كنت أعشق. حلم إلهيّ يجعلني أعبد فيكِ كلّ المخلوقات جسداً وروحاً، بكل ما لديّ من قوّة، بعيداً عن الجنس والدم. كنت تُشبعين شوق مخيّلتي ورغبات عقلي في آنٍ، فتحقّقين حلم بلاد الإغريق، عشيقة تجسّدت رجلاً، بجسد رقيق فاتن وذهن ذكوريّ أهلٍ للعلم والحكمة. وكنتُ أعبدك بكلّ ما في قلبي من حبّ على أشكاله، أنت التي كنتِ تُشبعين كياني، بجمالك العصيّ عن الوصف الذي كان يملأني أحلاماً. حين كنت أحسّ في داخلي بجسدك الطريّ، بوجهك الحالم كوجه طفل، بفكرك المجبول من فكري، كانت تخالجني تلك المتعة الخارقة، متعة بحثوا عنها عبثاً في العصور القديمة، لذّة امتلاك كائن بكلّ أعصاب جسدي، وكلّ حنان قلبي، وكلّ قدرات عقلي.

كنت ألج الحقول. ممدّداً أرضاً، ورأسكِ متكئ إلى صدري، أكلّمك ساعات طويلة، شارداً في زرقة عينيك السحيقة. أكلّمك، غير آبه لكلماتي، مستسلماً لنزوة اللّحظة[1]. أحياناً، إذ أنحني صوبك كأنّما لأهدهدك، أراكِ فتاة صغيرة ساذجة ترفض أن تنام فنروي لها قصصاً جميلة، عِبَراً

(1) في هذا التصوير الرومنطيقيّ حيث يطغى التجلّي الشاعريّ للرغبة في الكتابة، يقدّم زولا بشكل مجازيّ حكايات هذه المجموعة وقصصها.

من المحبّة والحكمة، حتّى تغفو على وقْعها. وأحياناً أخرى، ألصق شفتيّ بشفتيك فتكونين محبوبة أقصّ عليها غراميّات الساحرات أو مغازلات عشيقين شابّين. وفي الكثير من الأحيان أيضاً، أيّامَ كنتُ أعاني من مكر رفاقي الأرعن، وتلك الأيّام الواحد تلو الآخر صنعت سنوات شبابي، كنت أمسك بيدك، والسخرية على شفتيّ فيما قلبي ملؤه الشكّ والإنكار، فأشكو كأنّما لشقيقٍ بؤسَ هذا العالم في قصّة كئيبة مرتجلة، هجاء يعصر دموعاً. وإذ تبقين امرأة وزوجة، كنت تستجيبين لنزواتي، فتكونين مرّة بعد مرّة فتاة صغيرة بريئة، محبوبة، أو شقيقاً يواسيني. تسمعين كلّاً من لغاتي المختلفة. ودون أن تجيبي مرّة، كنت تنصتين لي، وتدعينني أقرأ في عينيك المشاعر الكامنة في قصصي، أفراحاً وأحزاناً. كنت أفرش لك روحي على مداها، حريصاً على عدم إخفاء أيٍّ من زواياها عليك. لم أعاملك كواحدة من تلك العشيقات العاديّات اللّواتي لا يكشف لهنّ العشّاق إلّا عن اليسير من أفكارهم، بل كنت أهبك نفسي بالكامل دون أن أحبس كلامي مرّة. فكم كانت بيننا ثرثرات مسهبة، حكايات غريبة عجيبة وليدة الأحلام! قصص مسترسلة بلا ترابط على هوى مخيّلة جامحة، محطّاتها الوحيدة المحتملة كانت القبلات التي نتبادلها. لو تلصّص علينا أحد المارّة في المساء عند أسفل صخورنا، لست أدري أيّ صورة غريبة سيكوّنها عنّا إن سمع كلامي الحرّ المتفلّت، ورآكِ تفهمينه، يا فتاتي الصغيرة البريئة، محبوبتي، شقيقي المُواسي.

تلك المساءات الرائعة ولّت للأسف! جاء يومٌ ألفيتُني فيه مضطرّاً لفراقك، أنت وحقول بروفانس. هل تذكرين يا حلمي الجميل، وداعنا ذات مساء خريفيّ عند ضفة النهر الرقيق؟ كان الأفق شاسعاً رتيباً، يزيده وسعاً وكآبةً عريُ الأغصان. السهول المكسوّة بأوراق الأشجار

اليابسة، المبلّلة بزخّات المطر الأولى، كانت في ذلك الوقت المتأخّر من المساء تمتدّ سوداء تتخلّلها بقع صفراء عريضة، مثل بساط صوفيّ هائل. وفي السماء، كانت أشعّة النور المتبقّية تتبدّد، ومن المشرق يطلع اللّيل، يلفّه ضباب مخيف. ليل حالك سيليه حتماً فجر مجهول. هكذا كانت حال حياتي، مثل تلك السماء الخريفيّة. كوكب شبابي غاب للتوّ، وها هو ليل العمر ينسدل، حاملاً لي مستقبلاً ما أدراني ما سيكون. كان يتنازعني توق ملحّ إلى الواقع. وجدتني سئماً من الأحلام، سئماً من الربيع، سئماً منك يا روحي الحبيبة. كنت تفلتين من عناقي ولا يسعك أمام دموعي سوى أن تبتسمي لي ابتسامة حزينة[1]. حبّنا الإلهيّ ولّى فعلاً. مثل كلّ ما هنالك، انتهى فصله. عندها، حين أدركت أنّك تموتين في داخلي، اتّجهت إلى ضفّة النهر الصغير في الحقول المحتضرة، لأقبّلك قبلات الرحيل. يا للأمسية المتيّمة الحزينة! قبّلتك يا جميلتي الناصعة الهالكة، حاولت مرّة أخيرة أن أعيد إليك زخم الحياة كما في أيّام تألّقك، لكنّني لم أفلح، لأنّني كنت أنا نفسي جلّادك. ارتقيتِ في فوق الجسد، فوق القلب، وصرت مجرّد ذكرى.

سبع سنوات مضت الآن منذ أن فارقتك[2]. كثيراً ما سمعت صوتك منذ يوم الوداع، وسط أفراحي وأحزاني. صوت ذكرى يداعبني، يطلب منّي أن أسرد قصص أمسياتنا في حقول بروفانس.

لست أدري أيّ صدى لصخورنا الرنّانة يتردّد في قلبي. أنتِ التي

(1) هكذا يصوّر زولا في هذه الشهادة الأقرب إلى السيرة الذاتيّة، التحوّل التدريجيّ من الكذبة الرومنطيقيّة إلى الحقيقة الروائيّة، والاختيار المتعمّد للواقعيّة، بعدما كان رفضَها زولا الرومنطيقيّ والشاعر.

(2) هذه الإشارة الزمنيّة الدقيقة تدعونا، إذا ما نحن ربطناها بسيرة زولا، إلى اعتبار هذه المقدّمة شهادة عن حياته وتطوّره الداخليّ.

تركتك بعيداً، ترفعين لي من منفاك ترجّيات مؤثّرة، حتّى ليبدو لي آنّني أسمعها في أعماق كياني. تلك الارتعاشة العذبة التي تتركها الملذّات الماضية في داخلنا تدعوني إلى الاستسلام لرغباتك. إن كان لا بدّ لي أن أواسيكِ بقصصي القديمة، أنتِ الظلّ المسكين المتواري، في فسحات العزلة المسكونة بأشباح عزيزة، أشباح أحلامنا المندثرة، فإنّني أحدس قدر السكينة التي سأجدها أنا نفسي لسماعي أكلّمك كما في أيّام صبانا.

أتقبّل ترجّياتك، وسأستعيد قصص عشقنا الواحدة تلو الأخرى. لن أسترجعها كلّها لأنّ بعضها لا يمكن ببساطة سرده مرّة ثانية. فتلك الزهور الرقيقة ذوَت في الشمس منذ أن تفتّحت. بساطتها الرائعة لم تكن تقوى على نور النهار. سأعيد لك القصص التي تحرّكها حياة أكثر صلابة، والتي يمكن للذاكرة البشريّة، تلك الآلة الخرقاء، أن تحفظ ذكراها.

أخشى للأسف آنّني بذلك سوف أجلب لنفسي أحزاناً أليمة. فالبوح بأحاديثنا للريح العابرة فيه انتهاك لسرّ حبّنا، والعشّاق الذين يخونون السرّ عقابهم في هذا العالم برودة من يعهدون إليهم به وقلّة اكتراثهم. يبقى لي أمل وحيد، ألّا أجد في هذه البلاد شخصاً واحداً تستهويه قراءة قصصنا. فعصرُنا منهمك أكثر من أن يتوقّف عند أحاديث[1] عشيقين مجهولين. صفحاتي المنثورة ستعبر الحشد بصمتٍ وتصلك عذراء لم يمسّها أحد. يمكنني إذاً الاسترسال قدرَما أشاء في الجنون، والتسكّع كما في الماضي على غير هدى، غير آبه للدروب ووجهتها. أنتِ وحدك ستقرأينني، وأعرف بأيّ قدْر من التفهّم ستفعلين.

(1) تحت هذه التسمية الغامضة والمريحة كانت تصدر أحياناً النصوص السرديّة القصيرة في صحافة القرن التاسع عشر. لكن يمكن أيضاً إقامة «أحاديث» مع القارئ للخوض في النقد الأدبيّ، وهو ما فعله زولا لاحقاً في مقالاته التي صدرت تحت عنوان «أحاديث دراميّة» *Causeries dramatiques* في صحيفة «لو بيان بوبليك» *Le Bien public* .

ها أنّني يا نينون لتبيتُ رغباتك. إليك قصصي. فلتكفّي عن رفعِ صوتكِ في داخلي، صوت الذكريات ذاك الذي يُغرق عينيّ في الدموع. دعي قلبي التوّاق الى الراحة يستكين، لا تأتيني في الأيّام التي أُصارع فيها وأُعارك، فتحرّكي في نفسي الحزينة ذكرى ليالينا الكسولة. إن كان لا بدّ من قطْع وعدٍ لك، فإنّني أتعهّد لك بأن أبقى أحبّك، حين أفرغ من البحث عبثاً عن عشيقات أخريات في هذا العالم، فأعود إلى حبّي الأوّل. عندها سأعود إلى بروفانس، وسألتقيك مجدّداً عند ضفّة النهر الصغير. يكون حلّ الشتاء، شتاء حزين لطيف، بسماء صافية وأرض ملؤها وعود الحصاد المقبل. اطمئنّي، سوف يعشق أحدنا الآخر لفصل جديد كامل. ونعود إلى أمسياتنا الهانئة في الحقول التي نحبّ. سوف نكمل حلمنا.

انتظريني، يا روحي الحبيبة، أنت الرؤيا المُخلصة، عشيقة الطفل والكهل.

إميل زولا

الأوّل من تشرين الأوّل 1864

بهلول[1]

1

كان هناك في قديم الزمان - اسمعي جيّداً نينون، هذه القصّة رواها لي راعٍ عجوز - كان هناك في قديم الزمان، في جزيرة ابتلعتها البحار منذ زمن بعيد، ملك وملكة. كان لهما ابن. الملك كان ملكاً عظيماً. كأسه أكبر كأس في الإمبراطوريّة، وسيفه أضخم سيف. كان يقتل ويشرب بأبّهة ملكيّة. الملكة كانت ملكة رائعة الجمال. تُكثر من التبرّج حتّى لَتبدو وكأنّها لم تتخطّ الأربعين. الابن كان بسيط العقل.

لكنّه كان بسيطاً من أبسط الأصناف، حسبَ ما كان أهل الفكر في المملكة يقولون. كان في السادسة عشرة حين اصطحبه الملك الى الحرب. المهمّة كانت إبادة قوم في الجوار ذنبهم الأفظع أنّهم يمتلكون أرضاً. تصرّف بهلول كالأبله: أنقذ من المذبحة أكثر من عشرين امرأة وحوالى أربعين طفلاً. وعند كلّ ضربة يسدّدها بسيفه، كانت دموعه تكاد تنهمر. وفي نهاية المطاف، أمام مشهد ساحة المعركة الملطّخة بالدماء والمكتظّة بالجثث المبعثرة، عصرت الشفقة قلبه حتّى أنّه انقطع عن تناول الطعام ثلاثة أيّام. كما ترين نينون، كان في غاية البساطة.

في السابعة عشرة، اضطرّ إلى حضور وليمة أقامها والده على شرف

(1) هذا النصّ الذي يفتتح مجموعة «حكايات إلى نينون» ألّفه زولا على الأرجح في العام 1862، لكنّ المؤشّرات تدلّ على أنّه ابتكر قصّته في العام 1859، العام الذي ألّف فيه قصيدة تظهر فيها حبكة القصّة.

جميع عتاة الأكَلة في المملكة. وفي هذه المناسبة أيضاً، ارتكب الحماقة تلو الأخرى. اكتفى بالتهام بضع لقمات، مقلّاً في كلامه ومُحجِماً عن إطلاق الشتائم. وحين رأى الملك أن كأسه ستظلّ ممتلئة أمامه، ألفى نفسه مضطرّاً لإفراغها خلسةً بين الحين والآخر، حرصاً منه على صون شرف العائلة.

وفي الثامنة عشرة، حين بدأ زغب غليظ يكسو ذقنه، لفت انتباه إحدى وصيفات الملكة. الوصيفات صنف فظيع من النساء يا نينون. تلك الوصيفة لم تكن لترضى بأقلّ من قبلة من الأمير الشابّ. تلك الفكرة لم تكن خطرت ببال الفتى المسكين، لا بل كان يرتعد كورقة شجرة حين تكلّمه، ويولّي هارباً ما إن يلمح طرف فستانها في حدائق القصر. والده، وهو كان والداً عطوفاً، كان يرى كلّ هذا ويضحك في سرّه. لكن بما أنّ السيّدة كانت تجدّ أكثر وأكثر في المطاردة، فيما القبلة تتأخّر، خجلَ من ابن كهذا فأعطى هو القبلة المرجوّة، حرصاً منه مرّة جديدة على صون شرف سلالته.

«يا للأحمق الصغير!»، قال هذا الملك العظيم الحادّ الذكاء.

2

عند بلوغه العشرين اكتملت حماقة بهلول. صادف غابة ووقع في غرامها.

في ذلك الزمن الغابر، لم يكونوا بدأوا بعد بتشذيب الأشجار وتجميلها، ولم يكن من الرائج زرع العشب ولا إقامة ممرّات مكسوّة بالرمل. فالأغصان تنمو على هواها، والله وحده كفيل باقتطاع الأشواك وشقّ الدروب. الغابة التي التقاها بهلول كانت وكراً شاسعاً من الخضرة،

أوراق الأشجار المتكدّسة أكواماً، والعرائش الكثّة المتداخلة تقطعها طرقات مهيبة. الطحالب الثملة من قطرات الندى كانت تنمو وتفرش بساطها دون أن يردعها رادع. الورود البريّة تمدّ أذرعها المَرِنة بحثاً عن بعضها البعض في المروج لتؤدّي رقصات مجنونة من حول الأشجار الضخمة. الأشجار الضخمة نفسها، إذ تحافظ على هدوئها وسكونها، تلوي سيقانها في الظلّ وترتقي في صخب عارم لتقبّل شعاع نور الصيف. العشب الأخضر ينبت بشكل عشوائيّ، على الأغصان كما على الأرض. الأوراق تعانق الجذوع الخشبيّة، وأزهار الأقحوان وأذن الفأر تخطئ أحياناً في تلهّفها للتفتّح، فتزهر على الجذوع القديمة المقطوعة. جميع هذه الأغصان، جميع هذه الأعشاب، جميع هذه الأزهار، كلّها تنشد وتغنّي. كلّها تتشابك وتتدافع لتثرثر على هواها، تتهامس وتروي لبعضها البعض بهمهمة خفيضة قصص البتلات وغراميّاتها الغامضة. كانت نفحة حياة تعصف بالشجيرات الظليلة، فتهبُ صوتاً لكلّ عود عشب وسط تناغم جوقة الفجر والغسق، تناغم رخيم عصيّ على الوصف. كان ذلك عيداً حافلاً، عيد الأغصان المورقة[1].

الدعسوقات، الخنافس، اليعاسيب، الفراشات، جميع الحسناوات المتيّمات بالشجيرات المزهرة كانت تتواعد وتتلاقى في أرجاء الغابة. فيها أقامت جمهوريّتها الصغيرة. الدروب كانت دروبها، الجداول جداولها، والغابة نفسها غابتها. تجد مسكناً مريحاً حميماً في ظلّ الأشجار، على الأغصان الخفيضة، بين الأوراق اليابسة، فتعيش فيه كأنّها في ديارها،

(1) هذا المقطع يعطي صورة مسبقة لوصف منتزه بارادو في رواية «خطأ الأب موريه»، الجزء الخامس من سلسلة زولا الروائيّة «آل روغون ماكار» *Les Rougon-Macquart* (1875). أعمال زولا برمّتها مسكونة بهاجس القصة الغراميّة الفردوسيّة أو «أناشيد الحبّ». لكنّ التوق إلى البراءة مرتبط عضويّاً بمفاهيم الهشاشة ووصمة العار والخطأ.

هادئة هانئة، مسكناً احتلّته واستملكته. وفي مطلق الأحوال، فهي تخلّت عن الأغصان العالية، تاركةً إيّاها بطيبة قلبٍ للبلابل وطيور الدخلة.

كانت الغابة تغني بأغصانها وأوراقها وأزهارها، وها أنّها تغنّي أيضاً بحشراتها وعصافيرها.

3

وما هي إلّا أيّام معدودة حتّى أصبح بهلول صديقاً قديماً حميماً للغابة. كانا يتبادلان الأحاديث بجنون مطلق، إلى حدّ أنّها سلبته ما تبقّى له من رشْد يسير. حين يفارقها ليختلي بنفسه بين أربعة جدران، أو يجلس خلف طاولة، أو يتمدّد في سرير، كان يرقد حالماً مطرقاً في أفكاره. وفي نهاية المطاف، هجر ذات صباحٍ جناحه على حين غرّة وحطّ رحاله تحت الأغصان الوارفة التي يحبّ.

هناك اختار لنفسه قصراً شاسعاً.

الدار مرجٌ مستديرٌ فسيحٌ يمتدّ على مساحة حوالى ألفي متر، تزيّنه ستائر طويلة تسدل من حوله خضرتها الداكنة. تحت السقف يمتدّ وشاح من الدنتيل الزمرّدي ترفعه خمسمائة عمود طريّ. السقف نفسه قبّة شاسعة من الحرير الأزرق المتماوج المرصّع بمسامير ذهبيّة.

غرفة النوم مخدعٌ لذيذٌ لطيف الأجواء محفوفٌ بالأسرار. أرضه وجدرانه تتوارى تحت بسُط رخيمة محبوكة بمهارة فريدة لا مثيل لها. المهجع المحفور في الصخر كأنّما بيَدِ ماردٍ يفرش جدرانه من الرخام الزهريّ وأرضيّته من ذرور الياقوت.

كان له أيضاً حمّام، ينبوع مياه عذبة، مغطس من البلّور يختبئ وسط ضمّة من الأزهار. لن أستفيض يا نينون في وصف مئات الممرّات

والأروقة التي تخترق القصر، ولا صالات الرقص والحفلات، ولا الحدائق والبساتين. كان ذلك واحداً من تلك القصور الملكيّة التي يملك الله وحده سرّ بنائها.

اعتباراً من ذلك اليوم، بات بوسع الأمير الإمعان في البساطة كما يحلو له. ظنّ والده أنّه قد مُسِخَ ذئباً فراح يبحث عن وريث أكثر جدارة بالتربّع على العرش.

4

خلال الأيّام التي تلت استقراره هناك، ألفى بهلول نفسه شديد الانشغال. تعرّف إلى جيرانه، خنافس العشب وفراشات الجوّ. جميعها كانت حشرات طيّبة، تكاد تضاهي البشر فطنةً وذكاء.

في المرحلة الأولى، وجد بعض الصعوبة في فهم لغتها، لكنّه سرعان ما أدرك أنّ السبب في ذلك يعود إلى تربيته الأساسيّة. فتكيّف خلال فترة وجيزة مع اختزال لغة الحشرات، إلى أن بات يكتفي مثلها بصوت وحيد للإشارة إلى مائة مدلول مختلف، يميّز هو بينها بنبرة الصوت وطول تصويته. هكذا فقد تدريجيّاً إلفته مع لغة البشر، لغة في غاية الفقر خلف واجهة ثرائها.

سَحره سلوك أصدقائه الجدد وطباعهم. وأكثر ما بهره فيهم رأيهم في الملوك، وهو ما يمكن اختزاله بأنّه لا رأي لهم فيهم على الإطلاق. أحسّ بنفسه في نهاية المطاف جاهلاً بينهم، وصمّم على الذهاب إلى مدارسهم لتلقّي العلم فيها.

كان أكثر تحفظّاً في معاملة الطحالب والأشواك. لم يكن بوسعه بعدُ فهم ما تقوله الأعشاب والأزهار، وهذا العجز عن فهمها كان يلقي ظلاً

كثيفاً من الفتور على علاقاته بها.

في نهاية المطاف، لم تنظر الغابة إليه باستياء. أدركت أنّها أمام شخص بسيط العقل سيعيش في تفاهم وتناغم مع ما فيها من مخلوقات. لم تعد الحشرات تختبئ لتتخفّى عنه، وغالباً ما بات يباغت فراشة تشعّث تويجَ أقحوانة في نهاية أحد الممرّات.

لم يطلِ الأمر حتّى تغلّبت زهرة الزعرور على خجلها وباتت تلقّن الأمير الشابّ دروساً. علّمته بغرامٍ مطلقٍ لغة العطور والألوان. وبعد ذلك راحت البتلات المصبوغة بالحمرة تحيّي بهلول عند نهوضه كلّ صباح، والأوراق الخضراء تنقل له ثرثرات اللّيل، والجدجد يسرّ إليه خافضاً صوته بأنّه متيّم بحبّ زهرة البنفسج.

اختار بهلول يعسوبة[1] ذهبيّة بصدّارة رقيقة وجناحين مرتعشين لتكون صديقته الحميمة. كانت الحسناء العزيزة كثيرة الدلال والغنج على نحو مؤسف، فكانت تسرح وتمرح، تتظاهر بمناداته ثمّ تفلت منه بخفّة. الأشجار العالية تلاحظ لعبتها فتؤنّبها بصرامة، وتقول فيما بينها بوقار إنّ نهايتها لن تكون سعيدة.

5

تملّك القلق بهلول فجأةً.

كانت الدُّعسوقة أوّل من لاحظ حزن صديقهم، فحاولت انتزاع اعترافات منه. أجابها بعينين دامعتين أنّه فرحٌ كما في الأيّام الأولى.

أخذ ينهض مع الفجر ليجوب الأحراج حتّى المساء. يُبعد الأغصان

(1) تستخدم العربيّة «يعسوب» للذكر والأنثى، ونستعير هنا «يعسوبة» من العاميّة لأهميّة التأنيث في السياق.

برفق ليتفقّد الشجيرات دغلاً دغلاً، فيرفع كلّ ورقة ويجول بنظره في ظلّها.

«ما الذي يبحث عنه تلميذنا؟» سألت زهرة الزعرور الطحالب.

فوجئت اليعسوبة بتخلّي حبيبها عنها، وظنّت أنّ الغرام أفقده صوابه. جاءت تغيظه فتحوم حوله، لكنّه لم يعرها نظرة. الأشجار العالية كانت مصيبة في حكمها عليها، إذ سرعان ما وجدت عزاءً مع أوّل فراشة التقتها عند المفترق.

أوراق الأشجار أطرقت حزينة. راحت تتأمّل الأمير الشابّ يستجوب كلّ ضمّة عشب، ويمعن في استشراف الجادّات الطويلة. كانت تسمعه يشكو من عمق الأجمات والأدغال، فتقول فيما بينها: «بهلول لمح زهرة المياه، حوريّة الينبوع[1]».

6

زهرة المياه كانت ابنة شعاعِ نورٍ وقطرةِ ندى. جمالها نقيّ إلى حدّ أنّ قبلة حبيب سوف تقتلها، وهي تبعث عطراً على قدر من العذوبة حتّى أنّ قبلة من شفتيها كفيلة بقتل حبيب.

الغابة تعلم ذلك، والغابة كانت تخبّئ طفلتها المعشوقة غيرةً عليها. آوتها في ينبوع تظلّله أغصانها الأكثر كثافة. هناك، في الصمت والظلّ، كانت زهرة المياه تسطع بين شقيقاتها. تستسلم للتيّار بخمول، غارزةً طرف قدميها الصغيرتين في المياه، ورأسها الأشقر مكلّل بحبيبات لؤلؤ صافية. ابتسامتها كانت تُبهج زنابق الماء والسوسن. كانت روح الغابة.

(1) في مخطوطته (لا تحمل تاريخاً وهي محفوظة في أرشيف العائلة) اختار زولا في بادئ الأمر عنواناً لهذه القصّة القصيرة: «قبلة الحوريّة – حكاية».

تعيش خليّة البال، لا تعرف من الأرض سوى والدتها الندى، ولا تعرف من السماء سوى شعاع النور، والدها. تشعر بالحبّ يغمرها، منبعثاً من التيّار الذي يهدهدها، والغصن الذي يهبها ظلّه. كانت محاطة بألف عاشق، ولا عشيق واحداً لها.

كانت زهرة المياه على يقين من أنّ قدَرها أن تموت من الحبّ. كانت تستلطف هذه الفكرة وتحيا على أمل الموت. تنتظر المحبوب بوجهٍ باسِم.

لمحها بهلول ذات ليلة على ضوء النجوم عند منعطف ممرّ. قضى شهراً طويلاً يبحث عنها، ظنّاً منه أنّه سيلقاها خلف كلّ جذع شجرة. كان يخال دائماً أنّه يراها تطفو بين الأدغال، فيهرع لكنّه لا يجد سوى ظلال أشجار الحور الضخمة المترنّحة في عصفات الريح القادمة من السماء.

7

خيّم الصمت على الغابة. باتت تحذر من بهلول، فترصّ أوراقها وتلقي كلّ ما تستطيع من عتمة اللّيل على خطى الأمير الشابّ. الخطر المُحدِق بزهرة المياه كان يكدّرها ويغمّها. باتت محرومة من المعانقات، ولا عاشق ثرثاراً لديها.

عادت الحوريّة إلى المروج، فلمحها بهلول من جديد. انطلق خلفها، وقد أعماه الشوق. لم تسمع الطفلة وقع قدميه. كانت تمتطي شعاعَ قمر فتطير بخفّة ريشة تحملها الريح.

راح بهلول يركض، يركض في أثرها دون أن يتمكّن من بلوغها. الدموع كانت تنهمر من عينيه واليأس يملأ روحه.

يركض، والغابة تتابع هذه المطاردة الممسوسة بقلق. الأدغال تقطع طريقه والأشواك تلفّه بأذرعها اللّاذعة فتستوقفه فجأةً وهو عابر. الغابة

برمّتها كانت تحمي طفلتها.

يركض ويشعر بالعشب والطحالب زلِقة تحت قدميه. أغصان الأجمات تتداخل وتمدّ شباكها الوثيقة، تعترض الدروب بصلابة قضبان من النحاس، الصخور تتدحرج من تلقاء نفسها أمام الأمير. الحشرات تعضّه في كعب قدميه، الفراشات تخفق بأجنحتها أمام جفونه فتعمي عينيه.

كانت زهرة المياه تبتعد على شعاع القمر دون أن تراه أو تسمعه. أحسّ بهلول بفزعٍ باللّحظة تقترب حيث ستتوارى عنه.

كان يركُض، يركض يائساً لاهثاً دونَ توقّف.

8

سمع أشجار الحور العِتاق تصيح به غاضبةً:

«لم لم تقل لنا إنّك من البشر؟ لكنّا اختبأنا عنك وحرمناك من دروسنا، حتّى لا تتمكن عيناك المظلمتان من رؤية زهرة المياه، حوريّة الينبوع. قدِمتَ إلينا ببراءة الحشرات، وها أنّك اليوم تكشف عن ذهن البشر. انظر، إنّك تسحق الخنفساء، تقتلع أوراقنا، تحطّم أغصاننا. رياح الأنانيّة تحملك، تريد أن تسلبنا أرواحنا».

أمّا زهرة الزعرور، فقالت:

«توقّف بهلول، رُحماك! حين يرغب طفل شقيّ في استنشاق عطر ضمّاتي المرصّعة، ألا يمكنه أن يتركها تنمو بحريّة على الأغصان؟ لا، بل يقطفها، فلا ينعم بها سوى لساعة».

بدورها قالت الطحالب:

«توقّفْ بهلول، تعال واحلمْ على برودة بساطيَ المخمليّ. سوف

ترى زهرة المياه تتغنّج وتلهو في البعيد بين الأشجار. ستراها تغطس في الجدول، تلقي حول عنقها عقوداً من اللّؤلؤ المبلّل. سوف نشاركك بهجة النظر إليها، وسيُعطى لك مثلنا أن تعيش من أجل أن تراها».

ردّدت الغابة برمّتها:

«توقّف يا بهلول، إنّ قبلة سوف تقتلها، لا تعطها هذه القبلة. ألا تعلم ذلك؟ ألم ينقله لك رسولنا، نسيم المساء؟ زهرة المياه هي الزهرة السماويّة التي تبعث عطراً قاتلاً. مسكينة هي! قدَرها عجيب. ارحمْها يا بهلول، لا تجترع روحها من شفتيها».

9

التفتت زهرة المياه ورأت بهلول. ابتسمت له وأومأت إليه أن يقترب، معلنةً للغابة: «ها هو محبوبي آتٍ».

مضت ثلاثة أيّام وثلاث ساعات وثلاث دقائق، والأمير يطارد الحوريّة. كلمات أشجار الحور لا تزال تتردّد أصداؤها مزمجرةً من خلفه. خطر له أن يهرب.

لكنّ زهرة المياه كانت تمسك بيديه، تشدّ عليهما. وقفَت منتصبة على قدميها الصغيرتين، وابتسامتها تتمرأى في عيني الشاب.

«كم تأخّرْتَ! قالت. كان قلبي على يقين من أنّك في الغابة. امتطيت شعاع قمر وبحثت عنك ثلاثة أيّام وثلاث ساعات وثلاث دقائق».

بقي بهلول صامتاً، خاطفاً أنفاسه. أجلسته عند حافة الجدول. كانت تداعبه بنظرتها، وهو يتأمّلها مليّاً.

«ألم تعرفني ؟ سألته. كثيراً ما رأيتك في أحلامي. كنت أذهب لملاقاتك، فتمسك بيدي، ثمّ نمشي صامتين مرتعشين. ألم تلمحني؟ ألا

تذكر أحلامك؟»

وحين فتح فمه أخيراً بادرته:

«لا تتفوّه بكلمة. أنا زهرة المياه، وأنت المحبوب. سوف نموت».

10

انحنت الأشجار العالية لترى الشابّين عن كثب. كانا يرتعدان ألماً ويقول أحدهما للآخر وهما يتقدّمان من دغل إلى دغل إنّ روحيهما سوف تبسطان جناحيهما وتطيران.

صمتت جميع الأصوات وشعرت الأعشاب وأشجار الحور بشفقة عظيمة. لم تعد صيحة غضب واحدة تتردّد بين أوراق الأغصان. بهلول، محبوب زهرة المياه، كان ابن الغابة القديمة.

أسندت رأسها إلى كتفه. انحنيا فوق مياه الجدول وهما يتبادلان الابتسام. يرفعان أحياناً جبينَيهما، فيتابعان بنظرهما حُبَيبات الغبار الذهبيّة التي تتطاير مرتعشة في أشعّة الشمس الغاربة. كانا يتعانقان ببطء، متمهّلَين. ينتظران أول نجمة لينصهرا معاً ويطيرا، راحلين إلى الأبد.

كانا مفتونين، ولم تكن أيّ كلمة تبلبل نشوتهما. تصاعدت روحاهما إلى شفاههما وامتزجتا في أنفاسهما.

راح نور النهار يشحب، وشفاه العشيقين تقترب أكثر فأكثر. أطرقت الغابة، مسمّرة وصامتة في هلع فظيع. ألقت صخور هائلة ينبجس منها الجدول ظلالاً متطاولة على الحبيبَين المتألّقَين في اللّيل المنسدل.

ثمّ ظهر النجم واتّحدت الشفاه في القبلة الأخيرة، واختلجت أشجار الحور في غصّة طويلة. اتّحدت الشفاه فارتفعتِ الرّوحان وطارتا.

11

تاه رجلٌ من أصحاب الفكر في الغابة. كان برفقة رجلِ عِلم.

أخذ رجل الفكر يصدر تأمّلات معمّقة حول الرطوبة الضارّة في الغابات، ويتغنّى بجمال حقول البرسيم التي يمكن زرعها إذا ما قُطعت كلّ هذه الأشجار العالية البغيضة.

وكان رجل العِلم يحلم بأن يكتسب شهرة في العلوم باكتشافه نبتة مجهولة حتّى ذلك الحين، فكان ينقّب في كلّ زاوية فلا يجد سوى القرّاص وأعشاب النجيلة.

حين وصلا إلى حافة الجدول، عثرا على جثة بهلول. كان الأمير يبتسم في سبات الموت. رجلاه مستسلمتان للتيّار، ورأسه راقد على عشب الضفّة. شفتاه مغلقتان إلى الأبد ويده تضغط عليهما زهرة صغيرة بيضاء ووردية ساحرة برقّتها، تبعث أريجاً زكيّاً.

«يا له من مخبول مسكين!» قال رجل الفكر. «لا شكّ أنّه أراد أن يقطف باقةً فَغرق».

أمّا رجل العلم، فما اكترث حقّاً للجثّة، بل تناول الزهرة وراح يمزّق بتلاتها بحجّة دراستها. وبعدما قطّعها صاح:

«إنّه اكتشاف ثمين! تكريماً لذكرى هذا الأبله، سوف أطلق على هذه الزهرة اسم زهرة البحيرات الساذجة».

آه! نينيت يا نينيت[1]، زهرتي المائيّة الأجمل، كان ذلك الهمجيّ يسمّيها زهرة البحيرات الساذجة!

---

(1) تصغير تحبّبي لاسم نينون.

المرأة التي تحبني[1]

1

المرأة التي تحبّني، أهي سيّدة مرموقة، مكسوّة بالحرير والدنتيل والحلي، تحلم بغراميّاتنا، ممدّدة على أريكة مخدع؟ أهي مركيزة أو دوقة، لطيفة رقيقة مثل حلم، تجرّ خلفها متكاسلةً على البسُط طبقات تنانيرها البيضاء الغزيرة، وعلى وجهها عبوسٌ لذيذٌ أكثر رقّة من ابتسامة؟

المرأة التي تحبّني، أهي فتاة متواضعة مغْناج متأنّقة، تهرول متوثّبة في خطوات صغيرة، وتجول بنظرها حولَها، مترقّبةً إطراءً لساقها المشوقة؟ أهي الفتاة الطيّبة التي تشرب من جميع الكوؤوس، مرتديةً الحرير اليوم، والقطن الغليظ غداً، تجد بين ثروات قلبها قليلاً من الحبّ لكلّ واحد؟

المرأة التي تحبّني، أهي الطفلة الشقراء الراكعة جنب والدتها لتصلّي؟ العذراء المجنونة التي تناديني في المساء في ظلمة الأزقّة؟ أهي الفلّاحة السمراء التي ترمقني وهي تعْبر، فتحمل معها ذكراي وسط سنابل القمح والكروم الناضجة؟ المسكينة التي تشكرني على صدَقتي؟ امرأة رجل آخر، أكان عشيقاً أم زوجاً، لحقْتُ بها ذات يوم ولم أرها بعد ذلك؟

المرأة التي تحبّني، أهي من بنات أوروبا، بيضاء كالضحى؟ أم من بنات آسيا، صفراء البشرة ذهبيّة مثل شمس المغيب؟ أم من بنات

---

(1) هذه القصة التي هي الثالثة في مجموعة «حكايات إلى نينون» ألّفها زولا على الأرجح عام 1863. وصدرت أوّلاً في صحيفة «لانتراكت» *L'Entracte* الخاصّة بأخبار المسارح والتي كانت تنشر قصصاً قصيرة وحكايات.

الصحراء، داكنة مثل ليلةٍ عاصفةٍ؟

المرأة التي تحبّني، هل يفصلها عنّي حاجز رقيق؟ أهي خلف البحار؟ أهي أبعد من النجوم؟

المرأة التي تحبّني، هل أنّها لم تولد بعد؟ هل ماتت قبل مائة عام؟

2

بالأمس بحثْتُ عنها في ساحة مهرجان. كان هناك احتفال في ضاحية البلدة والناس يتسلّقون الشوارع في هرج ومرج، مرتدين أبهى ملابسهم.

الفوانيس أضيئت للتوّ. والجادّة مزدانة بأعمدة صفراء وزرقاء مزروعة على طولها، تعلوها آنية صغيرة ملوّنة يشتعل فيها فتيل يبعث دخاناً ويترنّح هلِعاً في الريح. في الأشجار تتدلّى قناديل من الورق ترتعش أضواؤها. الأرصفة محفوفة بأكشاك من الشوادر[1]، تعكس في الجدول أهداب ستائرها الحمراء. المصابيح تسكب نورها الفظّ على الخزفيّات المذهّبة والسكاكر الزاهية والرفوف المبهرجة، فتلتمع وتتلألأ.

في الجوّ انتشرت رائحة غبار وخبز بالتوابل وكعك بالسمنة. آلات الأرغن تغنّي، الحصائر المنثورة بالطحين تضحك وتبكي تحت وابل من الصفعات والركلات، وسحابة حارّة تخيّم متثاقلة فوق كلّ هذه البهجة[2].

---

(1) هذه المفردة عاميّة، وقد استُخدمت غير مرّة في هذه الترجمة بهدف السلاسة والتبسيط، وهي تشير إلى نسيج الكتّان أو الخيش المشمّع الذي يُستخدم في صنع الخيَم وبعض الأكشاك.

(2) من المرجّح أن تكون هذه القصة القصيرة مستوحاة من قصيدة نثرية للشاعر بودلير بعنوان «المهرّج العجوز» *Le Vieux Saltimbanque*، فبين النصّين تقارب كبير من حيث اختيار الديكور، والتعارض بين الإنسان والحشد، والموضوع والشخصيات.

فوق هذه السحابة، فوق هذه الجلبة، تمتدّ سماء صيفيّة شاسعة بعمقها الصافي والكئيب. ثمّة ملاك أشعل الأثير للتوّ ليضيء على احتفال إلهيّ، احتفال المدى اللّامتناهي بسكونه الجليل.

تائهاً وسط الحشد الغفير، كنت أحسّ بوحدة قلبي. أمضي متسكّعاً، متابعاً بعينيّ الفتيات اللّواتي كنّ يبتسمن لي وأنا عابر، مردّداً لنفسي أنّني لن ألتقي هذه الابتسامات من بَعد. مجرّد فكرةِ كلّ هذه الشفاه العاشقة التي ألمحها لوهلة قبل أن تتوارى إلى الأبد، كانت تعذّب نفسي.

مضيت في طريقي ووصلت إلى مفترق في وسط الجادّة. إلى اليسار انتصب كوخ معزول متّكئ إلى شجرة دردار. أمامه رُصفت بضعة ألواح خشبيّة متفكّكة على شكل منصّة، وعُلّق فانوسان يضيئان الباب الذي لم يكن سوى قطعة شادر مرفوعة على شكل ستار. حين توقّفْتُ، كان رجل يرتدي بدلة ساحر مؤلّفة من رداء أسود فضفاض وقبّعة مستدقّة الطرف تتوزّع عليها نجوم، يخاطب الحشد من أعلى المنصّة الخشبيّة.

«ادخلوا، كان يصيح بهم، ادخلوا سادتي الكرام، آنساتي الحسناوات! إنّني قادم حديثاً من قلب الهند لأُدخل البهجة إلى القلوب الفتيّة. هناك خاطرتُ بحياتي للاستيلاء على مرآة الحبّ التي كان يحرسها تنّين مهول. سادتي الكرام، آنساتي الحسناوات، أحمل إليكم السبيل لتحقيق أحلامكم. تفضّلوا، ادخلوا لتروا الفتاة التي تحبّكم! الفتاة التي تحبّكم، لقاء فلسين!»

رفعت امرأة مسنّة ترتدي ملابس راقصةِ مسرحٍ طرفَ الشادر المنسدل. جالت بنظرة مخبولة على الحشد، ثمّ صاحتْ بصوت أجشّ: «فلسان! فلسان لتروا الفتاة التي تحبّكم! ادخلوا وتعرّفوا إلى التي تحبّكم!»

3

قرع المشعوذ على طبله إيقاعاً مرتجلاً حماسيّاً. لوّحت الراقصة بجرس ورافقته.

كان الناس متردّدين. لا شكّ أنّ حماراً مدرّباً يحسن لعب الورق كان سيثير اهتماماً شديداً. أو رجل جبّار يرفع مائة رطل، فهذا مشهدٌ لا يُملّ منه. حتّى امرأة عملاقة شبْه عارية كانت بالتأكيد ستمتّع الحشود على اختلاف أعمارها وتُبهجها. أمّا رؤية المرأة التي تحبّنا، فذلك هو الأمر الذي قلّما نكترث له، ولا يعِدنا بكثير من الانفعال.

أنا من جانبي استمعت بلهفة لنداء الرجل ذي الرداء الطويل. وعوده تستجيب لما يتوق إليه قلبي. رأيت يد القدر في الصدفة التي قادتني إليه. ارتقى ذلك المسكين إلى مكانة فريدة بنظري، لِما أثار فيّ من ذهول بقدرته على استشفاف سرّ قلبي. خُيِّلَ لي أنّه يحدّق فيّ بعينين متّقدتين فيما يقرع الطبل الضخم بضراوة جهنّميّة، وهو يصرخ لي أن أدخل بصوت يعلو على الجرس.

كنت وضعت قدمي على اللّوحة الخشبيّة الأولى حين شعرت بأحدهم يستوقفني. التفتّ، فرأيت عند أسفل المنصّة رجلاً يمسك بطرف ملابسي. كان طويل القامة نحيلاً. يضع قفّازين من الكتّان أوسع من يديه وقبّعة اصطبغت بلون أحمر، ويرتدي معطفاً أسود حُتَّ عند المرفقين وبنطالاً رثّاً من الكشمير مبقّعاً بالسمن والوحل. بادرني بانحناءة مطوّلة متأنّقة ثمّ خاطبني بصوت هزيل:

«يؤسفني سيّدي أن أرى شابّاً كريماً يعطي للحشد مثالاً سيّئاً. من الخفّة بمكان أن تشجّع ذلك الشقيّ الذي يراهن على أسوأ ما لدينا من غرائز، وتجعله يُمعن في صفاقته. فأنا أجد منافياً للأخلاق إلى أقصى

الحدود ذلك الكلام الذي يُطلَق في الفراغ، داعياً الفتيان والفتيات إلى فجور النظر والذهن. آه سيّدي، إنّ عامّة الناس واهنة الإرادة. لدينا، نحن الرجال الذين حصّنهم العلم والثقافة، لدينا إذا ما دقّقتَ في الأمر واجبات هامّة لا تقبل التخاذل. دعنا لا ننساق إلى غرائب آثمة ونبقى لائقين في أدنى موقف. إن أخلاقيّات المجتمع تقوم علينا سيّدي».

استمعت إليه. لم يفلت طرف ردائي، ولم يخطر له أن ينهض من انحناءته. ممسكاً قبّعته بيده، كان يخاطبني بهدوء متعاطف منعني من الإحساس بأيّ استياء. وحين صمتَ، اكتفيت بالنظر إليه وجهاً لوجه دون أن أتفوّه بكلمة. لمس سؤالاً في صمتي.

«سيّدي، تابعَ بانحناءة جديدة، سيّدي، إنّني صديق الشعب[1]، ومهمّتي سعادة البشريّة».

قال ذلك باعتزاز متواضع، منتصباً فجأةً بكامل قامته الممشوقة. أدرت له ظهري وصعدت إلى المنصّة. وقبل أن أدخل، ألقيت نظرة أخيرة عليه وأنا أرفع الستارة المنسدلة. كان يمسك برفقٍ بيده اليمنى أصابع يده اليسرى، ساعياً لتسوية القفّازين المتغضّنين اللّذين كان يهدّدان بمفارقته.

ثمّ كتفَ صديق الشعب ذراعيه وراح يتأمّل الراقصة المسرحيّة بعينين عطوفتين.

4

تركتُ الستار ينسدل خلفي وألفيتُني داخل الهيكل. كان أشبه ما يكون بقاعة طويلة وضيّقة خالية من أيّ مقعد، جدرانها شوادر قطنيّة

(1) «صديق الشعب» شخصية سخيفة متكلّفة هزليّة، ترمز الى هجاء المثال الاشتراكيّ. وزولا، على غرار بودلير وفلوبير، لطالما انتقد بشدّةٍ موزّعي العظات وحرّاس النظام الأخلاقيّ.

ممدودة ويضيؤها سراجٍ يتيم. في الداخل تجمّعت فتيات فضوليّات وشبّان صاخبون. إجمالاً، كانت الأجواء لائقة إلى أقصى حدّ، وكان حبل ممدود في وسط الغرفة يفصل بين الرجال والنساء.

مرآة الحبّ لم تكن في الواقع سوى مرآتين بوجهين، كلّ في مقصورة. مجرّد لوحين زجاجيّين مستديرين يطلّان على جوف الكوخ. المعجزة الموعودة تتمّ ببساطة مدهشة: يكفي أن تلصق عينك اليمنى بالزجاج، فتظهر المحبوبة من خلفها، بلا زمجرة رعد ولا التماع برق. كيف لا تؤمن برؤية بديهيّة كهذه!

لم أقوَ على خوض التجربة فور دخولي. رمقتني راقصة المسرح لدى عبوري أمامها بنظرة بعثت الهلع في قلبي. ما أدراني ما كان بانتظاري خلف الزجاج! قد يكون وجه مروِّع، بعينين مطفأتين وشفتين بنفسجيّتين، أو شيخ هرم متعطّش لدماء شابّة، أو أحد تلك المخلوقات الممسوخة التي أراها في اللّيل تعبر أحلامي المخيفة. لم أعد أؤمن بالسرابات الشقراء التي أختلِقها لتؤهَل بها صحرائي وتأنس. عاودتني ذكرى كلّ النساء القبيحات اللّواتي أبدين لي بعض العطف، وتساءلت جزِعاً إن لم تكن إحداهنّ العاشقة التي ستظهر لي.

تراجعتُ إلى زاوية ورحت أراقب كلّ الذين يفوقونني جرأةً فلا يتردّدون في استشارة القدر دون أدنى تخوّف. سرعان ما شعرت بمتعة غريبة أمام مشهد هذه الوجوه، كلّ منها محملق بالعين اليمنى، واليسرى مغلقة بإصبعين، ولكلّ منها ابتسامته الخاصّة، تعبّر عن مدى الانشراح للرؤيا أو الانزعاج منها. وبما أنّ المرآة كانت منخفضة بعض الشيء، كان يتعيّن الانحناء قليلاً. بدا لي في غاية السخافة أن يتقاطر هؤلاء الرجال ويقفوا في الصفّ لمشاهدة الروح التوأم لأرواحهم من خلال ثقب لا

يفوق محيط دائرته بضعة سنتيمترات.

تقدّم جنديّان كانا هما أوّل المُبادِرين. رقيب لوّحته شمس أفريقيا، ومجنّد شابّ، فتىً لا تزال تفوح منه رائحة الحقول المحروثة، تكبّل ذراعيه سترة عسكريّة هي أكبر من مقاسه بثلاث مرّات. قهقه الرقيب بضحكة مشكّكة. بقي المجنّد منحنياً لوقت طويل، وهو يشعر باعتزاز مدهش لامتلاكه خليلة.

ثمّ جاء دور رجل بدين في سترة بيضاء، وجهه قرمزيّ متورّم. نظر من خلال الثقب بهدوء، دون أن تظهر على وجهه سمة فرح ولا استياء، وكأنّه أمرٌ طبيعيّ تماماً أن تكون لديه فتاة تحبّه.

تبعه ثلاثة تلاميذ، فتيان في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر، على وجههم سيماء الوقاحة، وهم يتدافعون ليوهموا بأنّهم حقّقوا إنجازاً وثملوا. أقسَموا ثلاثتهم على أنّهم إنّها رأوا عبرَ الثقب عمّتهم.

هكذا كان الفضوليّون يتعاقبون أمام المرآة، ولا يسعني اليوم أن أذكر تعابير وجوههم التي أذهلتني آنذاك. أيّتها الرؤية المذهلة، رؤية المحبوبة! أيّ حقائق قاسية كنتِ تنتزعينها من تلك العيون المشرّعة المحملقة! كانت هي مرايا الحبّ الحقيقيّة، مرايا تعكس رقّة المرأة في بريق مريب يمتزج فيه الشبق بالبلاهة.

5

أمام الزجاج المقابل، كانت الفتيات يمرحن بمزيد من الوقار. لم ألمح الكثير من الفضول على وجوههنّ. لا أثر لأيّ شهوة معيبة، ولا لأدنى خاطر خبيث. كنّ يتقدّمن الواحدة تلو الأخرى لإلقاء نظرة مذهولة من خلال الشقّ الضيّق، ثمّ يتراجعن، بعضهنّ مطرقات، والأخريات

يسترسلن في الضحك بشكل جنونيّ.

الواقع أنّني لم أكن أفقه تماماً ما يفعلن هناك. لو كنت امرأة، لما كانت خطرت لي يوماً تلك الفكرة الغبيّة، فكرةُ أن أكلّف نفسي عناء الذهاب لرؤية الرجل الذي يحبّني، حتّى لو لم أكن جميلة. وإن أطبقت الوحدة على قلبي، إن كانت تلك أيّاماً ربيعيّة مشمسة، فسوف أمضي في أحد الدروب المحاطة بالأزهار وأجعل كلّاً من المارّة يعشقني. وفي المساء، أعود وفي جعبتي ثروة من الحبّ.

بالطبع، لم تكن جميع فتياتي الفضوليّات على قدر متساوٍ من الجمال. الحسناوات بينهنّ لم يكنّ يأبهن لعِلم المشعوذ الزّاعم انّه يعلم الغيب، بل استغنين عن خدماته منذ زمن طويل. أمّا الشنيعات، فلم يسبق لهنّ على العكس أن ذهبن إلى مهرجان مماثل. حضرت واحدة، شعرها خفيف وفمها عريض. لم يكن بوسعها الابتعاد عن المرآة السحريّة، وعلى شفتيها ابتسامة فرِحة ومحزنة في آنٍ لا تفارقها، ابتسامة فقيرٍ يسكّن جوعه بعد صوم طويل.

تُرى أيّ أفكار جميلة كانت تستيقظ في تلك الرؤوس المجنونة! لم تكن هذه مسألة بسيطة. فجميعهنّ أبصرن بالتأكيد في أحلامهنّ أميراً يستجدي حبّهنّ. جميعهنّ يرغبن في التعرّف أكثر إلى المحبوب الذي يتذكّرنه بشكل مبهم عندما يستيقظن. لا شكّ أنّ الخيبات كانت كثيرة. فالأمراء باتوا نادرين، وعيون أرواحنا التي تتفتّح في اللّيل على عالم أفضل، هي أكثر تسامحاً بكثيرٍ من تلك التي تبصر في النّهار. كما كان هناك موجات فرحٍ عارمة، حين يتحقّق الحلم، فيكون للحبيب الشاربان الرقيقان والشعرَ الأسود كما في الحلم.

كانت كلٌّ منهنّ تعيش في ثوانٍ قليلة حياة كاملة من الحبّ. قصص

ساذجة، سريعة مثل بريق الرجاء، تفضحها حمرة الوجنتين واختلاجات الصدر التي ازدادت عشقاً.

ربّما كانت تلك الفتيات حمقاوات فحسب، وربّما كنت أنا نفسي أحمق، إذ لمستُ كلّ هذه المشاعر في حين لم يكن هناك في الواقع ما يمكن لمسه. مهما يكن، فإنّني وجدت الكثير من الطمأنينة في مراقبتهنّ. تبيّن لي أنّ الرجال والنساء على السواء بدوا بصورة عامّة مرتاحين كثيراً للصورة التي تراءت لهم. أكيد أنّ المشعوذ ما كان ليثير أيّ غمّ في نفوس أشخاص طيّبين ينقدونه قرشين. كلاّ، ما كان ليجد في قلبه القسوة الكافية لذلك.

دنوت وألصقت عيني اليمنى بالزجاج دون كبير انفعال. ظهرت لي بين ستارتين حمراوين طويلتين امرأة متّكئة إلى مسند أريكة. كانت مضاءة بنور قويّ ينسكب عليها من مصابيح لا يمكنني رؤيتها، وخلفها لوحة ممدودة في قعر القاعة، ممزّقة في بعض المواقع، لا بدّ أنّها كانت تصوّر في ما مضى غابة صغيرة أنيقة من الأشجار الزرقاء.

المرأة التي تحبّني كانت وفيّة لصورة الرؤية النموذجيّة، فهي ترتدي فستاناً أبيض طويلاً يضيق قليلاً عند الخصر، تجرّه خلفها على الأرض مثل غيمة. من جبينها تنسدل طرحة عريضة معلّقة بإكليل من أزهار الزعرور. ذلك الملاك الغالي بملابسه تلك كان بياضاً صرفاً، براءة خالصة.

كانت تتكئ، متأنّقة بدلال، وعيناها ملتفتتان صوبي، عينان زرقاوان رقيقتان مثل ملامسة. بدت لي فاتنة تحت الطرحة: ضفيرتان تائهتان بين طيّات الموسلين[1]، جبين بريء عذراويّ، شفتان رهيفتان وغمّازتان أشبه

(1) نسيج من القطن الرقيق الشفّاف يعرف أيضاً بالموصليّ، ويرجّح أن يكون مصدره مدينة الموصل.

ما تكونان بِوكرِ قبلات.

خلتها للنظرة الأولى قدّيسة. وفي النظرة الثانية، أوحت لي بفتاة لطيفة، لا تتكلّف الحشمة وسهلة المراس[1].

وضعَتْ ثلاث أصابع على شفتيها وأرسلت لي قبلة، أرفقَتها بانحناءة لا تمتّ بصلة على الإطلاق إلى مملكة الأشباح. وحين رأيت أنّها غير عازمة على التبخّر، طبعْتُ ملامحها في ذاكرتي وانسحبت.

فيما كنت خارجاً، لمحت «صديق الشعب» يدخل. بدا لي أنّ موزّع الدروس الأخلاقيّة هذا الشديد الوقار تجنّبني وهو يهرع لإعطاء المثال السيّئ على فضولٍ آثم. اعترت ارتعاشة شهوانيّة ظهره الطويل المنحني في نصف قوس. وحين عجز عن المضيّ أبعد، ألصق قبلة بالزجاج السحريّ.

6

نزلتُ الدرجات الثلاث واختلطتُ بالحشد من جديد، عازماً على العثور على المرأة التي تحبّني، بعدما صرت أعرف ابتسامتها.

القناديل كانت تبعث دخاناً، والجلبة تتزايد، والحشد يتدافع متراصّاً مهدّداً بجرف الأكشاك على طريقه. بلغ الاحتفال تلك الساعة من البهجة المثاليّة، حيث قد يحالفنا الحظّ ونقضي اختناقاً في غمرة الفرح.

انتصبتُ على رؤوس قدميّ فتراءى لي بحر من القلنسوات الصوفيّة والقبّعات الحرير يملأ الأفق. تقدّمت، دافعاً الرجال وملتفّاً بكثير من الحرص حول تنانير النساء الطويلة الفضفاضة. قد تكون هذه القبّعة

(1) نجد هنا ذلك التردّد الرومنطيقي والبودليريّ ما بين المثال والسوداويّة، والذي يجعل من المرأة ملاكاً أو شيطاناً، إذ يُنظر إليها من منظار الرغبة الذكوريّة الانفصاميّة.

الورديّة، أو هذه القبّعة الأخرى من الشُّفّ تلفّها أشرطة بنفسجيّة، أو ربّما أيضاً تلك القبّعة القشّ الفاتنة المزيّنة بريشة نعامة. لكن للأسف، القبّعة الورديّة كانت ستّينيّة، والقبّعة الشُّفّ قبيحة إلى حدّ مريع، تستند بعشق إلى كتف جنديّ من قوّات الهندسة، والقبّعة القشّ تقهقه ضاحكة، محملقة بأجمل عينين في العالم، غير أنّني لم أكن أعرف تينك العينين.

ثمّة قلق غامض، حزن هائل مبهم يخيّم فوق الحشود، وكأنّ نفحة هلع وشفقة تنبعث من الجموع. لم أجدني يوماً في تجمّع غفير إلاّ وأطبق عليّ كدر لا أدري سببه. يُخيَّل لي على الدوام أنّ مصيبة مروّعة تتربّص بهذا الجمع البشريّ، وأنّ ومضة برق واحدة ستكون كافية وسط إيماءاتهم الهائجة وأصواتهم المنفعلة حتّى ينزل عليهم جمود وصمت أبديّ.

أبطأتُ خطاي شيئاً فشيئاً وأنا أتأمّل تلك البهجة التي تؤسفني. كان متسوّل عجوز واقفاً تحت شجرة في نور المصابيح الأصفر، جسده متصلّب ملتوٍ في شلل رهيب. كان يرفع وجهه الشاحب نحو المارّة، يرفّ بعينيه بشكلٍ يدعو إلى الرثاء، جاهداً لاستدرار الشفقة. كان يبعث في أطرافه ارتعاشات حمّى مفاجئة تهزّه مثل غصن يابس. كانت الفتيات يعبرن بوجوههنّ الغضّة المتورّدة، فيضحكن لهذا المشهد القميء.

على مسافة من هناك، عند باب خمّارة، كان عاملان يتعاركان، وقد تحطّمت الكؤوس في حمأة صراعهما، فسالت الخمر على الرصيف وكأنّها دماء منسكبة من جروح عميقة.

بدا لي أنّ القهقهات انقلبت نشيجاً، والأضواء تحوّلت إلى حريق لاهب. استدار الحشد مذعوراً. مضيت في طريقي، ونفسي حزينة حتّى الموت، سائلاً الوجوه الفتيّة، عاجزاً عن العثور على المرأة التي تحبّني.

•

7

رأيت رجلاً واقفاً أمام أحد أعمدة المصابيح، سارحاً في تأمّلاته. أدركت من نظراته القلقة أنّه يبحث عن حلّ لمشكلة خطيرة. ذلك الرجل كان «صديق الشعب».

أدار رأسه فلمحني.

«سيّدي، بادرني هو بالقول، الزيت المستخدم في الحفلات يكلّف عشرين فلساً لليتر واحد. وفي ليتر واحد هناك عشرون كوباً كالتي تراها هنا، ما يعني فلساً واحداً لكلّ كوب. إلّا أنّ العمود يتضمّن ستة عشر صفّا، كلٌّ من ثماني أكواب، أي مجموع مائة وثمانٍ وعشرين كوباً. من جهة أخرى – ركّزْ جيّداً على حساباتي – عددت ستّين عموداً مماثلاً في الجادّة، ما يعني سبعة آلاف وستمائة وثمانين كوباً، ما يعني بالتالي سبعة آلاف وستمائة وثمانين فلساً، أي بكلام أوضح ثلاثمائة وأربعة وثمانين فرنكاً».

كان «صديق الشعب» يلوّح بيديه وهو يتكلّم، مشدّداً النبرة على الأرقام، حانياً قامته الطويلة كأنّها ليهبط إلى مستواي الذهنيّ الوضيع. حين فرغ من الكلام، انتصب بكامل قامته جذلاً بانتصاره. ثمّ كتفَ ذراعيه وحدّق بي، مأخوذاً بفكرته.

«ثلاثمائة وأربعة وثمانون فرنكاً من الزيت! صاح بصوت عالٍ، مصرّاً على كلّ حرف، فيما الشعب المسكين يفتقر إلى الخبز، سيّدي! أسألك، وأسألك والدموع في عينيّ، ألن يكون أكثر شرفاً لهذه البشريّة لو وزّعت الثلاثمائة والأربعة والثمانين فرنكاً هذه على المعدمين الثلاثمائة الذين تعدّهم هذه الضاحية؟ إنّ لفتةً محسنة كهذه سوف تمنح كلّاً منهم حوالى فلسين ونصف الفلس من الخبز. هذه الفكرة سيّدي برَهْن ذوي النفوس العطوفة لتدفعهم إلى التفكير والتأمّل».

لاحظ أنّني أرمقه بنظرة غريبة، فواصل بصوت محطّم واهنٍ وهو يثبّت قفّازيه بين أصابعه:

«لا يجدر بالمسكين أن يضحك، سيّدي. من غير اللّائق على الإطلاق أن ينسى فقره لساعة. من سيبكي مآسي الشعب، إن واصلت الحكومة إقامة مثل هذه المهرجانات الفاحشة له[1]؟»

مسح دمعة وفارقني. رأيته يدخل حانة خمّار حيث أغرق مشاعره الجيّاشة في خمس أو ستّ كؤوس ابتلعها الواحدة تلو الأخرى من منضدة الشُّرب[2].

8

الفانوس الأخير انطفأ للتوّ، والحشد تبدّد. لم أعد ألمح على نور المصابيح المترنّح سوى ظلال سوداء هائمة تحت الأشجار. عشّاق يتسكّعون بعدما رحل الجميع، رجال ثملون وشرطيّون يروّحون عن كآبتهم. امتدّت الأكشاش رماديّة صامتة على جانبَي الجادّة، مثل خيام في مخيّم مهجور.

هبّت النسائم الصباحيّة، نسائم مبلولة بالندى، باعثةً ارتعاشة بين أوراق أشجار الدردار. روائح المساء الحادّة الخانقة تبدّدت لتنتشر محلّها طراوة لذيذة. الصمت الرقيق الرؤوف وظلّ المدى اللّامتناهي الشفّاف انسدلا ببطء من أعماق السماء، ومهرجان النجوم أعقب عيد المصابيح. بات بوسع الشرفاء أخيراً أن يأنسوا ويلهوا قليلاً.

(1) يسخر زولا هنا بالطبع من الرومنطيقيّة الاجتماعيّة التي ترسم صوراً أدبيّة مسبقة عن «الفقراء» تلعب على مشاعر الشفقة مستخدمةً لغة البكائيّة.

(2) المقصود هو ما يُدعى بالفرنسية comptoir (تُلفظ «كونْتوار»)، أي المنضدة النحيفة المرتفعة التي تغطّي حيّزاً مْن المقاهي ويمكن تناول المشروبات عليها وقوفاً.

انتعشْتُ وعادت لي حيويّتي كاملة، وقد حانت ساعة ملذّاتي. رحت أسير حاثّا الخطى، أتسلّق الشوارع وأنحدر في الدروب، حين لمحت ظلاًّ رمادياً ينسلّ بمحاذاة المنازل. كان الظلّ متّجهاً صوبي مسرعاً، ولم يبدُ أنّه يراني. حزرتُ من المشية الخفيفة والملابس المتمايلة على إيقاع الخطى أنّها امرأة.

كانت على وشك أن تصطدم بي حين رفعت نظرها بشكل تلقائيّ. ظهر لي وجهها في ضوء مصباح قريب، وها أنّها «المرأة التي تحبّني». لم تكن تلك الرؤيا الأبديّة المحاطة بغيمة من الموسلين الأبيض، بل فتاة مسكينة من هذا الكوكب ترتدي ملابس قطنيّة مزركشة بهتت ألوانها. بدت لي في بؤسها فاتنة رغم وجهها الشاحب المنهك. لم يكن ثمّة أيّ شكّ في الموضوع، فهي الرؤيا نفسها، بعينيها الشاسعتين وشفتيها المخمليّتين. وعن كثب، كان لديها تلك العذوبة التي تضفيها المعاناة على الملامح.

تسمَّرَت لحظة، فاغتنمْتُ ذلك لأمسك بيدها وأقبّلها. انشرح وجهها في ضحكة صامتة، ثمّ ارتعدت وقالت بصوت منخفض: «البرد قارس، دعنا نمشي بسرعة».

يا للملاك المسكين! كانت تشعر بالبرد! تحت الشال الأسود الرقيق كانت كتفاها ترتجفان في الريح اللّيلية المنعشة. قبّلتها على جبينها وسألتها بحنوّ: «هل عرفتني؟»

رفعت عينيها للمرّة الثالثة.وأجابت بلا تردّد «لا».

لست أدري أيّ استنتاجات سريعة استخلصتُها في ذهني. ارتعشتُ بدوري.

«أين نحن ذاهبان؟» سألتها من جديد.

رفعت كتفيها وعلى وجهها تكشيرة لا مبالاة، ثمّ أجابت بصوتها

البالغ الشبه بصوت طفل: «أنّى شئتَ، في بيتي، أو في بيتك، لا يهمّ».

9

واصلنا المشي، منحدرين في الجادّة.

لمحت على أحد المقاعد جنديّين، أحدهما يتكلّم بنبرة جادّة، فيما الآخر ينصت باحترام. إنّهما الرقيب والمجنّد. وجّه لي الرقيب الذي بدا لي في غاية التأثر سلاماً ساخراً وهو يتمتم: «الأثرياء يُقرِضون أحياناً، سيّدي».

قال لي المجنّد ذو الروح المرهفة الساذجة بنبرة كئيبة منتحبة: «لم يكن لي سواها سيّدي؛ إنّك تسلبني من تحبّني».

عبرت الطريق وأكملت في الجهة المقابلة.

اقترب منّا ثلاثة فتيان، وهم ينشدون بأعلى صوتهم شابكين أذرعهم. عرفتهم، كانوا التلاميذ الثلاثة. لم يعد هؤلاء الأشقياء الصغار بحاجة إلى ادّعاء الثّمَل. توقّفوا وهم يقهقهون ضاحكين، ثمّ لحقوا بي لبضع خطوات وهم يصيحون بي الواحد تلو الآخر بصوت متردّد: «سيّدي! هاي! السيّدة تخدعك، السيّدة هي المرأة التي تحبّني!»

شعرت بقطرات عرق باردة ترشح على صدغيّ. أسرعت السير، متلهّفاً إلى الهروب. لم أعد أفكّر في تلك المرأة التي أصطحبها بين ذراعيّ. وحين وصلت إلى نهاية الطريق وأوشكت على مغادرة هذا المكان اللّعين، اصطدمت وأنا أنزل عن الرصيف برجل جالس بارتياح تامّ في قناة الماء عند حافة الطريق. كان يسند رأسه إلى بلاط الرصيف، رافعاً وجهه نحو السماء، وهو يقوم بحسابات بالغة التعقيد على أصابعه.

التفتَ بنظره، ودون أن يرفع رأسه عن وسادته المرتجلة قال لي متلعثماً: «آه! هذا أنت سيّدي! لا بدّ لك أن تساعدني على تعداد النجوم. عثرت

حتّى الآن على الملايين منها، لكن أخشى أن أنسى واحدة. الإحصائيّات سيّدي، إنّها الأمر الوحيد الذي تتوقّف عليه سعادة البشريّة».

خنقته عبرة ثمّ أكمل متباكياً:

«أتعلم كم هي كلفة نجمة واحدة؟ من المؤكّد أنّ مبالغ طائلة أُنفِقت هناك في الأعلى، في حين أنّ الشعب يشتهي الخبز سيّدي! ما الفائدة من كلّ هذه القناديل؟ هل يمكن أكلها؟ ما هو تطبيقها العمليّ، أرجوك؟ لم نكن بحاجة الى هذا الاحتفال الأبديّ. لا بدّ لنا أن نعترف بأنّ السّماء لم يكن لها يوماً أدنى دراية في الاقتصاد الاجتماعيّ».

أفلح في النهوض والجلوس على جنبه وراح يجول بعينيه الزائغتين حوله، هازّا رأسه بحنق. عندها تنبّه لرفيقتي. جفل ومدّ ذراعيه بنهم، وقد تحوّل وجهه إلى لون قرمزيّ.

«هاي! هاي! صاح، هذه هي المرأة التي تحبّني».

10

....

....

«هذه قصّتي، قالت. إنّني فقيرة، وأبذل ما في وسعي لتأمين قوتي. في الشتاء الماضي، كنت أقضي خمس عشرة ساعة منكبّة على منوال حياكة، ولم يكن لديّ خبز في كلّ يوم. في الربيع، رميت إبرتي من النافذة حين وجدت عملاً أقلّ تعباً وأكثر مردوداً».

«أرتدي كلّ مساء الموسلين الأبيض. وحيدة في ما يشبه حجرة ضيّقة، مستندةً إلى ظهر كنبة، تقتصر وظيفتي على الابتسام من الساعة السادسة وحتّى منتصف اللّيل. وبين الحين والآخر، أتكرّم بانحناءة، أرسل قبلة

في الفراغ. أتقاضى ثلاثة فرنكات للجلسة.»

«أرى باستمرار قبالتي، خلف زجاج صغير مثبّت في الحاجز الفاصل، عيناً تنظر إليّ. تكون سوداء أحياناً، وزرقاء أحياناً أخرى. لولا هذه العين، لكانت سعادتي اكتملت. فهي تفسد عليّ العمل. أحياناً ينتابني ذعر خارج عن السيطرة لرؤية هذه العين دوماً وحيدة ومحدّقة. أشعر برغبة جامحة في أن أصرخ وأهرب».

«لكن لا بدّ أن أعمل لأعيش. أبتسم، أحيّي، أرسل قبلة. وفي منتصف اللّيل، أزيل أحمر الشفاه وأرتدي مجدّداً ملابسي القطنيّة المزركشة. لا يهمّ! كم من النساء يتأنّقن هكذا أمام جدار دون أن يكنّ مرغمات على ذلك[1]!»

(1) يعطي زولا هنا اللّمسات الأوليّة لتحليل اجتماعيّ حول أسباب البؤس والدعارة سوف يطوّره لاحقاً في مقالاته ورواياته وصولاً إلى روايتي «الحانة *L'Assommoir*» (1877) و«نانا *Nana*» (1880).

أُخت الفقراء[1]

1

حين كانت في سنّ العاشرة، كانت الطفلة المسكينة تبدو هزيلة حتّى أنّ رؤيتها تعمل بكدّ مثل خادمة مزرعة كانت تقطّع القلب. كان لديها عينان كبيرتان مندهشتان، والابتسامة الحزينة لِمَن يعانون بعيداً عن التشكّي. أصحاب المزارع الأثرياء الذين كانوا يلتقونها في المساء عند أطراف الغابة بملابسها الرثّة، وعلى ظهرها حمل ثقيل، كانوا يعرضون عليها أحياناً بعض النقود، حين يكونون باعوا حبوبهم بأسعار جيّدة، حتّى تشتري تنّورة لائقة من القطن الغليظ، لكنّها تجيب: «أعرف شيخاً فقيراً يبقى تحت سقيفة الكنيسة، ليس لديه سوى قميص في برد كانون القارس هذا. اشتروا له سترة من الصوف، وسوف أشعر بالدفء غداً، حين أراه مدّثراً بها». هذا ما جعلهم يلقّبونها «أُخت الفقراء». بعضهم يطلق عليها هذا اللّقب من باب السخرية، استهزاءً بتنانيرها البالية، والبعض الآخر ثناءً على طيبة قلبها.

(1) هذه هي القصّة السابعة وما قبل الأخيرة من مجموعة «حكايات إلى نينون» وكان أولّ صدور لها فيها. وروى بول أليكسي في سيرته «إميل زولا، ملاحظات صديق» أنّ زولا، «بعدما طلب منه السيّد هاشيت قصّة قصيرة لصحيفة للناشئة كانت مكتبته تنشرها، كتب «أخت الفقراء». وبعدما قرأ الناشر القصّة، استقدم الكاتب إلى مكتبه الشهير حيث قال له هذه الجملة الملفتة للنظر: «أنت رجل ثائر!» ولم تُنشر القصّة القصيرة التي اعتبرت أكثر ثوريّة ممّا هو مسموح به. يمكن قراءتها في مجموعة «حكايات إلى نينون». (*Emile Zola.* *Notes d'un ami* عنْ دار Charpentier عام 1882 ص 61).

كان لأخت الفقراء في ما مضى مهد جميل من الدنتيل وألعاب تملأ غرفةً بكاملها. ثمّ ذات صباح، لم تحضر والدتها لتقبّلها عند نهوضها. وحين راحت تبكي لغيابها، قيل لها إنّ قدّيسة من السماء حضرت واصطحبتها الى الجنّة، فجفّت دموعها. والدها رحل قبل ذلك بشهر، وظنّت الطفلة العزيزة أنّه استدعى والدتها الى السماء، وأنّهما بعدما اجتمع شملهما، لن يتمكّنا من العيش دون ابنتهما، وسوف يرسلان لها عمّا قريب ملاكاً يخطفها بدورها.

لم تعد تذكر كيف فقدت ألعابها وسريرها. وبعدما كانت فتاة راقية ثريّة، أصبحت فتاة فقيرة، دون أن يرى أحد في ذلك عجباً. لا بدّ أنّ الأشرار قدِموا وجرّدوها ممّا تملك بكلّ وقاحة. تذكر فقط أنّها رأت ذات صباح عمّها غيّوم وعمّتها غيّوميت بجانب فراشها. تملّكها الذعر لأنّهما لم يقبّلاها. لفّتها غيّوميت على عَجل بملابس غليظة، واصطحبها غيّوم ممسكاً بيدها إلى الكوخ البائس حيث أضحت تعيش. هذا كلّ ما في الأمر. في كلّ مساء تشعر بنفسها تعبة.

غيّوم وغيّوميت أيضاً امتلكا ثروات طائلة في الماضي. لكنّ غيّوم كان يهوى الولائم المرحة وليالي السكر، دون التفكير في الجرار التي تُفرغ. غيّوميت كانت تهوى الأشرطة والزخارف وفساتين الحرير، وهدْر ساعات طويلة وهي تسعى عبثاً لإضفاء الشباب والجمال على مظهرها. وفي أحد الأيّام، فيما هما على هذه الحال، نفد الخمر من القبو وبيعت المرآة لشراء بعض الخبز. كانا يتحلّيان حتّى ذلك الحين بطيبة بعض الأثرياء، طيبة لم تكن في الواقع آتية سوى من تأثير الرفاهية والرضا بالذات. كانا يشعران بسعادة أكبر وأعمق حين يتقاسمانها مع الغير، فتختلط محبّتهم بكثير من الأنانية. لذلك حين اشتدّت عليهم المحنة، لم يحسنا الحفاظ على

طيبتهما. أسفا على المقتنيات التي ضاعت من أيديهما، ولم يعد لديهما دموع يذرفانها سوى على بؤسهما، فسكنتهما قسوة حيال عالم المساكين[1].

غاب عن ذهنهما أنّ فقرهما إنّما كان من صنيعهما، وراحا يتّهمان الجميع بإفلاسهما. سكنت قلبهما حاجة ماسّة إلى الانتقام، وقد سئما خبزهما الأسود، باحثين عن معاناة أكبر من معاناتهما علّها تحمل لهما العزاء.

وجدا ما يشفي غليلهما في خِرَق أخت الفقراء، في وجنتيها الصغيرتين الهزيلتين، الشاحبتين من كثرة الدموع. لم يقرّا لنفسهما بالفرحة الشرّيرة التي كانت تملأهما لرؤية وهَن الطفلة، حين تعود مترنّحة من النبع حاملةً بيديها الإبريق الثقيل. كانا ينهالا عليها ضرباً إنْ هي أهدرت قطرة واحدة، مردّدين أنّه لا بدّ من معاقبة الطباع السيّئة. يسارعان إلى ضربها لأهون الأسباب وبنقمة تكشف بشكل فاضح أنّ الأمر لم يكن مجرّد عقاب عادل.

كانت أخت الفقراء تتحمّل كلّ بؤسهما. يوكلان إليها بأشقّ الأشغال، يرسلانها تلملم ما تبقّى من خضار في الحقول في شمس الظهر، وتجمع الحطب في ثلج الشتاء. وحالما تعود، يترتّب عليها أن تكنّس وتغسل وترتّب كلّ ما في الكوخ. لم تكن الطفلة العزيزة تشتكي. أيّام السعادة ولّت منذ زمن طويل، حتّى أنّها لم تعد تذكر أنّ من الممكن العيش بلا دموع. لم يخطر لها يوماً أنّ في العالم آنسات يمرحن ويتدلّلن. وفي جهلها للألاعيب والقبلات، كانت ترضى بالضرب والخبز الحافّ كلّ ليلة

(1) لئن كانت هذه القصّة مشبعة بالرمزيّة المسيحيّة، إلّا أنّها تعكس المشاغل الاجتماعية في تلك الفترة وتحلّل الآليّات التي تحكم العلاقات بين الفقراء والأثرياء في عهد الامبراطورية الثانية. هذا النقد اللّاذع للتباينات والمظالم الذي يمرّ عبر الدفاع عن «الفقراء» وإدانة راحة ضمير «الأثرياء» نجده في قلب جميع أعمال زولا سواء قبل رائعته «الحانة» (1877) أو بعدها.

باعتبارهما جزءاً من حياتها أيضاً. كان العقلاء يذهلون لرؤية فتاة في العاشرة تبدي رحمة عظيمة حيال جميع ألوان المعاناة، دون أن تظهر أيّ اكتراث لبؤسها هي نفسها[1].

ذات مساء، كان غيّوم وغيّوميت يحتفلان بعيد أحد القدّيسين، فناولانها فلساً جديداً لمّاعاً وسمحا لها باللّعب طوال ما تبقّى من النهار. انحدرت أخت الفقراء ببطء نحو المدينة، محتارة بفلسها، مرتبكة لا تدري كيف لها أن تلعب. وصلت على هذه الحال إلى الشارع الرئيسيّ. كان هناك إلى اليسار قرب الكنيسة دكّان مليء بالسكاكر واللّعب، يتلألأ في أضواء اللّيل بتألّق يجعل جميع أطفال المنطقة يحلمون به وكأنّه الجنّة. في ذلك المساء كان جمع من الأولاد يقفون على الرصيف مشدوهين، صامتين من شدّة الإعجاب، ملصقين أيديهم على الزجاج، أقرب ما أمكنهم إلى الروائع المصفوفة على الرفّ. حسدتهم أخت الفقراء على جسارتهم. توقّفت في وسط الشارع، مدلّية ذراعيها الرقيقتين، ممسكة بملابسها الممزّقة المتطايرة في الريح. كانت تقبض بقوّة على فلسها الجديد اللّمّاع، فخورة إلى حدّ ما بثروتها، وتجول بنظرها على الألعاب لتختار تلك التي ستشتريها. وقع اختيارها أخيراً على لعبة ينسدل شعرها مثل شعر شخص كبير. كانت تلك اللّعبة، الممشوقة القامة مثلها، ترتدي فستاناً من الحرير الأبيض شبيهاً برداء السيّدة مريم العذراء.

تقدّمت الفتاة بضع خطوات. كانت تقلّب النظر من حولها بخزي قبل أن تدخل حين رأت على مقعد حجريّ مقابل للمتجر الجميل امرأة رثّة الملبس، تهدهد بين ذراعيها طفلاً يبكي. توقّفت من جديد، مديرةً

---

(1) مضى زولا أبعد من ذلك في كلامه عن الطفلة الضحيّة في رواية «الحانة»، مع شخصيّة الطفلة لالي بيجار التي عذّبها والدها المدمن على الكحول قبل أن يقتلها من شدّة الضرب.

ظهرها للّعبة. عند سماع نحيب الطفل، شبكت يديها مشفقة عليه، واقتربت بخطى سريعة وقد تبدّد خجلها، مادّةً فلسها اللّمّاع إلى المرأة المسكينة.

كانت المرأة تراقب أخت الفقراء منذ لحظات. رأتها تتوقّف، ثمّ تدنو من الألعاب. وحين توجّهت صوبها، أدركت طيبة قلبها. تناولت منها الفلس بعينين دامعتين، ثمّ استبقَت اليد الصغيرة الممدودة في يدها.

«يا ابنتي، قالت لها، أقبل صدقتك لأنّني على يقين من أنّك سوف تحزنين إنْ أنا رفضتُ. لكن ألا ترغبين في شيء أنت نفسك؟ يمكنني أن أحقّق لك إحدى أمنياتك، بالرغم ممّا عليّ من أسمال».

كانت عينا المرأة المسكينة تلتمعان مثل نجمتين وهي تتكلّم، ومن حول رأسها يشعّ وهج مثل إكليل من نور الشمس. في حضنها غفا الطفل وهو يبتسم ابتسامة إلهيّة في نومه.

هزّت أخت الفقراء رأسها الأشقر.

«لا سيّدتي، أجابت. ليس لديّ أيّ أمنية. كنت أودّ شراء تلك اللّعبة التي ترينها في المتجر المقابل، لكنّ عمّتي غيّوميت ستحطّمها. بما أنّك لا تريدين أخذ فلسي لقاء لا شيء، أفضّل أن تعطيني لقاءه قبلة من قلبك».

انحنت المتسوّلة وقبّلتها على جبينها. عندما أحسّت أخت الفقراء بهذه الملامسة، شعرت بنفسها ترتفع عن الأرض، وبدا لها أنّ تعبها الدائم تبدّد. وفي الوقت نفسه فاض قلبها بطيبة أكبر.

«يا ابنتي، تابعت المرأة المجهولة، لا أريد أن تبقى صدقتك بلا مكافأة. لديّ مثلك فلسٌ لم أكن أدري ما أفعل به قبل أن ألتقيك. رمى لي أمراء وسيّدات راقيات أكياساً من الذهب، لكنّني لم أعتبر أنّهم جديرون بامتلاكه. خذيه. ومهما حصل، افعلي ما يمليه عليك قلبك».

ناولتها الفلس. كان فلساً قديماً من النحاس الأصفر حُتَّت أطرافه وفي وسطه ثقب بحجم حبّة عدس. بدا متآكلاً حتّى أنّه لم يكن من الممكن تبيان البلد الذي جاء منه. كلّ ما يمكن تمييزه كان إكليلاً من شعاع نور يكاد يكون ممحوّاً على أحد وجهيه. ربّما كان ذلك من صنف عملة سارية في السماء.

حين رأت أخت الفقراء رقّة الفلس، مدّت يدها، مدركةً أنّ مثل هذه الهديّة لن تضرّ بالمتسوّلة واعتبرتها ذكرى صداقة تتركها لها.

«للأسف! فكّرت في سرّها، المرأة المسكينة لا تدري ما تقول. الأمراء والسيّدات الراقيات لا حاجة لهم إلى فلسها. إنّه قبيح فلا يمكن أن تُشترى به كسرة خبز. لن أتمكّن من إعطائه حتّى لفقير».

ابتسمت المرأة، وعيناها تبرقان بوهج متزايد، وكأنّ الطفلة تكلّمت بصوتٍ عالٍ.

«خذيه رغم كلّ شيء، قالت لها بصوت عذب، وسوف ترين».

عندها تناولته أخت الفقراء حتّى لا تجرح مشاعرها. حنت رأسها لتضعه في جيب تنّورتها، وحين رفعته من جديد وجدت المقعد خالياً. ذُهلت للأمر وعادت مُطرقة، تتأمّل ذلك اللّقاء.

2

كانت أخت الفقراء تنام في العليّة، في ما يشبه حجرة صغيرة تحت السقف يتكدّس فيها حطام قطع أثاث قديمة وسط فوضى عارمة. في اللّيالي المقمرة، كان النور يتسرّب من كوّة ضيّقة فيضيء عليها وهي تخلد الى النوم. لكن في اللّيالي الأخرى، كانت تتحسّس طريقها للوصول إلى سريرها، مضجع حقير من أربعة ألواح خشبيّة غير سويّة مُدّت فوقها

حصيرة بالية تتلامس خيوط نسيجها في بعض الأماكن.

كان القمر بدراً في ذلك المساء وعلى عوارض السقف امتدّ شعاع مضيء ملأ العليّة نوراً.

بعدما أوى غيّوم وغيّوميت إلى النوم، صعدت أخت الفقراء إلى حجرتها. في اللّيالي الحالكة، كانت تصاب أحياناً بالهلع لسماع أنين مفاجئ، أصوات يُخيّل لها أنّها وقع أقدام في حين لم تكن سوى طقطقات هيكل المنزل الخشبيّ وحفيف فئران تعدو مسرعة. لذلك كانت تكن حبّاً ولِعاً للكوكب الجميل الذي يرسل أشعّته لتبدّد مخاوفها. وفي اللّيالي التي يلتمع إبّانها في السماء، تفتح الكوّة وتخصّه بالذكر في صلواتها شاكرةً إيّاه على عودته لرؤيتها.

فرحت كثيراً حين وجدت النور يملأ حجرتها. كانت متعبة، وسوف ترقد في نوم هانئ، وصديقها القمر يحرسها. غالباً ما شعرت به في نومها يجول في غرفتها بصمت وهدوء، طارداً عنها أحلام ليالي الشتاء المخيفة.

أسرعت وركعت فوق صندوق قديم وسط النور الأشقر، وهناك رفعت صلواتها إلى الله. ثمّ اقتربت من السرير وفكّت تنّورتها.

حين انزلقت التنّورة أرضاً، خرج من جيبها سيلٌ من الفلوس السميكة. تسمّرت أخت الفقراء مذعورة وهي تتأمّلها تتدرحرج أرضاً.

انحنت، لملمتها واحداً واحداً برؤوس أصابعها وكدّستها على سطح الصندوق القديم، حتّى دون أن تحاول عدّها، لأنها لا تحسن العدّ سوى حتّى الرقم خمسين، وبدا واضحاً لها أنّ هناك المئات منها. وحين لم يعد هناك أيّ قطعة نقود على الأرض، رفعت تنّورتها، فأدركت من ثقلها أنّ الجيب لا يزال ممتلئاً. قضت ربع ساعة كاملاً تسحب حفنات من النقود، وهي تقول في سرّها إنّها لن تصل إلى قعر الجيب. وفي نهاية المطاف، لم تجد

أصابعها سوى قطعة نقديّة واحدة متبقّية. سحبتها وعرفتها على الفور: كانت الفلس الذي أعطتها إيّاه المتسوّلة في ذلك المساء.

قالت في سرّها إنّ الله قام بمعجزة، وإنّ هذا الفلس الرثّ الذي ازدرته كان فلساً مختلفاً عن كلّ ما يمكن أن يملكه الأثرياء. أحسّت به يرتعش بين أصابعها، على وشك أن يتضاعف من جديد. أخذت ترتجف، خوفاً من أن يخطر له أن يملأ العليّة بالثروات. فهي لا تدري أساساً ما يمكن أن تفعله بكوَم النقود الجديدة الملتمعة في نور القمر. نظرت حولَها مرتبكة.

كانت تحمل على الدوام في جيب مئزرها إبرة وخيطاً كثيراً ما تستخدمهما في عملها المتواصل. بحثت عن قطعة قماش قديمة لتخيط بها كيساً. جعلته ضيّقاً حتّى أنّها تكاد تعجز عن إدخال يدها الصغيرة فيه. لم يكن لديها الكثير من القماش، وفي مطلق الأحوال كانت على عجلة من أمرها. ثمّ بعدما أخفت فلس المرأة المسكينة في القعر، بدأت تضع في الكيس كومةً بعد كومةٍ النقود التي تغطّي سطح الصندوق. كلّ كومة تسقط داخل الكيس كانت تملأه، فيعود على الفور ويفرغ من جديد، إلى أن اتّسع بسهولة لمئات الفلوس. كان من الواضح أنّه يمكن أن يتّسع لأربعة أضعاف هذه الكميّة.

عندما انتهت أخت الفقراء، أخفت الكيس تحت الحصيرة وغفت منهكة. كانت تضحك في أحلامها حيث تتراءى لها كلّ الصدقات العظيمة التي سيكون بوسعها توزيعها في الغد.

3

حين استيقظت في الصباح، ظنّت أخت الفقراء أنّ ما حصل كان حلماً. لم تصدّق أنّه واقع إلّا عندما لمست كنزها. كان أثقل من اللّيلة

الماضية، فأدركت الطفلة أنّ الفلس العجيب واصل العمل خلال اللّيل.

ارتدت ملابسها على عجل ونزلت من عليّتها حاملةً قبقابيها الخشبيّين بيدها حتّى لا تحدث ضجيجاً. كانت أخفت الكيس تحت شالها، لصق صدرها. كان غيّوم وغيّوميت مستغرقين عميقاً في النوم ولم يسمعاها. كانت مضطرّة إلى العبور أمام سريرهما، وكادت تتعثّر وتسقط أرضاً من شدّة الخوف لدنوّها منهما إلى هذا الحدّ. ثمّ هُرِعت مسرعة، فتحت الباب على مصراعيه وهربت، غافلةً عن إقفاله خلفها.

كان الوقت شتاءً، في صبيحات كانون الأوّل الأشدّ برداً. لم يكد الفجر يطلع، وبدت السماء في ذلك النور الشاحب بلون الأرض المكسوّة بالثلج. بياض كونيّ يملأ الأفق باعثاً سكينة عميقة. كانت أخت الفقراء تمشي بخطىً حثيثة، سالكةً الدرب المؤدّي إلى المدينة. لم تكن تسمع سوى طقطقة قبقابيها في الثلج. وبالرغم من انشغال بالها، كانت تلهو في طريقها بالسير في أعمق الحُفَر.

مع اقترابها من المدينة، تذكّرت أنّها نسيت في تسرّعها أن تؤدّي صلاتها، فركعت عند حافّة الدرب. هناك، تائهةً وحيدةً وسط السكون العميق الحزين المنبثق من الطبيعة النائمة، رفعت دعاءها بذلك الصوت العذب الذي لا يمكن للخالق أن يميّز بينه وبين أصوات الملائكة. انتهت ونهضت مكمّلةً طريقها بخطى مسرعة وقد اخترقها البرد.

كان البؤس متفشّياً في البلد، وخصوصاً في تلك السنة بالذات، حيث كان الشتاء قاسياً والخبز باهظ الثمن حتّى أنّه بات حكراً على الأثرياء دون سواهم. أمّا المساكين، أولئك الذين يستمدّون قوتهم من الشمس والشفقة، فكانوا يخرجون منذ الصباح الباكر ليروا إن لم يكن الربيع قادماً، جالباً معه صدقات أكبر. يجوبون الطرقات أو يجلسون على الصُّوى

الحجريّة المزروعة على حافّتها عند أبواب المدن، يتوسّلون إلى المارّة. ففي عليّاتهم يخيّم برد شديد، حتّى أنّ من الأرحم لهم أن يسكنوا الدروب والعراء. وكانوا ينتشرون بأعداد غفيرة، تسمح بملء قرية كبيرة.

فتحت أخت الفقراء كيسها الصغير. لدى دخولها المدينة، رأت ضريراً ترشده فتاة صغيرة راحت تنظر إليها بعينين حزينتين، ظنّاً منها لدى رؤية ملابسها الرثّة أنّها راهبة.

«يا عمّ، قالت للشيخ المسكين، مدّ يديك، يسوع يرسلني إليك».

خاطبت الرجل لأنّ أصابع الفتاة الصغيرة اللّطيفة ما كانت لتتّسع لأكثر من عشرة فلوس عريضة. أمّا اليدان اللّتان مدّهما الضرير، فكانتا طويلتين وعريضتين، وتوجّب عليها أن تغرف سبع مرّات في كيسها لتملأهما. ثمّ قبل أن تبتعد، قالت للفتاة أن تأخذ حفنة أخيرة من النقود.

كانت متلهّفة للوصول إلى ساحة الكنيسة، قرب المقاعد الحجريّة حيث يتجمّع الفقراء في الصباح. فهم يجدون في بيت الله ملاذاً يقيهم الرياح الشماليّة. وعندما تطلع الشمس، يشعّ نورها مباشرةً على الرواق المسقوف عند مدخلها. لكنّها اضطرّت إلى التوقّف قبل ذلك. فعند زاوية أحد الأزقّة، وجدت امرأة شابّة لا شكّ أنّها قضت اللّيل هناك من شدّة ما كانت ترتعد برداً. مغمضةً عينيها، وذراعاها منكمشتان على صدرها، بدت نائمة، ورجاؤها الوحيد في الموت. وقفت أخت الفقراء أمامها، ويدها مليئة بالنقود، دون أن تدري كيف تعطيها صدَقتها. انهمرت دموعها، ظنّاً منها أنّها وصلت بعدما فات الأوان.

«يا سيّدتي الطيّبة، ردّدت وهي تلامس كتفها برفق، هيّا، خذي هذه النقود. يجدر بك الذهاب لتتناولي الفطور في النزل وتنامي أمام نار دافئة».

عند سماع هذا الصوت، فتحت المرأة المسكينة عينيها، مادّةً يديها. ربّما

كانت تظنّ أنّها لا تزال نائمة وتحلم بأنّ ملاكاً هبط من السماء وظهرَ لها.

سارعت أخت الفقراء إلى الساحة الرئيسيّة. وجدت فيها المتسوّلين يحتشدون في الرواق المسقوف، يترقّبون أوّل شعاع شمس. جالسين الواحد لصق الآخر في ظلّ تماثيل القدّيسين، كانوا يرتجفون من البرد لا يتبادلون أيّ كلام. يهزّون رؤوسهم ببطء يميناً ويساراً كمن يحتضر، ويتراصّون في الزوايا حتّى لا يهدروا ذرّة واحدة من نور الشمس حين تطلع.

بدأت أخت الفقراء من اليمين، وراحت ترمي حفنات من الفلوس في القبّعات والمآزر، وفي حماستها واندفاعها كان بعضها يسقط ويتدحرج على الأرض. لم تكن الفتاة العزيزة تعدّ الفلوس. وكان الكيس يصنع المعجزات، فلا يفرغ، بل ينتفخ ويمتلئ كلّما تناولت منه حفنة جديدة، فتنصبّ منه الفلوس وكأنّه طفح بها. بقي المتسوّلون المساكين مذهولين أمام هذه الزخّة البهيجة من النقود، وراحوا يلملمون الفلوس المتساقطة، دون اكتراث للشمس المشرقة، وهم يردّدون بلهفة «جزاكِ الله خيراً!» كانت الصدقات تتساقط بسخاء جعل بعض الشيوخ الطيّبين يظنّون أنّ القدّيسين المنحوتين من حجر كانوا ينثرون عليهم هذه الثروة، وهم ما زالوا على قناعتهم هذه حتّى اليوم.

كانت الفتاة تضحك لرؤية فرحهم. جالت عليهم ثلاث مرّات، حرصاً منها على توزيع مبالغ مماثلة على الجميع، ثمّ توقّفت، لا لأنّ الكيس الصغير قد فرغ، بل لأنّ لديها الكثير من المهمّات ينبغي إتمامها قبل المساء. وفيما كانت تهمّ بالرحيل، لمحت في إحدى الزوايا شيخاً مُقعداً لم يكن في مقدوره الاقتراب منها فمدّ لها يده من مكانه. عصر قلبها حين تنبّهت إلى أنّها لم تلاحظه، فتقدّمت وقلبت الكيس لتعطيه المزيد، فراحت الفلوس

تنهمر من الصرّة العجيبة تدفّق المياه من نبع، بغزارة لا تنضب. ولو لم تغلق أخت الفقراء بعد قليل فتحة الكيس بقبضتها، لكانت الكومة ارتفعت في لحظات حتّى قبّة الكنيسة. لم يكن العجوز المسكين يدري ما يفعل بكلّ هذه النقود، ربّما يأتي الأثرياء ويسرقونها منه.

4

بعدما امتلأت جيوب الجميع في الساحة، سارت الفتاة نحو البلدات المجاورة. راح المتسوّلون يتبعونها، دون أن يخطر لهم أن ينصرفوا إلى التخفيف من معاناتهم. كانوا ينظرون إليها بدهشة وإجلال، وقد طغت عليهم مشاعر أخوّة جارفة. كانت تسير في مقدّمهم، وحيدة، وهي تقلّب النظر من حولها، والحشد يتبعها.

لا شكّ أنّ الطفلة في ثيابها البالية الممزّقة كانت فعلاً أخت المساكين الذين يتبعونها. شقيقتهم بأسمالها، وشقيقتهم بشفقتها وحنوّها. كانت هناك وسط عائلتها، تغدق على أشقّائها وتنسى نفسها. تتقدّم رصينةً بكلّ ما في قدميها الصغيرتين من قوّة، سعيدة بلعب دور فتاة كبيرة، وكانت الصغيرة الشقراء بنت العشر سنواتٍ تشعّ بجلال ساذج طيّب، يتبعها موكبها من العُجَّز.

ذهبت من قرية إلى أخرى حاملةً بيدها صرّتها الضيّقة، لتوزّع الصدقات على تلك النواحي برمّتها. سارت أمامها دون أن تختار الطرقات، سالكةً دروب السهول وممرّات سفوح التلال. أحياناً كانت تنحرف عن الطريق وتعبر الحقول لترى إن لم يكن مشرّدٌ وجدَ ملجأ عند أسفل سياج، أو في قعر حفرة. تنتصب بأعلى قامتها وتنظر إلى الأفق، وفي نفسها حسرة لعدم تمكّنها من التخفيف عن كلّ بؤس البلاد. تتنهّد

إذ يخطر لها أنّها ربّما غفلت عن معاناة ما، وهذا الخوف يدفعها أحياناً للعودة أدراجها لتفقّدِ غَيضة تاهت عنها. وكان الموكب يلحق بها في كلّ تعرّجاتها، سواء أبطأت سيرها عند منعطف طريق، أو اندفعت لملاقاة محتاج.

وفيما كانت تعبر حقلاً، حطّ أمامها سرب من عصافير الدوريّ. راحت العصافير الصغيرة المسكينة تغرّد بصوت يفطر القلب، تائهة في الثلج، ملتمسة قوتاً بحثت عنه دون جدوى. توقّفت أخت الفقراء، مصعوقة لملاقاتها بؤساء لا يمكن لفلوسها السمينة أن تسعفهم بأيّ من الأحوال. نظرت حانقة إلى صرّتها، وهي تلعن هذه النقود التي تتمنّع عن الإحسان. غير أنّ الطيور أحاطت بها، متذرّعة بأنّها من العائلة ومطالبة بحصّتها من الثروات. كادت تنفجر بالبكاء وهي واقفة لا تدري ما تفعل، غير أنّه لم يكن بوسعها صرف الطيور دون صدقة، فغرفت من الكيس حفنة نقود. لا شكّ أنّ الطفلة العزيزة فقدت صوابها وتصوّرت أنّ الفلوس نقود متداولة بين طيور الدوريّ، وأنّ مخلوقات الله هذه لديها طحّانون يطحنون لها القمح وخبّازون يخبزون لها قوتها اليوميّ. لست أدري بالضبط ما كانت نيّتها، لكن ما ظهر جليّاً للجميع أنّ حفنة النقود التي رمتها صدقة للطيور سقطت أرضاً حفنة قمح.

لم تُبدِ أخت الفقراء أيّ دهشة. أقامت وليمة حقيقيّة للعصافير، مقدّمةً لها الحبوب على أنواعها وبكميّة وافية، حتّى أنّ الحقل اكتسى عند الربيع بعشب كثّ وعالٍ مثل غابة. ومنذ ذلك الحين، تستوطن طيور السماء تلك البقعة من الأرض، فتجد فيها في جميع الفصول قوتاً وفيراً يكفي للآلاف منها التي تقصدها من كلّ حدب وصوب.

أكملت أخت الفقراء طريقها، مسرورة بقدراتها الجديدة. لم تعد

تكتفي بتوزيع الفلوس، بل أخذت توزّع على هوى لقاءاتها قمصاناً دافئة جميلة، وتنانير صوفيّة سميكة، وأحذية خفيفة وصلبة لا تكاد تزن أوقية غير أنّها تحتّ الحصى. كلّ ذلك كان ينبثق من مصنع مجهول. فالأقمشة رائعة بمتانتها ومرونتها، والدرزات مشكوكة بدقّة غير متناهية، حتّى أنّ كلّ ثقب تحدثه إبرة من هذه الدنيا يمكن أن تجد فيه الإبَر السحريّة متّسعاً لثلاث من قُطَبها. ومن أوجه العجب أيضاً أنّ كلّ ثوب كان يتّخذ مقاس الفقير الذي يرتديه. لا شكّ أنّ ساحرات طيّبات أقمن مشغلاً في قعر الصرّة، وجلبن معهنّ المقصّ الذهبيّ البارع الذي يقصّ عشرة قمصان ملائكة في ورقة ورد. كانت تلك الملابس بالتأكيد من صنع سماويّ، من شدّة ما كانت بارعة التفصيل ورشيقة الخياطة.

لم تكن الصرّة الصغيرة تتباهى بإنجازاتها. كانت أطرافها بالية بعض الشيء، ويد أخت الفقراء قد تكون وسّعتها قليلاً، حتّى بات الكيس ربّما بوسع وكرَي عصافير. لا بدّ أن أشرح لكِ حتّى لا تتّهميني يا نينون بالكذب كيف كانت تخرج منه الملابس الواسعة كالتنانير والمعاطف البالغ عرضها أربعة أمتار أو خمسة. الحقيقة أنّها كانت مطويّة في داخله مثل بتلات زهرة خشخاش لم تتفتّح بعد. وهي مطويّة بمنتهى الفنّ والمهارة بحيث لا يكاد حجمها يتخطّى حجمَ براعم هذه الزهور. فكانت أخت الفقراء تلتقط الحزمة بين إصبعين وتنفضها بلطف، فينْفرش القماش ويطول ويعرض ليتحوّل إلى رداء، رداء يكسو كتفين عريضتين وليس رداءً مصنوعاً للملائكة. أمّا الأحذية، فلم أتوصّل حتّى اليوم لمعرفة الشكل الذي كانت تخرج به من الصرّة، لكنّني سمعت، دون أن أستطيع أن أجزم، أنّ كلّ زوج أحذية كان محفوظاً داخل حبّة فول تنفجر عندما تلامس الأرض. كلّ ذلك بالطبع، بمعزل عن حفنات الفلوس التي

كانت تتساقط بغزارة مثل زخّة مطر شتائيّ.

واصلت أخت الفقراء سيرها. لم تكن تشعر بأيّ تعب، رغم أنّها عبرت حوالى ثمانين كيلومتراً منذ الصباح، دون أن تأكل أو تشرب. كانت تمضي عابرةً على حافّة الطرقات، لا تكاد تترك خلفها أثراً، وكأنّ جناحين خفيّين يحملانها. شوهدت في ذلك اليوم في جميع أنحاء البلاد. ما من زاوية في تلك الناحية بسهولها وجبالها إلّا وكانت تحمل أثر قدميها الصغيرتين مطبوعاً بخفّة على الثلج. حقّاً، لو خطر لغيّوم وغيّوميت أن يطارداها، لكان توجّب عليهما أن يركضا أسبوعاً كاملاً قبل أن يصلا إليها، لا لأنّ الطرقات التي تسلكها يصعب تبيانها، فهي تترك خلفها حشوداً غفيرة متجمّعة، مثل الملوك حين يعبرون، بل لأنّها كانت تمشي بخفّة وحيويّة. هي نفسها ما كانت ستستطيع في ظروف أخرى قطع هذه المسافة في أقلّ من ستّة أسابيع كاملة.

راح موكبها يضخم ويطول قرية بعد قرية. جميع الذين كانت تساعدهم كانوا يسيرون في أثرها، إلى أن بات الحشد خلفها في المساء يمتدّ مئات الأمتار. مبرّاتها هي التي كانت تواكبها. لم يمْثل يوماً قدّيس أمام ربّه بمثل هذا الموكب الملكيّ.

بدأ المساء يهبط، وأخت الفقراء لا تزال تمشي، والكيس الصغير لا يعرف الكلل. أخيراً، توقّفت الطفلة عند قمّة تلّة. شخصت متأمّلةً السهول التي أغدقت عليها بالثروات، وأسمالها تلوح سوداء وسط الشفق الناصع. تحلّق المتسوّلون حولها، يتحرّكون في كتل ضخمة داكنة تعبرها ارتعاشة الحشود المكدودة. ثمّ خيّم الصمت. وقفت أخت الفقراء تبتسم متعالية في السماء، وعند قدميها شعب غفير. واقفةً على قمّة التلّة، وقد نضجت وعظمت كثيراً منذ الصباح، رفعت يدها إلى السماء وقالت

لشعبها:

«احمدوا يسوع المسيح! احمدوا مريم العذراء!»

وسمع شعبها برمّته صوتها العذب.

5

كان الوقت متأخّراً جدّاً حين عادت أخت الفقراء إلى البيت. غيّوم وغيّوميت أخلدا إلى النوم، بعدما أعياهما الغضب وأنهكهما التوعّد. دخلت من باب الزريبة الذي لم يكن يُغلق سوى بالمزلاج وانسلّت مسرعة إلى عليّتها، حيث وجدت صديقها القمر باهراً مرحاً وكأنّه على عِلم بما حمله هذا النهار الرائع. غالباً ما تشكرنا السماء على هذا النحو، بإرسال أشعّة أكثر إشراقاً.

كانت الطفلة بحاجة ماسّة إلى الراحة. لكن قبل أن تذهب إلى السرير، أرادت أن ترى مرّة جديدة فلسها العجائبيّ، ذلك الفلس الراقد في قعر الصرّة. فهو واصل العمل بكدّ وأنجز الكثير، فيستحقّ فعلاً قبلة. جلست على الصندوق وبدأت بإفراغ الصرّة، واضعةً حفنات النقود عند قدميها. حاولت على مدى ربع ساعةٍ الوصول إلى القعر، وحين بلغت كومة النقود ركبتيها، فقدت الأمل. بدا واضحاً أنّها سوف تملأ العليّة دون أن تحقّق ما تريده. احتارت بالأمر، ولم يكن منها إلّا أن قلبت الكيس في حركة سريعة. انهار شلّال عارم من الفلوس العريضة ملأ العليّة دفعة واحدة حتّى ثلاثة أرباعها. كان الكيس فارغاً.

استيقظ غيّوم على هذا الضجيج. لو انهارت أرضيّة المنزل، لما كان صخبها أيقظ الرجل من نومه. لكنّ رنين فلس واحد يسقط على البلاط كان كفيلاً بحمله على فتح عينيه. هزّ غيّوميت.

«استيقظي يا امرأة! قال. هل تسمعين؟»

وحين أخذت المرأة العجوز تلجلج وتتمتم متنكّدة، تابع:

«عادت الفتاة. أعتقد أنّها سلبت أحد المارّة، لأنّني أسمع في الأعلى رنين صرّة كبيرة».

قعدت غيّوميت في السرير، وقد استيقظت تماماً وتوقّفت عن الهمهمة.

«كنتُ واثقة من أنّ هذه البنت فاسدة».

ثمّ تابعت: «سوف أشتري لنفسي قبّعة بشرائط وحذاء من النسيج السميك الفاخر. سوف أتبختر باعتزاز يوم الأحد».

نهض الاثنان وصعدا إلى العليّة شبه عاريين، غيّوم في المقدّم وغيّوميت تحمل المصباح. كان ظلّاهما يتطاولان هزيلين على الجدارن حيث يرسمان أشكالاً عجيبة.

حين وصلا إلى أعلى السلالم، توقّفا مصعوقَين. على الأرض تمتدّ طبقة من النقود ترتفع على علوّ متر وتكسو جميع الزوايا دون أن يظهر شبر واحد من الأرض العارية، فيما ترتفع هنا وهناك أكوام عالية وكأنها أمواج ذلك البحر من الفلوس. وفي الوسط، بين تلّتين، كانت أخت الفقراء نائمة في بقعة من نور القمر، حيث غلبها النعاس ولم تقوَ على الوصول إلى فراشها فتمدّدت بهدوء. راقدةً على هذه الطبقة من الصدقات، كانت تحلم بالسماء كاتفةً ذراعيها على صدرها، ويدها اليمنى مطبقة على هديّة المتسوّلة العجيبة. كان نفَسها الخافت الساكن يُسمع في الصمت المخيّم، والكوكب الحبيب يتمرأى في القطَع النقديّة الجديدة ويشعّ حولها هي ليحيطها بهالة ذهبيّة.

كان غيّوم وغيّوميت شخصين بسيطين عمليّين لا يستسلمان طويلاً

للدهشة. كانت تلك المعجزة لصالحهما ولم يبحثان كثيراً عن مبرّرات لها، غير آبهَين إن كانت من فعل الله أم الشيطان. وبعدما غمرا بنظرهما الكنز محاولَين تقدير قيمته، أرادا التحقّق من أنّه ليس مجرّد سراب وليد الظلال ونور القمر، فانحنيا بنهم فاتحَين يديهما.

ما حصل عندها أمرٌ غريبٌ يصعب تصديقه، حتّى أنّني أتردّد في نقله. لم يكد غيّوم يطبق على حفنة من النقود حتّى تحوّلت الفلوس إلى وطاويط ضخمة. فكّ أصابعه عنها مذعوراً فأفلتت الحيوانات القميئة وهي تطلق صيحات حادّة وتضربه في وجهه بأجنحتها السوداء الطويلة. غيّوميت من جانبها غرفت فرقة من الجرذان الصغار راحت تعضّها بضراوة بأسنانها المستدقّة البيضاء، وهي تفرّ منحدرة على ساقيها. كاد قلب المرأة العجوز يتوقّف عندما أحسّت بها تسري تحت ملابسها، وهي التي يغمى عليها لرؤية فأرة.

انتصبا بقامتهما دون أن يجرؤا على المسّ بهذه النقود اللّمّاعة المظهر الكريهة الملمس. كانا يحدّقان أحدهما بالآخر بارتباك، غير مرتاحَين للوضع، كلّ منهما مشجّعاً الآخر بتلك النظرات الحائرة ما بين الضحك والحنق مثل نظرات طفل أحرقت أصابعه للتوّ قطعة حلوى ساخنة. كانت غيّوميت الأضعف بينهما في مقاومة الإغراء، فمدّت ذراعيها النحيلتين والتقطت حفنتين جديدتين من النقود. لكن حين أطبقت قبضتيها وشدّت حتّى لا تدع أيّ فلس يتسرّب منهما، أطلقت صيحة ألم مدوّية. الحقيقة أنّها أمسكت بحفنتين من الإبر الطويلة الثاقبة جعلت أصابعها وكأنّها خيطت على راحتيها. حين رآها غيّوم تنحني، أراد التقاط حصّته أيضاً من الغنيمة، فسارع إلى الانحناء بدوره لكنّه لم يجد في قبضتيه سوى حفنتين سخيّتين من الجمر الملتهب الذي كوى يديه.

آنئذٍ أعماهما الغضب من شدّة ألمهما، فانقضّا على النقود وراحا ينبشان الأكوام ويقلبانها، سعياً لكسب معجزة السرعة المستحيلة. لكنّ الفلوس السمينة لم تكن لتدعهما يباغتانها. كانت ما إن يمسّانها حتّى تتطاير جراداً، أو تزحف ثعابين، أو تسيل مياهاً ساخنة، أو تتبخّر دخاناً. تتخّذ أيّ شكل يحلو لها ولا تتوارى دون أن تكون تركت للسارقَين لسعة أو لدغة.

أظهرت النقود خصوبة مرعبة، سرعة لا تصدّق في التحوّل وتوليد كائنات مختلفة لا تعدّ ولا تحصى، حتّى خيّم رعب لا يوصف. العلاجيم الطائرة والأبوام والخفافيش مصّاصة الدماء والفراشات اللّيليّة، جميعها تتهافت وتتدافع من الكوّة مرفرفةً، فتُفلت وتطير أسراباً ورفوفاً. العقارب والعناكب وجميع الدويبات القبيحة من سكّان النواحي الرطبة سرحت إلى الزوايا في صفوف طويلة هلعة. لم تكن العليّة على تفسّخاتها الكثيرة توفّر لها ما يكفيها من ثقوب، فراحت تدبّ ويسحق بعضها البعض لتنسلّ في الشقوق.

جُنّ جنون غيّوم وغيّوميت من شدّة فزعهما. كانا يُهرَعان في جميع الاتّجاهات، وقد جرفتهما دوّامة هذا الخلق العجيب. وأنّى ذهبا، كانا يسرّعان تفتّح كائنات جديدة يميناً ويساراً ومن كلّ صوب. كانت الحياة تتدفّق من أصابعهما والسيل الحيّ يتصاعد. الكنز الذي كان القمر يتمرأى فيه منذ قليل، لم يعد سوى كتلة قاتمة تتحرّك متثاقلة متبالدة، تعلو وتهبط كمثْل الخمر في الوعاء.

بعد برهة، لم يبق فلس واحد. الكومة برمّتها دبّت فيها الحياة. وحين أيقن غيّوم وغيّوميت أنّهما لم يعودا يلتقطان سوى زواحف، فرّا وهما يقذفان أحدهما في وجه الآخر حفنة من الأفاعي.

فرغت العليّة وكأنّهما حملا معهما في الحفنتين الأخيرتين جميع المسوخ

والكائنات الشنيعة. كانت أخت الفقراء مستغرقة في نوم عميق، هانئة مبتسمة، ولم يصلها صوت.

6

عندما استيقظت أخت الفقراء، شعرت بضميرها يؤنّبها. قالت في سرّها إنّها ذهبت بعيداً جدّاً بحثاً عن البؤس في جميع أنحاء البلاد، ولم يخطر لها أن تريح عمّها وعمّتها من عوزهما.

كانت الطفلة العزيزة تعطف على كلّ من يعاني. الفقير بنظرها فقير فحسب، قبل أن يكون طيّباً أو شرّيراً. لم تكن تميّز بين دمعة وأخرى، وهي على قناعة بأنّ مهمّتها لا تقضي بتوزيع الثواب والعقاب، بل بمسح الدموع. لم يكن لديها مفهوم واضح للعدالة في عقلها الصغير، عقل بنتِ عشر سنوات. كانت رحمة خالصة، محبّة وبرّاً. حين تفكّر في الملعونين في الجحيم، يفيض قلبها شفقة لا تكنّها لأيّ من أرواح سكّان المطهر.

قال لها أحد ذات يوم إنّ ذاك الفقير لا يستحقّ الخبز الذي تقدّمه له، فلم تفهم هذا الكلام. لم تكن تشاء أن تصدّق أنّ الجوع لا يكفي حتّى يأكل الإنسان.

تناولت أخت الفقراء صرّتها، عازمة على التعويض عن سهوها، وذهبت على وجه السرعة لشراء قطعة أرض ملاصقة لكوخ عمّها وعمّتها، دفعت ثمنها بنقود جديدة لمّاعة. كما اشترت ثورين فرْوتاهما بيضاوان وصهباوان، ووبرهما لمّاع كالحرير. ولم تنس المحراث. ثمّ استأجرت خدمات عامل مزرعة كلّفته أن يقود الثورين والعربة إلى حافّة الحقل، عند باب الكوخ. وفي هذه الأثناء، جمعت من المدينة كميّات من المؤن على أنواعها: أغصان كروم تشتعل وتبعث ناراً دافئة صافية،

وطحين ناعم فاخر، ولحوم محفوظة، وبقول. استعانت بثلاث عربات كانت تتبعها، فيما هي تنتقل من دكّان إلى آخر، فتحمّلها بكلّ ما تراه ضرورياً لعائلة. كانت تعرب في إنفاقها نقود السماء عن حكمة راشدين مدهشة، فلا تشتري ما ليس مجدياً كما يمكن توقّعه من طفلة في سنّها، بل جمعت قطع أثاث متينة وأنسجة قطنيّة وقدوراً نحاسيّة. باختصار، كلّ ما تتمنّاه ربّة منزل ثلاثينيّة في أحلامها.

حين طفحت العربات الثلاث، جاءت بها وركنتها قرب الثورين والمحراث. عندها تنبّهت إلى أنّ الكوخ حقير جدّاً ولا يتّسع لكلّ هذه الثروات. حزنت لعدم إمكان شراء مزرعة، ليس لافتقارها إلى المال الكافي، بل لأنّ هذه الناحية من البلاد لا مزارع فيها على الاطلاق. قرّرت أن تستدعي البنّائين وتطلب منهم بناء مسكن فسيح في موقع الكوخ الفقير نفسه. لكن في الانتظار، وبما أنّها كانت على عجلة من أمرها، اكتفت بسكب بضع كوَم من النقود على الأرض أمام العربات من أجل تغطية نفقات بناء المنزل.

عملت بانهماك حتّى أنجزت كلّ هذه المهامّ في أقلّ من ساعة. كان غيّوم وغيّوميت لا يزالان نائمين، ولم يسمعا صرير الدواليب ولا أزيز سوط عامل المزرعة.

عندها اقتربت أخت الفقراء من الباب، وعلى شفتيها ابتسامة حاذقة. فهي تبدي أحياناً نوعاً من المكْر تستمدّه من فرح الإحسان. فقد أسرعت في تحضيراتها لأنّها أرادت أن تباغت عمّها وعمّتها، وكانت في منتهى السعادة لأنها انتهت قبل أن يستيقظا.

ألقت نظرة أخيرة إلى مشترياتها، ثمّ أخذت تصيح وهي تصفّق بأقوى ما يمكنها:

«عمّي غيّوم! عمّتي غيّوميت!»

بقي العجوزان بلا حراك، فضربت بقبضتها على ألواح الستار الخشبيّ المتداعي وهي تنده بصوت أعلى:

«عمّي غيّوم، عمّتي غيّوميت، افتحا الباب، أسرعا، الثروة تطلب الدخول!»

سمع غيّوم وغيّوميت هذا الكلام في نومهما، فوثبا من السرير حتّى قبل أن يستيقظا. كانت أخت الفقراء لا تزال تصيح وتصرخ حين أطلّا من المدخل وهما يتدافعان ويفركان عينيهما ليبصرا بوضوح. وفي عجلتهما ارتدى غيّوم التنّورة ووضعت غيّوميت البنطال، لكنّهما لم يتنبّها لشيء، إذ ذُهِلا بما وجداه. كانت تلال النقود ترتفع مثل أكوام من التبن أمام العربات الثلاث المتألّقة بحمولتها، والقدور وقطع الأثاث من خشب السنديان مصفوفة فيها على الثلج الناصع. كان الثوران ينفثان بقوّة في الريح الصباحية الباردة. وبدت شفرة المحراث فضيّة تلتمع في أشعّة الشمس المشرقة.

تقدّم عامل المزرعة وقال لغيّوم:

«معلّمي، إلى أين أقود الثورين؟ ليس الموسم موسم حراثة، لكن لا تخَف: حقولك مزروعة وسوف تجني موسماً وفيراً».

وفي هذه الأثناء، تقدّم سائقو العربات نحو غيّوميت.

«سيّدتي الفاضلة، قالوا، إليك أغراض المنزل ومؤن الشتاء. قولي لنا أين يترتّب علينا تفريغ العربات، لكن أسرعي لأنّ النهار يكاد لا يكفي لنُدخل إلى المنزل كلّ هذه الكنوز».

وقف العجوزان مشدوهين من غير أن يدريا ما يمكن قوله. كانا ينظران برهبة إلى هذه الكنوز التي لا يعرفانها، ويفكّران في الفلوس

اللّعينة التي أبدت أقصى الشراسة في التلاعب بها الليلة الماضية. كانت أخت الفقراء تجد متعة في مراقبة التعابير الغريبة على وجهيهما، مختبئة في إحدى الزوايا. لم تكن ترغب في الثأر لقلّة رفقهما بها في تعاستها. لم يسبق للطفلة المسكينة في حياتها أن ضحكت بهذا القدر. أؤكّد لكِ أنّك أنتِ نفسكِ يا صديقتي لو كنتِ هناك لكنتِ ضحكت مثلها لرؤية غيّوم في تنّورة وغيّوميت في بنطال، لا يدريان ما إذا كان عليهما أن يفرحا أو يبكيا، وعلى ملامحهما أطرف تكشيرة يمكن أن تصادفيها.

حين رأت أخت الفقراء أنّهما على وشك الدخول وإغلاق الباب والنافذة، خرجت أخيراً من مخبئها، وبادرت عامل المزرعة وسائقي العربات بالقول:

«يا أصدقائي، أدخِلوا كلّ هذا إلى الكوخ. لا تخشوا أن تملأوا الغرف حتّى السقف. لم أفكّر في ضيق المنزل وأسرفت في الشراء حتّى بات يلزمنا الآن قصر. لكن إليكم المال للبنّائين».

كانت تقول ذلك حتّى يسمعها عمّها وعمّتها، لأنّها كانت تعتقد وبحقّ أنّها ستطمئنهما إن هي شرحت لهما أنّها هي الجنيّة الطيّبة التي تقدّم لهما هذه الهدايا. كان غيّوم وغيّوميت عازمين منذ المساء على تلقينها درساً لمعاقبتها على مغادرة المنزل طوال النهار. لكن حين سمعا كلامها، حين شاهدا العمال يصفّون قطع الأثاث والمؤن عند بابهما، نظرا إليها وانهارا باكيين دون أن يعلما السبب. شعرا وكأنّ يداً خفيّة تعصر صدريهما. وقفا مسمّرين والغصّة تخنقهما، لا يدريان ما يفعلان، وقد غمرهما تأثّر لم يعرفاه من قبل. أدركا فجأةً أنّهما يحبّان أخت الفقراء. أثلجت هذه الفكرة صدرَيهما، فأخذا يضحكان وسط دموعهما وهرعا لمعانقتها.

7

انقضى عامٌ، وصار غيّوم وغيّوميت أغنى مزارعَين في البلاد. يملكان مزرعة جديدة شاسعة، وحقولهما تمتدّ أميالاً وأميالاً، حتّى أنّ الأفق برمّته لا يكفي لاحتوائها. حين تخلّى غيّوم وغيّوميت عن لؤمهما وتحوّلا إلى شخصين طيّبين، رفض بعضهم أن يصدّقوا ذلك. غير أنّ ذلك التحوّل كان حقيقيّاً. فحين لم يعد عمّ أخت الفقراء وعمّتها يعانيان من البرد والجوع، استعادا ما كانا عليه في الماضي من طيبة قلب. ومن شدّة ما بكيا، شعرا بالأخوّة مع البؤساء فأغدقا عليهم دون أيّ أنانيّة.

الدموع خير مُرشد، هذا ما تعلّمتُه. لكن إن كانت غيّوميت انصرفت عن الدنتيل، وإن كان غيّوم أقلع عن الشرب مفضّلاً الانهاك في العمل، فإنّني على قناعة بأنّ النقود تلك كانت تخبّئ في سرّها فضيلة ساعدت على تحقيق المعجزة. فهي ليست كأيّ فلوس أخرى، تقبل بأن تسدّد نفقات مساوئ، بل كانت تتمنّع عن القلوب الشريرة وتعلّم مالكيها الخير والإحسان بإرشادها يد الشرفاء الذين يملكونها.

كان غيّوم وغيّوميت يقبّلان أخت الفقراء ويغنّجانها من الصباح إلى المساء. في الأيّام الأولى، حرصا على تجنيبها أيّ تعب، فكانا يستاءان ما إن تتحدّث عن عمل تريد القيام به. بدا جليّاً أنّهما يتمنّيان أن يجعلا منها آنسة راقية ذات يدين بيضاوين منمنمتين تصلحان لربط أشرطة. «اعتدّي بنفسك، كانا يردّدان لها كلّ صباح، ولا تكترثي لشيء». لكنّ الفتاة لم تكن لترضى بذلك. لكانت ماتت من الحزن لو بقيت جالسة طوال النهار تتأمّل الغيوم تعبر السماء دون أن تفعل شيئاً. لم تكن تفرح بثرواتها بقدر ما تفرح بتلميع أثاثها الخشبيّ وخياطة شراشفها من القماش القطنيّ الفاخر. كانت تجد متعتها أنّى شاءت وتجيب عمّها وعمّتها: «فلتَدَعاني،

لديّ ملابس دافئة ولا حاجة لي إلى الدنتيل الرقيق. إنّني أفضّل الأعمال المنزليّة على الاهتمام بملابسي وبمظهري».

كانت تقول ذلك بكثير من التعقّل، ما جعل غيّوم وغيّوميت يدركان أنّها على قدر كبير من الحكمة. توقّفا عن معاكستها في ما تحبّ. عندها أصبحت حياتها عيداً متواصلاً. عادت تستيقظ كلّ صباح في الخامسة كما في الماضي، وتكفّلت بالمهامّ المنزليّة. لم تكن تكنس وتغسل كما كانت تفعل في زمن الفقر والعوز، فصيانة منزل كبير كهذا والحفاظ على نظافته كانا يقتضيان مجهوداً يفوق قدرتها. لكنّها تولّت الإشراف على الخادمات. لم تكن تبدي أيّ خجل في مساعدتهنّ على الاهتمام بالأبقار والدواجن. كانت بحقّ أكثر الفتيات ثراءً في المنطقة وأكثرهنّ نشاطاً في آن. كان الجميع يلاحظون بإعجاب أنّها قلّما تغيّرت بعدما أصبحت تملك مزرعة كبيرة. وجنتاها أصبحتا أكثر تورّداً وباتت تعمل بمزيد من الفرح والاندفاع، هذا كلّ ما في الأمر. غالباً ما كانت تقول: «أيّها البؤس الطيّب، علّمتني كيف أكون ثريّة!».

كان فكرها يفوق سنّها، وهذا ما يحزنها أحياناً. لست أدري كيف اكتشفت أنّ فلوسها لم تعد تفيدها كثيراً. فالحقول تمنحها الخبز والخمر والزيت والخضار والفاكهة. والقطعان تؤمّن لها الصوف لحياكة ملابسها واللّحوم تقتات هي منها. كلّ ما كانت بحاجة إليه تستمدّه من حولها، وما تنتجه المزرعة كان أكثر من كافٍ لتلبية احتياجاتها واحتياجات ذويها. حتّى حصّة الفقراء كانت سخيّة، لأنّها لم تعد تتصدّق بالمال، بل تقدّم اللّحوم والطحين والحطب والنسيج والأقمشة. وكانت تعطي بحكمة، فتقدّم للفقراء ما هي واثقة من أنّهم بحاجة إليه، حتّى لا ينساقوا إلى إساءة استخدام نقود الصدقة.

وسط هذه الوفرة من الخيرات، كانت تلّة من النقود ترقد في العليّة. وكانت أخت الفقراء تأسف لرؤيتها تحتلّ مكان عشرين إلى ثلاثين كومة تبن. هي تفضّل ذلك التبن الذي يكافئ العمل، على نقود تتكدّس دون جدوى. فباتت تشعر يوماً بعد يوم بازدراء عميق لهذا الصنف من الثروات، ثروات تصلح لأن ترقد هامدةً في خزنات البخلاء أو أن تفنى بين أيدي تجّار المدن[1].

سئمت تلك الثروة وغمّها، إلى أن قرّرت ذات صباح أن تخفيها. كانت احتفظت بالصرّة التي تلتهم النقود بسهولة مذهلة، فأدّى الكيس الصغير واجبه على أتمّ وجه ونظّف العليّة بالكامل. غير أنّ أخت الفقراء تصرّفت بمنتهى الحذق، فلم تضع فلس المتسوّلة في قعر الصرّة، بحيث أنّ المال ولّى بشكل نهائيّ دون أن يتمكّن من العودة إن خطر له ذلك.

هكذا حرصت أخت الفقراء على ألّا تصبح أثرى ممّا ينبغي، حادسةً في ذلك خطراً على القلب. وهبت تدريجيّاً قسماً من أراضيها التي كانت أوسع ممّا هو ضروريّ لتعتاش منها عائلة. وضبطت مداخيلها لتكون بمستوى حاجاتها. رغم ذلك، وبما أنّ المزرعة لم تكن تفتقر إلى الأذرع القويّة للعمل فيها، كانت الأموال تتكدّس أحياناً في العليّة رغماً عن أخت الفقراء، فتصعد إليها سرّاً وتتخلّص من النقود قدرما تشاء.

---

(1) «الثروة الصالحة»، المقبولة من وجهة نظر أخلاقيّة، ينبغي أن تأتي من العمل، وعلى الأخصّ من الزراعة (المناطق الزراعيّة كانت تحتلّ ثلاثة أرباع مساحة فرنسا في زمن زولا)، بحسب النظريّة الاقتصاديّة التقليديّة التي تطرح قبل أيّ شيء مسألة «اكتساب» الثروات. وبذلك تتحوّل قصّة «أخت الفقراء» الى ما يشبه بحثاً في الاقتصاد المثاليّ، وتشهد على هاجس تراكم الرساميل والمضاربة، وهو موضوع سيشكّل محور النقد السياسيّ والاجتماعيّ في سلسلة زولا الروائيّة «آل روغون ماكار»، ولا سيّما في روايتَيه «الجشع» *La Curée* و«المال» *L'Argent* حيث نجد أسطورة تراكم الثروات الطائلة وصورة «تلّة الذهب»...

ولضمان تحقيق رغبتها، احتفظت طوال حياتها بالصرّة السحريّة التي كانت تهب بسخاءٍ في أوقات اليأس، وتأخذ بنهم في أوقات البحبوحة.

كان هناك مسألة أخرى تشغل بال أخت الفقراء. كانت هديّة المتسوّلة تربكها. فهي تهاب السلطة التي تمنحها إيّاها. وبالرغم من أنّها لم تكن تشكّ في نفسها، كانت هي تجد سعادتها في الوداعة أكثر ممّا في السلطة. كانت سترمي الفلس بلا أسف في النهر، لو لم تكن تخشى أن يعثر عليه أحد الأشرار وسط الرمال ويستخدمه بشكل يُلحق الأذى بمن حولَه. فلو استخدم للأذيّة نصف الأموال التي أنفقتها هي لصنع الخير، لكان من المؤكّد أنّه سيأتي بالهلاك لهذه البلاد. عندها فهمت لماذا انتظرت المتسوّلة طويلاً قبل أن تهب صدقتها. فهذه هديّة يمكن أن تجلب السعادة إلى قوم، أو تحمل لهم اليأس، الأمر يتوقّف على اليد التي تتلقّاها.

احتفظت إذاً بفلسها. وبما أنّه كان مثقوباً، علّقته في شريط حول عنقها حتّى لا تفقده. لكنّ الإحساس بوجوده فوق صدرها كان يكدّرها. كانت ستفعل المستحيل لتعثر على المرأة المسكينة من جديد. وكانت ستتوسّل إليها أن تستعيد هذه الوديعة وتتركها تعيش حياة فتاة طيّبة لا تصنع من المعجزات سوى معجزات العمل الجادّ والطباع المرحة. ففي هذه الهديّة عبء أثقل من أن يمكن الاحتفاظ بها طويلاً.

بعدما بحثت طويلاً عن المرأة دون جدوى، فقدت الأمل في العثور عليها يوماً.

وذات مساء، كانت تعبر أمام الكنيسة، فدخلت تصلّي. ذهبت إلى آخِرها، قاصدةً مصلّى صغيراً تحبّ فيه الظلمة والصمت. فالزجاج المعشّق الأزرق القاتم يضيء مثل نور القمر، والقبّة الخفيضة لا تحدث صدًى. لكن في ذلكِ المساء، بدا لها المصلّى الصغير في مهرجان. فكان

شعاع نورٍ تائهٍ يعبر الممرّ في وسطه وينسكب على المذبح المتواضع، مضيئاً وسط الظلمة الإطار الذهبيّ للوحة قديمة معلّقة هناك.

جاثمةً على ركبتيها على الأرض الحجريّة العارية، شردتْ أخت الفقراء للحظة، متأمّلةً تألّق الشمس الغاربة في وداعها الرائع لهذا الإطار الذي لم تتنبّه يوماً لوجوده. ثمّ حنت رأسها وبدأت تصلّي. كانت تتضرّع إلى الله أن يرسل لها ملاكاً يتكفّل بالفلس الثمين.

وفي وسط صلاتها، رفعت جبينها. كانت قبلة الشمس تتصاعد ببطء، فتحوّلت عن الإطار لتتوهّج على اللّوحة. بدا وكأن نوراً باهراً أشقر ينبعث من الصورة المقدّسة. كانت تشعّ فوق الجدار الداكن، وكأنّ ملاكاً رفع طرف حجاب السماء، فتراءت فيها وسط مجدٍ مشرقٍ وعظمةٍ باهرةٍ السيّدة العذراء وفي حضنها الطفل يسوع يغفو.

نظرت أخت الفقراء بملء عينيها، محاولةً أن تراجع ذاكرتها. سبق لها أن رأت هذه القدّيسة الجميلة وهذا الطفل الإلهيّ، ربّما في أحلامها. لا شكّ أنّهما يتذكّرانها أيضاً، فكانا يبتسمان لها. رأتهما يخرجان من اللّوحة وينزلان صوبها.

سمعت صوتاً عذباً يقول: «إنّني القدّيسة المتسوّلة من السموات. فقراء الأرض يرفعون لي دموعهم، وأمدّ يدي لكلّ بائس حتّى يريح نفسه. أحمل إلى السماء صدقات الشقاء هذه. تتراكم الواحدة تلو الأخرى قرناً بعد قرن، وتشكّل يوم القيامة كنوز الغبطة للمختارين».

«هكذا أسير هائمةً في العالم، مرتديةً ملابس فقيرة مثل أبناء الشعب. أواسي أشقّائي المعدمين، وأنقذ الأثرياء بالحسنات.»

«رأيتكِ ذات مساء وعرفت أنّك تلك التي كنتُ أبحث عنها. إنّه عمل شاقّ، ذلك الذي أقوم به. وحين ألتقي ملاكاً على الأرض، أعهد

إليه بقسم من مهمّتي. أحمل من أجل ذلك فلوساً من السماء لديها قوّة الخير الخارقة، وتحوّل الأيدي النقيّة إلى جنيّات طيّبة».

«انظري، ها هو يسوعي يبتسم لك. إنّه راض عنك. كنتِ متسوّلة سماويّة، لأنّ الجميع قدّموا لك أرواحهم صدَقة، وسوف تقودين موكبك من الفقراء حتّى الجنّة. الآن، أعطيني هذا الفلس الذي بات عبئا عليك. الملائكة وحدها لديها القوّة الكافية لحمل الخير على أجنحتها إلى الأبد. كوني وديعة، كوني هانئة».

كانت أخت الفقراء تنصت إلى الكلام الإلهيّ، حانيةً رأسها، شاخصةً في نشوة، صامتةً تماماً، وعيناها المشرّعتان تعكسان افتتان الرؤيا. بقيت طويلاً مسمّرة بلا حراك. وفيما واصل شعاع النور صعوده، بدا لها أنّ باب السماء ينغلق. توارت العذراء شيئاً فشيئاً بعدما أخذت الشريط المعلّق حول عنقها. كان الطفل لا يزال ينظر إليها، لكنّها ترى فقط الجزء الأعلى من الإطار الذهبيّ يلتمع بوهج خافت في أشعّة النور الأخيرة.

عندها، وحين لم تعد تشعر بثقل الفلس على صدرها، آمنت بما رأته. رسمت على صدرها إشارة الصليب ثمّ خرجت وهي تحمد الله.

هكذا زال الغمّ عنها وعاشت طويلاً، إلى أن جاء يومٌ حضر فيه الملاك الذي كانت تنتظره منذ طفولتها، وحملها إلى والدتها ووالدها اللّذين كانت حسرتها تناديها منذ سنوات مديدة إلى الجنّة. وجدت إلى جانبها غيّوم وغيّوميت اللّذين فارقاها هما أيضاً في يوم ملّا فيه العيش.

وبعد أكثر من مائة عام على رحيلها، لم يكن من الممكن العثور على متسوّل واحد في تلك الناحية. لا لأنّ خزائن العائلات كانت تحوي كميّات من نقودنا الذهبيّة والفضيّة البغيضة، بل لأنّه كانت تظهر على الدوام، دون أن يدري أحدٌ كيف، بضعة أبناء لفلس العذراء، تلك

الفلوس السمينة من النحاس الأصفر، نقود العمّال وبسطاء العقول.

المصائد[1]

1

كلّ شيء في باريس يمكن بيعه: العذارى الجامحات والعذارى الرصينات، الأكاذيب والحقائق، الدموع والابتسامات[2].

لا بدّ أنّكم تعلمون أنّه في بلد الإتجار هذا، الجمال سلعةٌ هيَ محْور تجارة مخيفة. يبيعون ويشترون العيون الواسعة والثغور الصغيرة. الأنوف والذقون تُطرح بأدنى الأسعار. تلك الغمّازة أو تلك الشامة مصْدر عائدات ثابتة. وبما أنّ هناك على الدوام بضائع مزيّفة، يقلّدون أحياناً بضائع الله، فيبيعون بأسعار أغلى بكثير الرموش المستعارة المصنوعة من رؤوس ثقاب محروقة، وكعكات الشعر الاصطناعيّ التي تثبّت على

(1) تنتمي هذه القصّة القصيرة الى مجموعة من أربعة نصوص بعنوان ***Esquisses parisiennes*** أو «رسوم باريسيّة» صدرت في الصحافة الباريسيّة وهي من نوع كتابيّ يتراوح ما بين المقالة والقصّة القصيرة. ضمّها زولا إلى الطبعة الأولى من روايته «أمنيةُ ميتةٍ» ***Le Vœu d'une morte*** التي صدرت عن الناشر آشيل فوري في تشرين الثّاني 1866. صدرت «المصائد» ***Les Repoussoirs*** للمرّة الأولى في 15 آذار 1866 في صحيفة ***La Voie Nouvelle*** في مرسيليا. تعني مفردة العنوان «القبيحات»، وهي آتية من الفعل repousser، الذي يفيد الإبعاد بخشونة، والتنفير، واختير في الترجمة عنوان «المصائد» لأنّ القبيحات يُستخدمن هنا وسيلة لإبراز مفاتن الحسناوات واجتذاب الرّجال إليهنّ، وهي الدّلالة التي يفرضها زولا بقدر ما تتقدّم في قراءة النصّ.

(2) سبق أن استخدم زولا بسخرية مماثلة شعار «كل شيء قابل للبيع» في نصّه «الحفلات الشعبيّة» ***Les Bals Publics*** الذي صدر في صحيفة ***Le Petit Journal*** في 13 شباط 1865، حيث يروي قصّة كوكاردو وهو «صناعيّ شاعر صاحب ذكاء خارق» يتّجر بالضحك «مقابل فرنكين في السّاعة».

الرأس بواسطة دبابيس طويلة.

هذا كلّه عادل ومنطقيّ. فنحن شعب متحضّر، وهل يمكن أن تشرحوا لي ما جدوى الحضارة إن لم تكن تساعدنا على الخداع أو الانخداع، حتى يصبح من الممكن احتمال الحياة.

رغم ذلك، أقرّ لكم بأنّني تفاجأت كثيراً حين علمت بالأمس أنّ صناعيّاً، ذلك المحنّك دوراندو الذي تعرفونه مثلي، خطرت له فكرة حاذقة ومذهلة تقضي بالإتجار بالقباحة. أن يكون الجمال موضع تجارة، يمكنني تفهّم ذلك. حتّى بيع الجمال الزائف أمر طبيعيّ تماماً، بل هو مؤشّر تقدّم. لكن عليّ الاعتراف بأنّ دوراندو استحقّ بجدارة تقدير فرنسا لطرحه في التداول تلك المادّة الميتة حتّى هذا اليوم والتي تعرف بالقبح. لنكن واضحين هنا، فإنّني أتكلّم عن القبح القبيح، القبح الخالص الذي يباع بصدق ونزاهة على أنّه القبح بعينه[1].

لا شكّ أنّكم التقيتم أحياناً نساء يتنزّهن أزواجاً أزواجاً على الأرصفة العريضة. يتمشّين ببطء، يتوقّفن أمام واجهات المحلّات وهنّ يطلقن ضحكات مكبوتة، ويجرُرن فساتينهنّ خلفهنّ برشاقة وإغواء. يشبكن أذرعهنّ مثل صديقات طيّبات، يتخاطبن بلا كلفة في غالب الأحيان، وهنّ من اعمار متقاربة، وعلى قدر مماثل من الأناقة. لكنّ إحداهنّ تكون على الدوام ذات جمال باهت، من تلك الوجوه التي لا نجد ما نقوله عنها. لن نلتفت لننظر إليها مليّا، لكن إن لمحناها بالصدفة، فإننا ننظر إليها دون استياء. أمّا الأخرى، فهي دائماً قبيحة إلى حدّ مروّع، من ذلك القبح الذي يثير السخط، يستأثر بالنظر ويرغم المارّة على المقارنة بينها

(1) القبح الذي يمثّل هاجساً لزولا يقع في صلب رهانات الحداثة الجمالية، وخصوصاً بعد تأمّلات فيكتور هوغو في مقدّمة «كرومويل» *Cromwell* (1827) حيث كتب المقولة التالية: «الجميل من صنف واحد، والقبيح من ألف صنف».

وبين رفيقتها[1].

لا تنكروا أنّكم وقعتم في الفخّ وأخذتم أحياناً تتبعون المرأتين. لو كنتم أبصرتم المسخ وحيداً على الرصيف لكان أخافكم. المرأة الشابّة ذات الوجه العاديّ ما كانت ستلفت انتباهكم. لكنّهما كانتا معاً، وقبح الواحدة زاد من جمال الأخرى.

حسناً، دعوني أقول لكم إنّ المسخ، المرأة القبيحة إلى حدّ مروّع، تعمل لحساب وكالة دوراندو. إنّها من فرَق النساء-المصائد. دوراندو العظيم أجّرها للوجه الباهت لقاء خمسة فرنكات في الساعة.

2

إليكم القصّة.

دوراندو صناعيّ مبدع خارج عن المألوف، ثروته تقدّر بالملايين، وجعل اليوم من مزاولة التجارة فنّاً. مضت سنوات وهو يتبرّم ويتذمّر إذ يفكّر أنّ أحداً لم ينجح حتّى ذلك الوقت في جني فلس واحد من الإتجار بالفتيات الشنيعات. أمّا المراهنة على الفتيات الجميلات، فهي مسألة في غاية الدقّة، وأؤكّد لكم أنّه احتيال لم يخطر يوماً لدوراندو الذي تساوره هواجس رجل ثريّ.

وذات يوم، صُعِق فجأةً إذ نزل عليه وحيٌ إلهيّ. ابتكر ذهنه الفكرة الجديدة دفعة واحدة، مثلما يحصل لكبار المبدعين. كان يتنزّه على الجادّة حين رأى فتاتين تتبختران أمامه. إحداهما قبيحة والثانية جميلة. أدرك فجأةً

---

(1) يروي زولا في مسرحيّة كوميديّة نثريّة من فصل واحد بعنوان «القبيحة» *La Laide* كتبها عام 1865، قصّة شقيقتين تنتظران عريساً، إحداهما «في غاية الجمال» غير أنّها طائشة قليلاً، فيما الأخرى «وجهها شنيع» لكنّها تملك «جمالاً أرقى بكثير» هو جمال القلب والروح.

وهو يتأمّلهما أنّ القبيحة إنّما هي حلية تزدان بها الحسناء. قال في سرّه إنّه من العدل والمنطق أن تشتري الحسناء القبيحة كصنف من أصناف الحلي الذي يليق بها، تماماً مثلما تشتري الأشرطة ومساحيق الوجه والضفائر الاصطناعيّة.

عاد دوراندو إلى منزله ليفكّر في هدوء. الضرب التجاريّ الذي كان يتأمّل فيه كان يتطلّب أقصى قدر من الدقّة والرقّة في تنفيذه. لم يكن يرغب في الانطلاق بشكل متهوّر في مشروع سيكون عظيماً في حالِ نجاحه، وسخيفاً إذا ما فشل. قضى اللّيل بكامله يجري حسابات، ويطالع الفلاسفة الذين كانوا أفصح من تكلّم في حماقة الرجال وغرور النساء. لم يطلع الفجر عليه إلّا وكان حسم أمره: فالحسابات أثبتت صواب رأيه والفلاسفة طعنوا في البشريّة إلى أن بات يعوّل على أعداد غفيرة من الزبائن.

3

لو كان نفَسي أطول، لدوّنت ملحمة وكالة دوراندو. وستكون تلك ملحمة هزليّة وحزينة، مفعمة بالدموع والقهقهات(1).

وجد دوراندو صعوبة لم تكن في الحسبان في تشكيل مخزون من البضائع. كان حريصاً في بادئ الأمر على التحرّك بنفسه بشكل مباشر، فوزّع مربّعات صغيرة من الورق ألصقها على طول أنابيب تصريف مياه المطر وعلى جذوع الأشجار وفي أماكن معزولة، كتب عليها بخطّ اليد: «مطلوب فتيات قبيحات لإنجاز عمل سهل».

انتظر ثمانية أيّام دون أن تتقدّم فتاة قبيحة واحدة. حضرت خمس فتيات

(1) «الضحك حتّى الدموع» إزاء تشويه المثال الأعلى والذي يعود باستمرار في هذا النصّ، مردّه إلى الرومنطيقيّة. فانطلاقاً من الشاعر والمسرحيّ الرومنطيقي ألفريد دو موسيه، اجتاح «الفرح الحزين» الواقعيّة الأدبيّة.

حسناوات أو ستّ توسّلنه باكيات منتحبات أن يمنحهنّ الوظيفة. كنّ في مأزق ما بين الجوع والرذيلة، وما زلن يبحثن عن الخلاص في العمل. قال لهنّ دوراندو مردّداً مراراً بكثير من الإحراج إنّهنّ جميلات ولا يمكن أن يناسبنه. لكنهنّ أصرَرن على أنّهنّ قبيحات وأن ادّعاءه بأنهنّ جميلات هو من باب اللّياقة الخالصة والرياء. وها هنّ اليوم مضطرّات لبيع جمال يمتلكنه بعدما عجزن عن بيع قبح يفتقرن إليه.

إزاء هذه النتيجة، أدرك دوراندو أنّ الجميلات وحدهنّ لديهنّ الشجاعة الكافية للاعتراف بقبح وهميّ. أمّا القبيحات، فلن يتقدّمن يوماً للإقرار من تلقاء أنفسهنّ بفم عريض بشكل يفوق المنطق، أو بعينين صغيرتين إلى حدّ سخيف. علّقوا على جميع الجدران أنكم تكافئون بعشرة فرنكات كلّ قبيحة تأتيكم، وستبقون بالتأكيد بمأمن من الإفلاس.

تخلّى دوراندو عن فكرة الملصقات ووظّف نصف دزّينة من الدلّالين أطلقهم في شوارع المدينة بحثاً عن مسوخ أنثويّة. كانت تلك حملة توظيف معمّمة لبشاعة باريس. كانت مهمّة شاقّة فعلاً على الدلّالين، وهم رجال لباقة وذوق رفيع، فكانوا يتصرّفون طبقاً للطباع والمواقف، بخشونة حيال امرأة بحاجة ماسّة إلى المال، وبمزيد من الكياسة حين يتعاملون مع فتاة لا تتضوّر جوعاً بعد. من الصعب على رجال مؤدّبين أن يقولوا لامرأة «سيّدتي، أنت قبيحة. أريد شراء قبحك بذلك القدر في اليوم».

شهدت حملة المطاردة تلك للفتيات المسكينات اللّواتي يبكين أمام المرايا، بعض المحطّات المشهودة. أحياناً كان الوسطاء يصرّون بتعنّت مسعور. يرون امرأة على قدر مثاليّ من البشاعة تعبر في أحد الشوارع، فلا

يدّخروا جهداً لجلبها إلى دوراندو، مستجدين امتنان معلّمهم. حتّى أنّ البعض منهم لجأ إلى وسائل قصوى.

كان دوراندو في كلّ صباح يستقبل البضائع التي تمّ اصطيادها في اليوم السابق ويتفقّدها. جالساً مستريحاً في أريكة عريضة، مرتدياً مبذلاً أصفر وعلى رأسه قلنسوة من الساتان الأسود، يستعرض المجنّدات الجديدات اللّواتي يتعاقبن أمامه في طابور، كلّ منهنّ يرافقها دلّالها. عندها يسترخي إلى الخلف وهو يغمز بعينيه ويتّخذ تعابير الهاوي الذوّاقة المستاء تارةً والراضي طوراً. يتناول ببطء بأصابعه قليلاً من التبغ، ويتسمّر مطرقاً بخشوع. ثمّ يجعل البضائع تدور على نفسها ليتمكّن من رؤيتها بشكل أفضل، فيتفحّصها من كلّ الزوايا. أحياناً ينهض، يلامس الشعر، يمعن في الوجه، مثل خيّاط يتحسّس قماشة، أو بقّال يتثبّت من نوعيّة شموع أو جودة توابل. وحين تكون البشاعة فاضحة، حين يكون الوجه غبيّاً بليداً، يفرك دوراندو يديه ويهنّئ الدلّال. لا بل قد يقبّل الفتاة المسخ. لكنّه كان يحذر البشاعة الغريبة الخارجة عن المألوف. فحين يصادف عينين لمّاعتين أو شفتين تبتسمان ابتسامة حادّة، يقطّب ويتمتم في سرّه أنّ امرأة دميمة كهذه، إن لم يكن قدرها الحبّ، فغالباً ما يكون العشق الجارف. كان عندها يعامل الدلّال بفتور ويقول للمرأة أن تعود بعد فترة، حين تصبح عجوزاً.

ليس من السهل كما يظنّ بعضهم أن يصبح الواحد خبيراً عليماً في البشاعة، أن يجمع تشكيلة من النساء المتجلّيات بقبحهنّ اللّواتي لا يُعقل أن يشكّلن أدنى خطر على الحسناوات. أبان دوراندو عن عبقريّة في الخيارات التي حسمها، فأظهر فيها عمق معرفته بشؤون القلب والشجون. المسألة الجوهريّة بنظره كانت دوماً السيماء، ولم يستبْقِ سوى

الوجوه المحبِطة، تلك التي تثير الاشمئزاز بغلاظتها وغبائها.

في اليوم الذي استكمل فيه إنشاء الوكالة بشكل نهائيّ، وبات بوسعه أن يعرض على الفتيات الجميلات المتقدّمات في السنّ قبيحات ينسجمن ولونَ بشرتهنّ ويتماشين ونوعَ جمالهنّ، وزّع المنشور التالي.

4

باريس، الأوّل من أيّار 18..

وكالة المصائد

ل. دوراندو

18 شارع م...، باريس

دوام العمل في المكاتب من الساعة العاشرة الى الساعة الرابعة

سيّدتي،

يشرّفني أن أعلن لكِ أنّني أسّست داراً مدعوّة لإسداء أسمى الخدمات لصون جمال السيّدات. ابتكرتُ واحداً من أحدث لوازم الجمال، سيضفي رونقاً جديداً إلى المفاتن التي أنعمت الطبيعة بها عليك.

لم يكن من الممكن حتّى الآن إخفاء التعديلات التي تضيفينها إلى محاسنك. الدنتيل والحليّ ظاهرة للعيان. يمكننا حتّى أن نحزر الشعر الاصطناعيّ في العِقصة، ونستنتج أنّ الشفتين القرمزيّتين والوجنتين الغضّتين المتورّدتين إنّما هي مصبوغة ببراعة.

الواقع أنّني أردت إيجاد حلّ لهذه المعضلة المستعصية للوهلة الأولى، بأن أزيّن السيّدات دون أن يعلم أيّ من الناظرين من أين تأتيهنّ تلك المفاتن الحديثة. دون إضافة شريط واحد، دون المسّ بالوجه، كان

المطلوب إيجاد وسيلة سديدة لاجتذاب الأنظار وتفادي المشترَيات غير المجدية.

أعتقد أنّ بوسعي القول باعتزاز أنّني نجحت بالكامل في تسوية المشكلة المستحيلة التي طرحتها على نفسي.

اليوم بات بوسع أيّ سيّدة تشرّفني بثقتها التامّة أن تحظى لقاء أسعار زهيدة بإعجاب الحشود.

لوازم الزينة التي ابتكرتُها تتّسم بأقصى البساطة وتحقّق نتيجة أكيدة. لستُ بحاجة سيّدتي للاستفاضة في وصفها حتّى تدركي على الفور كيفيّة عملها.

ألم يسبق لكِ أن شاهدت مسكينة إلى جانب سيّدة تزدان بالحرير والدنتيل تتصدّق عليها بيد مكسوّة بقفّار؟ هل لفَتَ انتباهكِ كم انّ الحرير يلتمع بجانب الأسمال؟ كم أنّ كلّ هذا الثراء يبدو باهراً ويزداد تألّقاً وأناقةً إلى جانب كلّ هذا البؤس؟

سيّدتي، يسرّني أن أقدّم إلى الوجوه الجميلة أكبر تشكيلة من الوجوه القبيحة التي يمكن مصادفتها، وأغناها. الثياب الممزّقة تسلّط الضوء على الثياب الجديدة. ووجوهي القبيحة تبرز الوجوه الجميلة.

لا أسنان مستعارة بعد اليوم، لا شعر اصطناعيّاً ولا صدور زائفة! لا حاجة للتبرّج وللملابس الباهظة، ولا هدر أموال طائلة على مساحيق التجميل والدنتيل! مجرّد مصيدة تتأبّطينها وتتسكّعين بها في الشوارع لاظهار جمالك وحصد نظرات الإطراء والإعجاب من الرجال!

سيكون من دواعي اعتزازي سيّدتي أن تكوني بين زبوناتي. سوف تجدين لديّ المنتجات الأكثر بشاعة وتنوّعاً التي يمكن مصادفتها، حتّى تختاري من بينها لجمالك صنف القبح الذي يناسبه.

التعريفة: 5 فرنكات للساعة، 50 فرنكاً لليوم الكامل.
تفضّلي سيّدتي بقبول فائق احترامي وتقديري.

دوراندو

ملاحظة: للوكالة أيضاً تشكيلة والدات وآباء، أعمام وعمّات بأسعار زهيدة.

5

حقّقت الوكالة نجاحاً هائلاً. باشرت العمل منذ اليوم التالي، وكان المكتب يغصّ بالزبونات كلّ منها تختار مصيدتها وتصطحبها معها ببهجة ضارية. لا يمكن أن ندرك كم تتلذّذ امرأة جميلة بتأبّط ذراع امرأة قبيحة. فهي في آنٍ تزيد من جمالها وتستمتع بدمامة امرأة أخرى. حقاً كان دوراندو فيلسوفاً عظيماً.

لا تظنّوا أنّه كان من السهل تنظيم هذه الخدمة. فقد طرأت ألف عقبة غير متوقّعة عرقلت العمليّة. وإن كان دوراندو وجد عناءً في تشكيل فريقه، فهو وجد مشقّة أكبر في إرضاء الزبونات.

كانت سيّدة تحضر وتطلب مصيدة. تُعرض عليها تشكيلة البضائع ويقال لها أن تختار، مع الاكتفاء بإسداء بعض النصائح لها تلميحاً. وها هي السيّدة تتنقّل من مصيدة إلى أخرى بازدراء، فتجد المسكينات إماً أقبح ممّا ينبغي أو أقلّ بشاعة من المطلوب، مدّعيةً أنّ أيّاً من هذه البشاعات لا تنسجم مع جمالها. ومهما جهد الموظّفون في التغنّي بأنفٍ ملتوٍ عند هذه، أو فم ضخم عند تلك، وصولاً إلى الجبين المسطّح والتعبير المخبول لدى إحداهنّ، كانت فصاحتهم تذهب سدًى.

في بعض الأحيان تكون السيّدة نفسها على قدر فظيع من القباحة، يجعل دوراندو إن كان في المكتب يرغب بجموح في إغرائها بأجر طائل لضمّها إلى فريقه. تشرح السيّدة أنّها جاءت لمجرّد إبراز جمالها وتودّ أن تظفر بمصيدة شابّة لا تكون قبيحة جدّاً، إذ انّها بحاجة فقط إلى القليل من الزينة. يضعها الموظّفون اليائسون أمام مرآة كبيرة ويستعرضون طابور البشاعات كاملاً إلى جانبها، الواحدة تلو الأخرى. وفي نهاية المطاف، تخرج مصطحبةً معها رغم تمنّعها ملكة البشاعة بينهنّ، وتنسحب محتجّة مغتاظة كيف أنّهم تجرأوا على عرض مثل هذه البضائع عليها.

شيئاً فشيئاً انتظم الإقبال على الوكالة واستقرّ عملها، وبات لكلّ مصيدة زبوناتها الثابتات. أصبح بوسع دوراندو أن يستكين ويبتهج، معلّلاً نفسه بقناعة راسخة بأنّه حقّق للبشريّة خطوة جديدة إلى الأمام.

لست واثقاً من أنّ الجميع يدرك تماماً حقيقة وضع المصيدة. فهذا الوضع له مسرّاته التي تضحك بفرح في الشمس، لكنّه له أيضاً دموعه التي تُسكب في الخفاء.

المصيدة قبيحة، إنّها أمَة. وتقاضي أجرها يؤلمها، لأنها أمَة وقبيحة. وفي مطلق الأحوال، هي ترتدي ملابس لائقة، تتأبّط ذراع مشاهير الطبقة الراقية، تعيش في العربات، ترتاد الحانات الرائجة وتقضي أمسياتها في المسارح. وهي تتكلّم والحسناوات بلا تكلّف، ويظنّها الساذجون من روّاد مضامير سباق الخيل والعروض المسرحيّة الأولى.

تلهو وتفرح طوال النهار. وفي اللّيل تتكدّر وتنتحب. تخلع الملابس الجميلة، ملابس الوكالة، وتجد نفسها وحيدة في غرفتها الفقيرة تحت السطح، في مواجهة مرآة تقول لها الحقيقة. ها هو قبحها ماثلٌ أمامها، عارياً، وهي تحدس بيقين أنّها لن تجد يوماً من يحبّها. هي التي تُستخدم

لدغدغة الشهوات، لن تعرف يوماً طعم القبلات.

6

أردت اليوم فقط أن أروي قصّة إنشاء الوكالة وتخليد اسم دوراندو. إنّ رجالاً من أمثاله لَيتركون بصماتهم في التاريخ.

ربّما أكتب ذات يوم «أسرار مصيدة». عرفت إحدى هذه المسكينات، ولقد أحزنتني حين روت لي معاناتها. كانت تعدّ بين زبوناتها فتيات من اللّواتي تعرفهنّ باريس بأسرها، وقد عاملنها بكثير من القسوة. رجاءً سيّداتي، لا تمزّقن الدنتيل الذي يزيّنكنّ، ارفقن بالقبيحات، فبدونهنّ لن تكوننّ جميلات!

مصيدتي كانت روحاً متّقدة، أظنّ أنها أسرفت في قراءة والتر سكوت[1]. لا أعرف ما يضاهي حزناً أحدب عاشقاً أو امرأة قبيحة تحلم بهناء حياة مثاليّة. المسكينة كانت تغرم بكلّ الفتيان الذين يجذب وجهها القبيح أنظارهم ويحوّلها إلى وجه زبوناتها. تصوّروا فخّاً لصيد العصافير مغرماً بالطيور التي يوقعها في شرك الصيّادين.

عاشت الكثير من المآسي. يتملّكها حسد فظيع حيال تلك النساء اللّواتي يدفعن لها أجرها كمن يدفع ثمن مسحوق أو حذاء. كانت سلعةً تُستأجر بمبلغ معيّن في الساعة، لكنّ هذه السلعة لديها حواسّ. هل يمكنكم تصوّر مرارتها، وهي تبتسم وتتحادث بلا كلفة مع تلك النساء اللّواتي يسلبنها نصيبها من الحبّ؟ تلك الحسناوات كنّ يجدن متعة خبيثة في تملّقها وكأنّها صديقة أمام الجميع، ويعاملنها كخادمة حين يختلين بها. لو كان في مقدورهنّ لما تردّدن حتّى في تحطيمها لمجرّد إرضاء نزوة، كما

(1) هذا الكاتب الاسكتلندي هو في نظر زولا رمز العاطفيّة الأدبيّة المغالية.

يحطّمن التحف الصغيرة التي تزيّن رفوفهنّ.

لكن ما همّ التقدّم بروح تتألّم! البشريّة تمضي قدُماً. العصور المقبلة ستمجّد دوراندو لأنّه روّج بضاعة كانت ميتة حتّى ذلك الوقت، وابتكر أداة تجميل ستجعل الحبّ أكثر يسراً.

عيديّة المتسوّلة[1]

دعونا قبل أن ينقضي شهر كانون الثاني، نذكّر بميزة إضافيّة ليوم رأس السنة في باريس.

ففي الأوّل من كانون الثاني، تشهد مساكن باريس البائسة تهندماً وتأنّقاً. المتسوّلون يرتدون أجمل أسمالهم ويزدانون بأبهى ملابسهم الممزّقة ليخرجوا ويقدّموا للمارّة أفضل الأمنيات من قعر بؤسهم ويطلبوا منهم عيديّاتهم، مادّين أيديهم ووجوههم قلقة ومداهِنة.

في هذا النهار يكون التسوّل مقبولاً، ويُسمح بممارسته في وضح النهار، دون تنكّر في شتّى أشكال حِرَف الشارع وأصنافها التي لا تحصى. لاعب الأرغن يترك في منزله الصندوق الثقيل الذي حمله على مدى اثني عشر شهراً، وبوسع بائعي الثقاب والرباطات والأغاني الاستراحة دون أن يجدّدوا بضائعهم. الطرقات العامّة تخلو من المارّة، والشرطيّون يغضّون الطرف. تمتدّ الأيدي بلا مواربة، سواء لتعطي أو لتتلقّى.

في منزل أسود عالي السقف، في قعر ما يشبه عليّة في الطابق الثامن، تعيش عائلة بأكملها من المعدمين، الأب والأمّ وفتاة صغيرة في الثامنة.

الوالد عجوز طويل القامة، هزيل ناتئ العظام، لحيته وشعره طويلان مشعّثان بلون أبيض كامد. يستذكر متنهّداً الأيام الخوالي السعيدة، حين

(1) هذه اللّوحة المؤثّرة للبؤس في المدن والتي تمهّد للّوحات الأكثر تكاملاً واتّساعاً في رواية «الحانة» *l'Assomoir* وروايات زولا الكبرى لاحقاً، صدرت تحت عنوان «مقالة» في صحيفة *Le Petit Journal* في 26 كانون الثاني 1865، وكانت أوّل مساهمة لزولا في هذه الصحيفة الشعبيّة غير السياسيّة الواسعة الانتشار، والتي أعطاها تسعة نصوص.

كانت الشوارع ملكاً للفقراء، فيستأثرون وحدهم بشمس الله وعطف البشر[1].

الأمّ لم تعد تفكّر. تبدو وكأنّها تعيش بفعل العادة، وكأنّها لا تشعر بالفرح ولا بالألم. البرد والجوع قضيا على أفكارها وأحاسيسها.

الفتاة هي شعاع النور في العليّة القاتمة. في هذه الظلمة الرطبة، حين يظهر رأسها الشاحب الأشقر أمام الجدار المسودّ، تشعّ ابتسامتها بأضواء الشمس. عيناها الزرقاوان حيث تشعل اللّامبالاة التماعات فرح مفاجئة، تضيئان زوايا المنزل البائس. إنّها لا تبكي في سنّها إلّا حين ترى الآخرين يبكون. في الأوّل من كانون الثاني، نهض الوالدان والطفلة منذ الساعة الخامسة. قضوا وقتاً طويلاً وشاقّاً للاغتسال وارتداء ملابسهم. ثمّ جلس الوالدان وشخَصا دون حراك في انتظار طلوع النهار، فيما الفتاة الأكثر دلالاً وتأنّقاً، حاولت عبثاً لساعة طويلة أن تخفي ثقباً عريضاً يحتلّ جانباً كاملاً من تنّورتها.

الطفلة سعيدة. سوف تتلقّى عيديّتها. بالأمس قال لها والدها: «غداً سوف ترتدين أجمل ما لديك وسنذهب في الشوارع لنتمنّى الصحّة والثروة للسعداء في هذا العالم. الهانئون طيّبون، وأرادوا لمرّة في السنة أن نتمكّن من طلب الإحسان بسلام من النفوس العطوفة. غداً تتلقّى آنسات صغيرات جميلات لديهنّ الكثير من الأصدقاء لعباً كبيرة وسلالاً من السكاكر هدايا. أرادوا للأطفال المساكين مثلك الذين لا أصدقاء لديهم، ألّا تبقى رغم ذلك أيديهم فارغة، فمنحوهم صداقة جميع عابري

(1) المشاريع الكبرى التي أطلقها محافظ باريس أوجين أوسمان والتي باشرها عام 1852 بدّلت وجه العاصمة الفرنسيّة بشكل كامل، فبلبلت النسيج المدينيّ وأدّت إلى ارتفاع بدلات الإيجار وأرغمت الشرائح الأكثر فقراً من السكّان على النزوح إلى الأطراف أو التجمّع في جيوب متبقّية داخل المدينة.

السبيل إذ سمحوا لهم بأن يمدّوا أيديهم للجميع. فلوس الصدقات ستكون سكاكرك وألعابك».

خرجت الفتاة الصغيرة إلى الشارع. تسير بخطى فرحة خفيفة تعتريها لحظات خجل مفاجئة، فتتوقّف عند المفارق، عند مدخل الكنائس، على الجسور، تذهب أينما يذهب الحشد. والدها ووالدتها يتبعانها برزانة، دون أن يستجديا شفقة الجموع لنفسيهما، وكأنّهما جاءا يزوران الحشد ويقدّمان له ابنتهما.

تستوقف الفتاة الشبّان والشيوخ، تختار الذين يحملون رزماً فتبادرهم قبل سواهم، وعيناها الزرقاوان يقولان لهم مترجّيتين: «انتم الذين أنفقتم فرنكًا ذهبيّاً لإسعاد إحدى شقيقاتكم، ألن تعطوني فلساً صغيراً زهيداً لعيديّتي؟»

كيف لا ينصت المارّة للترجّي الصامت في ابتسامتها؟ تتساقط الفلوس النحاسيّة بغزارة في يدها. تلملم عيديّتها فلساً فلساً هنا وهناك، وتفرح حتّى المساء بملذّات هذا النهار الذي بدا في الصباح وكأنّه لم يطلع من أجلها.

في المساء ينعم الفقراء بالنار والخبز. عدّت الطفلة كنزها باعتزاز. أُعطي لها أن تظنّ لوهلة قصيرة أنّ المدينة برمّتها تحبّها.

أجل، في الأوّل من كانون الثاني، نكون نحن السعداء عرّابي المتسوّلات الصغيرات وأصدقاءهنّ. من واجبنا أن نجعلهنّ ينسين بؤسهنّ، فنمنحهنّ الرحمة والمواساة.

أقول لكم، في العام المقبل، املأوا جيوبكم بكثير من الفلوس، اخرجوا في المدينة ووزّعوا الهدايا على المساكين.

سوف تعودون بكنز من النظرات الطيّبة والكلام اللّطيف.

ستشعرون في قلوبكم بإيمان هؤلاء الأطفال الشاحبين الذين رسمتم ابتسامة على شفاههم، وعند عودتكم، سوف تقبّلون بمزيد من الحنان الأطفال السعداء الذين يمدّون أيديهم هم أيضاً ولكن بلا أيّ خجل، لتلقّي ألعاب بخمسة وعشرين فرنكاً!

الحصان الهرم[1]

لا أجد من جهتي ما يحزنني أكثر من مشهدِ حصانٍ هرمٍ في يوم ماطر، وسط حقل مقفر.

كنت أتنزّه قبل أيّام في الأراضي الخلاء في ضاحية مونروج، والسماء الشتائيّة تغمّ قلبي. إن كان هناك على وجه الأرض بقعة يسكنها شجن أبديّ وبؤس وشاعريّة مفجعة، فهي تلك الحقول المحدودبة الموحلة الممتدّة عند أبواب باريس، مثل عتبة من الطمي القذر لعروس مدن العالم. هنا وهناك تنشقّ الأرض بفظاعة لتكشف عن مقالع قديمة مهجورة، شاحبة وعميقة، مثل أحشاء مبقورة في الهواء الطلق[2]. لا شجرة واحدة. وحدها دواليب الرافعات الضخمة تلوح أمام الأفق الخفيض الرتيب. الأراضي لديها ذلك المظهر البائس المقزّز، والدروب تلتفّ وتطول بكآبة. عند كلّ منعطف أكواخ متداعية وأكوام من الحطام والركام. المنظر، بتماوجات ألوانه السقيمة، ومشاهده التي تنقطع فجأةً، وجروحه الفاغرة، مطبوع بحزن بلاد مزّقتها يد الإنسان[3].

(1) صدر هذا النصّ تحت عنوان «مقالة» في صحيفة ***Le Petit Journal*** في 26 كانون الثاني 1865. هنري ميتران، الاختصاصيّ بأعمال زولا، هو الذي اقترح عنوان «الحصان الهرم» عندما نشر هذا النص للمرّة الأولى في آثار زولا الكاملة ***Œuvres complètes*** عام 1968.

(2) تم استخراج الحجارة من تلك المقالع حتّى منتصف القرن التاسع عشر لاستخدامها في مشاريع البناء في باريس.

(3) نلاحظ هنا التغيير في النبرة والمنظار بالنسبة إلى النصوص الأولى من «حكايات إلى نينون». فعين الكاتب تفتّحت على الواقع، وإن كانت الكتابة التخييليّة لا تزال حاضرة، إلّا أنّها مطبوعة بإدراك الكاتب لرهانات الكتابة الاجتماعيّة.

وفيما كنت أتقدّم، لمحت عند أحد المنعطفات حصاناً هرماً مربوطاً إلى عمود. كان يحني رأسه ومنخاراه ينفثان بخاراً على الأرض. كان الحيوان المسكين يرتعد، تهزّه ارتعاشة متواصلة. يقف منتصباً، رمادياً وهزيلاً، تحت السماء الداكنة، والمطر الرقيق المتساقط ينساب على طول ضلوعه[1].

كان ثمّة تناغم بين ذلك الحصان وتلك السماء الشتائيّة وذلك الحقل الكالح. مِثل هذا البؤس في محلّه تماماً وسط هذا المشهد الكرب. هنا، لكلّ من المخلوق والريف دموعه، وكم كانت أليمة شكوى ذلك الكائن وذلك الخراب.

شعرت برحمة عظيمة تملأ قلبي[2].

رفع الحصان الهرم رأسه عند دنوّي منه. نظر إليّ بعينيه الزائغتين، هازّا رأسه.

واقفاً أمامه، أطرقت ناسياً نفسي، متأثّراً بتلك الملامة الأليمة التي كنت أستشفّها في نظراته. لست أدري إن كنت رأيت ذلك في منامي، لكنّني سأنقل لكم الكلام الذي وجّهه إليّ الحصان الهرم:

«سوف أموت غداً، يمكنني إذاً هذا المساء أن أفتح قلبي وأخفّف عنه. لست واثقاً من أنّني سأتمكّن من تحسين قدر أشقّائي، لكنّني سأنقل لك على الأقلّ حقيقة هي ثمرة سنوات طويلة من حياة حصان فيلسوف.

«إليك هذه الحقيقة: العمل يثري الرجال، والعمل يقود الأحصنة إلى

(1) يستعيد زولا في روايته «الحانة» (1885) موضوع الأحصنة ويعيد ابتكار «شخصيّة» باتاي «عميد المنجم، حصان أبيض عمره عشر سنوات».

(2) عبّر زولا مجدّداً، وبتأثّر، عن هذه الرأفة بالحيوانات في نصّ كتبه عام 1896 وصدر في صحيفة لو فيغارو بعنوان «حبّ الحيوانات». وغالباً ما يتكرّر ذكر الحيوانات في أعمال زولا ولا سيّما في قصصه القصيرة، كما في قصّتي هذه المجموعة «نهار كلب شارد» و«قفص حيوانات مفترسة».

المسلخ. في ذلك ظلم صارخ. بودّي أن أؤمن بأنّ الله وهبكم ذكاء أكبر من ذكائنا، لكنّه أعطاكم هذا الذكاء حتّى تمنحوا خَلقه السعادة.

«انظر إليّ. أشقّاؤك بالغوا في استغلال قواي. وكلّما خدمتهم، ازدادوا قسوة حيالي. اليوم جسدي المسكين يطلب الثأر.

«ثمّة قانون عادل ينصّ على مكافأة العامل بحسب المهامّ التي أنجزها. نطالب بأن نعامَل بموجب هذا القانون وبأن نكسب في سنوات شبابنا الراحة والعناية اللّتين تطالب بهما شيخوختنا.

«ولا تجادلني بأنّنا حيوانات، فلا نستحقّ سوى الضرب، وبأنّنا خُلِقنا من أجل إرضاء الإنسان. بل نحن أشقّاؤكم، أشقّاء بسطاء العقول، وسيأتي يوم تُحاسَبون فيه على استخدامكم لنا. عندها، ستُحسب عليكم كلّ من آلامنا جرماً. إنّنا مطيعون، كونوا إذاً طيّبين. نقبل بأن نخدمكم طوال حياة كاملة، اقبلوا إذاً بمنحنا موتاً أرحم من ذلك.

«إن كان في قلبك رأفة، أنت عابر السبيل، فردّد لأشقّائك ما قلته لك. لن يستمعوا إليك، لكنّني على الأقلّ لن أحمل معي الحقيقة الفلسفيّة التي قضيت حياتي برمّتها لصياغتها. آه! كم أنّني حيوان حزين، وكم ستكون حزينةً الأرض التي سأُدفن فيها!»

صمت الحصان الهرم، أو بالأحرى استيقظتُ. كان المطر لا يزال ينهمر خفيفاً. ألقيت نظرة أخيرة إلى المشهد الكئيب الرتيب، إلى الحصان الخائر القوى وإلى هذه الوحول، ثمّ دخلتُ باريس التي كانت تضيء ثريّاتها مبتهجة، غير آبهة للضّباب والبرد.

انتفضتُ على قلّة مبالاتنا وأنانيّتنا، ووددتُ تحقيق الأمنيات الأخيرة لحيوان مسكين اعتقَدَ أنّ أيّ حقيقة جديرة بالبوح بها.

قلّما أترحّم على مصير مونروج التي ستتحوّل غداً، إذا ما واصلنا على

وتيرتنا هذه، إلى قصور وحدائق عامّة. لكنّني أترحّم على مصير الحصان الهرم، وأطالب من أجله بمأوى غير المسلخ.

«ماذا تقول؟ دار للعجزة؟ بكلّ جديّة؟»

- ولِمَ لا؟»

المصيف[1]

محلّ بائع القبّعات غوبيشون مطليّ باللّون الأصفر الفاتح. إنّه أشبه ما يكون بممرّ مظلم تصطفّ على جانبيه يميناً ويساراً خزائن تفوح منها رائحة أقرب إلى العفن. في القعر، وسط عتمة وصمت مهيبَين، تنتصب منضدة. نور النهار وضجيج الحياة لا يجازفان بدخول هذا القبر[2].

«فيلّا» بائع القبّعات غوبيشون في آركوي[3] منزل من طابق واحد مسطّح، مشيّد بالجصّ. أمام القسم الرئيس من المنزل تمتدّ حديقة ضيّقة مسيّجة بجدار منخفض، وفي وسطها حوض لم يذق يوماً طعم الماء. هنا وهناك ترتفع بضع أشجار ضامرة لم تنبت لها يوماً أوراق. المنزل أبيض باهر والحديقة بلون رماديّ قذر. على بعد خمسين قدماً يجري نهر

(1) صدر هذا النص للمرّة الأولى في الأوّل من أيّار 1865 في صحيفة *Le Petit Journal* تحت عنوان مستوحى من العناوين الرائجة في أربعينيّات القرن التاسع عشر: «منوّعات–صور–بطاقات. صاحب المتجر الريفيّ». ثمّ نشر من جديد في الأوّل من آب 1868 تحت عنوان «مصيف» في صحيفة *L'Evènement Illustré* وفي أيلول 1880 في *La Revue moderne et naturaliste*. نورد هنا هذه الصيغة الأخيرة.

(2) يستعيد زولا هذه الصورة في روايته «تيريز راكان» حيث المحلّات على جسر بون–نوف تفوح منها «نفحات من برودة قبر». وبالرغم من النوايا الهزليّة، فانّنا نلاحظ تواتر صور الاشمئزاز والتحلّل.

(3) الطبيعة في آركوي لا تختلف كثيرا عنها في مونروج كما وصفها زولا في النصّ السابق «الحصان الهرم». غالباً ما تنزّه زولا في هذه النواحي برفقة أصدقائه الرسّامين.

بيافْر، حاملاً معه روائح نتنة[1]. في الأفق تنبسط أراضٍ كلسيّة، أكوام حطام، حقول مقلوبة، مقالع مشرّعة ومهجورة. مشهد مترامٍ من البؤس والخراب.

يجد غوبيشون منذ ثلاث سنوات بهجة لا توصف في استبدال عتمة محلّه كلّ يوم أحد بشمس منزله الحارقة، وروائح جدول شارعه بهواء نهر بيافر الكريه.

مضت ثلاثون سنة وهو يعلّل نفسه بحلم مجنون بأن يعيش في الريف ويمتلك قطعة أرضٍ يشيّد فيها قصر أحلامه. هانت عليه أغلى الأثمان في سبيل تحقيق نزوته تلك، نزوة سيّد من المجتمع الراقي. ففرض على نفسه أقسى التضحيات وأكثرها مشقّة. رأيناه على مدى ثلاثين عاماً يحرم نفسه من حفنة تبغ ومن فنجان قهوة، ويكدّس فلوسه الواحد تلو الآخر.

اليوم حقّق رغبته الجامحة. يقيم يوماً في الأسبوع في ألفة مع الغبار والحصى، وسوف يموت راضياً.

كلّ يوم سبت تغادر العائلة في مراسيم احتفاليّة. وحين يكون الطقس جميلاً، تقطع المسافة سيراً حتّى تنعم أكثر بجمال الطبيعة.

أمّا المحلّ، فيُترك في عهدة موظّف قديم يكلّف بأن يقول لأيّ زبون يحضر: «السيّد والسيّدة في الفيلّا التي يملكانها في آركوي».

في هذه الأثناء يتوجّه السيّد والسيّدة مجهّزين كأنّها لمقاومة حصار ومحمّلين بالسلال، إلى المدرسة الداخليّة القريبة لاصطحاب غوبيشون الابن، وهو فتى في الثانية عشرة من العمر، ينظر بذعر إلى والديه يسلكان الطريق المحاذي لنهر بيافر. وطوال المسافة، يجهد الأب بوقار وسعادة

(1) بعد عبور مناطق فيلجويف وآركوي وجانتيي، يصبّ نهر بيافْر في باريس تحت اسم نهر غوبلان ويمدّ بالمياه عدداً كبيراً من المؤسسات الصناعيّة الواقعة على ضفافه، من مدابغ جلود ومصابغ ومغاسل.

لزرع حبّ الحقول في نفس ابنه، فيحاضر مطوّلاً في الكرنب واللّفت.

يصلون أخيراً وينامون. وفي اليوم التالي، يرتدي غوبيشون منذ الفجر ملابس الفلّاحين. فهو مصمّم بعزم على زراعة أراضيه. يقضي النهار بكامله يحرث وينكش ويزرع ويبذر. لكنّ شيئاً لا ينبت. الأرض من الرمل والحصى تتمنّع عن احتضان أيّ نبات. غير أنّ ذلك لا يثبط عزيمة العامل الذي يجهد ويكدّ، ماسحاً بكثير من الرضى العرق المتصبّب على وجهه. حين يتأمّل الحُفَر التي حفرها في الأرض، يتوقّف وينادي زوجته باعتزاز.

«سيّدة غوبيشون، تعالي وانظري! يصيح. ما رأيكِ؟ حُفَر رائعة، أليس كذلك؟ هل هي عميقة بما يكفي؟»

تبدي السيّدة افتتانها بعمق الحُفَر.

في السنة الماضية باغتتهم ظاهرة غريبة يصعب تعليلها، إذ شذّت نبتة خسّ عن القاعدة بشكل مفاجئ ونمت في إحدى زوايا الحديقة. كانت بعلوّ اليد، مرقّطة ببقع بلون أصفر قذر. أقام غوبيشون وليمة عشاء دعا إليها ثلاثين شخصاً لتقاسم نبتة الخسّ تلك.

هكذا يبقى طوال النهار في الشمس، والنور الشديد يعمي عينيه، والغبار يخنقه. إلى جانبه تقف زوجته، مبدية له إخلاصاً يصل إلى حدّ الاختناق. أمّا غوبيشون الابن، فيبحث يائساً عن أشرطة الظلّ الهزيلة عند أسفل الجدران.

في المساء، تجلس العائلة كاملة حول الحوض الفارغ وتنعم بسلام بمفاتن الطبيعة. مصانع الجوار تقذف دخاناً أسود. القطارات تعبر مطلِقة صفيراً، ناقلةً معها حشداً هازجاً يرتدي أبهى ما لديه من ملابس. في البعيد يمتدّ الأفق خراباً شاسعاً، تزيده كآبة القهقهات العائدة إلى

باريس لأسبوع طويل. وتعبر الجوَّ الثقيل روائح مقليّاتٍ وغبار تمتزج بنتانة نهر بيافر.

يتأمّل غوبيشون بتأثّر وخشوع طلوع القمر بين مدخنتين.

ضحيّة من ضحايا الإعلانات[1]

عرفت فتًى طيّباً توفّي العام الماضي بعد حياة لم تكن سوى معاناة طويلة.

منذ أن بلغ سنّ الرشد، مشى كلود على هدى المنطق التالي: «إنّ مخطّط حياتي مرسوم بالكامل. ليس عليّ سوى أن أسلّم بصورة عمياء بمنافع عصري. يكفيني حتّى أتماشى مع التقدّم وأعيش في هناء تامّ، أن أقرأ الصحف واللّافتات صباحاً ومساءً، وألتزم بالكامل بما ينصحني به هؤلاء المرشدون المتفوّقون ذوو الأحكام المبرمة. في ذلك تكمن الحكمة الحقيقيّة والنعيم الوحيد الممكن». انطلاقاً من ذلك اليوم، جعل كلود من إعلانات الصحف واللّافتات سنّة حياة له. أضحت الدليل المعصوم الذي يبتّ في جميع المسائل. لم يشترِ أيّ غرض ولم يقْدِم على أيّ عملٍ إلّا ما أوصاه به صوت الإعلان، صوت يعلو فوق كلّ الأصوات.

هكذا عاش المسكين في جحيم حقيقيّ.

***

كان كلود اشترى قطعة من الأراضي المستصلحة حيث لم يكن من الممكن البناء سوى على أعمدة رافعة. المنزل المشيّد وفق نظام معماريّ

(1) نشر هذا النصّ للمرّة الأولى تحت عنوان «ضحيّة للإعلانات» في صحيفة *L'Illustration* في 17 تشرين الثّاني 1866 ثمّ في *L'Evènement illustré* في 29 آب 1868. نشر بعدها تحت عنوان «دردشة» في صحيفة *La Tribune* في 12 كانون الأوّل 1869 وأخيرا في زاوية *Lettres parisiennes* في صحيفة *La Cloche* في 29 حزيران 1872. ننقل هنا هذه الصيغة الأخيرة.

جديد كان يترنّح في الريح ويتفتّت تحت الأمطار والعواصف.

في الداخل، المواقد المجهّزة بأنظمة مانعة للدخان تبعث دخاناً خانقاً. الأجراس الكهربائيّة تصرّ بتعنّت على لزوم الصمت. الحمّامات المطابقة لنموذج بارع تحوّلت إلى بالوعة كريهة من القذارة. قطع الأثاث التي كان يفترض أن تتّبع آليّات دقيقة، ترفض أن تنفتح وتنغلق.

كان هناك خصوصاً بيانو آليّ لم يكن في الواقع سوى أرغن يدويّ رديء، وخزنة منيعة لا تُخلع ولا تُحرق حملها لصوص على ظهرهم في إحدى ليالي الشتاء وفرّوا بها بطمأنينة كاملة.

***

لم تكن معاناة كلود المسكين تقتصر على أملاكه، بل كان يتألّم في شخصه أيضاً.

ملابسه كانت تنشقّ في وسط الشارع. كان يبتاعها من تلك المحلّات التي تعلن عن تخفيضات كبرى بسبب التصفية.

التقيته ذات يوم أصلع تماماً. خطر له أن يبدّل شعره الأشقر بشعر أسود، مسترشداً كما على عادته بحبّه للتقدّم. السائل الذي استخدمه لأجل ذلك جعل شعره الأشقر يتساقط، وكان في غاية السرور لأنّه بات في وسعه استخدام مرهم معيّن سوف يمنحه بالتأكيد شعراً أسود أكثر كثافة من شعره الأشقر السابق بمرّتين.

لن أعدّد كلّ العقاقير التي ابتلعها. وبعدما كان قويّ البنية، بات هزيلاً فاقد الأنفاس. عندها بدأت الإعلانات تقضي عليه تماماً. ظنّ أنّه مريض، فعالج نفسه بوصفات الإعلانات الممتازة. وسعياً منه لمضاعفة مفعول الأدوية، حرص على اتّباع جميع العلاجات في آنٍ، إذ احتار في أمره أمام فيض المديح المنصبّ بالتساوي على جميع العقاقير.

***

استخفّت الإعلانات أيضا بذكائه. ملأ مكتبته بالمؤلّفات التي أوصت بها الصحف. وضّبها وفق نظام تصنيف بالغ الحذاقة، فرتّب الكتب طبقاً لجدارتها، أعني بذلك بحسب تدرّج الغنائيّة في المقالات التي كانت دور النشر تدفع لكتابتها.

تكدّست لديه جميع الحماقات وجميع الشناعات المعاصرة. لم نرَ يوماً هذا الكمّ من الفظاعات المعيبة المتراكمة. وألصق كلود بكثير من الحرص على ظهر كلّ كتابٍ الإعلانَ الذي كان قد دفعه لشرائه.

بهذه الطريقة، حين كان يفتح كتاباً، يعرف مسبقاً قدر الحماسة التي يفترض أن يبديها حياله، فيضحك أو يبكي طبقاً للصيغة المعلنة له.

هكذا تحوّل إلى أبله مكتمل البلاهة.

***

الفصل الأخير من هذه المأساة كان محزناً حقّاً.

قرأ كلود عن امرأة تسير في نومها وتشفي جميع العلل، فسارع إليها لاستشارتها بشأن الأمراض التي لا يعاني منها. تكرّمت وعرضت عليه أن تعيد إليه شبابه، فكشفت له السبيل للعودة إلى سنّ السادسة عشرة إلى الأبد. كان الأمر يقتصر بكلّ بساطة على أخذ حمّام وتناول عقار معيّن.

ابتلع العقار وغطس في الحمّام وعاد في الزّمن إلى شباب مطلق، إلى حدّ أن عُثر عليه بعد نصف ساعة مختنقاً في مغطسه.

حتّى بعد وَفاته، ظلّ كلود ضحيّة الإعلانات. فهو طلب في وصيّته أن يُدفن في نعش مجهّز بنظام تحنيط آنيّ حصل أحد بائعي العقاقير قبل فترة وجيزة على براءة اختراعه. انشقّ النعش إلى نصفين في وسط المدفن وانزلق الجثمان المسكين وسقط في الوحول، ما استوجب دفنه مع الألواح

الخشبيّة المحطّمة.

تبلّل ضريحه المشيّد بالحجارة الكرتونيّة والرخام الزائف منذ أمطار الشتاء الأوّل وسرعان ما لم يبقَ منه فوق الحفرة سوى كومة متعفّنة بلا اسم.

نهار كلب شارد[1]

منذ أصبح الكلاب مواطنين[2]، بات بينهم عدد كبير من المتمرّدين المتعنّتين الذين اتّخذوا قراراً حازماً بعدم تسديد مساهماتهم والعيش على حساب الغير: هؤلاء هم أصحاب الفكر المتحرّر، الهائمون في الشوارع. نصادفهم جماعات جماعات، ينقّبون في الجداول والأنهار بحثاً عن لقية غير منتظرة. لديهم أحزانهم وأفراحهم. ينسلّون أحياناً، خجلين يتضوّرون جوعاً، بمحاذاة المنازل، خرزات ظهورهم ناتئة من الضمور ووبرهم ملطّخ بالوحل. أحياناً أخرى، حين يكتشفون حفنة عظام في تلّة قمامة، يتمرّغون في الشمس وهم يرتعشون مسرورين، بطونهم متلذّذة بالأشعّة الدافئة، وأخطامهم متطاولة.

غالباً ما درستُ سيماءهم. لديهم مظهر أطفالنا المهمَل، الجريء والمستهزئ. يعضّون بعدما يتناولون عشاءهم، ويزحفون حين تكون بطونهم فارغة. تلك الحيوانات البائسة فقدت أيّ حسّ أخلاقيّ.

(1) نشرت قصّة «نهار كلب شارد» للمرّة الأولى في صحيفة *Le Figaro* في الأوّل من كانون الأوّل 1866 يسبقها عنوان «في باريس». ثمّ حلّت قطط محلّ الكلاب ونشر النصّ المعدّل في زاوية «دردشة» في صحيفة *La Tribune* في الأوّل من تشرين الثّاني 1868، ثمّ في زاوية *Lettres parisiennes* في صحيفة *La Cloche* في 12 حزيران 1872، قبل أن تنشر في مجموعة «قصص جديدة إلى نينون» تحت عنوان «جنّة القطط». اخترنا نشر الصيغة الأولى الصادرة في صحيفة *Le Figaro* لفرادتها.

(2) في هذا النصّ يستخدم المؤلّف ضمير العاقل لغيره، فحافظت الترجمة على ذلك، وهو ما استخدمه العرب أيضاً في الحكايات الخرافيّة. انظر على سبيل المثال كتاب «كليلة ودمنة» لواضعه أو مترجمه ابن المقفّع.

يرفضون الحضارة والحضارة تنبذهم. يعيشون بالحيلة والمواربة، دسّاسين معوزين، يقايضون قطعة لحم بضربة عصا.

الحقيقة أنّني أشعر بالتعاطف حيالهم. كونوا واثقين من أنّهم شعراء بوهيميّون يفضّلون التنظير في الفلسفة ونظم الأشعار في الهواء الطلق على أن يتمدّدوا ببلاهة في دفء أريكة بين أربعة جدران. إنّني على يقين من أنّهم يعيشون حرباً مفتوحة ضدّ المجتمع، لكنّ المجتمع متين، والكلاب الشاردة كائنات مسكينة تتيه في أحلامها وتحلّق إلى علوّ لا يسمح لها بأن تفكّر في الشعوب وحاكميها.

كلّ ذلك يقودنا إلى القصّة التي سأرويها لكم. إنّها قصّة حزينة سردها لي مساء أمس الكلب الهرم الذي ورثته من عمّ والدي، وكان للأسف كلّ ما تركه لي.

كنّا جالسَين نتدفّأ قرب الموقد، نتأمّل بكآبةٍ الرمادَ المشتعل. بدأ توم يتكلّم فجأةً. «آه! كم هي طيّبة هذه النار، قال. وكم أنّ الذكريات تنفلت من عقالها أمام الجمر! سوف أروي لك قصّة يا معلّمي العزيز، قصّة من صباي».

1

كان عمري سنة تقريباً، وكنت الكلب الأكثر سذاجة الذي يمكن أن تصادفه. الشباب مغرور. يرتكب أعظم ضروب الجنون وهو على قناعة بأنّه إنّما يتصرّف بمنتهى الحكمة.

تعلم كم كان عمّ والدك يحبّني. كان لديّ غرفة صغيرة داخل خزانة فسيحة، فرش فيها بطّانيّة على ثلاث طبقات جعلت من تلك الحجرة السرير الأكثر وِثارةً الذي يمكن تصوُّره. أمّا الطعام، فكان يضاهي

المنامة. لم يقدّم لي يوماً خبزاً أو حساءً، فقط اللّحم، قطع لحم سمينة تقطر دماً. أمّا السكّر، فإنّك تعلم بالتأكيد أنّني لم أعد أحبّه. هذا لأنّني أكلت منه الكثير في شبابي. أعترف لك بأنّ السكّر بات في نهاية الأمر يبعث فيّ الغثيان، ولم أكن أقبل بتناوله إلّا مراعاةً لعمّ والدك.

حسناً! وسط كلّ هذا الهناء والنعيم، كان لديّ رغبة وحيدة، وهي أن أنسلّ من الباب الموارَب وأهرب إلى الشارع. المداعبات كانت تبدو لي مضجرة، وطراوة سريري مقزّزة. كنت سميناً إلى حدّ الاشمئزاز من نفسي، وسئماً طوال النهار في سعادتي.

لا بدّ لي أن أخبرك أنّني شاهدت من النافذة وأنا أمدّ عنقي الرصيف المقابل. كان عليه في ذلك اليوم أربعة كلاب يتعاركون مطلقين عواء جذلاً. يتمرّغون أرضاً في أشعّة الشمس، نحيلين وشامخين. لم يسبق أن تأمّلت مشهداً رائعاً كهذا. أخذتُ أنبح يائساً وسارع عمّ والدك إلى إسكاتي بقطعة سكّر اضطررت إلى ابتلاعها.

اعتباراً من تلك اللّحظة، باتت قناعاتي محسومة. فالسعادة الحقيقيّة كانت خلف ذلك الباب اللّعين الموصد بإحكام. وكنت أحتجّ لذلك بأنّهم يغلقون أيضاً أبواب الخزائن التي يحفظون خلفها اللّحوم الطريّة. في أحد الأيام، غفلوا عن إغلاق الباب، فهرعت ونزلت الأدراج.

2

كم كان الشارع جميلاً! كان محاطاً بمجاري مياه تبعث روائح شهيّة. الوحل المتطاير تحت قوائمي ينثر وبري بعذوبة لا توصف مثل ملامسة دافئة. بدا لي أنّني أسير على حرير. وكم كان الدفء طيّباً في الشمس، دفء عذب يتغلغل في سمنتي فيُخيَّل لي أنّها تذوب تحت ملمسه.

لن أخفي عليك أنّ فرائصي كانت ترتعد. كان هناك ذعر في فرحتي وانبهاري. أذكر خصوصاً جفوليَ الفظيع حين قدِم صوبي فجأةً ثلاثة كلاب كانوا يتقلّبون في الوحل وهم ينبحون. كدتُ يُغمى عليّ. ضحكوا على بلاهتي وقالوا لي إنّهم ينبحون من باب المزاح. أخذت أنبح مثلهم وأتمرّغ في الوحل وألهو بألعاب كثيرة مع رفاقي الجدد.

هم كانوا أشدّاء. لم تكن السمنة تثقلهم مثلي وكانوا يسخرون منّي حين أتدحرج مثل كرة على الرصيف. أذكر لاحقاً أنّهم تبادلوا نظرات شفقة حين رويت لهم قصّتي بكثير من السذاجة.

أبدى لي كلبٌ ضخمٌ هرِمٌ من الشلّة قدراً خاصّا من المودّة. عرض عليّ أن يتولّى تربيتي، فقبلت به معلّماً.

آه! كم أصبحت سكاكر عمّ والدك بعيدة! شربت من مياه المجرى، وأفصحت بأنّني لم أذق يوماً عسلاً كهذا. كلّ ما من حولي بدا لي رائعاً ولذيذاً. عرفت أخيراً طعم السعادة التامّة، الحياة المثاليّة، وهي أن أعيش في الشمس بحريّة، وأعوّي حين أشاء.

عبرت كلبة، كلبة فاتنة حرّكت في نفسي عندما لمحتُها مشاعر لم أحسّ بها من قبل. لم يسبق لي أن شاهدت مثل هذه المخلوقات الساحرة التي تبعث الجنون في نفوس الكلاب الأكثر حكمة سوى في أحلامي. اندفعنا أنا ورفاقي الأربعة لملاقاة الحسناء. تقدّمتُ الجميع وهَمَمْتُ بمغازلة الكلبة حين انقضّ عليّ أحد أصدقائي بشكل مفاجئ وعضّني في عنقي. أطلقتُ عواءَ ألم ويأس.

«لا تأبه! قال لي الكلب الضخم الهرم وهو يبعدني، هناك ما هو أسوأ».

3

قطعنا مسافة بعيدة ونحن يطارد أحدنا الآخر، وبدأ الجوع يشتدّ عليّ.

«ماذا نأكل في الشارع؟ سألت صديقي الكلب الضخم.

- أيّ شيء نعثر عليه»، أجاب بنبرة العليم.

احترت لهذا الجواب، لأنّني مهما بحثت وفتّشت، لم أكن أعثر على أدنى شيء. عندها رأيت في الجهة المقابلة من الشارع محلاً رائعاً تتكدّس فيه قطع لحم ضخمة مقطّعة بمهارة.

«وجدت مبتغاي»، فكّرت بسذاجة.

وثبت على إحدى الطاولات الرخاميّة المفروشة عند مدخل المحلّ وتناولت ضلعَ بقرٍ كبيراً، وكنت على وشك أن أحمله معي حين سدّد لي فتى يرتدي مريولاً أبيض ضربة عصاً فظيعة على ظهري. أفلتّ قطعة اللّحم وولّيت هارباً مطلقاً عواءً.

«غير معقول! قال لي الكلب الضخم. ألم تخرج يوماً من قريتك؟ اللّحم المعروض على الطاولات هو فقط للتأمّل من بعيد. الوحول هي المكان الذي ينبغي أن نبحث فيه».

تملّكتني دهشة تضاهي ألمي. لم أفهم على الإطلاق كيف يعقل ألّا تكون لحوم الشارع للكلاب. فهي معروضة هنا جاهزة، متاحة لشهيّة الجميع، وبما أنّني أكلّف نفسي عناء التسلّق لتناولها، فمن الظلم ألّا يُسمح لي بحملها معي.

بدأت معدتي تمتعض بجديّة. مياه المجارير لم تكن بالتأكيد قوتاً يسدّ الجوع، بل فقدتْ أيّ اعتبار في نظري. رحت أنقّب في الوحل بلا فائدة. حذّرني الكلب الضخم بأنّه يجدر الانتظار حتّى اللّيل، ساعة يُفرغ الجميع القمامة أمام أبوابهم. الانتظار حتّى اللّيل! كان يقول ذلك بكلّ هدوء،

مثل فيلسوف تعلّم دروس الحياة، ومجرّد فكرة الانتظار هذه كانت كافية لتمزيق أحشائي.

أخذ الكلب الضخم يرتعد فجأةً. انقبض منكمشاً على نفسه وانسلّ متخفّياً بمحاذاة البيوت، وهو يأمرني أن ألحق به بأسرع ما يمكن. ما إن وجد باباً حتّى سارع إلى الاحتماء فيه، مطلقاً نخير ارتياح. سألته عن هروبنا.

«هل رأيت ذلك الرجل الذي كان يحمل سيفاً؟ سألني.

أجل.

– حسناً! لو لَمَحَنا، لكان اقتادنا معه ولكانوا شنقونا.

– شنقونا؟ صحت متفاجئاً. لكن أليس الشارع ملْكنا؟ حريّة العيش في الشمس، السعادة المطلقة، الحياة المثاليّة... كلّ ذلك هو إذاً مجرّد كلام فارغ!... الحقيقة أنّنا لا نأكل ونُشنق!»

4

حلّ اللّيل، ليل بارد موحل. انهمر المطر رقيقاً ينفذ إلى العظام، زخّات تعصف بها ريح كئيبة تقبض القلب. ربّاه! كم كان الشارع قميئاً! تبخّر ذلك الدفء الطيّب، غابت تلك الشمس المشعّة، توارت الأرصفة الناصعة في النور حيث كنّا نتمرّغ مبتهجين. وجدتني أتحسّر بمرارة على البطانيّة بطبقاتها الثلاث وجدران المنزل الأربعة.

أُفرغت النفايات أمام الأبواب ورحت أنقّب في الأكوام، يائساً وجائعاً. عثرت على بضعة عظام ضامرة ممروغة بالرماد، واعترفت لنفسي بأنّ اللّحم ألذّ وأشهى. عندها أدركت كم أنّ السكّر حلو وطيّب.

كان صديقي الكلب الضخم فنّاناً حقيقيّاً في ترصّد الطعام. جعلني

أجري حتّى طلوع النهار، متفقّداً كلّ مجرى مياه، متمهّلاً بلا عجلة. كنت أكاد أسقط أرضاً من الإعياء. على مدى حوالى عشر ساعات انهمر المطر فوق ظهري، وكنت أرتعد حتّى أطراف قوائمي. كنّا نسير في اللّيل الحالك، نغوص في برك الماء، خائري القوى والوحل القذر يكسونا. يا للشارع اللّعين والحريّة اللّعينة! كم كنت أتوق بجموح إلى العبوديّة!

عند الصباح، سألني الكلب الضخم وقد لاحظ أنّني أترنّح:

«حسناً، هل سئمتَ؟

- بالتأكيد، أجبته.

- هل تريد العودة إلى بيتك؟

- طبعاً! لكن كيف أجد طريقي؟

- تعال، أعتقد أنّ هذا الدرس سيكون كافياً. هذا الصباح رأيتك خارجاً فأدركت أنّ كلباً لطيفاً مثلك لا يمكنه أن يقاوم ملذّات الشارع القاسية. أعرف أين منزلك وسوف أرافقك إلى بابك».

قال ذلك ببساطة. كلب كريم حقّاً. وحين وصلنا أخيراً:

«وداعاً، قال دون أدنى تأثّر.

- لا، صحت به. لن نفترق هكذا. سوف تأتي معي. سنتقاسم السرير ذاته وطبق الطعام ذاته. معلّمي رجل طيّب...»

لم يدعني أكمل جملتي.

«اصمتْ، قاطعني بنبرة آمرة. إنّك طفل. لو ظهرتُ على الباب، فإن معلّمك سيطردني بركلة، وسيكون على حقّ في ذلك. من يرغب في متسيّب عجوز مثلي جاب كلّ مجاري المياه في باريس؟ عشت على أكوام القمامة وسوف أموت فوق كومة قمامة... وداعاً».

ابتعد وذهب ليتمدّد في الساحة المجاورة في أشعّة الشمس الصباحيّة.

حين دخلْتُ، تناول عمّ والدك السوط وعالجني بجلْدات تلقّيتها بفرح عميق. تذوّقت بسرور لذّة أن أتلقّى ضربات وأنا أنعم بالدفء. وبينما كان يضربني، كنت أفكّر بشهيّة في اللّحوم والسكاكر التي سأتناولها خلال النهار.

آه! دعني أقول لك، ختم توم وهو يتمدّد أمام الجمر، السعادة الحقيقيّة، الحياة المثاليّة، يا معلّمي العزيز، هي أن تُحبس وتُضرب داخل غرفة فيها سكاكر ولحوم.

وإنّني أحكي لسان حال جميع الكلاب.

زواج حبّ[1]

تذكّرني الرواية التي تنشرها صحيفة «لو فيغارو» والتي حصدت نجاحاً مستحقّاً وكان لها وقع كبير في النفوس[2]، بقصّة فظيعة، قصّة شغف وعذاب. سوف أرويها ببضع كلمات، محتفظاً بتفاصيلها لتأليف الكتاب الذي تتطلّبه في أحد الأيّام. وإن كنت قرّرت أن أرويها اليوم، فلأنّها تحوي أمثولة سامية وتظهر مذنباً يجد جزاءً فظيعاً في نجاته من العقاب الذي يستحقّه على جريمته.

تصوّروا فوربيس متزوّجاً من مارغاي بعدما نجح في إخفاء جريمة قتل باسكول عن عدالة البشر. نجح القاتلان، العشيق والمرأة الزانية، في إنقاذ شرفهما، وسيتمكّنان من عيش الحياة الهانئة التي حلما بها. ها هما مقترنان إلى الأبد، متّحدان في الشهوة والدم. بات بوسعهما أخيراً إرضاء نهمهما إلى الثروات والفسق بقدر ما يشاءان[3].

---

(1) صدر هذا النصّ للمرّة الأولى في زاوية ***Dans Paris*** في صحيفة ***Le Figaro*** بتاريخ 24 كانون الأوّل 1866. وتشكّل هذه القصّة القصيرة ذات العنوان الساخر سيناريو كتاب «تيريز راكان»، أوّل رواية كبرى لزولا والتي سيؤلّفها بوتيرة سريعة وستصدر في تشرين الثاني 1867 لتشكّل حدثاً أدبياً.

(2) يتكلّم زولا عن رواية متسلسلة للكاتبين آدولف بولو وإرنست دوديه بعنوان «فينوس بلدة غورد» نشرتها صحيفة ***Le Figaro*** بين 16 تشرين الثاني و26 كانون الأوّل 1866.

(3) «فينوس بلدة غورد» ***La Vénus de Gordes*** رواية مبنية على أحداث واقعيّة حصلت في بلدة غورد في منطقة فوكلوز، جريمة قتل راح ضحيتها رجل اغتاله عشيق زوجته. مثل الشريكان في الجريمة أمام محكمة الجنايات وحُكم عليهما بالسجن المؤبّد. يسعى زولا إلى استغلال فكرة حتميّة العقاب الملازمة له، فيتصوّر قصّة تفلت فيها الجريمة من القضاء.

إليكم قصّة زواجِ حبّ كهذا.

***

كان ميشال في الخامسة والعشرين حين تزوّج سوزان، امرأة شابّة من عمره، نحيلة القامة من شدّة عصبيّتها. لم تكن قبيحة ولا جميلة، ولكنّ عينيها الكبيرتين الرائعتين كانتا مشقوقتين من صدغ إلى صدغ في وجهها المتطاول الهزيل. عاشا ثلاث سنوات صافية بلا مشاجرات، لم يستقبلا خلالها سوى جاك، صديق الزوج، والذي وقعت الزوجة شيئاً فشيئاً في غرامه بشغف مطلق[1]. انساق جاك إلى عذوبة هذا العشق ولهيبه. غير أنّ شيئاً لم يعكّر صفو الحياة الزوجيّة، إذ كان العشيقان جبانين يتهرّبان من فضيحة حتميّة. ودون أن يدركا الأمر، توصّلا تدريجيّاً إلى خطّة للتخلّص من ميشال. كان يُفترض لجريمة قتل أن تسوّي الوضع بالكامل وتسمح لهما بعيش حبّهما بكلّ حريّة تحت جناح القانون.

أقنعا الزوج ذات يوم بالقيام بنزهة في الريف. ذهبوا إلى كورباي، وهناك، بعدما طلبوا العشاء، اقترح جاك القيام بجولة في قارب على نهر السين. وبعدما وافق الزوجان، تولّى جاك المجذافين وانحدر في النهر، بينما كان رفيقاه يغنّيان ويضحكان مثل طفلين.

حين وصل القارب إلى منتصف نهر السين، مخبّأ خلف أجمات الأشجار العالية فوق إحدى الجزر، قبض جاك فجأةً على ميشال وحاول أن يرميه في الماء. توقّفت سوزان عن الغناء وأشاحت بوجهها، شادّةً على شفتيها، وهي ترتعش بصمت. تعارك الرجلان للحظة عند حافة القارب الذي أخذ يغرق وهو يطقطق ويصرّ. تفاجأ ميشال، عاجزاً عن فهم ما يجري. راح يدافع عن نفسه بصمت، بغريزة حيوان محاصر. عضّ

(1) كثيراً ما يعود هذا المثلّث الغراميّ في روايات زولا منذ «اعترافات كلود».

جاك في خدّه وكاد يقتلع قطعة منه، ثمّ سقط في النهر وراح ينادي زوجته حانقاً ومذعوراً. لم يكن يحسن السباحة[1].

عندها حمل جاك سوزان بين ذراعيه وارتمى في الماء قالباً القارب، ثمّ أخذ يصرخ ويستغيث. كان سبّاحاً بارعاً، فساند المرأة الشابّة ووصل بها دون عناء إلى الضفّة، حيث كان بعض الأشخاص تجمّعوا.

هكذا لُعِبت المسرحيّة الرهيبة. كانت سوزان ممدّدة على الرمال، باردةً وفاقدة الوعي. وجاك ينتحب يائساً، مستنجداً بالجمع لإغاثة صديقه بأسرع ما يمكن. في اليوم التالي نقلت الصحف الحادث. وبما أنّ العشيقين لطالما لزما حيطة توازي جبنهما، لم يخطر لأحد أنّ الحادث قد يكون يخفي جريمة. وتمكّن جاك من تبرير عضّة ميشال، شارحاً أنّه جرح خدّه بمسمار في القارب.

***

توجّب الانتظار ثلاثة عشر شهراً على الأقلّ. كان العشيقان تشاورا مسبقاً وقرّرا أن يتصرّفا بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الحذر. تفاديا أيّ لقاء بينهما ولم يتقابلا إلّا أمام شهود.

أي لهفة بينهما لربّما كانت أثارت الشبهات.

خلال الأيّام الثمانية الأولى، ذهب جاك بانتظام إلى المشرحة كلّ صباح. وبعدما عثر على جثّة ميشال على إحدى البلاطات البيضاء وتعرّف عليها، طالب بتسلّمها باسم الأرملة ودفنها. كان قد ارتكب الجريمة ببرودة دم، واعترته ارتعاشة رعب أمام ضحيّته المشوّه بشكل فظيع، المكسوّ ببقع زرقاء وخضراء. منذ تلك اللّحظة، بقي وجه الغريق

(1) هكذا قام لوران بقتل كاميل الضعيف البنية في رواية «تيريز راكان». وفي رواية «فينوس بلدة غورد»، قُتل الزوج بطلقة بندقيّة.

المتورّم والملتوي في تكشيرة مخيفة ماثلاً أمام عينيه.

انقضت ثمانية عشر شهرا نادراً ما التقى خلالها العشيقان. وفي كلّ لقاء، كانا يشعران باضطراب غريب. نسبا هذا الإحساس الأليم إلى الخوف، إلى توقهما الشديد للانتهاء من هذه القصّة المشؤومة حتّى يتزوّجا ويذوقا أخيراً حلاوة حبّهما. كان جاك يعاني على الأخصّ من الوحدة. أسنان ميشال تركت على خدّه آثاراً بيضاء، وكان يُخيّل للقاتل أحياناً أنّ هذه الندوب تحرق جلده وتلتهم وجهه. كان يأمل أن تسكّن سوزان بقبلاتها هذه الحروق المريعة التي تكويه.

حين اعتبرا أنّهما انتظرا فترة كافية، تزوّجا وفرح لهما جميع معارفهما. عرفا خلال فترة التحضير للزفاف فرحة عصبيّة خدعتهما هما نفسيهما. الحقيقة أنّهما كانا منذ وقوع الجريمة يقضيان اللّيل يرتعشان، تراودهما كوابيس مخيفة، وكانا ينتظران بفارغ الصبر اللّحظة التي سيتّحدان فيها لمواجهة ذعرهما معاً والتغلّب عليه.

***

حين أصبحا وحيدين في غرفتهما الزوجيّة، جلسا مرتبكين وقلقين أمام نار صافية تلقي حولها مساحات واسعة من النور الأصفر.

كان بودّ جاك أن يعبّر عن حبّه لزوجته، لكنّ حلقه كان جافاً ولم يجد كلمة يتفوّه بها. أمّا سوزان، فجلست متجلّدة من البرد كأنّها ميتة، تبحث يائسة في داخلها عن الشغف الذي غادر جسدها وقلبها.

حاولا عندئذٍ التصرّف بشكل عاديّ والتحدّث كشخصين يلتقيان للمرّة الأولى، لكنّ أيّ كلمة لم تبدر إلى لسانَيهما. كانت ذكرى الغريق المسكين تطغى على أفكارهما، وفيما يتبادلان كلاماً فارغاً، كان كلّ منهما يحزر ما يجول في فكر الآخر. انقطع الحديث بينهما وبدا لهما وسط الصمت

أنّهما يواصلان الكلام عن ميشال. ذلك الصمت الرهيب المليء بالجمل المذعورة القاسية بات مضنياً لا يحتمل. نهضت سوزان، شاحبة في ملابس نومها، حوّلت وجهها عنه وقالت بصوت مخنوق:

«هل رأيته في المشرحة؟

- أجل، أجاب جاك وهو يرتعش.

- هل بدا عليه أنّه تألّم كثيراً؟

لم يستطع جاك الإجابة. قام بإشارة بيده، كأنما لطرد رؤيا مقيتة وبغيضة، واقترب من سوزان مشرّعاً ذراعيه.

«قبّليني، قال مادّاً لها خدّه تعترضه الندوب البيض.

- آه! لا، لا يمكن... ليس هنا!»، صاحت سوزان وهي تتراجع مرتعدة.

جلسا من جديدٍ أمام النار، مذعورَين ومضطربَين. خيّم بينهما صمت طويل يقطعه كلام مرير وملامة وشكوى.

هكذا قضيا ليلة زفافهما.

***

منذ ذلك الحين، حلّت بين الزوجين البائسين مأساة أليمة لا يمكنني سرد كلّ فصولها[1]، بل سأكتفي بإيجاز محطّاتها الرئيسيّة.

استقرّت جثّة ميشال بين جاك وسوزان. في السرير كانا يبتعدان الواحد عن الآخر، كأنّهما للإفساح لها. وفي قبلاتهما تصبح شفاههما باردة، وكأنّ الموت حلّ بين ثغريهما. كان هناك ذعر متواصل، هلع مفاجئ يفصل بينهما، هلوسات تصوّر لهما الضحيّة في كلّ مكان وفي أيّ ساعة.

---

(1) الواقع أنّ زولا بنى رواية «تيريز راكان» مثل تراجيديا ذات «فصول» و«مشاهد» و«ديكورات» و«تطوّرات».

لم يعد الحبّ ممكناً بين ذلك الرجل وتلك المرأة. استولى عليهما الذعر تماماً وإن كانا يعيشان معاً، فذلك فقط للاحتماء من الغريق. أحياناً كانا يتعانقان بشدّة، يتّحدان يائسَين، لكن ذلك فقط للتهرّب من الرؤى الكئيبة التي تراودهما.

ثمّ جاء الحقد. تملّكهما السخط لارتكابهما الجريمة، ويئسا إذ أدركا أنّهما أفسدا حياتهما إلى الأبد. عندها أخذا يتبادلان الاتّهامات. ألقى جاك باللّائمة على سوزان، آخذاً عليها بمرارة دفعه إلى القتل، وردّت سوزان صارخةً بوجهه أنّه يكذب وأنّه وحده المذنب. زاد الغضب من شدّة مخاوفهما، وفي كلّ يوم كان الشجار يتأجّج بينهما لأدنى ذكرى تتبادر، فيستعر بمزيد من القسوة والحدّة. كان القاتلان يدوران مثل حيوانين مفترسين في قفص الحياة الأليمة التي بنياها بأيديهما، فيهشّم كلّ منهما الآخر، كابتَين أنفاسهما، مرغمَين على لزوم الصمت.

تحسّرت سوزان على ميشال، بكته جهاراً، تغنّت للقاتل بمزايا ضحيّته، واضطرّ جاك إلى العيش باستمرار في ذكر ذلك الرجل الذي رماه في مياه النهر والذي كانت جثّته ممدّدة بكلّ فظاعتها على بلاطة المشرحة. غالباً ما كان الهذيان يستولي عليه، فينهال على شريكته بالشتائم والضرب، ويكرّر لها زاعقاً قصّة الجريمة ليثبت لها أنّها هي التي دبّرتها إذ أشعلت في نفسه جنون العشق.

لو لم يكن يخشى الألم، لكان قطع خدّه ليتخلّص من آثار أسنان ميشال. كانت سوزان تنهار باكيةً حين تنظر إلى العضّة. بات وجه جاك مصدر هول لها ترتعش لمجرّد رؤيته.

***

أُزيح الستار أخيراً عن الفصل الأخير من هذه المأساة الأليمة. بعد

الحقد، جاء الخوف والتخاذل. وبات القاتلان يتبادلان الخشية.

أدركا أنّه ليس في مقدورهما الاستمرار في العيش في قبضة الندم. كان كلّ منهما يرى بذعرٍ إحباط الآخر، وكانا يرتجفان من الخوف حين يخطر لهما أنه سيأتي لا محالة يومٌ يتكلّم فيه أحدهما.

عندئذٍ أخذ كلّ منهما يراقب الآخر. لم يكن من الممكن احتمال معاناتهما، لكنّهما لم يشاءا أن يأتي الخلاص في العقاب. راح أحدهما يتعقّب الآخر، يراقبه في أدنى خطوة يقدم عليها، يهدّده بكشف الحقيقة. ثمّ تبادلا التوسّلات، راجيَين لزوم الصمت، وبقيا على ريبتهما وضراوتهما. تلك كانت حياة فظيعة حملت معها كلّ أهوال الذعر والندم[1].

وصل الأمر بهما إلى فكرة التخلّص من الشريك المخيف. كانت سوزان تأمل في حياة أكثر طمأنينة، بعدما يغيب عن عينيها مشهد خدّ جاك تعترضه الندبة، فيما خطر لجاك أنّه قد يتمكّن من دفن جريمته الأولى بقتل سوزان.

في أحد الأيّام، باغت كلّ منهما الآخر يصبّ في كوبه سمّاً[2]. انهارا باكيَين، خمدت حمّى غضبهما وتعانقا. بكيا طويلاً، كلّ منهما طالباً من الآخر المغفرة. أدركا دناءتهما وقال أحدهما للآخر إنّ الوقت حان ليضعا حدّاً لحياتهما. كانت تلك آخِر محنة أجْلت الغمّ عن قلبيهما.

شرب كلّ منهما السمّ الذي كان قد سكبه ولفظا أنفاسهما الأخيرة في اللّحظة ذاتها، متّحدين في الموت كما اتّحدا في الجريمة. تركا اعترافاتهما على

---

(1) في رواية «تيريز راكان»، أدخل زولا منذ البداية شخصيّة السيّدة راكين، والدة الضحيّة. وهي مشلولة وبكماء، لكنّها كشفت الحقيقة وباتت بنظر العشيقين اللذين تجسّد ملامة شديدة حتّى النهاية المشؤومة.

(2) في الرواية، يكون لوران على وشك سكب السمّ، لكنّ تيريز تشهر خنجراً لقتل زوجها. النهاية مماثلة لسيناريو «زواج حبّ» لكنّ إخراجها ميلودراميّ.

طاولة. قرأْتُ هذه الوصيّة الفظيعة، وهكذا تمكّنتُ من كتابة قصّة زواج الحبّ هذا.

الثلج[1]

عند هبوط المساء، تتصاعد من الأفق غيمة رماديّة متورّدة تملأ السماء ببطء. تهبّ عصفات ريح خفيفة باردة تبعث ارتعاشات في الهواء. ثمّ ينسدل صمت عظيم وسكون عذب جليديّ فوق باريس التي تغفو. ترقد المدينة السوداء، يتساقط الثلج متبالداً في الصفاء الجليديّ الذي يملأ الفضاء. وتفرش السماء بساطاً نقيّاً عذريّاً يغطّي بصمتٍ المدينة الشاسعة النائمة.

حين استيقظت باريس، رأت السنة الجديدة ألبستها خلال اللّيل فستاناً أبيض. بدت المدينة فتيّة وطاهرة. لا مجاري مياه، لا أرصفة ولا طرقات سوداء. الشوارع أشرطة طويلة من الحرير الأبيض. الساحات ومربّعات العشب كلّها مكسوّة ببياض الأقحوان. أزهرت أقحوانات الشتاء أيضاً على السطوح القاتمة. حافّات النوافذ، السياجات، أغصان الأشجار، كلّها مزدانة بشريط من الدنتيل الخفيف.

لكأنّ المدينة فتاة صغيرة يدبّ فيها شباب السنة الجديدة الغضّ. تخلّصت للتوّ من أسمالها ووحولها وغبارها وارتدت تنانيرها البهيّة من الشاش. كانت تتنفّس بهدوء، باعثة لهاثاً نقيّاً طريّاً. تعرض بدلالِ طفلةٍ حلّتها البريئة النقيّة.

(1) نُشر النصّ في زاوية ***Dans Paris*** في صحيفة ***Le Figaro*** في 17 كانون الثاني 1876 ثمّ نُشر مجدّداً تحت الزاوية نفسها في صحيفة ***La Revue moderne et naturaliste*** في كانون الثاني 1880. اخترنا نشر هذه الصيغة الثانية هنا.

كانت تلك مفاجأة تعدّها لسكّانها، فتمحو لأجلهم كلّ ما يلطّخها ويلوّثها وتبتسم لهم عند نهوضهم بتألّق جمالها العذريّ، وكأنّها تقول لهم: «تزيّنتُ بينما كنتم نائمين. أردت أن أطلّ عليكم بحلّة من البياض والرجاء لأتمنّى لكم عاماً سعيداً[1]».

***

وها أنّ المدينة استعادت منذ الأمس بياضها وطُهرها.

في الصبيحات الشتائيّة، حين نفتح الستائر الخشبيّة، ليس هناك مشهد أكثر كآبة من مشهد الشارع المكسوّ بسواد الرطوبة والبرد. الهواء مبلّل بضباب صفراويّ يلتصق كئيباً بالجدران.

لكن مع سقوط الثلج الذي فرش بصمتٍ مطبقٍ خلال اللّيل بساطه الوثير على الأرض، يطلق الجميع صيحات مفاجأة وابتهاج. زالت جميع قباحات الشتاء وكلّ منزل يبدو أشبه ما يكون بسيّدة متألّقة ارتدت معطفها الفرو. السطوح ترتسم بفرح تحت السماء الشاحبة المشعّة والبرد أزهر ضمّات وباقات.

منذ الأمس تعمّ باريس تلك البهجة التي يبعثها الثلج لدى الأطفال، الصغار منهم والكبار. الجميع فرح لمجرّد أنّ الأرض بيضاء.

***

ثمّة في باريس مشاهد شاسعة لا مثيل لها. اعتدنا عليها فلم نعد نكترث لها. لكنّ المتسكّعين، أولئك الذين يهيمون متأمّلين من حولهم بحثاً عمّا يبعث في نفوسهم انفعالاً وإعجاباً، أولئك يعرفون جيّداً هذه

---

(1) زولا من كبار شعراء العاصمة الفرنسية وعلى غرار بودلير، كان مفتوناً بالمدينة التي أحسن التقاط جمال وجهها «الحديث». يمكن تشبيه هذا النصّ بقصائد النثر الصغيرة في مجموعة بودلير الشعريّة «سوداويّة باريس» *Spleen de Paris*. كذلك وصف زولا مشاهد أخرى لباريس تحت الثلج، ولا سيّما في روايتيه «الحانة» و«صفحة حبّ».

المشاهد[1]. أمّا أنا، فأحبّ بشغفٍ ذلك القسم من نهر السين الممتدّ من كاتدرائيّة نوتْر دام إلى جسر شارنتون. لم أرَ يوماً أفقاً أوسع وأكثر عجباً من أفقه.

حين يتساقط الثلج، يكتسب هذا المشهد بعداً ومدى أكبر. يسيل نهر السين أسود كئيباً بين شريطين ناصعين من البياض. تمتدّ الأرصفة طويلة، صامتة ومقفرة، والسماء فوقها تبدو شاسعة، بلون رماديّ لؤلؤيّ عذب ورتيب. ثمّة في هذه المياه الموحلة المنسابة مزمجرةً بين المساحات البيضاء وفسحات السكون، سوداويّة أليمة، حلاوة مرّة وحزينة.

كانت سفينة تنحدر هذا الصباح في النهر. كان الثلج يغطّيها وبدت مثل بقعة بيضاء على صفحة المياه الجنائزيّة، كأنّها قطعة من الضفّة يجرفها التيّار.

***

أيّ كاتب سيأخذ على عاتقه أن يرسم بالريشة مشاهد باريس؟ عليه أن يظهر المدينة بوجهها المتبدّل على وقع تعاقب الفصول، سوداء تحت المطر وبيضاء تحت الثلج، مضيئة ومرحة في أشعّة أيّار الأولى، ملتهبة وراكدة في شمس آب.

عبرْتُ للتوّ حديقة لوكسمبورغ ولم أعرف أشجارها ولا أرضها. آه كم هي بعيدةٌ الخضرة تتماوج ذهبيّة في نور المغيب الأصفر والأحمر! خلتُني في مدفن. كلّ حوض أشبه ما يكون ببلاطة رخاميّة مهيبة فوق قبر، والشجيرات ترتفع هنا وهناك مثل صلبان سوداء.

أشجار الكستناء المزروعة في مربّعات هي ثريّات هائلة من الزجاج

(1) إنّ بودلير الذي كان يفكّر في جمع قصائده النثريّة القصيرة في مجموعة بعنوان «المتسكّع الباريسيّ» كتب مُبدياً إعجابه في نشرته «الصالون الأدبيّ 1846»: «الحياة الباريسيّة تزخر بالمواضيع الشاعريّة الرائعة. الروعة تحيط بنا وتروينا مثل الهواء، لكنّنا لا نراها».

المنفوخ في زخارف رائعة. كلّ غصن صغير مزيّن ببلّورات رقيقة، واللّحاء الداكن مكسوّ بتطريزات رهيفة. لا يجرؤ الواحد على ملامسة هذه الزجاجيّات الهشّة خشية كسرها.

في الممرّ الرئيسيّ، المسالك مبقورة، فتجد طريقاً يعبر الشجيرات بلا استئذان، وعمّال جرف التربة نبشوا الأرض تاركين فيها جروحاً عميقة أشبه ما تكون بمقابر جماعيّة. الثلج المتراكم على حافات هذه الخنادق يحوّلها إلى حفر فاغرة مخيفة، حالكة السواد وسط كلّ هذا البياض، وكأنّها تنتظر نعوش مساكين بائسة. يخال غريب يعبر هذه الناحية أنّ الطاعون انقضّ على باريس وأنّ حديقة لوكسمبورغ باتت مدفناً لضحاياه.

يا لمنظر الخراب! الأرض المزيّحة بالندوب والجروح تكشف أحشاءها القاتمة. عجلات العربات حفرت أخاديد عميقة، والثلج القذر الملوّث تحت الأقدام ينفلش مثل أسمال ممزّقة فُرشت على الأرض لحجب تقرّحاتها غير أنّها قلّما تستر بؤسها وأهوالها.

الأشجار، تلك الثريّات الزجاجيّة العظيمة، وحدها تحفظ زخارفها الرقيقة. هناك، على المصطبة، التماثيل ترتعد برداً تحت معاطفها البيضاء وتتأمّل من فوق أعمدة الحافة المحيطة بها المروج الناصعة التي لم تطأها قدم.

***

ثمّة من جانب آخر باريسيّون لا يقيمون الكثير من الاعتبار للثلج. أعني بذلك طيور الدوري، تلك العصافير الرماديّة اليقظة المعروفة برعونتها ووقاحتها الأسطوريّتين.

لا تأبه طيور الدوريّ للشتاء والغبار. تعرف كيف تعدو في الوحل دون أن تلطّخ قوائمها. لكنّ العصافير الصغيرة المسكينة تطلق صيحات

يائسة حين تتقافز في الثلج بحثاً عن كسرة خبز. ها هي تفقد مرحها وصخبها وتغدو وديعة مغتاظة. تزعق جوعها ولا تعود تعرف المواقع الجيّدة حيث كانت تجد عادةً قوتاً وفيراً، فتولّي خافقةً أجنحتها بجزع، تتضوّر جوعاً وتصطكّ برداً.

اسألوا سكّان الغرف تحت السطوح. سيقولون لكم جميعهم إنّ طيور الدوري جاءت تدقّ بمناقيرها على نوافذهم طالبةً الدخول لتأكل وتتدفّأ. إنّها كائنات صغيرة جسورة واثقة من نفسها تعرف البشر حقّ المعرفة وتعلم جيّداً أنّنا لسنا شرّيرين. نقرت الطعام عند أقدامنا في الشوارع، فلا ضير في أن تأكل على موائد منازلنا.

أولئك الذين فتحوا نوافذهم رأوا الطيور تدخل، متملّقة رشيقة. حطّت على زاوية قطعة أثاث، مبتهجة بالدفء، نافشة ريشها، وراحت تنقر بتلذّذ الخبز المفتّت أمامها. ثمّ ما إن سطع أوّل شعاع شمس تورّد له الثلج حتّى رحلت بخفقة جناح مطلقةً صيحةَ شكرٍ خفيفة.

***

رأيت عند تقاطع المرصد مجموعة أطفال مغتبطين يرتجفون برداً. كانوا ثلاثة، صبيّان في العاشرة من العمر ملابسهما من طراز ملابس نابولي، وفتاة في الثامنة لوّحت شمس نابولي بشرتها. وضعوا فوق تلّة ثلج آلاتهم الموسيقيّة، قيثاران وكمان.

كان الصبيّان يتعاركان بكرات الثلج، مطلقين ضحكات حادّة. أمّا الفتاة، فكانت مقرفصة تدفن يديها المزرقّتين في بياض الأرض. بدا الافتتان على وجهها الأسمر الملفوف بشال فقير. كانت تشدّ تنّورتها الصوفيّة الحمراء وتحشرها بين ساقيها، فتظهر ساقاها الهزيلتان الصغيرتان

عاريتين ترتجفان. كانت متجلّدة وتبتسم بكلّ تألّق شفتيها الورديّتين[1].

هؤلاء الأطفال لم يكونوا يعرفون على الأرجح سوى لهب الشمس المضني. البرد والثلج الطريّ الحارق كانا عيداً لهم. طيور شارع عابرة قادمة من بلاد وعرة حارقة، كانوا يتناسون جوعهم وهم يلعبون بأزهار الشتاء البيضاء.

اقتربتُ من الفتاة.

«ألا تخشين البرد؟» سألتها.

نظرت إليّ بجسارة صغرها، مشرّعة عينيها السوداوين.

«آه بلى، أجابت بلكنتها. يداي تحرقانني، لكنّ ذلك مسلٍّ جدّاً.

- لكن لن يكون بوسعك بعد قليل الإمساك بكمانك».

بدت مذعورة وهرعت لإحضار آلتها الموسيقيّة. ثمّ جلست في الثلج وأخذت تنقر على الأوتار بأصابعها الخَدِرة. كانت ترافق هذه الموسيقى الهمجيّة بغناء حادّ متقطّع يؤلم أذنيّ.

انفلشت تنانيرها الحمراء على الثلج مثل بقعة متّقدة. كانت شمس نابولي المطفأة وسط ضباب باريس.

***

غير أنّ المدينة لا تحتفظ طويلاً بفستانها الأبيض الجميل. لا تكون بدلة عرسها سوى وجبة من أشعّة الشمس. في الصباح، تزدان بكلّ ما لديها من دنتيل، ترتدي ملابسها من الشاش الأكثر رقّة والساتان الأكثر لمعاناً. وفي المساء تكون في غالب الأحيان لطّخت حلّتها ومزّقتها. وبعد بضعة أيام، يكون فستاها الأبيض مجرّد أسمال.

(1) يرسم زولا لوحته على طريقة الرسّام مانيه، وهو أيضا من كبار المتسكّعين في باريس: مجموعة من أطفال الشارع، تركيز الاهتمام على الملابس والآلات الموسيقيّة، الألوان الحادّة النقيّة، تباين النور والألوان، الكتل الداكنة...

ثمّ يصبح الجوّ لطيفاً، يزرورق الثلج، وتنساب خيوط رقيقة من الماء منحدرةً على طول الجدران، وعندها يبدأ الجليد بالذوبان، مغطّياً الشوارع بطبقة كريهة من الوحل. المدينة برمّتها تتعرّق رطوبة. الجدران الخفيضة تصبح رماديّة ودبقة، والأشجار تتعفّن كأنّها ميتة، والجداول تتحوّل إلى مجارير سوداء لا يمكن عبورها.

باريس برمّتها تبدو موحلة وقذرة وكئيبة أكثر من ذي قبل. أرادت أن تكتسي بملابس راقية رهيفة، فأضحت تغطّيها أسمالٌ تجرجرها على الأرصفة.

حوادث الاختفاء الغامضة[1]

يخال الباريسيّون ذوو المخيّلة الروائيّة الخصبة أنفسهم منذ بضعة أسابيع في أحلك ليالي برج نَيل[2]. تسري قصص كثيرة عن حوادث اختفاء غامضة. فلان خرج ليدخّن سيجاراً على الجادّة، وها أنّ زوجته المفجوعة لا تزال بعد خمسة عشر يوماً تنتظره بلا جدوى. فتىً صغير خُطِف فيما كانت مربّيته تثرثر مع جنديّ من الرماة. وفتاة خرجت لشراء قليلٍ من البهار، فمضت بعيداً بحثاً عن غرضها، بعيداً إلى حيث لم يرها أحدٌ منذ ذلك الحين.

إنّه انتصار لروكامبول[3]. كان الجميع يهزأ من تلك الحفر والفتحات السريّة التي زرعها بونسون دو تيراي في شوارع باريس ومنازلها. مجرّد

(1) صدر هذا الاستيحاء الهزليّ لعالَم الروايات الشعبيّة في زاوية *Dans Paris* في صحيفة *Le Figaro* بتاريخ 20 كانون الثاني 1867. كان زولا في تلك الفترة يؤلف رواية «أسرار مرسيليا» المستوحاة من «أسرار باريس» (1842–1843) لأوجين سو و«أسرار لندن» (1844) لبول فيفال.

(2) من أعلى هذا البرج الذي جرى هدمه في العام 1663، يقال إنّ إحدى كنّات الملك فيليب لو بيل أو فيليب الرابع وتدعى مارغريت دو بورغونيه كانت ترمي في نهر السّين عشّاقها الكثُر بعدما تحبسهم في أكياس. وانتشر هذا الاعتقاد الشعبيّ حتّى أنّ ألكساندر دوما استلهم منه عام 1832 مادة مسرحيّة من خمسة فصول بعنوان «برج نيل» *La Tour de Nesle*.

(3) روكامبول هو بالتأكيد شخصيّة الروايات الشعبيّة الأكثر شهرة في حقبة الإمبراطوريّة الثانية. ابتكره كاتب الروايات المتسلسلة المسهب والكثير الإنتاج بول أليكسي بونسون دو تيراي (1829–1871). وسلسلة مغامرات روكامبول التي بدأت عام 1859 تجلّت عام 1867 في الأجزاء الخمسة من مجموعة «الحقيقة حول روكامبول».

تخيّلات، اختراعات ذهن روائيّ يائس، هذا ما كان يرتأيه أهل المنطق والشجاعة، مؤكّدين أنّه ليس هناك في المدينة أدنى سلالم خفيّة، أو ممرّات سريّة أو أقبية موصدة بجدران. وها أنّه لم يعد بوسع أحد أن يخطو عشر خطوات على الرصيف دون أن يسقط في حفرة مروّعة.

إنّني أكتفي بنقل ما تنشره الصحف الجديّة. يعيش قرّاء «الجريدة الصغيرة» في قلق محموم. يعرفون ما يجري. فقراءة تلك الروايات التي أضحت اليوم تاريخاً حيّاً عرّفتهم على جميع أشراك الجريمة ومكرها الشيّق، وفي كلّ مساء يتوقّعون أن يختفوا أو يتواروا. يحلمون في اللّيل بأنّهم ممدّدون في قعر هذه الممرّات تحت الأرض، التي أرشدهم إليها الروائيّون في يقظتهم.

ثمّة قرّاء أشقياء يتمنّون لو يُخطَفون. هؤلاء يحلمون في كلّ ليلة بخيال مارغريت دو بورغونيه يدعوهم لتناول العشاء في جناح خاصّ من مطعم لا ميزون دور[1]. يتذوّقون الكركند والخطر الوحيد الذي يحدق بهم هو أن يموتوا من عسر الهضم.

يجدر بي على ما أظنّ أن أطمئن مَن يتملّكهم الهلع، وأبدّد آمال الذين يترصّدون مصادفة سعيدة. فإنّ اثنين من أصدقائي المقرّبين تعرّضا للخطف وسمحا لي بنقل مغامراتها. علّ الحقيقة تسكّن المخيّلات الجامحة المهتاجة.

***

جاك كاتب متشكّك صمّم على عدم تصديق كلمة واحدة ممّا تسرده الروايات المأساويّة التي تصوّر باريس تزخر بالأسرار والمكائد وكأنّها

(1) «لا ميزون دور» أو المنزل الذهبيّ هو أحد أشهر مطاعم باريس في تلك الحقبة، أقيم منذ العام 1841 على جادّة الإيطاليين.

مسرح شاتليه. كان ينشر حيثما يستطيع أنّ الروائيّين الرائجين لا يأبهون للجمهور المتنوّر، وأنّ القليل من الحقيقة أفضل من الكثير من الكذب والنفاق. وصلت به الجسارة ذات يوم إلى تحدّي القوى الغامضة، مراهناً على أنّه سيقضي ليلة كاملة في وسط ساحة الكاروسيل وسيعود في اليوم التالي سالماً سليماً إلى منزله.

نفّذ المسكين ما أعلن عنه، فبقي حتّى الثانية صباحاً يذرع الساحة ذهاباً وإياباً ويعدّ الحجارة التي تكسوها، وقد اشتدّ عليه السأم. كان سيُعطي كلّ ما لديه من أجل أن يُخطف، وكان يصرف بلا مراعاة أيّ شرطيّ يحوم حوله، فيكون وجوده كافياً لإبعاد اللّصوص والمجرمين.

وفيما كانت ساعة سان جيرمان لوسيروا تقرع ببطء الساعة الثانية، انقضّ على جاك الرجل الذي ظنّه صديقي شرطياً، محاولاً السيطرة عليه.

«مرحى! يا صديقي، صاح جاك به، لا داعي لاستخدام العنف. تريدني أن أتبعك؟ حسناً! سِر أمامي.

– لا بدّ من أن أعصب عينيك على الأقلّ، همهم الرجل ذو المعطف الأسود.

– لا حاجة لذلك. سوف أغمضهما من تلقاء نفسي. هيّا، دعنا ننطلق بسرعة. أشعر بالبرد في قدميّ».

توجّها إلى «جزيرة المدينة»، واحداً تلو الآخر.

«إنّك تخطئ الطريق يا صديقي، قال جاك. هناك أعمال هدم في هذه الناحية. حيّ الجريمة تبدّل... أرجو منك أن تجعلني أختفي على وجه السرعة لأنّني سئمت».

وصلا أخيراً إلى شارع صغير واندفع جاك متسلّقاً درجاً ضيّقاً شديد الانحدار. أُدخل إلى قاعة أُسدلت حولها ستائر سوداء. في وسط القاعة

طاولة جلس من حولها رجالٌ ملثّمون مدّثرون بمباذل فضفاضة قاتمة.

«أردت أن تختفي، بادره صوت، سوف تختفي.

– هذا جلّ ما أطلبه، ردّ جاك ببساطة، وقد ظنّ أنّه عرف الصوت.

– هكذا إذاً، تابع الرجل الملثّم القول، تظنّ أنّ الكتّاب يكذبون. إن أطلقنا سراحك، فهل ستجرؤ بعد اليوم على القول إنّه من المستحيل أن يُخطَف الواحد في الساعة الثانية صباحاً في وسط ساحة الكاروسيل؟...»

كان جاك ينصت بانتباه لنبرة هذا الصوت الذي كان واثقاً من أنّه سمعه من قبل، حين عادت له ذاكرته فجأةً.

«بربّك! صاح بوجه الرجل الملثّم، لا شكّ أنّك السيّد بونسون دو تيراي!»

انتزع عن وجه الرجل قناع روكامبول. تصاعدت همهمات يائسة من جميع شركائه القاتمين وأزالوا الأقنعة التي كادت تخنقهم. عندها عرف جاك بين الرجال الملتفّين بملابس قاتمة حول الطاولة الروائيّين الرائجين الذين جعلوا من باريس صندوقاً مزدوج القاع مليئاً بالمخابئ الخفيّة والجوارير السريّة.

«سيّدي، قال السيّد بونسون دو تيراي أخيراً مرتبكاً، ظننتك لا تعرفني... الذي حصل هو أنّه، لمّا كان القرّاء قد بدأوا يتنبّهون إلى كذبنا ويملّون كتاباتنا، رأينا أنّ من المفيد أن نقوم ببعض الدعاية لأنفسنا بإقدامنا بين الحين والآخر على خطف أحد البورجوازيّين الهانئين. هذا يضفي مظهراً ممتازاً من المصداقيّة على قصصنا... آه! لا تخشينّ شيئاً، فإنّنا نعيد البورجوازيّ إلى عائلته بعد ثمانية أيّام أو عشرة، بعد تهديده بخطفه مجدّداً إن هو تجرّأ على التفوّه بكلمة... نرجو منك أن تحفظ سرّنا... جان،

رافقِ السيّد واجلب لنا بائع أدوات الخياطة في شارع سان دوني».

ما زال صديقي جاك يحفظ السرّ، لكن ليس هناك ما يمنعني أنا من كشف الحقيقة. فليطمئنّ جميع الذين يرتعدون خوفاً: حوادث الاختفاء الغامضة ليست سوى دعاية بارعة يقوم بها الروائيّون الرائجون لأنفسهم.

***

قصّة صديقي بيار لا تقلّ تطميناً. بيار فتى جميل، شديد الادّعاء وذو طباع ميّالة إلى الوقوع في الغرام. لم يذق طعم النوم منذ أن بدأ الكلام عن الاختفاءات الغامضة. كان على قناعة تامّة بأنّ ليالي برج نَيل الحافلة سوف تعود.

وجدْتُ مشقّة كبيرة في ردعه عن نشر الإعلان التالي في الصفحة الرابعة من الصحف: «شابّ حسن المظهر يودّ الاختفاء بأسرع ما يمكن. إلى من يهمّه الأمر، التوجّه كلّ ليلة بين منتصف اللّيل والواحدة صباحاً إلى مستديرة الشانزيليزيه».

في نهاية الأمر، بادرتْه على الجادّة في إحدى اللّيالي حيث كانت تقام سهرة راقصة امرأة تخفي وجهها خلف وشاح، طلبت منه بصوت عذب أن يتبعها. سارع بيار إلى الامتثال لطلبها بكلّ طيبة خاطر. دعته المرأة المتّشحة للصعود على متن عربة، عصبت عينيه ولم تعد تردّ على أيّ من أسئلته.

سارت العربة ساعات طويلة. حين توقّفت أخيراً، اقتيد بيار إلى صالون صغير فُرِشت فيه وليمة. كانت الثريّات تلقي نوراً باهراً على الآنية الكريستال، ورائحة الأطعمة الزكيّة تختلط بعطر البنفسج والياسمين الرقيق..

كانت أربع نساء شابّات فاتنات مستلقيات على أرائك قرمزيّة، عاريات الأكتاف وعلى وجوجهنّ ابتسامة. نهضن واستقبلن بيار برقّة وحفاوة. فهم على الفور من حريّة سلوكهنّ وجلستهنّ المتكاسلة أنّهنّ من سيّدات أرقى الطبقات.

جلس الجميع إلى المائدة، أكلوا وشربوا بإسراف. انتشى بيار من المداعبات والاعترافات الملتهبة والنظرات المفعمة بالشوق. الواقع أنّه شعر بشيء من الخجل لكلّ هذا الحبّ الذي كان يحاط به. أكيد أنّه كان سيفضّل التواري مع امرأة واحدة. مستسلماً مثل طفل مدلّل لإيدي أربع نساء مجهولات، كان يعاني من حظّه الطيّب.

«بارونة، قالت امرأة شقراء لجارتها، هلّا ناولتني بعضاً من لحم الطيور هذا؟ آه! انظري إلى هذا الطفل العزيز كم أنّ عينيه السوداوين كبيرتان!

– وكم أنّ شاربيه رقيقان سيّدتي المركيزة، أجابت جارتها. سأتناول المزيد من الكمأ.»

تواصلت المأدبة. وكانت السيّدات يشربن النبيذ الفاخر في كؤوس كبيرة ويلتهمن ألذّ الأطايب بشهيّة ضارية. لم يسبق لبيار أن دُعِي إلى حفل كهذا. كان يتأمّل الصالون، والثريّات المذهّبة، والمائدة التي تطفح بالأواني المسطّحة، ويفكّر بكلّ الأطباق والقناني التي فرغت ويتمتم في سرّه: «ربّاه! هؤلاء النساء في غاية الثراء بالتأكيد».

في الخارج طلع النهار حتماً، لكنّ ستائر سميكة كانت تمنع أشعّة الشمس من الدخول. انتهت الوليمة بحلوى شهيّة يذوب لها الحلق. كانت السيّدات مخمورات قليلاً. أخذن يتكلّمن لغة العامّة، وكدن يتعاركن. كان بيار يتأمّلهنّ بعينين زائغتين، مستغرقاً في نشوة لامتناهية.

ثمّ قرّرن تبديل ملابسهنّ، فانسحبن من القاعة، وبعدما بقي وحيداً،

غفا بيار فوق المائدة ونام نوماً عميقاً.

بقي منهاراً على الطاولة لوقت طويل، مستغرقاً في السبات، إلى أن أيقظته جلبة. شعر بيد غليظة تهزّه بخشونة.

كانت النافذة مشرّعة على الجادّة التي تغصّ بالمارّة والعربات. تسرّب نور غسق قذر إلى الصالون، كاشفاً عن أغطية الأرائك المنسّلة والطلاء الذهبيّ الباهت على الجدران. كان نادل مطعم بمئزر أبيض واقفاً يشدّ بيار من ذراعه ويصرخ في أذنه:

«هاي! سيّدي، عليك أنه تدفع الفاتورة وترحل بأسرع ما أمكنك».

كان بيار لا يزال بين النوم واليقظة.

«الفاتورة، تمتمَ متلعثماً، اطلبوا من مارغريت دو بورغونيه... إنّنا في برج نَيل... ارموني في مياه السين، ودعونا لا نناقش الأمر بعد الآن».

غضب النادل وقدّم لبيار فاتورة بخمسمئة واثنين وثلاثين فرنكاً[1] وبضع سنتيمات. كان ذلك ثمن العشاء. حين حملق الشاب به مذعوراً وقد استيقظ بالكامل، مؤكّداً له أنّه ليس ملزماً بدفع فلس واحد إذ أنّ ماركيزات وبارونات خطفنه واقتدنه إلى منزل جميل بعيداً عن الأنظار لتناول العشاء، ضحك النادل وقال: «بارونات وماركيزات! لقد تناولت العشاء مع كلارا وبومبونيت ولويز وبوماريه... لا بدّ أنّ الفتيات المسكينات كنّ يتضوّرن جوعاً وابتكرن وسيلة فريدة للظفر بعشاء. هيّا سيّدي، إلى صندوق الدفع...»

لتكن هذه القصّة عبرة للفتيان الذين يتمنّون أن يختفوا. النساء في عصرنا لم يعدن يقتلن عشّاقهنّ، بل يفرغن بالكامل جيوب السادة الذين يخطفنهم.

---

(1) المبلغ طائل بالنسبة لثمن وجبة طعام، يقارب ألفَي يورو حاليّاً.

***

ثمّة الكثير من حوادث الاختفاء الغامض الأخرى في باريس.

ثمّة حوالى عشرة رجال يبحثون عن زوجاتهم. وبعد ثمانية أيّام، يعدن ويعلنّ ببساطة أنّه لا يمكنهنّ البوح بالمكان الذي قدمن منه، بعدما قطعن قسماً فظيعاً. الحقيقة أنّهن قادمات من فونتينبلو حيث قضين أسبوعاً مع سادة سُمر.

جميع الدائنين في ترقّب وقلق. فالمقترضون يختفون كأنّما بعصا سحريّة. وحين يلتقي مقترض دائناً، يروي له كيف أنّه بقي شهراً محتجزاً في قبو بلا طعام، ويستثير شفقته حتّى يقبل الآخر بإقراضه مئة فلس إضافيّة.

هكذا قد تنتشر شيئاً فشيئاً موضة الاختفاء الغامض. يزعم بوّابي أنّه رأى رجلاً يختفي في فتحة خفيّة في وسط شارعي. وبعد البحث والتدقيق، تبيّن أنّه كان عامل مجارٍ يعود إلى منزله.

قفص حيوانات مفترسة(1)

1

أفلح أسد وضبع ذات صباح في حديقة النباتات في فتح باب قفصهما المغلق بإهمال.

كانت الصبيحة مضيئة والشمس تسطع صافيةً فرحةً عند طرف السماء الشاحبة. تحت أشجار الكستناء العاتية ظلال برودة تتغلغل في الجسد، برودة فاترة تبشّر بأوائل الربيع. تنزّه الحيوانان الطيّبان ببطء في الحديقة وقد تناولا للتوّ غداء سخيّاً، وكانا يتوقّفان بين الحين والآخر ليلعقا فراءهما وينعما كأيّ أشخاص عاديّين بعذوبة الصباح.

التقيا في نهاية مسلك، وبعد المجاملات واللّياقات، راحا يمشيان جنباً إلى جنب، يتبادلان الحديث بودّ وصداقة. وسرعان ما سئما الحديقة التي بدت لهما ضيّقة. تساءلا عمّا يمكنهما القيام به للاستمتاع بنهارهما.

«الحقيقة، قال الأسد، بودّي تحقيق نزوة لطالما راودتني. مضت سنوات والبشر يتقاطرون كالأغبياء ليتأمّلوني في قفصي، ولطالما قطعت على نفسي وعداً باغتنام أوّل فرصة تسنح لأذهب وأتأمّلهم في أقفاصهم، وإنْ بدوت غبيّاً مثلهم... أقترح عليك أن نقوم بنزهة قصيرة إلى قفص البشر».

(1) هذه الخرافة التي يمكن تشبيهها بقصّة «نهار كلب شارد» صدرت في 31 آب 1867 في الأسبوعيّة *La Rue* التي أسّسها جول فاليس. وحين أعاد فاليس إصدار الأسبوعيّة لدى عودته من المنفى عام 1879، نشر من جديد «قفص حيوانات مفترسة» في عدد 29 تشرين الثّاني 1879.

في هذه اللّحظة بدأت باريس تصحو وأخذت تطلق زئيراً صاخباً تسمّر له الضبع دفعة واحدة، منصتاً بوجل. ارتفعت جلبة المدينة، مبهمة ومليئة بالوعيد. جلبة يختلط فيها ضجيج السيّارات بزعيق الشارع وأصوات ضحكاتنا ونحيبنا، لتبدو أشبه ما تكون بعويل فزع وحشرجات موت.

«ربّاه! همهم الضبع، لا بدّ أنّهم يذبحون بعضهم البعض في قفصهم. أتسمع كم هم حانقون وكم يبكون؟

- أنت محقّ، أجاب الأسد. إنّهم يحدثون صخباً رهيباً. ربّما كان هناك مروّض يؤلمهم».

ارتفع الصخب واشتدّ معه خوف الضبع.

«هل تعتقد أنّ من الحكمة أن نجازف ونذهب إلى هناك؟ سأل.

- لا تخف! قال الأسد. لن يأكلونا، بحقّ الله! هيّا تعال. لا بدّ أنّهم يتبادلون العضّ بشراسة، سوف نضحك للمشهد».

2

سارا بهدوء في الشوارع بمحاذاة المنازل. عندما وصلا إلى تقاطع طرق، جرفهما حشد هائل فانقادا مستسلمَين للتيّار الذي كان يعدهما بعرض هامّ.

ألفيا نفسيهما بعد قليل في ساحة شاسعة يكتظّ فيها جمع غفير متلاحم. في الوسط يرتفع هيكل خشبيّ أحمر تنصبّ عليه كلّ الأنظار شاخصةً بنهم وبهجة.

«أترى؟ قال الأسد للضبع همساً، هذا البناء هو بالتأكيد طاولة سيقدّمون عليها وجبة طعام شهيّة لجميع هؤلاء الناس الذين بدأ لعابهم

يسيل. لكنّ الطاولة تبدو لي صغيرة للغاية».

وفيما كان يتكلّم، تصاعدت همهمة ارتياح من الحشد وارتأى الأسد أنّ المأكولات وصلت على الأرجح، لا سيّما وأنّ عربة عبرت أمامه تجرّها أحصنة تعدو عدواً سريعاً. سحبوا رجلاً من العربة، دفعوه إلى أعلى المنصّة وقطعوا رأسه بخفّة ومهارة. ثمّ وضعوا الجثّة في عربة ثانية وسارعوا إلى نقلها بعيداً عن شهيّة الحشد الضارية، فيما المتجمّعون راحوا يهتفون، من شدّة الجوع على الأرجح[1].

«عجباً! إنّهم لا يأكلونه!» صاح الأسد خائب الأمل.

أحسّ الضبع بقشعريرة ارتعش لها وبره.

«إلى أين اقتدتني؟ وسط أيّ حيوانات مفترسة؟ سأل. إنّها تقتل بلا جوع... بالله عليك! دعنا نخرج من هذا الحشد بلا تأخير».

3

غادرا الساحة وسلكا الجادات الخارجيّة ثمّ تمشّيا متمهّلَين على طول أرصفة النهر. حين وصلا إلى قلب المدينة القديم، شاهدا خلف كاتدرائيّة نوتردام منزلاً خفيضاً طويلاً يدخل إليه المارّة كمن يدخل كشكاً في حفل شعبيّ ليشاهد فيه ظاهرة خارقة ويخرج في ذهول وإعجاب. في مطلق الأحوال، لم يكن أحد يدفع أيّ مبلغ عند الدخول أو الخروج. لحق الأسد والضبع بالحشد، فشاهدا جثثاً مخترَقة بالجروح ممدّدة على بلاطات عريضة. كان المتفرّجون ينظرون بصمت وفضول إلى الجثث دون أن يعكّر المشهد صفوهم[2].

(1) الاهتمام بالجرائم وعمليّات الاعدام كان من اشكال الثقافة الشعبيّة، تنقلها صحافة تلك الحقبة بشكل وافٍ.

(2) المشرحة جزء من خارطة المواقع المخيفة في باريس، إلى جانب ساحة غْريف (حيث =

«أترى؟ ماذا قلت لك؟ تمتم الضبع. إنّهم لا يقتلون من أجل أن يأكلوا. انظر كيف يتركون الطعام يفسد».

خرجا مجدّداً إلى الشارع وعبرا أمام رفّ لحّام. كانت قطع لحوم حمراء قانية تتدلّى من خطاطيف فولاذيّة، فيما تتكدّس كتل من اللّحوم لصق الجدران، والدماء تسيل في خيوط رقيقة على الألواح الرخاميّة. المحلّ برمّته كان يتوهّج بلهب مشؤوم.

«انظر، قال الأسد. تقول إنّهم لا يأكلون. هذا وحده كفيل بإطعام جميع سكّان حديقة النباتات لثمانية أيّام... هل هذه لحوم بشر؟».

كان الضبع قد أكل حتّى التخمة، كما سبق وذكرت.

«أفّ! صاح وهو يشيح برأسه، هذا مقزّز. رؤية كلّ هذه اللّحوم تبعث فيّ الغثيان».

4

«هل لاحظت، قال الضبع بعد مسافة ضئيلة، هل لاحظت هذه الأبواب الغليظة وهذه الأقفال الضخمة؟ البشر ينصبون الخشب والحديد بين بعضهم البعض ليجنّبوا أنفسهم الوقوع في ورطة والتهام بعضهم البعض. وهناك عند زاوية كلّ شارع رجال يحملون سيوفاً يحافظون على الآداب العامّة. يا لهم من حيوانات متوحّشة!»

في هذه اللّحظة، عبرت عربة ودهست طفلاً، فنضح الدم ملطّخاً

= كانت تنفّذ عمليات الإعدام والتعذيب بحقّ المحكومين) والمقابر وأسواق اللّحوم والخضار المسمّاة «ليه هال» Les Halles والمستشفيات. «المستشفى، الماخور، المطهر، الجحيم، السجن»، كما لخّصها بودلير في مسودّة خاتمة لطبعة 1861 من مجموعته الشعرية «أزهار الشرّ». في المشرحة كانت تعرض جثث الغرقى والقتلى حتّى يتمّ التعرّف عليها، لكنّ الكثير من المتنزّهين كانوا يهوون هذا «المشهد».

حتّى وجه الأسد.

«هذا يثير الاشمئزاز! هتف وهو يمسح الدم بقائمته. لا يمكن أن نتقدّم خطوة بهدوء. تُمطر دماءً في هذا القفص.

- بحقّ الله! ردّ الضبع موافقاً. لقد ابتكروا هذه الآلات التي تدور للحصول على أكبر قدر ممكن من الدم، إنّها مَعاصر محاصيلهم القميئة. أرى منذ بعض الوقت عند كلّ خطوة أخطوها كهوفاً تبعث روائح كريهة، يشرب الرجال في قعرها أكواباً كبيرة تطفح بسائل ضارب في الحمرة لا يمكن أن يكون سوى دم. وهم يشربون الكثير من هذا السائل ليكتسبوا جنون القتل، لأنّني رأيت في الكثير من الكهوف أولئك الذين يشربون يلكم بعضهم البعض الآخر إلى أن يسقطوا أرضاً.

- أفهم الآن الحاجة إلى النهر العريض الذي يعبر القفص، تابع الأسد. إنه يغسل قذاراته ويجرف كلّ الدماء التي سالت. لا بدّ أنّ البشر هم الذين جلبوه إلى ديارهم خوفاً من الطاعون. إنّهم يرمون فيه كلّ من يقتلونهم...

- لن نعبر فوق الجسور بعد اليوم، قاطعه الضبع مرتعشاً. ألست متعباً؟ ربّما يجدر بنا العودة».

5

لا يمكنني أن أتبع الحيوانين الصادقين خطوة خطوة. أراد الأسد أن يزور كلّ ما في المدينة، وكان الضبع مضطرّاً إلى اللّحاق به بالرغم من خوفه المتزايد في كلّ خطوة يخطوها، لأنّه لم يكن ليجرؤ على العودة وحيداً.

حين عبرا أمام البورصة، استجابت السموات لدعائه ولم يدخلا المبنى. كان يتصاعد من هذا العرين أنين أليم وصيحات شرسة، وهذا كلّه جعل الضبع يقف عند الباب مرتعداً وقد انتصب وبره من شدّة الجزع.

«تعال! هيّا أسرع! قال محاولاً جرّ الأسد خلفه. لا شكّ أنّ هذا مسرح المجزرة العامّة الجارية. هل تسمع أنين الضحايا وصيحات الفرح الضارية التي يطلقها الجلّادون؟ إنّه مسلخ يموّن بالتأكيد جميع جزّاري الحيّ. بربّك، دعنا نبتعد».

ولّى الأسد دون أن يجادل، وقد بدأ الخوف يتملّكه بدوره، وابتعد مجرجراً ذيله. لكان فرّ عدواً لولا حرصه على سمعته كحيوان شجاع. لكنّه في سرّه كان يعيّر نفسه بالتهوّر، ويقول في سرّه إنّ زئير باريس في الصباح كان ينبغي أن يردعه عن الدخول إلى وسط عرين حيوانات ضارية كهذه.

كانت أنياب الضبع تصطكّ من الفزع، وهما يتقدّمان بحذر، بحثاً عن طريق العودة إلى حديقتهما. كان يُخيّل لهما في كلّ لحظة أن المارّة سيغرزون أنيابهم في رقبتهما.

6

ها أنّ ضوضاء غامضة تتصاعد فجأةً من زوايا القفص. أقفلت المتاجر في لمحة بصر وارتفع أنين ناقوس الخطر، لاهثاً قلقاً.

اجتاحت مجموعات من المسلّحين الشوارع وراحت تقتلع الحجارة المرصوفة وتقيم الحواجز على عجل. توقّف زعيق المدينة وحلّ صمت ثقيل ينذر بالشؤم. صمتت الحيوانات البشريّة وراحت تزحف لصق

المنازل، متأهّبة للانقضاض.

ما هي إلّا دقائق انقضّت متوثّبة. اندلع إطلاق النار، يرافقه دويّ المدافع العميق. سالت الدماء وتساقط القتلى على وجوههم في النهر، فيما كان الجرحى يطلقون عويلاً. انشقّ قفص البشر إلى معسكرين، وأخذت هذه الحيوانات تلهو فيما بينها بذبح بعضها البعض.

حين أدرك الأسد حقيقة ما يجري، صاح بالضبع: «يا إلهي! أنقذنا من المعركة! نلت عقابي المحقّ لانسياقي إلى رغبتي الحمقاء في زيارة هذه الحيوانات المفترسة الرهيبة. كم أنّ سلوكنا وديع بالمقارنة مع سلوكهم! نحن الوحوش لا نفترس بعضنا البعض!»

ثمّ التفت إلى الضبع: «هيّا بنا! أسرع! دعنا من ادّعاء الشجاعة والبسالة. أقرّ بأنّ عظامي ترتعد من الرعب. علينا أن نرحل بأسرع من يمكننا عن هذه البلاد الهمجيّة».

هربا كالسهم وقد استولى عليهما الخوف والخزي. أخذا يعدوان بسرعة متزايدة منطلقين في وثبات محمومة هائجة، ودماؤهما تغلي فزعاً. كانت ذكريات النهار المروّعة تهمزهما وتستحثّهما.

هكذا وصلا إلى حديقة النباتات لاهثَين، ينظران بهلع خلفهما. عندها تنفّسا الصعداء وهرعا للاحتماء في قفص خالٍ أوصدا بابه بإحكام. هناك، تبادلا التّهاني بحرارة على عودتهما سالمين.

«حسناً، قال الأسد، لن أعاود الكرّة وأخرج من قفصي لأتنزّه في قفص البشر. لا سلام ولا سعادة إلّا في قعر هذه الزنزانة الهانئة المتحضّرة».

7

راح الضبع يتحسّس قضبان القفص الواحد تلو الآخر.

«ما الذي تنظر إليه؟ سأله الأسد.

- إنّني أتثبّت من متانة هذه القضبان، أجاب الضبع، لأرى إن كانت تكفي لحمايتنا من ضراوة البشر».

المعمّر المئويّ[1]

كنت أصادف في كلّ مساء معمّراً ابن مئة عام طويل القامة، جالساً على مقعد على مصطبة حديقة لوكسمبورغ. كان يجلس في ظلّ أشجار الكستناء في الصيف، وفي أشعّة الشمس الشاحبة في الشتاء، شارداً في أفكاره، وذقنه متكئ إلى مقبض عصاه.

كان المئويّ يتأمّل الفتيات الصغيرات يلعبن عند أسفل مقعده، فيدرن في حلقات ويرمينه بضحكاتهنّ العذبة. لا شكّ أنّه كان يفكّر في مهده ولحده. كان يجذبني فيه هدوؤه الرصين الوديع ووجهه المجبول بالطيبة المطبوع بالتجارب. كان يطيب لي الاستماع إليه يتكلّم عن الحياة، وهو الذي اختبر أفراحها وأتراحها.

***

في أحد أيّام آذار، يوم كانت فيه السماء قاتمة وقصر لوكسمبورغ يرتفع شاحباً كئيباً تحت الغيوم الرماديّة القذرة، قال لي المئويّ بصوت ملؤه الحزن والحنين، وهو يقلّب التراب برأس عصاه:

«أتعلم يا بنيّ، عرفت السموات الكثير من الأيّام الماطرة منذ أن ولدت، وعيناي ذرفتا الكثير من الدموع. ألّمت بي المصيبة مع كلّ ولد فقدته. أبنائي وأحفادي تُوفّوا، وها أنا وحيد، سئمت الخلود في قرن لم

(1) صدر هذا النص للمرّة الأولى في صحيفة *L'Evènement illustré* في 13 تمّوز 1868، ثمّ في زاوية *Lettres parisiennes* في صحيفة *La Cloche* في 25 أيلول 1872. نورد هنا هذه الصيغة الثانية.

يعد قرني.

«لا تتمنَّ يوماً أن تتخطّى متوسّط عمر البشر. الموت استراحة ضروريّة. إنّه يثلج صدر العجوز مثل قبلة عشيقة. كانت لي أحزاني، وكانت لي أحزان الأيّام الطوال التي عشتها. عايشت تعاقب خمسة ملوك وإمبراطوريتين وثلاث جمهوريّات. كنت شاهداً على كلّ الأخطاء التي يمكن لشعب أن يرتكبها على مدى قرن. تذكّر تاريخنا! كم من الدموع سُكبت، وكم من الدماء أُريقت!

«اليوم، تحت سماء آذار هذه المكفهرّة، حين أسائل الماضي، أحسد الذين ولّوا، أحسدهم لأنّهم في التراب يجهلون آخِر عارٍ لحق بنا وآخِر دموع ذرفناها. أشفق على نفسي لأنّني ما زلت على قيد الحياة، وأشفق على هذا العالم الذي سكنته أطول ممّا ينبغي.

«الذين يموتون صغاراً محظيّون. السموات ترأف بهم».

***

جاء شهر أيّار، ووجدت العجوز المئويّ جالساً على المقعد نفسه. كان قصر لوكسمبورغ يتألّق تحت الشمس الذهبيّة المشعّة، والنسمات تعصف عابرةً فوق العشب حاملةً معها أريج البنفسج اللّطيف.

بادرني المئويّ بابتسامته الطيّبة:

«يا ابني، هذا يوم جميل إضافيّ في سلسلة الأيام الجميلة في هذا العالم. أذكر كلّ فصول الربيع التي عرفتها في عمري، كلّ أفراحي.

«كم أنّ الحياة حلوة وكم يطيب العيش في الهواء الدافئ! مئة ربيع لم تقوَ على استنفاد حبّي للشمس، ولو مرّت عليّ مئة أخرى، فسأظلّ أتحسّر على أوراق الأشجار الأولى وأشعّة الشمس الأولى. الإنسان يعود شابّاً ويتجدّد مع كلّ سنة جديدة. اليوم عمري عشرون ربيعاً.

«إنّني ممتنّ للحياة على كلّ المسرّات التي أنعمت بها عليّ. رأيت حول موقدي أولادي وأحفادي حتّى الجيل الرابع، وفرحت بأنّني أبٌ لقبيلة كاملة. حتّى الآن، في وسط وحدتي، أبارك الحياة لأنّ الحياة هي أيضاً الذكريات. أستمدّ سعادتي من أفراحي الماضية.

«أُعطيَ لي أن أكون شاهداً على أحداث مهيبة. قرني كان قرناً عظيماً. فيه اكتسب الإنسان الحريّة والعلم. أَرحلُ وعزائي في هذا العالم هو قناعتي بأنّنا نسير نحو النور بخطى بطيئة إنّما ثابتة. أنسى مشقّاتنا حين أفكّر بروح الحقيقة والعدالة التي نستهدي بها وتدفعنا قدُماً.

«أسأل الربيع أن يهبني سنوات جديدة ومديدة».

***

تلك هي الحياة بصرختيها الأبديّتين، صوت اليأس وصوت الثقة.

خُيِّلَ لي في الأيّام الأخيرة القاتمة أنّني أرى فرنسا جالسة على مقعد المعمّر المئويّ، تبكي أبناءها الذين رحلوا، محطّمة تتوق إلى التراب. لكنّني أراها اليوم بآمالها المنتعشة، تبتسم لماضيها وتضع ثقتها في مستقبلها، تتمنّى بجموحِ العيشَ، تتمنّى حياة طويلة، حياة أبديّة تقودها إلى الحرية، إلى النور.

في الدّير[1]

ابنة السيّدة ب. طفلة شقراء في السادسة عشرة من العمر، غادرت الدير في الخريف الماضي. تعمل والدتها بكثير من التبصّر على تعليمها اللّياقات الاجتماعيّة، فتجول بالفتاة من صالون إلى صالون بهدف إتقان انحناءاتها والتخفيف من حدّة تعابيرها الخجول الوجِلة. لا تزال جان فتاة من اللّواتي ننعتهنّ بالسذاجة والبلاهة[2].

دخلت الوالدة والابنة بالأمس إلى صالون كنت جالساً فيه. سيّدة الدار أيضاً لها طفلة ظريفة، لكنّ لوسي لم تبتعد يوماً عن والدتها. نشأت وسط البذخ والترف، في حريّة تامّة. تربّت في تلك الشقّة الأرستقراطيّة، بين هؤلاء المدعوّين الودودين المبتسمين الذين تستقبلهم ببراعة فتاة تتقن الاجتماعيّات. إنّها جريئة متّقدة الذهن إلى أقصى حدّ.

نظرْتُ إلى لوسي تهرع لاستقبال جان.

ربّاه! كم هي رقيقة متأنّقة! تقدّمت لوسي برشاقة ودلال، منحنية قليلاً ومادّةً يديها. على شفتيها ارتسمت ابتسامة بهجة. وبعدما تناولت برقّة بين يديها أطراف أصابع تلميذة الدير، اقتادتها أمام الموقد ودعتها

(1) صدر هذا النصّ أوّلاً في صحيفة *La Cloche* في 2 شباط 1870، ثمّ نشر بعد ثلاثة أيّام تحت العنوان نفسه في صحيفة *La Libre Pensée* وهي صحيفة معادية بشدّة للكنيسة. ننقل هنا النصّ الأوّل كما نُشر في *La Cloche*.

(2) . اهتمّ زولا كثيراً بمسائل التربية، وعلى الأخصّ تربية البنات، في ظلّ جدل محتدم ما بين دعاة التربية في الدير، وأنصار التعليم الثانوي للبنات وهو الذي فرضه في نهاية المطاف فيكتور دوروي عام 1867.

بحركة سريعة وساحرة بخفّتها للجلوس في أريكة مجاورة لها. أمّا جان، فاستسلمت لها وتبعتها بشيء من التصلّب. حتّى أنّها أبدت للحظة عابرة مقاومة سخيفة تماماً. وحين جلست ورأت أنّ الأنظار تتّجه صوبها، أخذت تتأمّل يديها بغباء، فتلويها وتقلّبها في حركة محمومة على ركبتيها. لم تحسن سوى أن تهزّ رأسها موافقة على كلّ ما كانت رفيقتها تقوله بكثير من الفطنة.

لكن شيئاً فشيئاً، اتّسعت الحلقة أمام النار وتعمّم الحديث على الحضور. وإذ كانت لوسي تواصل محادثة جان، كانت تنصت وتتابع ما يقال من حولها، فتلقي كلمة أو تجيب بابتسامة. كانت الفتاة العفريتة تعرف باريس عن ظهر قلب. ما إن ذُكِر اسم ممثّلة تشتهر بولائم العشاء التي تقيمها، حتّى تحدّثت عن فستان من الساتان البنفسجيّ رأته مرّة على كتفيها. قالت ذلك بصوت عذب وعينين كبيرتين صافيتين. ثمّ تلى ذلك نقاش حول الملابس النسائيّة، وأحاديث معهودة مع الشبان، وأحكام مبرمة حول رواية صادرة حديثاً ومسرحيّة رائجة. وكانت الفتاة تلعب دور سيّدة الصالون بمهارة ساحرة.

***

كانت جان تستمع بإمعان. منذ أن تحوّلت الأنظار عنها، تقوقعت في قعر أريكتها كأنّها لتشغل أقلّ مساحة ممكنة. أسدلت جفنيها وشبكت يديها في خشوع، حتّى بدت تختلي بنفسها لأداء صلاة غامضة. لكنّني إذ دقّقت بانتباه في لامبالاتها وسكونها، لحظت توتّراً استثنائيّاً لديها. حدستُ من خفقان في الشفتين وتغضّن في الوجه، الفضول الحادّ الذي كان يجعلها تلزم هذا الصمت المطبق. أحياناً كانت كلمة توقظها، فتعود الحرارة إلى وجنتيها. لا بدّ أنّها كانت تشعر بين الحين والآخر بإعياء

مفاجئ، فينحني عنقها وتنزلق ذراعاها العاريتان قليلاً. ربّما كانت النار المشتعلة هي التي تبعث فيها ذلك الاحمرار وتبعث تلك الارتعاشات على بشرتها الرقيقة. لمحتُ ثلاث مرّات نظرات دامعة تنساب من طرف عينيها شبه المغمضتين. ورغم أنّها أبقت فمها مغلقاً بخَفر، بَدا لي أنّها ضحكت ضحكة شبقة، ضحكة امرأة ناضجة محنّكة.

لا بدّ أنّني كنت أتأمّل الفتاتين باهتمام غير لائق، فاقترب أحد أصدقائي وهمس في أذني: «تلميذة الدير تناسبك يا صديقي. ليست مثل تلك الدمية لوسي التي ستخفي عشّاقاً في كلّ خزائنها. يمكن أن تجعل من تلك الساذجة البلهاء زوجة عاقلة وديعة!»

رفعت كتفيّ دون أن أجيب. «البلهاء» بعثت فيّ رعباً فريداً. ابتعدْتُ وتسترّت في فتحة نافذة. من هناك، واصلت المراقبة وأنا أتأمّل في ماضي تلك الفتاة التي يمكن بالتأكيد القول إنّها خرقاء أكثر منها جاهلة.

لا شكّ أنّ جان ترهق والدتها بطيشها، ألا توافقونني الرأي؟ ثمّ هناك أهل يعتقدون، حرصاً منهم على مجاراة معايير الرقيّ، أنّه يجدر بهم إدخال ابنتهم إلى دير ما. إنّها مسألة موضة. غير أنّ الفتاة وجدت عزاءً. فقد لقيت حديقة واسعة وألعاباً ومن يتملّق لها. لكنّ ما يجعلها تتعلّق شيئاً فشيئاً من غير أن تدري بحياتها في الدير، هو أنّها تحيا فيه بحريّة وسط مجتمع صغير حرّ. في منزلها، ليست سوى الطفلة المطيعة لوالدها ووالدتها. أمّا في الدير، فهي مواطنة من مواطنات جمهوريّة، إنّها جزء من مجتمع لديه مصالح وأحقاد وغراميّات تثير اهتمامها إلى حدّ الولع. مدرسة داخليّة في فرصة، هذا أشبه ما يكون بملخّص عن عالمنا. أعلم جيّداً أنّ جان كانت في الثامنة من العمر. إذاً فهي كانت امرأة في الثامنة، هذا كلّ ما في الأمر.

***

ينبغي الاستماع إليها، بنيغي خصوصاً أن نحزرها. الطفولة نقاء خالص، حتّى أنّنا لا نعود نجرؤ على التنقيب فيها بحثاً عن الرذيلة الناشئة، عن أشواق تستيقظ، عن فظاعات أخلاقيّة. أمام مشهد تلك الرؤوس الشقراء، تلك النظرات الصافية، نرفض أن نؤمن بالشرّ. لكن اسأل زوجتك، ذكّرها بالأيّام التي قضتها في الدير، وسوف ترى مرحاً عصبيّاً يستولي عليها، سوف تستمع إليها تسرد لك إن طلبت منها ذلك قصصاً يندى لها جبينها اليوم. في هذه المسائل الحسّاسة، إن كان الجميع يلزم الصمت احتراماً لأولادنا الأعزّاء، غير أنّ من الجيّد أن يرتفع صوت فجّ يقول الحقيقة العارية. ثمّة هنا جرح اجتماعيّ، والجروح لا تطيب إلّا حين نكويها بالنار.

تذكّروا المدرسة. الرذائل تنمو فيها بوفرة وغزارة، نعيش فيها كأنّنا في وسط انحلال من أيّام الرومان[1]. إنّ أيّ مجموعة أشخاص من جنس واحد تعيش منغلقة على نفسها، إنّما هي مضرّة للأخلاق. في المدارس الداخليّة للبنات، تتكرّر الوقائع ذاتها على الدوام. وهنا تكون العواقب مريرة. أعرافنا وتقاليدنا تجعل من الرجل مقاتلاً لا بدّ أن يكون على دراية بكلّ شيء. يعود له أن يسلّح نفسه بالفضيلة ويبني لنفسه كرامة وحياة مستقيمة وسعيدة. إنّه الساعد الذي يحمي، الكائن المحنّك المجرَّب. يمكنه تجاوز كلّ الوصايات، وهو يخرج منها أحياناً أقوى وأشدّ بأساً. أمّا الفتاة، فتربيتها لا تهيّئها على الإطلاق لهذه الصراعات في الحياة. يفترض أن تُسلَّم جاهلةً تماماً إلى ذراع زوجها، وأن تستمدّ منه كلّ ما هي بحاجة

---

(1) يتحدّث الراوية في «الجشع» *La Curée* (1872) عن مدرسة بلاسا فيصفها بأنّها «وكر لصوص صغار كسائر المدارس الريفيّة ... بيئة قذارة».

إليه من تربية وتعليم، دون أن تخلّف ذكريات من الجسد والقلب.

وإن كانت عاشت في دير، فهي فقدت بالتأكيد براءتها. تلك العروس ليست عذراء. ربّما تستطيع العيش بنزاهة إن كانت طباعها هادئة. لكن حتّى في نزاهتها، فإنّ حياتها برمّتها ستحمل وصمة ذكريات طفولتها.

***

كنت لا أزال أتأمّل تلك الفتاة الساذجة البلهاء، جان البليدة التي ترتعش ذراعاها العاريتان في حركات عصبيّة طفيفة. أسمع الشبان يتمتمون من حولي «كم تبدو حمقاء، تلك الفتاة!» وأنا أراها في ملعب الدير، تركض إلى أن تفقد أنفاسها، تثب مثل حيوان مبتهج تحزه دماؤه الحامية، أو على مقعد في الحديقة تتحدّث بانفعالٍ خافضةً صوتها مع مجموعة من الصديقات، تتلفّظ بين الحين والآخر بصوت أكثر خفوتا بكلام يجعلهنّ يقتربن جميعاً وتعتريهنّ ارتعاشات انشراح، وكأنهنّ بنات حوّاء يتذوّقن معاً الفاكهة المحرّمة. أراها أيضاً – وهذه الصورة ستبعث حتماً الذعر في نفوس جميع الأمّهات – أراها تتيه في الزوايا مع تلميذة أكبر سنّاً منها تدعوها هي «والدتي الصغيرة»، فتدعها تضمّها من خصرها وتقبّلها على شفتيها. تتواريان معاً خلف البنفسج مثل عشيقين منتشيين بعطور الربيع الدافئة[1].

جان، بلهاء! حقّاً؟ انظروا إلى هذه الابتسامة الطفيفة التي يرقّ لها طرفا فمها! بوسعها تجاهل العالم وعدم امتلاك سلوكه ولغته، لكنّها لها رذائل خاصّة بها، رذائل جديّة، أؤكّد لكم ذلك. صديقاتها في المهجع أطلعنها على الكثير من الأمور. اقرأوا «الفتاة ذات العينين الذهبيّتين»

(1) في روايته «الجشع» يتصوّر زولا في المحيط الراقي للبطلة رينيه، صديقتين من أيّام الدراسة في الدير أصبحتا «لا تنفصلان»، أو بتعبير آخر مثليّتين، وهما آدلين ديسبانيه وسوزان هافنر.

لبلزاك. اقرأوا أيضاً «الآنسة جيرو»[1]، رواية درَسَ السيّد آدولف بيلو فيها، بكثير من العفّة في التعبير يقابلها كثير من الحزم في الفكر، الأهواءَ الأثيمة التي تولد أحياناً تحت جناح إلفة الدير. بالطبع، لن تحمل جان على الأرجح في حياتها وعائلتها هوان شبابها. لكنّها روح ملوّثة، ذهن موصوم، فتاة تخفي الكثير من الدراية تحت ستار بلاهة مكتسبة.

***

وفيما كنت أستشفّ في جفون جان المنسدلة وذراعيها المرتعشتين سلوكاً من الشبق والملذّات، كانت لوسي تواصل ثرثرتها اللّطيفة، ثرثرة فتاة تربّت بحريّة. آه! كم كانت الطفلة العزيزة تثرثر ببراءة تامّة! هي تتدخّل في كلّ المسائل، تتكلّم في كلّ المواضيع، بلا أيّ ارتعاشة. لم تعش في الدير، في تلك الأجواء الصوفيّة الغامضة التي توقظ الحواسّ، ولم تبح لها أي صديقة بأسرار وهي تقبّلها على شفتيها. وحدها والدتها تضع قبلة على جبينها كلّ مساء، وهي تكبر على علم بكلّ شيء وجهل بكلّ شيء. تخالط العالم فتعرف كلّ صغائره التي لا تعدّ ولا تحصى، ولكن مثل ببّغاء فضوليّة تستمع وتكرّر من غير أن تفهم.

هكذا وجدْتُ بلاهة جان مروّعة بما لا يقارن مع هذر لوسي وتَغَنْدُرها. يجدر بالأمّهات إبقاء بناتهنّ بأي ثمن بجانبهنّ.

ولو لم أكن متمسّكاً بولع بالحريّة، لكنت أطلقت حملة للمطالبة بإغلاق

(1) آدولف بيلو، أحد مؤلّفي «فينوس بلدة غورد» المذكورة أعلاه، كان نشر للتوّ في كانون الثاني 1870 رواية بعنوان «الآنسة جيرو، زوجتي»، أثارت فضيحة بسبب موضوعها الشبيه بموضوع «الآنسة موبان» و«الفتاة ذات العينين الذهبيّتين» لبلزاك. أثارت الرواية اهتمام زولا الذي كتب عنها مقالة نقديّة امتدحها فيها. كان من المفترض أن تُنشر المقالة في الصحافة الباريسيّة، غير أنّها في نهاية المطاف عُرضت على الكاتب الذي استخدمها مقدّمة لطبعة لاحقة لروايته.

جميع الأديرة. وفيما كنت أستأذن، تراءت لي لوسي تتمدّد وتغفو مثل فتاة شقيّة لهت بفرح بلعبها المعتادة، فيما جان تتقلّب محمومة في سريرها، لا تزال تتحرّق بالرغبات الخفيّة الماكرة التي لامست ذراعيها العاريتين.

بمَ تحلم الفتيات المسكينات(1)

عملَتْ على مدى اثنتي عشرة ساعة. كسبَتْ خمسة عشر فلساً. في المساء تعود إلى مسكنها البائس. تسير على طول الأرصفة المكسوّة بالجليد الأبيض، وهي ترتعد من البرد تحت شالها الرقيق الأسود. تنسلّ نحيلةً، حاثّة الخطى بتلك العجَلة الوجِلة التي هي مشية الحيوانات المسكينة المتروكة.

كانت تتضوّر جوعاً، فاشترت فضلات لحوم مقدّدة بخسة الثمن حملتها معها في يدها، ملفوفة داخل قصاصة من ورقة صحيفة. وصلت لاهثة وتسلّقت أدراج الطوابق الستّة.

في الأعلى، كانت عليّتها كئيبة. كانت شمعة أو بقيّة منها تضيء هذا البؤس. لا نار مشتعلة والريح تتسرّب لاذعة من تحت الباب، تجفل لها شعلة الشمعة. سرير، طاولة، كرسيّ. البرد قارس جعل المياه في الإناء تتجلّد.

تسرع، علّها تجد قليلاً من الدفء في السرير، تحت تلّة الملابس التي تكدّسها كلّ ليلة فوق قدميها. تجلس باندفاع أمام الطاولة الصغيرة، تُخرج كسرة خبز من خزانة وتأكل لحومها المقدّدة بنهم ولامبالاة، مثلما يأكل الجياع. وحين تعطش، تضطرّ إلى كسر الجليد في إناء الماء.

(1) صدر النصّ في 3 شباط 1870 في صحيفة *Le Rappel*، وهي صحيفة سياسيّة أسّستها عائلة فيكتور هوغو عام 1869 لتكون «لسان حال الديموقراطيّة الراديكاليّة»، وكان قرّاؤها من العمال والحرفيّين المثقّفين، وكانت تتصدّر المعارضة ضدّ الإمبراطوريّة. مقالاتها كانت عادةً قصيرة ونبرتها حادّة وعنيفة.

إنّها طفلة لا يزيد عمرها عن ثمانية عشر عاماً. لم تخلع شالها ولا قلنسوتها، حتّى تخفّف من حدّة البرد. تأكل في منزلها وهي بكامل ملابسها، وتخبّئ بين الحين والآخر يديها المزرقّتين في الريح. لو كان بوسعها أن تبتسم، لكانت بدت ظريفة. لكانت عذوبة فاتنة انبعثت من شفتيها الرقيقتين وعينيها بلونها الرماديّ الطريّ. لكنّ المعاناة جعلت فمها ينقبض وزرعت في نظرتها قسوةً حزينة. وجهها يرتدي قناعاً متصلّباً متجهّماً، قناع البؤساء[1].

تنظر أمامها بعينين تائهتين وذهن فارغ، تلتهم طعامها مثل حيوان متعجّل. ثمّ وقع نظرها على قصاصة الصحيفة الملطّخة بالدهون التي تستخدمها طبقاً. قرأت ما هو مكتوب عليها، ونسيت خبزتها.

أقيم حفل راقص في قصر تويلري، وقرأت أنّ المدعوين تناولوا كميّة هائلة من النبيذ والمأكولات: تسعة آلاف زجاجة شمبانيا، ثلاثة آلاف قطعة حلوى، ستمئة كيلوغرام من اللّحوم، إلى ما هنالك. ابتسمت ابتسامة غريبة وقالت في سرّها إنّهم حتماً بدينون جدّاً[2].

لكنّها امرأة، فاستوقفها أكثر وصف ملابس النساء. قرأت:

«السيّدة ماتيرنيك: فستان أبيض ذو حزام بنفسجيّ داكن. حول عنقها قلادة مرصوفة بالألماس منسّقة مع تشابك ساحر من اللّؤلؤ والألماس».

اشتدّت القسوة على وجهها. لماذا تملك الأخريات عقوداً من الألماس، وهي تشتهي فستاناً يدفّئها؟ أكملت القراءة.

«الامبراطورة في فستان بلون أخضر غضّ، ومن فوقه نصف تنّورة من

(1) إشارة جديدة إلى رواية فيكتور هوغو، لكنّ أجواء النصّ تعكس مضمون الفصل العاشر من رواية زولا اللّاحقة «الحانة».

(2) النصّ مبنيّ بشقّين لإظهار التباين. وسوف يستعيد زولا هذه المواجهة بين البدينين والهزيلين في روايته «جوف باريس» ***Le Ventre de Paris*** (1873).

الشّفّ الأبيض الفضفاض المنسدل كالزّبد، تتخلّله خيوط فضيّة، ومزيّن عند طرفه الأسفل والصدر بفرو السمّور. شعرها مشكوك بأزهار كرة الثلج ومجرّد عصابة من الألماس. وحول عنقها مخمل أسود مزيّن بياقة ذات نقوش يونانيّة من الألماس الرائع[1]».

الألماس، المزيد من الألماس، ما يكفي لِغمر مئة عائلة بالثروات. توقّفت الفتاة عن القراءة، استلقت في كرسيّها وأطرقت في خواطرها.

عبرت أفكار خبيثة عينيها الرماديّتين. لم تعد تشعر بالبرد. إغراء الشرّ استولى على ذهنها تماماً[2].

وحين استيقظت من حلمها، هزّتها ارتعاشة قويّة وتمتمت وهي تلقي نظرة من حولها على مسكنها البائس: «ما الفائدة؟... ما جدوى العمل؟ أريد ألماساً».

في الغد ستحصل على مبتغاها.

(1) هذه الاستشهادات مستمدّة من مقالة في صحيفة *Le Figaro* بتاريخ 29 كانون الثاني 1870 احتفظ بها زولا في الملفّ التمهيديّ لروايته «الجشع».

(2) طرح زولا على الدوام بوضوح تامّ الرابط بين البؤس والدعارة.

إلى نينون[1]

مقدّمة لمجموعة «حكايات جديدة إلى نينون»

عشر سنوات بالضبط مضت يا روحي الحبيبة، منذ أن رويت لك قصصي الأولى. كم كنّا عاشقين جميلين حينها! كنت قادماً من أرض بروفانس تلك حيث نشأتُ حرّاً، مطمئنّ البال واثقاً، وروحي تطفح بكلّ آمال الحياة. كنت لك، لك وحدك، لحنانك وحلمك.

هل تذكرين يا نينون؟ الذكرى باتت اليوم الفرحة الوحيدة التي يستكين فيها قلبي. ذرَعنا الدروب حتّى سنّ العشرين. ما زلت أسمع وقع قدميك الصغيرتين على الأرض القاسية. أرى بقعاً من تنّورتك البيضاء مفروشة أرضاً فوق الأعشاب البريّة. أشتمّ أنفاسك بين هبّات القصعين تأتي من البعيد، فتلفحني مثل نسائم شباب. وتتراءى تلك الساعات الساحرة وتنقشع: كان الوقت صباحاً، على ضفّة النهر، عند حافة المياه المنسابة، ولمّا تكدْ تستيقظ، مياه صافية نقيّة، متورّدة تحت السماء المصبوغة بوهج النهار الأوّل. كان ذلك ما بعد الظهيرة بين الأشجار، في حفرة بين الأوراق، ومن حولنا الحقول مسحوقة مرهقة، نائمة لا تهزّها

(1) هذه مقدّمة لمجموعة «حكايات جديدة إلى نينون» التي صدرت عام 1874 عن مكتبة Librairie Charpentier. جمع زولا نصوصاً كانت قد صدرت سابقاً في الصحافة بين 1865 و1873 حتّى ترافق الطبعة الجديدة لـ «حكايات إلى نينون» وتتّبعها. والمقدّمة التي تهدف، شأنها شأن العنوان، إلى إقامة الرابط بوضوح بين المجموعتين، تستعيد أسلوبه في استثمار السّيرة الذاتيّة.

أدنى ارتعاشة. كان الوقت مساءً وسط مرج يغرق ببطء في سيل الغسق الأزرق المتدفّق من التلال. كنّا في اللّيل، نمشي عابرين طريقاً لا نهاية له، سائرَين معاً نحو المجهول، غير آبهَين حتّى للنجوم. كنّا نسير مستسلمَين لسرور الرحيل عن المدينة، مغتبطين بأن نضيع بعيداً، بعيداً جدّاً في عمق الظلال الكَتوم. هل تذكرين يا نينون؟

يا للحياة الهانئة! كنّا نسبح في الحبّ، في الفنّ، في الحلم. ما من شجيرات إلّا وتستّرت على قبلاتنا، وتكتّمت على أحاديثنا. كنت أصطحبك، أجول بك في نزهات، أنت شِعْر طفولتي الحيّ. معاً كانت السماء والأرض والأشجار والمياه لنا، لنا حتّى الصخور العارية التي تسيّج الأفق. كان يُخيَّل لي في تلك السنّ أنّني إن فتحت ذراعيّ، فسوف أضمّ الحقول برمّتها إلى صدري لأقبّلها قبلة سلام. كنت أشعر بقوى عملاق ورغباته ورحمته تسكنني. عدْوُنا مثل طفلين هاربين، حبّنا مثل طيرين حرّين، بعَثا فيّ ازدراءً كبيراً للعالم، إيماناً هادئاً بطاقات الحياة وحدها. أجل يا صديقتي، غرفت في الماضي في حنوّ كلّ تلك الساعات لأحفظ في داخلي هذا المخزون من الشجاعة الذي غالباً ما أدهش رفاقي لاحقاً. أوهام قلبينا كانت دروعاً من الفولاذ الرقيق لا تزال حتّى اليوم تحميني.

فارقتكِ، رحلتُ عن بروفانس التي كنتِ روحها، وكنتِ أنتِ من تضرّعْتُ لها عشيّة الموقعة، كمن يتضرّع لقدّيسة طيّبة. إليكِ أهديت كتابي الأوّل. كان مفعماً بكيانك، عابقاً بعطر شعرك. أرسلْتِني إلى المعركة بقبلة على جبيني، مثل عشيقة شجاعة تتمنّى النصر للجنديّ الذي تحبّ. وأنا لم أكن أذكر سوى تلك القبلة، لم اكن أفكّر سوى بك، ولم يكن بوسعي الكلام سوى عنك.

عشر سنوات مضت. آه يا روحي الحبيبة! كم من العواصف زمجرت، وكم من المياه القائمة جرت وكم من الهزائم وقعت، منذ ذلك الزمن تحت جسور أحلامي المتداعية! عشر سنوات من الأشغال الشاقّة، عشر سنوات من المرارة، من الضربات التي سدّدتُها وسُدِّدَت لي، عشر سنوات من معركة أبديّة! قلبي وعقلي يحملان ندوب جروح لا تحصى. لو ترين عشيقك في الماضي، ذلك الفتى الطويل القامة الرشيق الذي كان يحلم بتحريك الجبال بنقفة إصبع، لو ترينه يعبر في نور باريس الشاحب، وجهه مكفهرّ والسأم يثقله، لكنت ارتعدتِ يا مسكينتي نينون، وأنت تتحسّرين على الشموس الساطعة والظهيرات الملتهبة التي انطفأت إلى الأبد. في بعض المساءات أكون محطّماً إلى حدّ يتملّكني معه توق متخاذل إلى الجلوس على حافة الطريق، ولو غفوت إلى الأبد في القناة. أتعلمين يا نينون ما الذي يدفعني إلى الأمام باستمرار، ما الذي يعيد لي شجاعتي كلّما عرفت لحظة ضعف؟ إنّه صوتك يا حبيبتي، صوتك النائي، صوتك الرقيق العذب الذي يصيح لي قَسَمي ووعودي.

أعرف بالطبع أنّك فتاة شجاعة. لا أخشى أن أكشف لك عن جروحي، فسوف يزيد حبّك لي. سوف تستكين نفسي إن شكوت لكِ همّي، لأنّني سأجد عندك العزاء. لم أترك قلمي يوماً واحداً يا صديقتي. قاتلت مثل جنديّ عليه أن يكسب قوته. وإن حالفني النصر، فسوف يحرمني من أكل خبزي الحافّ. كم من الأعمال الشنيعة ما زال الاشمئزاز منها يطبق إلى اليوم على صدري! طوال عشر سنوات قدّمت مثل العديدين أفضل ما لديّ حطباً في أتون الصحافة. لم يبقَ شيء اليوم من هذا العمل الجبّار سوى القليل من الرماد. أوراق تطايرت في الريح، زهور سقطت في الوحل، مزيج من الممتاز والأسوأ، أُهدِر في المطحنة

العامّة. مسست كلّ شيء ولوّثت يديّ بشلّال التفاهة العكر هذا المتدفّق بغزارة. ولعي بالمطلق كان ينزف وسط كلّ هذه الحماقات، كلّها بالغة الأهمية في الصباح، وتصير طيّ النسيان في المساء. حين كنت أحلم ببصمة أبديّة مطبوعة في الحجر، بنتاج حياة مزروع يمدّ أغصانه عالياً إلى الأبد، إنّما كنت أبعث فقّاعات من الصابون تنفجر حين تلامس أجنحة الذباب الهادر في الشمس. لكنت انزلقت إلى بلادة هذه المهنة وغباوتها لو لم يكن لديّ في حبّي للقوّة عزاءٌ، وهو ذلك الانتاج المتواصل الذي كان يحصّنني ضدّ كلّ أصناف التعب والإرهاق[1].

ثمّ إنّني يا صديقتي كنت مسلّحاً في حرب. لن تصدّقي قدر الغضب الذي كانت البلاهة تلهبه في داخلي. كنت متمسّكاً بآرائي بشغف مطلق، أودّ لو أُدخِل ما أؤمن به بالقوّة في صدر الآخرين. أتوعّك وأعتلّ لكتاب، وأيأس للوحة وكأنّها كارثة جماعيّة. كنت أعيش معركة متواصلة من الإعجاب والازدراء. خارج الأدب، خارج الفنّ، لم يعد من وجود للعالم. ويا لضراوة ضربات الريشة، يا لشراسة الصدمات للتخلّص من الرداءة! اليوم أكتفي بهزّ كتفيّ. صرت قاسياً واشتدّ عودي من كثرة ما عايشت الباطل. احتفظت بإيماني، بل أعتقد أنّني أكثر حزماً من ذي قبل، لكنّني أكتفي اليوم بالانعزال عن العالم والانكباب على العمل. إنّها الوسيلة الوحيدة للدخول في مناقشة سليمة. فالأعمال الكتابيّة ليست

(1) موقف زولا من الصحافة ملتبس. هنا، في امتداد مقدّمات «أوهام ضائعة» ***Illusions perdues*** لبلزاك، نقرأ تمرّد الأنفة الفنيّة التي تهينها الأشغال المبتذلة، أكثر ممّا نلمس الرضا أمام العمل المنجز. لكن في مناسبات أخرى، يدافع الكاتب عن الطاقة الكامنة في الصحافة الأدبيّة والأسلوب الخاصّ بهذه الصحافة، كما يمكن قراءته في مقالته «المال في الأدب» ***L'Argent dans la littérature*** التي استعادها في مجموعة مقالاته «الرواية التجريبيّة» ***Le Roman expérimental***.

سوى حجج في الجدال الأبديّ حول تعريف الجمال[1].

كوني واثقة من أنّني لم أخرج سالماً من المعركة. سبق وقلت لك إنّني أحمل ندوباً وجروحاً في كلّ أنحاء عقلي وقلبي. لم أعد أحتجّ وأجيب، بل أنتظر حتّى يعتاد الآخرون مظهري وتعبيري. علّني بذلك أعود إليك ذات يوم بكامل كياني. فأنا يا صديقتي غادرت دروبنا اللّطيفة التي كنا نسلكها حبيبَين، حيث تتفتّح الزهور ولا نقطف سوى ابتسامات. مشيت على الطريق العريض الذي يكسوه الغبار بلونه الرماديّ، حيث تنتصب الأشجار ضامرة. أعترف حتّى أنّني توقّفت بفضول أمام جيف كلاب مرميّة عند زوايا المحطات الحجريّة المزروعة على طول الطريق. تكلّمت في الحقيقة، زعمت أنّ بوسعنا أن نكتب عن كلّ شيء، أردت أن أثبت أنّ الفنّ في الحياة وليس في أيّ مكان آخر. بالطبع، أرادوا لي أن أزلّ وأسقط[2]. تصوّري يا نينون، أنا الذي قضيت شبابي أقطف أزهار الأقحوان وندى العنبر لأزيّن بها صدرك!

اغفري لي خياناتي لحبّنا. الرجال لا يمكنهم أن يبقوا على الدوام في أحضان الفتيات. تأتي ساعة يصبح فيها عطر أزهاركنّ خانقاً. هل تذكرين تلك الأمسية الخريفيّة الشاحبة، أمسية وداعنا؟ حين غادرتُ ذراعيك الرقيقتين، عندها جرفتني الحقيقة بيديها القاسيتين. كنت مهووساً حتّى الجنون بالتحليل المنطقيّ الدقيق. وبعدما أقضي أعمالي

---

(1) يفضّل زولا على الجمال المطلق الأزليّ الذي حمل عليه في الأدب وفي الفن، «التجلّيات الحرّة للعبقريّة البشريّة» كما يقول في مجموعته النقديّة «كلّ ما أبغضه» *Mes Haines*، وهو في ذلك من أتباع المدرسة الرومنطيقيّة. كذلك دافع بودلير في مجموعته النقديّة «رسّام الحياة الحديثة» *Le Peintre de la vie moderne* (1863) «نظريّة عقلانيّة وتاريخية للجمال، في تعارض مع نظريّة الجمال الوحيد المطلق».

(2) عند صدور رواية «تيريز راكان» (1867) تحدّث النقد عن «أدب فاسد متعفّن».

اليوميّة، كان اللّيل لي، أمضيه وأنا أكتب صفحةً بعد صفحةِ الكتبَ التي كانت تهجس فيّ. إن كنتُ أعتدّ بشيء، .فبتلك العزيمة التي أخرجني جهدها ببطء من مشقّات هذه المهنة. وجدت قوتي، دون أن أتنازل عن أيّ من معتقداتي. دَينٌ لكِ عليّ أن أُسرَّ إليك بكلّ ذلك، من حقّك أن تعرفي الرجل الذي خرج من ذلك الطفل التي رعيتِه في بدايات طريقه.

ألمي الوحيد اليوم هو أنّني وحيد. العالم يتوقّف عند بوابة حديقتي. عزلت نفسي في منزلي حتّى لا يسكن حياتي سوى العمل، وأوصدت الأبواب على نفسي حتّى أنّ أحداً لم يعد يأتي. لذلك يا روحي الحبيبة، استحضرتُ ذكراكِ في وسط صراعي. كنت وحيداً جدّاً بعد مضيّ عشر سنوات على فراقنا. أردت أن أراكِ من جديد، أقبّل شعرك، أقول لك إنّني ما زلت على حبّي لك. هذا يريح نفسي. تعالي، لا تخافي، لست قاتماً إلى الحدّ الذي يدّعونه. أؤكّد لك أنّني ما زلت أحبّك، ما زلت أحلم بأنّني أحمل وروداً لأضعها باقةً على صدرك. تتملّكني رغبات رعويّة. لو لم أكن أخشى أن أجعل منّي مضحكاً، لكنتُ اختليت بك مع نعجة بيضاء تحت مظلّة شجيرات في بستان، ليقول أحدنا للآخر بحنانٍ كلاماً رقيقاً.

أتعلمين يا نينون ماذا فعلت لاستبقائك بجانبي طوال هذه اللّيلة؟ لن تحزري. فتّشت الماضي، نقّبت في مئات الصفحات التي خططتها في كلّ مكان، علّني أجد كتابات رهيفة يمكن أن تطيب لأذنيك. في وسط كلّ قسوتي وخشونتي، أحببت أن أزرع هذه الحلاوة. أجل، أردت هذه الملذّة لنا نحن الاثنين. أن نعود طفلين، ونتناول وجبة العَصر على العشب.

كلّها حكايات، مجرّد حكايات[1]، مربّى في آنية خزفيّة للأطفال. أليس هذا لطيفاً؟ يكفينا ثلاث حبّات كشمش أحمر وحبّتا زبيب لسدّ جوعنا، وسوف نسكر بخمس قطرات من الخمر مسكوبة في مياه صافية. اسمعي، أيّتها الفتاة الفضوليّة. لديّ أوّلاً بضع حكايات لائقة بها يكفي. بعضها حتّى لديه بداية ونهاية. أقرّ بأنّ بعض القصص الأخرى تهيم عارية القديمن بعدما رمت قبّعتها من فوق السطوح. لكن عليّ أن أحذّرك بأنّنا أذ نمضي أبعد، سوف ندخل في قصص فنتازيّة[2] هائمة تماماً في عالمها الخيالي. ربّاه! جمعت كلّ ما طالته يداي. كان المطلوب أن أستبقيك اللّيل بكامله. هنا، أُنشد لك أغنية «هل تذكرين؟» إنّها ذكرياتنا يا فتاتي، تعبر أمامنا الواحدة تلو الأخرى. أعذب ما يكون على قلبنا، أفضل ما في حبّنا. وإن تبرّم الآخرون، فلا يهمّ! لا حاجة لهم بحشر أنفهم في شؤوننا. ثمّ سوف أبدأ قصّة طويلة حتّى أستبقيك أكثر، قصّة أخيرة، على أمل أن ترافقنا حتّى الصباح. إنّها الحبّة الأخيرة في مسبحة كلّ الحكايا الأخرى، تعمّدتُها خاتمةً حتّى تهدهدك فتغفين بين ذراعيّ. سندع الكتاب يسقط من أيدينا ونتبادل القبَل.

آه يا نينون! سيكون مهرجاناً من الأبيض والورديّ! لكن رغم كلّ حرصي على إزالة الأشواك، لا يسعني أن أعدك بأنّ أيّ قطرة دم لن تبقى عالقة في باقتي. لم تعد يداي طاهرتين بما يكفي لربط الباقات بلا خطر.

(1) نرى هنا أسلوب العرض الاستعاريّ ذاته كما في مقدّمة «حكايات إلى نينون» الأولى. لكنّ زولا الذي بات يومذاك يُعرف باعتباره أحد أشدّ دعاة الواقعيّة الأدبيّة، يسعى لتبديل إدراك القرّاء، ولو من خلال تضخيم البعد التخييليّ لمجموعته الثانية.

(2) أصبحت هذه التسمية شائعة في فترة 1845–1850 إلى حدّ باتت تشير الى «مجموعة» متباينة من الأدباء أمثال تيوفيل غوتييه وآرسين هوساي وتيودور دو بانفيل وسواهم. وفي 1861 ظهرت «مجلة فنتازيّة» بإدارة كاتول مينديس واصلت الصدور بين شباط وتشرين الثّاني فقط. وعارضَ زولا بحزْم في كتاباته النقديّة هذا التوجّه في الأدب المعاصر.

لكن لا تخشي شيئاً. فإن جرحَتْكِ شوكة، فسوف أقبّل أصابعك، سوف أشرب قطرات دمك. سيكون الطعم أقلّ تفَهاً.

في الغد أكون رجعت بالسنّ عشر سنوات إلى الخلف. سيبدو لي أنّني عائد من الأمس، من عمق شبابنا، وعلى شفتيّ عسل قبلتك. ستكون هذه بداية مهمّتي من جديد. آه يا نينون! أنا لم أُنجز شيئاً بعد. أبكي وأشكو أمام هذا الجبل من الأوراق المليئة بالكتابات السوداء، أتحسّر إذ أقول لنفسي إنّني لم أروِ ظمئي إلى الحقيقة، إنّ الطبيعة الشاسعة تفلت من ذراعيّ الأقصر من أن تضمّها. إنّها الرغبة الجامحة، رغبة في أن أضمّ الأرض إليّ، أتملّكها في فسحة عناق، أن أرى كلّ شيء، أعرف كلّ شيء، أقول كلّ شيء. بودّي أن أكتب البشريّة بكاملها على صفحة بيضاء، جميع الكائنات، جميع الأشياء. عمل سيكون سفينة الخلاص العظيمة.

لا تنتظريني قبل وقت طويل عند الموعد الذي حدّدته لك، في بروفانس، بعد إتمام مهامّي. هناك الكثير من الأعمال الواجب إنجازها. أريد الرواية، أريد المسرح، أريد الحقيقة في كلّ مكان. لا تأتينني بذكراك العزيزة بعد اليوم سوى تحت جناح اللّيل. تعالي على شعاع قمر ينسلّ من بين ستائري، في الساعة التي يكون بوسعي فيها أن أبكي معك دون أن يراني أحد. إنّني بحاجة إلى كلّ رجولتي. فيما بعد، آه! فيما بعد سأذهب أنا بنفسي لملاقاتك في حقول لا تزال تتحرّق بشوق ملامساتنا العاشقة. سنكون عجوزين، لكنّنا لا نزال متحابَّين[1]. ستقودينني في جولة تذكاريّة على ضفّة النهر، على طول المياه المستيقظة للتوّ من نومها،

---

(1) هذا الميل إلى الشرود وأحلام اليقظة الذي نستشفّه في هذا الاعتراف الوارد في أسلوب أدبيّ، تجلّى لاحقاً في المسرحيّين الغنائيّين اللّتين ألّفهما زولا بالاشتراك مع الموسيقيّ آلفريد برونو في تسعينيّات القرن التاسع عشر: «الحلم» *Le Rêve* (1891) التي اقتبسها عن روايته بالاسم ذاته، و«ميسيدور» *Messidor* (1897).

في حفر أوراق الأشجار، والحقول الملتهبة غافية من حولنا. وسط المروج الغارقة ببطء في فيض الغسق المزرورق، على الطريق الذي لا ينتهي، غير آبهَين للنجوم، مستغرقين في سعادتنا ونحن نتيه في العتمة. والأشجار، والأعشاب، وحتّى الحصى، سوف تعرفنا من بعيد، سوف تعرفنا من قبلاتنا وترحّب بنا.

اسمعي، حتّى لا يطول بحثُ أحدِنا عن الآخر، سأقول لك تحديداً خلف أيّ شجيرات سوف ألاقيك لأصطحبك. تعرفين الموقع حيث ينعطف النهر، بعد الجسر، عند أسفلِ المغسل، تماماً قبالة ستارة أشجار الحور المتراصّة؟ تذكّري، هناك قبّل كلٌّ منّا يدَ الآخر ذات صباح من شهر أيّار. حسناً! إلى اليسار تجدين سياجاً من شجيرات الزعرور، ذلك الجدار من النبات الذي كنا نتمدّد عند أسفله حتّى لا نعود نرى سوى زرقة السماء. أُواعدك يا روحي الحبيبة خلف سياج الزعرور، بعد سنوات، ذات صباح مشمس شاحب، حين يحدس قلبك أنّني في الجوار.

إميل زولا
باريس، الأوّل من تشرين الأوّل 1874

كتفا المركيزة[1]

1

المركيزة نائمة في سريرها الفسيح، تحت الستائر العريضة من الساتان الأصفر. عند الظهر، حين يرنّ جرس الساعة البلّوريّ، تفتح عينيها أخيراً.

الغرفة دافئة. السجّاد، الستائر المنسدلة فوق الأبواب والنوافذ، تحوّلها إلى عشٍّ وثيرٍ لا يتسرّب إليه البرد. تتمدّد فيها مساحات من الحرارة والعطر. هنا يخيّم ربيع أبديّ.

ما إن تستيقظ المركيزة تماماً، حتّى يستولي عليها هيجان مفاجئ. تردّ عنها الأغطية وتقرع الجرس لمناداة جولي.

«سيّدتي نادتني؟

– قولي لي، هل أنّ الجليد يذوب؟»

آه! يا لها من مركيزة طيّبة! كم كان صوتها منفعلاً وهي تطرح هذا السؤال! أوّل فكرة راودتها كانت لهذا البرد الفظيع، تلك الريح الشماليّة التي لا تحسّ بها، غير أنّها تهبّ حتماً بقسوة على أكواخ المساكين. وهي تسأل إن كانت السماء رأفت، إن كان بوسعها التمتّع بالدفء بلا ندم، ودون أن تفكّر في جميع مَن يرتعدون من البرد.

«هل أنّ الجليد يذوب جولي؟»

قدّمت لها الخادمة مبذل الصباح الذي دفّأته أمام نار مشتعلة.

(1) النصّ السرديّ الخامس من مجموعة «حكايات جديدة إلى نينون».

«آه! لا سيّدتي، الجليد لا يذوب، بل هو يزداد شدّة على العكس... عثروا منذ قليل على رجل مات برداً في عربة نقل».

تبتهج المركيزة مثل طفلة، تصفّق وهي تصيح:

«عظيم! حسناً، سأذهب بعد الظهر للتزلّج على الجليد».

2

تزيح جولي الستائر ببطء، حتّى لا يتدفّق النور فجأةً ويؤلم عيني المركيزة الجميلة، تلك العينين الرقيقتين.

تدخل زرقة وهج الثلج وتملأ الغرفة بنورٍ زاهٍ. السماء رماديّة، لكن بلون بهيّ يذكّر المركيزة بفستان من الحرير الرماديّ اللّؤلؤيّ كانت ترتديه بالأمس في الحفل الراقص في الوزارة. ذلك الفستان مزيّن بزخارف مخرّمة بيضاء شبيهة بشرائط الثلج التي تراها على حوافّ السطوح تحت السماء الشاحبة.

بالأمس كانت متألّقة بحليها الجديدة من الألماس. أوت إلى سريرها في الخامسة صباحاً، وهي لا تزال تشعر ببعض الثقل في رأسها. غير أنّها جلست أمام مرآة، ورفعت جولي خصل شعرها الشقراء الكثّة. انزلق المبذل عنها فظهرت كتفاها عاريتين، حتّى وسط ظهرها.

ثمّة جيل كامل شاخ أمام مشهد كتَفي المركيزة. منذ أن أجازت سلطة قويّة للسيّدات المرحات ارتداء فساتين مكشوفة الكتفين والرقص في قصر تويلري، والمركيزة تجول بكتفيها على غوغاء الصالونات الرسميّة، بمواظبة جعلت منها الرمز الحيّ لمفاتن الإمبراطوريّة الثانية. كان لا بدّ لها من اتّباع الموضة وتوسيع تقويرة فساتينها حتّى أسفل الظهر تارةً، وحتّى عمق النهدين طوراً. وهكذا، غمّازة بعد غمّازة، كشفت السيّدة العزيزة

عن كلّ ما يخفيه صدارها من مفاتن. ما من بقعة صغيرة من ظهرها وصدرها إلّا وباتت معروفة من ساحة لا مادلين إلى ساحة سان توما الأكويني. أضحى كتفا المركيزة المعروضتان بسخاءِ الشعارَ الشهوانيّ للعهد الامبراطوريّ.

3

لا داعي بالطبع للاستفاضة في وصف كتفَي المركيزة. فهما بشعبيّتهما تضاهيان جسر بون نوف. كانتا على مدى ثمانية عشر عاماً من ضمن قائمة العروض العامة الشائعة. ما إن يلمح الواحد بقعة صغيرة منهما في أحد الصالونات أو المسارح أو أيّ مكان آخر حتّى يصيح «يا للصدفة! المركيزة! ها هي العلامة السوداء على كتفها اليسرى!»

وفي مطلق الأحوال، فهما كتفان رائعتان، كتفان بيضاوان مكتنزتان مثيرتان. مرّت عليهما أنظار حكومة برمّتها فزادتهما نعومة وملاسة، مثل تلك البلاطات التي تصقلها أقدام الحشود مع الزمن.

لو كنت الزوج أو العشيق، لكان من الأفضل لي أن أقبّل المقبض البلّوري لبابِ وزيرٍ برمّته أيدي أصحاب الطلبات، على أن ألامس بشفتيّ هذين الكتفينَ اللّتينِ نفثت عليهما طبقات باريس الراقية بأكملها أنفاسها المتحرّقة. ألف رغبة ورغبة ارتعشت من حولهما، حتّى أنّنا نتساءل من أيّ طين جبلتهما الطبيعة حتّى صمدتا حتّى الآن دون أن تتآكلا أو تتفتّتا، مثل عري تلك المنحوتات المعروضة تحت رحمة الفلاء في الحدائق والتي قضمت الرياح أطرافها.

طرحت المركيزة الحياء جانباً ورفعت كتفيها الى مصاف مؤسّسة. وكم قاتلت من أجل الحكومة التي تختارها هيَ! تنشط بلا كلل، حاضرة

على كلّ الجبهات، في قصر تويلري[1]، في السفارات، عند الوزراء أو مجرّد الأثرياء من أصحاب الملايين، توزّع الابتسامات لإعادة المتردّدين إلى الصفوف، وتستنفر سلطان نهديها النّاصعَي البياض، فتكشف في أيّام الخطر عن زوايا صغيرة خفيّة ولذيذة، مُقْنعة أكثر من حجج الخطباء، قاطعة أكثر من سيوف الجنود، وللظّفر بصوتٍ ناخبٍ تُهدّد باجتياز أطراف قمصانها الصغيرة، إلى أن يستسلم أعضاء المعارضة الأشدّ شراسة ويعلنون مناصرتهم لها!

كتفا المركيزة بقيتا دوماً على جمالها كاملاً، دوماً مظفرتين. حملتا عالماً برمّته، من غير أن تأتيهما تجعيدة واحدة تخدش رخامهما الناصع.

4

في ما بعد ظهيرة ذلك النهار، عند الخروج من بين يدي جولي، ذهبت المركيزة مرتديةً ملابس بولندية فاتنة للتزلج على الجليد. هي تتزلّج ببراعة.

كان البرد قارساً في الغابة والريح الشمالية تخز أنف تلك السيّدات وشفاههنّ، وكأنّ الهواء ينفخ رملاً رقيقاً في وجوههنّ. كانت المركيزة تقهقه بالضحك. تجد البرد طريفاً. كانت تذهب بين الحين والآخر لتدفّئ قدميها أمام النار المشتعلة في مواقد مبعثرة على ضفّة البحيرة الصغيرة، ثمّ تعود وتلج الهواء المجلّد لتنزلق مسرعة مثل سنونو يحلّق لصق الأرض.

في طريق العودة، رأت المركيزة في أحد الشوارع المتفرّعة من جادّة الشانزيليزيه فقيرة تصطكّ عند أسفل شجرة، تكاد تموت من البرد.

---

(1) يقع بجوار اللّوفر، وفيه أقام بعض ملوك فرنسا، وكذلك الامبراطوران نابليون الأوّل ونابليون الثالث.

«يا لها من مسكينة!» تمتمت بصوت متحسّر.

وبما أنّ العربة كانت مسرعة بحيث لم يتسنّ للمركيزة أن تبحث عن صرّتها، رمت للفقيرة باقتها، باقة من أزهار اللّيلك البيضاء لا يقلّ ثمنها عن خمس ليرات.

الحدّاد[1]

كان الحدّاد رجلاً جسيماً، الأطول قامةً في تلك الناحية. كتفاه منتفختا العضلات ووجهه وذراعاه سودٌ من لهب المسبك وغبار الحديد المتطاير من المطارق. رأسه المربّع تعلوه غابة كثّة من الشعر المشعّث، وتحتها عينا طفل زرقاوان محملقتان، صافيتان كالفولاذ. فكّه العريض يتدحرج بقهقهات ضحك وصفير لهاث هادر يشبهه أنفاس منفاخه وانفجاراته المرحة. وحين يرفع ذراعيه في حركة جبروت مطمئنّ إلى قوّته، حركة اعتادها على مرّ سنوات من العمل على السندان، يبدو وكأنّه يحمل وزن سنواته الخمسين بأكثرَ تهلّلاً وانشراحاً ممّا يرفع «الآنسة»، تلك الكتلة التي تزن خمسة وعشرين رطلاً، فتاة رهيبة وحده دون سواه من فرنون إلى روان يمكنه أن يجعلها تتقافز وترقص[2] .

(1) قصّة «الحدّاد» التي نشرت للمرّة الأولى عام 1874 في «روزنامة العمّال» *Almanach des travailleurs*، صدرت في السنة ذاتها في مجموعة «حكايات جديدة إلى نينون» حيث كانت القصّة الثانية. وهي تستعيد بشكلٍ مباشرٍ ذكرياتٍ شخصيّة، مثل عدد من النصوص الأخرى في هذه المجموعة المتنوّعة في أسلوبها. كان زولا يتردّد بين 1866 و1871 على بلدة بينكو على ضفة نهر السين لقضاء عطل مع أصدقائه ومعظمهم فنّانون. وخلال إحدى هذه العطل دُهِش مع صديقه الرسّام سيزان أمام مشهد حدّاد يعمل في مشغله.

(2) هذا الحدّاد شبه الأسطوريّ، الأقرب إلى «فولكانوس ريفيّ»، على ما يرى هنري ميتران Henri Mitterand، الناقد المعروف وأحد محقّقي أعمال زولا، يبشر بشخصيّة غوجيه *Gouget* الملقّب بـ «الفم الذهبيّ» في رواية «الحانة»: «حين كان يندفع، كانت عضلاته تنتفخ، جبال من اللّحم تتدحرج وتتصلّب تحت جلده. كتفاه وصدره وعنقه كانت كلّها تنتفخ. ينضح نوراً من حوله، يصبح رائعاً، كليّ القوّة، مثل إله». (فولكانوس هو في الميثولوجيا الإغريقيّة إله النّار والمَسابِك والبراكين).

عشت سنةً عند الحدّاد، سنة نقاهة كاملة . كنت خسرت قلبي، فقدت عقلي. مضيت هائماً على وجهي، بحثاً عن نفسي، بحثاً عن بقعة سلام وعمل أستعيد فيها بأسي ورجولتي. هكذا ذات مساء، لمحت على الطريق، بعدما تجاوزت القرية، مشغل الحدادة معزولاً، متوقّداً، وقد زُرِعَ منحرفاً عند «مفْرق الدروب الأربع». كان الوهج شديداً، حتّى أنّ الباب العريض المشرّع على دفّتيه كان يلهب التقاطع، وأنّ بخاراً كان يتصاعد من أشجار الصفصاف المصطفّة في المقابل على طول الغدير وكأنّها مشاعل. في البعيد، وسط عذوبة الغسق، كان وقع المطارق يتردّد منتظماً رتيباً على مسافة كيلومترين، مثل عدْوِ فوجِ خيّالة يقترب جارّاً أسلحته. هناك، تحت الباب المشرّع، وسط النور والضوضاء، في قصف هذا الرعد وارتجاجه، توقّفْتُ، سعيداً، وقد وجدت عزائي في تأمُّل هذا العمل، ومعاينةِ يدَي الرجل تلويان القضبان الحمراء وتسطّحانها.

كانت هذه أوّل مرّة رأيت فيها الحدّاد، في ذلك المساء من فصل الخريف. كان يسبك شفرة محراث. قميصه المفتوح يكشف عن خشونة صدره حيث الضلوع تُبرِز مع كلّ نَفَسٍ هيكلَها من المعدن المجبول بالمحن والتجارب. يقلب ظهره إلى الخلف، يندفع ويخبط مطرقته. يواصل بلا توقّف، جسده يترنّح في حركة رشيقة متواصلة، وعضلاته تشتدّ في جهد جبّار. المطرقة تدور في حلقة منتظمة، باعثةً شراراتٍ وتاركةً خلفها وميضَ برق. كانت تلك هي «الآنسة» التي يجعلها الحدّاد تترنّح على هذا النحو بيديه، في حين يمسك ابنه، الفتى العشرينيّ، الحديد الملتهب بطرف ملقطه ويطرقه من جانبه، مسدّداً ضربات مكبوتة تكتمها الرقصة الباهرة التي تؤدّيها فتاة الوالد الفظيعة. طق طق، طق طق، لكأنّه صوت رزين، صوت والدة تشجّع تأتآت طفلها الأولى. كانت «الآنسة» تواصل

ترنّحها، نافضةً بَرَق فستانها، طابعةً كعبَي حذاءيها في الشفرة التي تنحتها هي كلّما ضربت السندان وارتدّت عليه. كانت شعلة نازفة تسيل حتّى الأرض، ملقيةً ضوءها على العظام الناتئة في جسد العاملين بينما يتطاول ظلّاهما الضخمان حتّى زوايا المشغل الغارقة في عتمة مبهمة. شيئاً فشيئاً شحب اللّهيب وتوقّف الحدّاد. انتصب أسود، متّكئاً إلى ذيل المطرقة، وعلى جبينه قطرات عرق لا يأبه حتّى لمسحها. كنت أسمع الأنفاس المتصاعدة من ضلوعه التي لا تزال ترتجّ من وطأة الصدمات، وسط هدير المنفاخ الذي يشدّ عليه ابنه بيد بطيئة.

في المساء كنت أبيت عند الحدّاد ولا أعود أخرج. كان لديه غرفة فارغة في الطابق العلويّ، فوق المشغل، عَرَضها عليّ وقبلت. كنت أشارك في نهار مضيفي منذ الساعة الخامسة، قبل طلوع الفجر. أستيقظ على قهقهات المنزل برمّته الذي يضجّ طوال النهار بمرحه الصاخب. المطارق تتراقص تحت غرفتي. كان يُخيَّل لي أنّ «الآنسة» ترميني خارج سريري، فتطرق على السقف وتعيّرني بالخمول. الغرفة المسكينة برمّتها، بخزانتها الكبيرة وطاولتها من الخشب الأبيض وكرسيَّيها، كلّها تطقطق وتصيح بي أن أُسرع. كان لا بدّ لي أن أنزل. في الأسفل، أجد المشبك متوهّجاً في تلك الساعة المبكرة. المنفاخ يهدر ومن الفحم المتّقد يتصاعد لهب أزرق ووردي وكأنّ كرة كوكبٍ تلتمع تحت الريح التي تتلاعب بالجمر. كان الحدّاد يعدّ لعمل النهار. يحرّك قطع حديد في زوايا مشغله، يقلِب عربات، يتفحّص عجلات. حين يتنبّه لي، يضع قبضتيه على خاصرتيه ويقرقع بضحكة تشقّ فمه حتّى أذنيه. كان يُبهجه أن يطردني من سريري في الخامسة صباحاً. أعتقد أنّه كان يطرق الحديد في الصباح لمجرّد أن يطرق، يدقّ النفير بِقرع مطارقه العظيمة. كان يضع يديه الضخمتين

على كتفيّ، ينحني كأنّه يكلّم طفلاً ويقول لي إنّ صحّتي اشتدّت منذ أن انتقلت للعيش بين حدائده. وفي كلّ يوم، كنّا نتناول النبيذ الأبيض معاً على قعر عربة قديمة مقلوبة.

ثمّ أخذت أقضي نهاري في غالب الأحيان في مشغل الحدّاد. في الشتاء خصوصاً، في الأيّام الماطرة، قضيت ساعاتي بكاملها هناك. كنت أتابع عمله باهتمام. ذلك الصراع المتواصل الذي يخوضه الحدّاد الجبّار مع الحديد الخام فيعجنه ويدلّكه كما يشاء، كان يفتنني وكأنّني أشاهد مسرحيّة عظيمة. أتابع المعدن من الكور إلى السندان، أراقبه بذهول لا ينقطع وهو يتلوّى ويتمدّد ويلتفّ بليونة الشمع تحت وطأة مجهود العامل القاهر. وحين ينتهي المحراث، أركع أمامه، ولا أتبيّن فيه الكتلة العديمة الشكل التي باشر العمل عليها بالأمس. أتفحّص الأجزاء وأنا أحلم بأنّ أصابع كليّة القوّة تناولتها وجبلتها على هذا الشكل دون أن تستعين بالنار. أحياناً أبتسم لذكرى فتاة رأيتها في ما مضى على مدى أيّام كاملة أمام نافذتي، تلوي بيديها الهزيلتين أسلاكاً من النحاس الأصفر تربط بها بخيوطِ حريرٍ أزهارَ بنفسجٍ إصطناعيّة.

لم أسمع الحدّاد يوماً يتشكّى. رأيته بعدما قضى أيّاماً يطرق الحديد على مدى أربع عشرة ساعة يضحك في المساء بضحكته الطيّبة المرحة وهو يفرك ذراعيه راضياً. لم يكن يوماً حزيناً ولا تعباً. لكان سند البيت بكتفه لو انهار. في الشتاء كان يقول إنّ الجوّ دافئ في مشبكه. وفي الصيف، يفتح الباب على مصراعيه ويترك رائحة العلف تتغلغل إلى الداخل. حين جاء الصيف، كنت أذهب إليه عند هبوط المساء وأجلس قربه أمام الباب. كنّا في منتصف التلّة، ونطلّ من هناك على الوادي على مداه. كان سعيداً لمشهد هذا البساط الشاسع من الأراضي المحروثة يمتدّ إلى أن يختلط

بخطّ الأفق فيذوب في ليلك الغسق الصافي.

كان الحدّاد يمازح كثيراً. يقول إنّ كلّ هذه الأراضي ملك له، إنّ مشغل الحدادة يمدّ البلاد برمّتها بالمحاريث منذ ما يزيد عن مئتي عام. كان يعتزّ بذلك. لولاه لما نبتَ زرْع. ولئن كان الحقل يخضوضر في أيّار ويصفرّ في تمّوز، فهو مدين له بذلك الحرير المتماوج المتبدّل. كان يحبّ المحاصيل وكأنّها بناته، ينبهر بالشموس الضخمة، يرفع قبضته مهدّداً غيوم البَرَد التي تنشقّ ملقيةً حمولتها. يشير لي أحياناً إلى قطعة أرض في البعيد تبدو أصغر مساحةً من قفا سترته، ويروي لي في أيّ سنة بالتمام سبك محراثاً لذلك المربّع من الشوفان أو الشيلم. في موسم الحراثة، كان يدع أحياناً مطارقه جانباً، يخرج إلى حافّة الطريق، يضع يده فوق عينيه وينظر إلى البعيد. يتأمّل عائلة محاريثه الغفيرة تقضم الأرض، ترسم أثلامها في كلّ الاتّجاهات، أمامه، إلى اليسار، إلى اليمين. الوادي يعجّ بها. تخال إذ ترى مشهد العربات تشقّ طريقها متباطئةً أنّها فرق عسكريّة زاحفة. شفرات المحاريث تلتمع في الشمس عاكسةً وميضاً فضيّاً. يرفع ذراعيه إلى السماء، يناديني، يصرخ لي أن آتي لأرى «العمل الرائع» الذي كانت تنجزه.

كلّ هذه الحدائد المقرقعة المدوّية من تحتي كانت تُفعِم دمي حديداً. كان ذلك أفضل لي من عقاقير الصيادلة. اعتدت هذا الضجيج، صرت بحاجة إلى موسيقى المطارق هذه تقرع على السندان حتّى أسمع نفسي أحيا. في غرفتي الهادرة بحفيف المنفاخ، استعدتُ رأسي المسكين. طق طق، طق طق، ذلك الطرق كان مثل رقّاص ساعة مرح ينظّم ساعات عملي. في أوج العمل، حين يغضب الحدّاد، كنت أسمع الحديد الملتهب ينشقّق تحت رقصة المطارق يتملّكها اندفاع جهنّميّ، فتستولي على قبضتَيّ حمّى عملاقٍ، وأودّ لو أُسطّح العالم بأسره بضربة من ريشتي. ثمّ حين

يصمت المسبك، يخيّم صمت مطبق في رأسي. أنزل الأدراج، فأخجل بعملي أمام مشهد كلّ هذا المعدن المهزوم والدخان الحارّ ما زال يتصاعد منه.

آه! كم كان الحدّاد يبدو لي رائعاً أحياناً، في ما بعد الظهائر الحارّة! عارياً حتّى الخصر، عضلاته متصلّبة ونافرة، كان يشبه إحدى مخلوقات مايكل آنجلو الهائلة التي تنهض في مجهود أخير. أنظر إليه، فأرى أحجام النحت الحديث وخطوطه التي يبحث عنها فنّانونا بعناء في الأجساد الميتة من عهد الإغريق. أرى فيه بطل العمل العظيم، ابن هذا القرن الذي لا يعرف التعب، يخبط بلا كللٍ على سندانه أداةَ تحليلنا، ويجبل بالنار والحديد مجتمع الغد. أمّا هو، فكان يلعب بمطارقه. حين يريد أن يلهو ويضحك، يتناول «الآنسة» ويطرق بها بكلّ قوّة ذراعه، فيبعث قصف الرعد في منزله، في اللّهاث الورديّ المنبعث من الكور. كان يُخيّل لي أنّني أسمع تنهّدات الشعب المنكبّ على عمله.

هنا، في مشغل الحدّاد، وسط هذه المحاريث، شفيت إلى الأبد من داء البلادة والتشكيك الذي كان يلمّ بي.

البطالة[1]

1

حين يصل العمّال إلى المشغل في الصباح، يجدونه بارداً، وكأنّه اكتسى سوادَ خرابٍ حزين. في عمق الصالة الكبيرة، الآلة صامتة، بأذرعها النحيلة وعجلاتها المسمّرة، تضفي المزيد من الكآبة، هي التي تبعث أنفاسها وارتجاجاتها عادةً الحياة في المصنع برمّته فتضخّ فيه نبضات قلبِ عملاقٍ، قلبٍ يكابد عناء العمل.

ينزل ربّ العمل من مكتبه الصغير ويبادر العمّال بحزن: «يا أولادي، ليس لدينا عمل اليوم... لم تعد تردنا طلبات. بل أتلقّى إلغاء صفقات من جميع الجهات. سوف تبقى البضائع مكدّسة في مخازني. شهر كانون الأوّل هذا الذي كنت أعوّل عليه، شهر الذروة في العمل هذا في السنوات الماضية، يهدّد بدفع أمتن المصانع إلى الإفلاس... علينا أن نعلّق كلّ شيء».

وإذ يرى العمّال يتبادلون النظرات بعيون ملؤها الخوف من العودة إلى المنزل، الخوف من الجوع في الغد، يضيف خافضاً صوته:

«لست أنانيّاً، أقسم لكم على ذلك... وضعي لا يقلّ فظاعة عن

(1) صدرت صيغة أولى لهذا النص تحت عنوان «غداة الأزمة» *Le Lendemain de la crise* في صحيفة *Le Corsaire* في 22 كانون الأوّل 1872، وكانت تلك الصيغة أكثر سجاليّة بكثير، وشديدة الالتزام بالأحداث السياسية الجارية في فترتها. وأدّى نشر مقالة زولا تلك الى حظر هذه الصحيفة الجمهوريّة التابعة للتيار الراديكاليّ. ونصّ «البطالة» هو النصّ الحادي عشر في مجموعة «حكايات جديدة إلى نينون».

وضعكم، بل ربّما كان أكثر فظاعة. خسرت خمسين ألف فرنكاً في ثمانية أيّام. أُوقِفُ العمل اليوم حتّى لا أعمّق الهوّة أكثر. ولست أملك فلساً واحداً من مستحقّات الخامس عشر من الشهر... أترون، إنّني أكلّمكم كصديق، لست أخفي عليكم شيئاً. ربّما يحضر المأمورون القضائيّون غداً. ليس هذا خطأنا، أتفهمون؟ ناضلنا وقاومنا حتّى النهاية. كنت أودّ لو أساعدكم على تخطّي هذه المرحلة العصيبة، لكنّ الأمر انتهى، إنّني مهزوم. لم يعد لديّ خبز أتقاسمه والآخرين».

عندها يمدّ لهم يده. يصافحه العمّال بصمتٍ ويقفون في مكانهم عدّة دقائق، يتأمّلون أدواتهم العديمة الجدوى، شادّين على قبضاتهم. في الصباحات السابقة كانت المبارد تغنّي منذ طلوع النهار، ترافقها المطارق طارقةً الإيقاع. كلّ هذا يبدو منذ اليوم وكأنّه نائم في غبار الإفلاس. ثمّة عشرون عائلة، أو أكثر، لن تجد طعاماً في الأسبوع التالي. بعض النساء اللّواتي يعملن في المصنع يحبسن دموعهنّ. الرجال يحرصون على إبداء المزيد من الصلابة، يتظاهرون بالشجاعة، يقولون إنّه لا يمكن للواحد أن يموت من الجوع في باريس.

ثمّ حين يفارقهم ربّ العمل ويرونه يخرج، وقد انحنى ظهره في ثمانية أيّام، مسحوقاً ربّما تحت عبء كارثة هي أكبر ممّا يقرّ به، ينسحبون الواحد تلو الآخر، وقد أطبق جوّ القاعة على صدورهم. يغادرون، قلوبهم منقبضة والبرد يسكنهم وكأنّهم خارجون من غرفة ميت. الميت هو العمل، إنّه الآلة الضخمة الصامتة، بهيكلها الكئيب في العتمة[1].

(1) إنّ زولا الجمهوريّ لا يتكلّم عن الوضع الاقتصاديّ من خلال فكرة «صراع الطبقات». الخلاف بين أنصار النظام الجمهوريّ ويمين ملكيّ متعنّت في إنكار الجمهوريّة كان يضرّ بوسط الأعمال وعالم العمل على السواء. وبالتالي، فإنّ زولا لا يضع ربّ العمل والعامل وجهاً لوجه، وهما لديهما مصالح مشتركة.

2

يقف العامل في الخارج، في الشارع، على الرصيف. ذرع الأرصفة ثمانية أيّام، دون أن يعثر على عمل. دقّ الأبواب الواحد تلو الآخر، عارضاً ذراعيه، عارضاً يديه، عارضاً نفسه بكليّته للقيام بأيّ عمل كان، مهما كان بغيضاً أو عسيراً أو قاتلاً. جميع الأبواب أُغلقت في وجهه.

عندها عرض العامل أن يعمل بنصف أجر. لم تُفتح الأبواب. حتّى لو عرض العمل مجّاناً ما كان يمكن تشغيله. إنّها البطالة متفشّية، البطالة الرهيبة التي تنذر سكّان الغرف البائسة في العليّات وتحت السطوح بنهايتهم. الذعر أوقف جميع الصناعات، والمال، المال الجبان، اختبأ وتوارى.

بعد انقضاء ثمانية أيّام، بات الأفق مسدوداً تماماً. قام العامل بمحاولة أخيرة، وها هو عائد مجرجراً قدميه، صفر اليدين، منهكاً من البؤس. المطر يتساقط. باريس في ذلك المساء كئيبة في الوحل. يمشي تحت المطر الغزير دون أن يشعر بالقطرات. لا يسمع سوى جوعه. يتوقّف ليؤخّر وصوله. ينحني فوق حاجز على نهر السين. المياه تندفع بزخم باعثةً هديراً لا يهدأ، ونثار الزّبَد الأبيض يتطاير ويتكسّر على إحدى ركائز الجسر. انحنى بجسده، السيول الهائلة تعبر تحته، تناديه بضراوة. لكنّه يقول في سرّه في نهاية الأمر إنّ ذلك سيكون تخاذلاً وجبناً، ويمضي في طريقه.

توقّف المطر. الأنوار تتلألأ في واجهات محلّات المجوهرات. إن حطّم واجهة، نالَ خبزَ سنواتٍ طوال. مطابخ المطاعم تشعل أضواءها. يرى من خلف ستائر الموسلين البيضاء أشخاصاً يتناولون الطعام. يسرع الخطى، يصعد من جديد نحو أطراف المدينة، يمرّ بمحاذاة مطاعم المشاوي، محلّات اللّحوم المقدّدة، مخابز الحلوى، باريس الشرهة تلك

التي تفرش ملذّاتها وأطايبها حين يشتدّ الجوع.

كانت المرأة والفتاة الصغيرة تبكيان في الصباح، فوعدهما بأنه سيجلب خبزاً في المساء. لم يجرؤ على العودة قبل هبوط اللّيل ليقول لهما إنّه كذب عليهما. يتساءل وهو يمشي كيف سيدخل، ماذا سيروي لهما ليجعلهما تتصبّران. لا يمكن أن يبقوا بلا طعام لمزيد من الوقت. بوسعه هو أن يحاول، لكنّ المرأة والفتاة الصغيرة واهنتان لا تقويان.

يخطر له للحظة أن يتسوّل. لكن حين تعبر سيّدة أو سيّد بقربه ويهمّ بمدّ يده، يتيبّس ذراعه وينعقد لسانه، ويبقى مسمّراً على الرصيف، فيما المارّة اللّائقون يحوّلون أنظارهم عنه ظنّاً منهم عند رؤية ضراوة الجوع على وجهه أنّه ثمل.

3

نزلت زوجة العامل إلى باب المبنى، تاركة الطفلة نائمة في الأعلى. المرأة نحيلة للغاية في فستانها المزركش. ترتعد من البرد في عصفات الريح الجليديّة التي تهبّ على الشارع.

لم يعد هناك شيء في البيت. حملت كلّ ما كان لديها إلى مكتب الإقراض بالرهن. ثمانية أيّام بلا عمل كافية لإفراغ المنزل. بالأمس باعت آخر حفنة من الصوف متبقّية في جوف فراشها. هكذا ولّى الفراش ولم يبقَ منه اليوم سوى الغطاء. علّقته أمام النافذة لمنع تسرّب الريح. طفلتها مصابة بسعال شديد.

سعت من جانبها أيضاً للبحث عن عمل، دون أن تقول لزوجها. لكنّ وطأة البطالة على النساء أشدّ منها على الرجال. ثمّة بائسات يقطنّ الطابق ذاته، تسمع نحيبهنّ في اللّيل. التقت إحداهنّ واقفة عند زاوية

رصيف. ثمّة أخرى توفّيت، وثالثة اختفت.

من حسن حظّها أنّ لديها رجلاً طيّباً، زوجاً لا يُقبِل على الكحول. لكانوا في بحبوبة لولا المواسم الميتة التي جرّدتهم من كلّ ما لديهم. استنفدت المرأة كلّ إمكانات الاقتراض، فهي مدينة للخبّاز والبقّال وبائعة الخضار والفاكهة، حتّى أنّها لم تعد تجرؤ على العبور أمام محلّاتهم. قصدت بعد الظهر شقيقتها علّها تديّنها عشرين فلساً، لكنّها وجدتها هي أيضاً معدمة إلى حدّ أنّ المرأة أخذت تبكي دون أن تتفوّه بكلمة. بكَتا معاً هي وشقيقتها طويلاً. ثمّ وعدتها وهي تغادر بأن تأتيها بكسرة خبز إن عاد زوجها حاملاً معه أيّ شيء.

تأخّر الزوج في العودة. المطر يتساقط، والمرأة احتمت تحت الباب. عند قدميها تطبطب قطرات ضخمة، ويخترق الماء فستانها الرقيق. أحياناً تفقد الصبر، فتخرج في المطر الغزير، تمضي إلى نهاية الشارع لترى إن لم يكن الرجل الذي تنتظره يظهر لها في البعيد، على الرصيف. وحين تعود تكون مبلّلة، تعصر شعرها بيديها وتتريّث قليلاً، جسدها يهتزّ بارتعاشات حمّى متقطّعة.

يلامسها المارّة في حركتهم المتواصلة ذهاباً وإياباً. تتقوقع على نفسها حتّى لا تزعج أحداً. الرجال يحملقون في وجهها. تشعر بين الحين والآخر بلهاث ساخن يداعب عنقها. باريس المريبة برمّتها، الشارع الموحل بأضوائه العارية ودحرجة عرباته، باريس المريبة تلك كأنّها تريد أن تحملها وترميها في القناة. إنّها جائعة، إنّها عرضة للجميع. في الجهة المقابلة ترى مخبزاً، تفكّر في الطفلة النائمة في الأعلى.

وحين يظهر الزوج أخيراً، منسلّاً كالبؤساء لصق المنازل، تهرع إليه وتحدّق فيه بلهفة.

«ماذا لديك؟» تتمتم.

يحني رأسه دون أن يجيب. عندها تتقدّمه وتصعد، شاحبة كالموت.

4

في الأعلى الطفلة ليست نائمة. استيقظت وجلست مُطرقة أمام عقب الشمعة التي تُنازع عند إحدى زوايا الطاولة. لا أحد يدري أيّ ظلال رهيبة وأليمة تمرّ على وجه هذه الفتاة الصغيرة في عامها السابع، بملامحه الذاوية الرزينة وكأنّها امرأة دعكتها الحياة.

جالسة عند حافة الصندوق الذي تفترشه، تتدلّى قدماها عاريتين مرتعدتين من البرد. تقبض بيديها الشبيهتين بيدي دمية عليلة على الخِرَق التي تغطّيها لتشدّها على صدرها. تشعر هنا بلهيب حارق، نار تودّ إطفاءها. تسرح في أفكارها.

هي لم تمتلك يوماً ألعاباً. لا يمكنها الذهاب إلى المدرسة، ليس لديها حذاء للذهاب إليها. تذكر أنّ والدتها كانت تقودها إلى الشمس حين كانت أصغر سنّاً. لكنّها ذكرى بعيدة. توجّب عليهم الانتقال إلى مسكن آخر. ومنذ ذلك الحين، يبدو لها أنّ صقيعاً هبّ على منزلهم. لم تعد سعيدة منذ ذلك الحين، ولم يفارقها الجوع.

إنّها تنحدر في شيء عميق لا يمكنها أن تفهم ما هو. هل أنّ الجميع جياع؟ حاولت رغم كلّ شيء أن تعتاد الأمر، لكنّها لم تستطع. تظنّ أنّها صغيرة السنّ على ذلك، لا بدّ أن تكون كبيرة لتعرف. لا شكّ أنّ والدتها تعرف ذلك الأمر الذي يُخفى على الأطفال. لو تجرؤ على ذلك، لكانت سألتها من الذي يلدنا هكذا حتّى نشعر بالجوع.

ثمّ كم أنّ منزلهم قبيح! تنظر إلى النافذة حيث يتطاير غطاء الفراش،

الجدران العارية، قطع الأثاث العرجاء، كلّ هذه العليّة المعيبة تطليها البطالة بيأسها القذر. يُخيّل لها في جهلها أنّها حلمت بغرف دافئة فيها أغراض جميلة لّماعة. تغمض عينيها لتستعيد هذا المشهد مرّة جديدة، ومن خلال جفونها الرقيقة، تتحوّل شعلة الشمعة إلى تألّق باهر من الذهب تودّ لو تلجه. لكنّ الريح تعصف وتتدفّق من النافذة فتلفحها. تصعقها نوبة سعال وتملأ الدموع عينيها.

في الماضي كانت تخاف حين تبقى وحيدة. الآن لم تعد تدري، لا يهمّها. وبما أنّهم لم يتناولوا أيّ طعام منذ الأمس، ظنّت أنّ والدتها نزلت لتأتي ببعض الخبز. تجد هذه الفكرة طريفة. سوف تقطّع خبزتها إلى قطع صغيرة جدّاً، ستأخذها ببطء، قطعة بعد قطعة، وتلعب بها.

دخلت الوالدة وأغلق الوالد الباب. تحدّق الطفلة في أيديهما بدهشة كبيرة. وحين ترى أنّهما لا يتفوّهان بكلمة، تردّد بعد برهة مدندنةً: «أنا جائعة، أنا جائعة».

يمسك الوالد رأسه بين يديه في زاوية مظلمة من البيت، ويبقى هناك، منسحقاً، كتفاه تهتزّان في شهقات قاسية صامتة. تكبت الوالدة دموعها وتقترب لتعيد الطفلة إلى النوم. تغطّيها بكلّ ما في المنزل من أسمال، تقول لها أن تكون وديعة وتنام. لكنّ الطفلة تتجاسر، فيما أسنانها تصطكّ من البرد واللّهب في صدرها يستعر ويحرقها. تتعلّق بعنق والدتها وتسألها بصوت واهن ناعم:

«قولي لي أمّي، لماذا نحن جائعون؟»[1]

(1) قصّة «البطالة» مبنية بثلاثة أقسام، ما يسمح بتنويع وجهات النظر حول البؤس والتعبير بشكل أفضل عن مشاعر الغضب البارد التي تحرّك الراوية–الشاهد. هذه القصّة تنبئ بالتأكيد ببعض صفحات روايتي زولا «الحانة» و«جرمينال».

القسم الثاني

(1899–1875)

النّقيب بورل[1]

1

كانت الساعة التاسعة. ومدينة فوشان[2] الصغيرة أوت إلى الفراش للتوّ، سوداء وصامتة تحت مطر تشرين الثّاني الجليديّ. في شارع ريكوليه، أحد أضيق شوارع المدينة، لا تزال إحدى النوافذ مضاءة في الطابق الثالث من منزل قديم تنهمر من مزاريبه المحطّمة شلّالات من المياه. إنّها السيّدة بورل تسهر أمام نار هزيلة من جذوع الدوالي بينما حفيدها شارل يتمّم فروضه المدرسيّة على ضوء المصباح الشاحب.

الشقّة البالغ إيجارها مئة وستّين فرنكاً في السنة تتألّف من أربع غرف فسيحة تتعذّر تدفئتها في الشتاء. كانت السيّدة بورل تنام في أوسع غرفة، فيما ابنها النّقيب أمين الصندوق شارل اختار الغرفة المطلّة على الطريق، قرب غرفة الطعام. أمّا شارل الصغير، فكان ضائعاً مع سريره من الحديد الأبيض في أقصى صالون شاسع لا يستخدم لهذه الوجهة، تحيط به ستائر متعفّنة. قطع الأثاث القليلة المتبقّية للنّقيب ووالدته، قطع أثاث من

(1) قصّة «النّقيب بورل» التي تعطي اسمها للمجموعة القصصيّة الصادرة عام 1882، نشرت للمرّة الأولى في كانون الأوّل 1880 في المجلّة الروسيّة *Le Messager de l'Europe* تحت عنوان «مبارزة» *Un duel* . أعاد زولا صياغة هذه القصّة مرّتين فيما بعد، أوّلاً بين 19 شباط و5 آذار 1881 في الأسبوعيّة الأدبيّة والفنيّة المصوّرة *La Vie moderne* التي كان ينشرها جورج كاربنتييه، ثمّ بين 25 أيلول و16 تشرين الأوّل 1882 في *Le Rabelais*.

(2) نجد ذكراً لهذه المدينة في القرن السابع عشر في أقليم الراين الأعلى. ويذكر زولا في الجملة التالية اسم شارع سبق أن استخدمه في روايته «ثروة آل روغون»، كما يشير لاحقاً إلى أنّ فوشان تقع في جنوب فرنسا. موقع المدينة وهميّ إذاً.

خشب الماهوغوني الصلب من الطراز الامبراطوريّ تبعّجت وفقدت زخارفها النحاسيّة على مرّ تنقّلاته بين الحاميات، مشتّتة وضائعة تحت السقف العالي من حيث يتساقط غبار وكأنّه غبار ظلام. البلاط البارد والقاسي المخضّب بالأحمر يقرس القدمين. ولم يُفرش أمام المقاعد سوى بسُط صغيرة بالية ترتعد فقراً وبرداً وسط هذه الصحراء المشرّعة على رياح من كلّ الأتّجاهات تتسلّل من الأبواب والنوافذ المتخلّعة.

أمام الموقد، جلست السيّدة بورل في عمق أريكتها من المخمل الأصفر متّكئة إلى المسند، تتأمّل جذعاً أخيراً يحترق باعثاً دخاناً. تحدّق بنظرة ثابتة فارغة، نظرة الهرمين الذين يستعيدون حيواتهم في داخلهم. تبقى مستمّرة على هذا النحو أيّاماً كاملة، بقامتها الطويلة ووجهها المتطاول الرزين الذي لا تبدر على شفتيه الرقيقتين أيّ ابتسامة. حياتها كأرملةِ ضابطٍ برتبةِ عقيدٍ قُتِل عشيّة ترقيته جنرالاً، ووالدةِ نقيبٍ رافقته حتّى في حملاته العسكريّة، طبعتها بصلابة عسكريّة. تشبّعت بمفاهيم عن الواجب والشرف والوطنيّة تبقيها متصلّبة، وكأنّ قسوة الانضباط تركتها متيبّسة جافّة. نادراً ما كانت تبدر عنها شكوى. حين ترمّل ابنها بعد خمس سنوات من الحياة الزوجيّة، قبلت بطبيعة الحال بالتكفّل بتربية شارل، متولّية هذه المهمّة بصرامة رقيب مكلّف بتدريب المجنّدين. كانت تراقب الطفل دون أن تسمح له بأدنى نزوة ولا بأدنى مخالفة، ترغمه على السهر حتّى منتصف اللّيل وتسهر هي نفسها معه، إن لم يكن أتمّ فروضه المدرسيّة. كان شارل يشبّ، شاحب الوجه رهيف الطباع، في ظلّ هذا القانون الحديديّ، تضيء وجهه عينان رائعتان، شاسعتان صافيتان إلى حدّ لا يصدّق.

خاطر وحيد أوحد كان يراود السيّدة بورل، فتقلّبه في رأسها في فترات

صمتها الطويلة: ابنها خيّب آمالها. كانت هذه الفكرة كافية لشغلها طوال الوقت، تجعلها تستعيد حياتها منذ ولادة طفلها الذي كانت تتوقع له أن يترقّى إلى أعلى المراتب العسكريّة وسط أمجاد صاخبة، إلى حياة الحامية تلك المحدودة، هذه الأيّام الرتيبة المتشابهة إلى ما لا نهاية، ذلك السقوط في منصب النّقيب أمين الصندوق هذا الذي لن يخرج منه، والذي استراح فيه متبالداً. ينبغي القول إنّ بداياته بعثت فيها الكثير من الفخر، حتّى أنّها ظنّت لوهلة أنّ حلمها يتحقّق. كان بورل خارجاً للتوّ من كليّة سان سير العسكريّة حين تميّز في معركة سولفيرينو[1] حيث هَزم مع حفنة من الرجال وحدة كاملة من قوّات العدوّ. قُلّد وساماً وتناقلت الصحف رواية بطولته، واشتهر باعتباره أحد الجنود الأشدّ بأساً وشجاعةً في الجيش. ثمّ شيئاً فشيئاً أخذ البطل يسمن، غرق في شحمه وبات غليظاً، سعيداً، مسترخياً وجباناً. في العام 1870، كان لا يزال برتبة نقيب. فبعدما أُسر في الموقعة الأولى، عاد من ألمانيا غاضباً وهو يقسم بأنّه لن يقع في الفَخّ مّرة أخرى ويعود إلى ساحة المعركة، معتبراً خوض المعارك غاية في الغباء. وبما أنّه لم يكن بوسعه مغادرة الجيش لعجزه عن مزاولة أيّ مهنة، تدبّر أمره للحصول على منصب نقيب أمين صندوق، منصب كان يقول إنّه ملاذ صغير سيدعونه على الأقلّ ينهي أيّامه فيه بسلام. في ذلك اليوم، شعرت السيّدة بورل بألم يمزّقها من الداخل. ذلك اليوم كان نهاية آمالها. ومنذ ذلك الحين وهي تشدّ قامتها بصلابة وتكزّ على أسنانها.

اندفعت الريح بقوّة في شارع ريكوليه ولفح سيل من الأمطار النوافذ بضراوة. رفعت السيّدة المسنّة عينيها عن أغصان الدوالي التي تخمد

(1) شكّلت معركة سولفيرينو في 24 حزيران 1859 المحطة المفصليّة في الكفاح من أجل وحدة إيطاليا وانتصر فيها الفرنسيون بقيادة الامبراطور نابليون الثالث على القوّات النمساويّة.

للتثبّت من أنّ شارل لم ينَم على ترجمته اللّاتينيّة. ذلك الطفل البالغ الثانية عشرة من العمر كان يتحوّل إلى رجاء أخير لها، تغذّيه حاجتها المتعنّتة إلى المجد. كرهته في بادئ الأمر، بكلّ ما تكنّه من حقد لوالدته، عاملة متواضعة في صنع الدنتيل، جميلة، رهيفة، تزوّجها النّقيب في لحظة طيش وحماقة استفحلت فيها الشهوة، وقد عجز عن أن يجعل منها عشيقة. ومع وفاة الوالدة وانصراف الوالد إلى نزواته، عادت السيّدة بورل تحلم من جديد أمام الصبيّ المسكين المعتلّ الذي كانت تربّيه بمشقّة. تريده أن يكون قويّاً، سوف يصبح البطل الذي رفض بورل أن يكون. تنظر إليه بقلق خلف برودتها الصارمة، تراقبه ينمو ويكبر، تتحسّس أطرافه، تغرز الشجاعة والبسالة بالقوّة في رأسه. مأخوذةً بولعها الذي كان يعميها، ظنّت شيئاً فشيئاً أنّها تمسك بعد طول انتظار برَجلِ عائلتها. الطفل الحنون الحالم بالفطرة، كان يشعر بهول في جسده حيال كلّ ما يمتّ إلى العسكر. لكنّ جدّته كانت توحي له برهبة فظيعة وهو وديع ومطيع للغاية، فيردّد ما تقول له وقد أذعن لمصيره وبدا مستسلماً لقدَره بأن يصبح ذات يوم جنديّا.

تنبّهت السيّدة بورل إلى أنّ الترجمة اللّاتينيّة لم تكن تتقدّم كما ينبغي. كان شارل نائماً والريشة لا تزال في يده، عيناه مشرّعتان على الصفحة أمامه، وقد أصمّه صخب العاصفة. طرقت بأصابعها الجافّة على طرف الطاولة، فجفل وفتح قاموسه تلقائيّاً وراح يقلّب صفحاته بحركة محمومة. جمّعت السيّدة العجوز الحطب دون أن تتفوّه بكلمة وحاولت إشعال النار من جديد من غير أن تفلح.

حين كانت لا تزال تؤمن بابنها، جرّدت نفسها من كلّ ما لديها. التهم كلّ مداخيلها الزهيدة في أهواء لم تكن تجرؤ على التبحّر فيها. وكان

لا يزال يفرغ المنزل، فيبدّد ما تملك في الشّارع. والنتيجة هي البؤس، الغرف العارية، والمطبخ البارد. لم تكن تفاتحه البتّة في هذه المسائل. ففي احترامها للانضباط، يبقى هو السيّد المطلق. غير أنّها كانت ترتعد أحياناً حين يخطر لها أنّ بورل قد يرتكب في أحد الأيّام حماقة تمنع شارل من الدخول إلى الجيش.

كانت تنهض لتجلب غصن كرْم من المطبخ حين انقضّت عصفة ريح شديدة على المنزل، فهزّت الأبواب واقتلعت ستارة خشبيّة وجرفت مياه المزاريب المبقورة التي انهمرت على النوافذ. وفي وسط هذا الصخب، ذُهلت بسماع أحدهم يرنّ على الباب. مَن يمكن أن يأتي في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا الطقس؟ بورل لم يعد يرجع إلى المنزل إلّا بعد منتصف اللّيل، ذلك إن عاد. فتحت الباب ورأت ضابطاً مبلولاً يطلق الشتائم.

«اللّعنة!... يا له من طقس قذر لعين!»

كان هو الرّائد لاغيت، ضابط قديم باسل خدمَ تحت أوامر العقيد بورل، في أيّام عزّ السيّدة بورل. انطلق «ابن فرقة»[1]، ووصل بشجاعته أكثر منه بذكائه إلى رتبة قائد كتيبة، حين أصيب بإعاقة، تقلّص في عضلات الفخذ على إثر إصابة، أرغمته على القبول برتبة رائد[2]. كان

(1) تعبير يشير إلى أبناء ضباط الصفّ أو الجنود والذين كانوا يتبعون القوّات العسكريّة مع عائلاتهم. خلافاً لأبناء الضباط الذين كانت لديهم مدارس لتدرّبهم على العمل العسكريّ، لم يكن لدى «أبناء الفرقة» من وسيلة للحصول على تدريب عسكريّ إلاّ من خلال الانتساب كجنود.

(2) المفردة التي استخدمها الكاتب هي major، وهي تشير إلى رتبة عسكريّة تختلف أهميّتها في التراتبيّة العسكريّة بحسب البلدان. ويمكن أن تشير إمّا إلى رتبة متوسّطة بين ضابط الصفّ وضابط العون، أو إلى الرتبة الأولى لضابط أعلى، أي رائد، وهذه الأخيرة هي المقصودة هنا ما دام لاغيت كان في البداية قائد كتيبة.

يعرج حتّى بشكل طفيف، لكن من الأفضل عدم ذكر ذلك له، فهو يرفض الإقرار بالأمر.

«هذا أنت يا رائد؟ قالت السيّدة بورل وقد ازدادت دهشة.

- أجل، بحقّ الله! غمغم لاغيت. لا بدّ للواحد أن يكنّ لك محبّة لا توصف حتّى يجوب الشوارع تحت مطر لعين كهذا... طقس لا يصلح لتضعي إصبعاً في الخارج.

راح ينتفض فسالت برك ماء من جزمتيه على الأرض. ثمّ تلفّت من حوله.

«إنّني بحاجة ماسّة لأرى بورل... هل ذهب هذا الكسول إلى فراشه؟

- لا، لم يعد بعد»، قالت العجوز بصوتها القاسي.

بدا الرّائد مغتاظاً وأخذ يصيح بغضب: «ماذا؟ لم يعد بعد؟ إذاً سخروا منّي في مقهاه، تعلمين، عند ميلاني تلك!... أصل إلى هناك وثمّة تلك الخادمة، تضحك في وجهي وتقول لي إنّ النّقيب ذهب ليخلد إلى النوم. آه! اللّعنة عليها! شعرت بأنّ في الأمر خدعة! وددت لو أشدّها من أذنيها!»

هدأ وراح يذرع الغرفة، حائراً في أمره. بدا مضطرباً. كانت السيّدة بورل تحدّق به دون أن تحوّل نظرها ثانية.

«هل أنت بحاجة للتحدّث إلى النّقيب نفسه؟ سألته أخيراً.

- أجل، أجاب.

- ولا يمكنني أن أنقل له كلامك؟

- لا».

لم تصرّ عليه، لكنّها بقيت مسمّرة، تنظر إلى الرّائد الذي بدا عاجزاً عن حسم أمره والرحيل. وفي نهاية المطاف، سيطرت عليه نوبة غضب

جديدة.

«تباً! اللّعنة!... بما أنّني جئت إلى هنا، يجب أن تعلمي... ربّما هذا أفضل».

جلس أمام الموقد ومدّ جزمتيه الموحلتين صوبه وكأنّ ألسنة نار تشتعل فيه. كانت السيّدة بورل تهمّ بالجلوس مجدّداً في أريكتها حين تنبّهت إلى شارل وقد غلبه التعب، فهوى رأسه بين صفحات القاموس المشرّع أمامه. فوجئ في بادئ الأمر بدخول الرّائد، ثمّ حين رأى أنّ أحداً لم يعد يهتمّ له، استسلم للنعاس. كانت جدّته متوجّهة إلى الطاولة لتوقظه بضربة على يديه الهزيلتين الشاحبتين في نور المصباح، حين استوقفها لاغيت.

«لا، لا، دعي هذا الطفل المسكين ينام... المسألة ليست طريفة، ولا حاجة به إلى سماعها».

عادت المرأة العجوز وجلست. خيّم الصمت بينهما وهما يتأمّل أحدهما الآخر.

«حسناً! سأخبرك! قال الرّائد أخيراً وهو يؤكّد على كلامه بحركة ساخطة بذقنه. ذلك النذل بورل دبّر مكيدته!»

لم تظهر أدنى ارتعاشة على السيّدة بورل. شحب وجهها وتيبّست في مقعدها. تابع الرّائد:

«كان لديّ شكوك... قلت لنفسي إنّني سأكلّمك في الأمر ذات يوم. كان بورل يبذّر أكثر ممّا يُعقل، ثمّ كان وجهه يعكس بلاهة لم أكن مطمئنّاً لها. لكنّه لم يخطر لي مرّة... آه! بحقّ الله! لا يمكن أن يقْدم الواحد على مثل هذه القذارات إلّا إن كان غبيّاً!»

كان يضرب قبضته بشراسة على ركبته، وهو يكاد يختنق في غيظه.

اضطرّت المرأة المسنّة في نهاية الأمر إلى طرح سؤال واضح عليه.

«هل قام بسرقة؟

- لا يمكنك تصوّر ذلك... أليس كذلك؟ أنا شخصياً لم أدقّق مرّة! كنت أصادق على حساباته، أضع توقيعي عليها. تعرفين كيف تجري الأمور في المجلس. فقط عندما يحين موعد التفتيش، بسبب العقيد، ذلك المهووس، كنت أقول لبورل: «انتبه لصندوقك يا صاحبي، أنا من يتحمّل مسؤوليّته». كنت مطمئنّ البال... لكن منذ شهر، وبما أنّه كان يبدو غريب الأطوار، ومع كلّ القصص المريبة التي وردتني، أخذت أحشر أنفي أكثر في سجلّاته، أتفحّص حساباته. بدا لي كلّ شيء منتظماً، مدوّناً بعناية...»

توقّف، وقد اجتاحته موجة غضب عارمة، حتّى أنّه اضطرّ إلى إخراج كلّ ما في جعبته على الفور.

«بحقّ السّماء! بحقّ السّماء!... ليس احتياله ما أنا غاضب منه، بل الطريقة المقزّزة التي تصرّف بها حيالي. هزئ بي، أتسمعينني سيّدة بورل!... بحقّ السّماء! هل يظنّ أنّني أحمق لا أفقه شيئاً؟

- إذا سرق؟ سألت الوالدة من جديد.

- هذا المساء، تابع الرّائد وقد هدأ غضبه قليلاً، كنت انتهيت من تناول العشاء حين وصل غانيو... تعرفين غانيو، أليس كذلك؟ الجزّار عند طرف ساحة الأعشاب. محتال قذر هذا أيضاً، هو الذي فاز بمناقصة اللّحوم[1]، هو من يقدّم لرجالنا لحوم كلّ الأبقار النافقة في المقاطعة!... حسناً، استقبلته استقبال الكلاب، وها أنّه يكشف

(1) يطرح الجيش استدراج عروض ويتعاقد مع مقدّم أفضل عرض لإمداده بالمعدّات أو المنتجات. والجزّار حصل إذاً على عقد تأمين اللّحوم للقوّات العسكريّة.

لي القضيّة برمّتها. يا إلهي! إنّها فعلاً قضيّة قذرة. يبدو أنّ بورل لم يكن يسدّد له سوى دفعات على الحساب. قضيّة معقّدة فظيعة، خبيصة من الأرقام المتداخلة لن يتبيّن فيها الشيطان نفسه الحقّ من الباطل. باختصار، إن بورل مدين له بألفَي فرنك[1]، والجزّار يهدّد بكشف الأمر للعقيد إذا لم ندفع له المبلغ... والأسوأ من هذا أنّ ذلك النذل بورل كان يقدّم لي كلّ أسبوع فاتورة مزوّرة يوقّعها دون أن يرفّ له جفن باسم غانيو، حتّى يورّطني في المسألة... فعلَها بي، أنا صديقه القديم، وقام باحتيالٍ كهذا! لعنة الله عليه!»

نهض الرّائد رافعاً قبضتيه إلى السقف، ثمّ انهار من جديد في مقعده.

«لقد سرق، ردّدت السيّدة بورل. كان لا بدّ أن ينتهي به الأمر هكذا».

ودون أن تصدر أيّ إدانة لابنها أو حكم عليه، أضافت بكلّ بساطة: «ألفا فرنك. لكنّنا لا نملك هذا المبلغ... ربّما تجد هنا ثلاثين فرنكاً لا غير.

– هذا ما قلته لنفسي، أجاب لاغيت. أتعلمين أين يبدّد كلّ تلك الأموال؟ في حانة ميلاني، بائعة هوى لعينة جعلت بورل يفقد صوابه تماماً... آه من النساء! تنبّأت له بأنّهنّ سوف يخرّبن حياته! لست أدري ما هي طينته، ذلك الحيوان! يصغرني بخمس سنوات لا غير، وهو لا يزال مسعوراً! طباع لعينة!»

خيّم الصمت من جديد. في الخارج كان المطر ينهمر بمزيد من الغزارة، ولا تسمع في المدينة الصغيرة النائمة سوى قرقعة أنابيب المواقد وقرميدات تقتلعها العاصفة فتتحطّم في الشارع.

«هيّا، قال الرّائد وهو ينهض، لن يفيد إن بقيت جالساً هنا... لقد

(1) ما يعادل حوالى 7600 يورو حاليّاً.

أبلغتك. سأذهب الآن.
- ماذا عليّ أن أفعل؟ إلى من أتوجّه؟ تمتمت المرأة العجوز.
- لا تيأسي، سوف نرى... لو كنتُ فقط أملك هذا المبلغ. لكن ألفا فرنك، تعلمين جيّداً أنّني لست ثريّا».

صمت، مرتبكاً. فهو عانس لا زوجة له ولا أطفال، يشرب بانتظام كلّ ما يكسبه، وما ينجو من الكونياك والأبسنت، يخسره في لعب الورق. ورغم ذلك، هو رجل نزيه للغاية، التزاماً منه بهذا المبدأ.

«لا يهمّ! قال وهو عند الباب، سوف أجرّب حظّي وأبحث عن ذلك النصّاب عند فتاته. لن أدّخر جهداً... بورل، ابن بورل، لا يعقل أن يُحكم عليه بالسرقة! لا أصدّق! هذا غير ممكن! ستكون هذه نهاية العالم. حريّ بي أن أفجّر المدينة... رحمة بالله! هوّني عليك. اعلمي أنّ المسألة برمّتها أشقّ عليّ ممّا هي عليكِ!»

صافحها بقبضة صلبة قاسية ثمّ توارى في عتمة الأدراج فيما رفعت المصباح لتضيء له طريقه. حين عادت ووضعت المصباح على الطاولة، وسط الصمت المخيّم في الغرفة الفسيحة العارية، وقفت لبرهة بلا حراك أمام شارل المستغرق في النوم، وجهه مطمور بين صفحات قاموسه. كان ذلك رأس فتاة شاحبة، بشعره الأشقر الطويل. راحت تحلم، وطفا حنوّ إلى وجهها القاسي المنغلق، لكنّ ذلك التورّد كان عابراً، وسرعان ما عاد القناع على الفور بتعنّته وعزيمته الصلبة الباردة. لطمتْ يد الصغير بضربة جافّة وهي تصيح به «شارل! الترجمة!».

استيقظ الولد مذعوراً مرتعداً وعاود تقليب صفحات القاموس بشكل سريع. في هذه اللّحظة، انهمر وابل من المياه المتساقطة من المزراب على رأس الرّائد لاغيت وهو يصْفق باب المبنى خلفه، وعلا صراخه مع

صخب العاصفة وهو يشتم ويلعن. ثمّ لم يعد يُسمع وسط طرطقة المطر الغزير سوى حفيف ريشة شارل الخفيف على الورقة. عادت السيّدة بورل إلى أريكتها أمام الموقد. جلست متصلّبة، عيناها مسمّرتان على النار الميتة، في هوسها وقعدتها الاعتياديّين كما في كلّ مساء.

2

يقع «مقهى باريس» الذي تديره السيّدة الأرمل ميلاني كارتييه على ساحة القصر، ساحة شاسعة غير منتظمة الشكل زرعت فيها أشجار دردار صغيرة مغبرّة. يقولون في فوشان: «هل أنت ذاهب عند ميلاني؟». في نهاية الصالة الأولى الفسيحة، هناك صالة ثانية تعرف بـ «الديوان»، وهي صالة ضيّقة جدّاً تصطفّ فيها مقاعد من المولسكين(1) على طول الجدران، وفي الزوايا الأربع طاولات من الرخام. هناك كانت تقضي ميلاني سهراتها بعدما تترك منضدة الشّرب لخادمتها فروزين، فتجالس بعض روّاد المقهى المواظبين، الحميمين، «سادة الديوان أولئك» كما يقال عنهم في المدينة. ذلك اللّقب كان كافياً لتصنيف رجل ما، فلا يعود أحد يشير إليه إلاّ بابتسامات مبطّنة يمتزج فيها الازدراء بحسد دفين.

ترمّلت السيّدة كارتييه في الخامسة والعشرين. زوجها الذي كان صانع عربات ودواليب، والذي فاجأ فوشان حين تولّى إدارة «مقهى باريس» عند وفاة أحد أقربائه، عاد بها ذات يوم من مونبولييه التي كان يزورها كلّ ستة أشهر لجلب المشروبات الكحوليّة. كان في طور إنشاء حانته، فاختار مع لوازمه زوجة كما يودّها على الأرجح، أنيسة تدفع على استهلاك المشروبات. لم يعرف أحد يوماً أين لمّها. وفي مطلق الأحوال،

(1) قماش قطنيّ مكسوّ بطلاء يشبه الجلد.

فهو لم يتزوّجها إلّا بعدما جرّبها ستّة أشهر خلف منضدة الشّرب. على كلّ حال، كانت الآراء منقسمة في فوشان، فلئن كانت ميلاني فاتنة بنظر البعض، إلاّ أنّ البعض الآخر كان ينعتها بالدركيّ. هي امرأة طويلة القامة، عريضة القسمات، شعرها خشن ينسدل فوق حاجبيها. لكنّ أحداً لم يكن ينكر قدرتها على «الإيقاع بالرجال». كانت عيناها ساحرتين، وهي تستغلّهما لتحدّق بسادة الديوان أولئك، فتشحب وجوههم ويلينون. ثمّ كانت شائعات تسري بأنّ جسدها أنثويّ جميل، ورجال الجنوب يحبّون ذلك.

قضى كارتييه بطريقة غريبة. تكلّموا عن مشاجرة بين الزوجين، عن تجمّع دمويّ حصل على إثر ركلة في بطنه. مهما يكن، وجدت ميلاني نفسها في ورطة، لأنّ المقهى قلّما كانت أوضاعه مزدهرة. فصانع العربات التهم أموال عمّه، شرب مخزونه من الأبسينت وبرى طاولة البلياردو. ظنّ بعضهم لوهلة أنّها ستضطرّ إلى بيع المقهى. لكنّ تلك الحياة كانت تحلو لها، وبالنسبة لسيّدة، فإنّ المكان مجهّز بشكل كامل. لم يكن ينقصها سوى بعض الزبائن، لا يهمّها إن بقيت الصالة الكبيرة فارغة. اكتفت إذاً بلصق ورق جدران أبيض وذهبيّ في الديوان وبتجديد غطاء المولسكين على المقاعد. بدأت بمجالسة صيدليّ، ثمّ جاءها صانع شعيريّة، تلاه محام، ثمّ قاضٍ متقاعد. وهكذا واصل المقهى العمل ولو أنّ النادل فيه لم يكن يقدّم عشرين كأس مشروب في اليوم. كانت السلطات تغضّ الطرف على المقهى لأنّه يراعي حدود اللّياقة، ولأنّه، بعد البحث والتدقيق، كان الكثير من الأشخاص المحترمين سيجدون أنفسهم متورّطين.

في المساء، كانت الصالة الكبرى لا تزال تستقبل أربعة أو خمسة من صغار الملّاكين وأصحاب العائدات في الجوار، يلتقون ليلعبوا الدومينو.

كارتييه توقّي، و«مقهى باريس» باتت تسوده أجواء غريبة مشبوهة، غير أنّهم احتفظوا بعاداتهم ولم يلحظوا شيئاً. وبما أنّ النادل لم يعد مفيداً، سرّحته ميلاني في نهاية المطاف. كانت فروزين تتولّى إشعال المصباح الوحيد على الغاز في إحدى الزوايا لتضيء على لعبة الدومينو. أحياناً كانت شلّة تجتاح الصالة، شبّان يحفّز بعضهم البعض الآخر على الدخول عند ميلاني، مدفوعين بالفضول بعد كلّ ما بات يُروى عن المقهى من قصص، فيملأون المكان بضحكاتهم الصاخبة والمرتبكة. لكنّهم كانوا يلقون استقبالاً رزينًا بارداً. لم يكونوا يقابلون سيّدة المقهى أو، إن كانت حاضرة، فهي تسحقهم بذلك الازدراء الخاصّ بالسيّدات الجميلات، والذي كان يبلبلهم ويعقد ألسنتهم. كانت ميلاني أذكى من أن تخطئ وترتكب حماقات. وفيما تبقى الصالة الكبرى معتمة، لا تضاء منها سوى الزاوية حيث صغار الملّاكين يحرّكون أحجار الدومينو على نحوٍ آليّ، كانت تقوم بنفسها بتقديم الكؤوس لأهل الديوان، فتلاطفهم دون أن تتخطّى حدود الحشمة، مجيزةً لنفسها حين ترفع الكلفة أن تتّكئ إلى كتف أحدهم لتتابع مناورة دقيقة في لعبة الورق.

وذات مساء، فوجئ هؤلاء السّادة، بعدما أَلِفوا بعضهم البعض أخيراً، باكتشاف النّقيب بورل جالساً في الديوان. يبدو أنّه دخل بالصدفة في صباح ذلك اليوم لتناول كأس من شراب الفرموت. لم يكن هناك سوى ميلاني، فحادثها. وحين عاد في المساء، قادته فروزين مباشرةً إلى الصالة الصغيرة.

بعد يومين، كان بورل سيّد الديوان، دون أن يكون دفع إلى الهروب أيّاً من الصيدليّ وصانع الشعيريّة والمحامي والقاضي السابق. كان النّقيب المربوع القامة يعشق النساء المشوقات. في الفوج العسكريّ يلقّبونه «أبو

تنّورة»، بسببِ شراهته المتواصلة إلى النساء، نهمه الضاري الذي يشبعه أينما أمكن وكيفما أمكن، نهم يزداد عنفاً كلّما وجد ملذّات أكبر. حين كان الضبّاط أو حتّى الجنود العاديّون يصادفون صرّة من اللّحم، مفاتن مندلقة، كتلة ضخمة من الشحم والدهون، أكانت مكسوّة بالخرق أو مدّثرة بالمخمل، يصيحون: «ها هي فريسة إضافيّة لأبي تنّورة اللّعين هذا!» لم يكن يوفّر أيّهنّ. وفي المساء، تسري تكهّنات في المهاجع بأنّ النساء سيوصلنه إلى الهلاك. هكذا، حين صادف ميلاني، استولى عليه جسد المرأة الرائع هذا بكليّته، سيطر عليه بقوة قاهرة لا تقاوم، فغطس في بحرها وغرق فيه. وبعد خمسة عشر يوماً، كان انحدر إلى حالة من البلاهة، يسبح في خَبَلِ عاشق وَلِه بَدين يفرغ ما لديه دون أن يهزل. عيناه الصغيرتان الغارقتان وسط وجهه المتفخ كانتا تتابعان الأرملة كيفما تحرّكت بنظرتها المذعنة المستجدية مثل نظرة كلب خائف. كان يشرد، متأمّلاً بافتتانٍ متواصلٍ وجهها الرجوليّ العريض يعلوه شعر كثّ خشن كالوبر. وخوفاً من أن تقطع عنه الإمدادات كما كان يقول، كان يتساهل فيتقبّل وجود سادة الديوان، مانحاً مرتّبه حتّى آخر فلس. وجد رقيب في الجيش الصيغة المعبّرة التي تلخّص حالته: «أبو تنّورة وجد جحره، ولن يفارقه». هذا ما صارَ إليه، رجل مطمور حيّاً!

كانت الساعة تقارب العاشرة حين فتح الرّائد لاغيت مجدّداً باب مقهى باريس بعنف وغضب. دفع الباب بكلّ قوّته، فتراءت منه للحظةٍ ساحة القصر سوداء، وقد حوّلها المطر إلى بركة من الطين السائل تفرقع تحت زخّات المطر الغزير. كان الرّائد مبلّلاً هذه المرّة حتّى النّخاع. دخل تاركاً خلفه نهراً، وتوجّه مباشرةً إلى منضدة الشّرب حيث كانت فروزين تقرأ رواية.

«أنت! صاح بها، تسمحين لنفسك بأن تسخري من العسكريّين؟... تستحقّين أن...»

رفع يده وانقضّ كأنّما لتسديد صفعة يصرع بها ثوراً. تراجعت الخادمة الصغيرة مذعورة، فيما بقي الرجال البورجوازيّون جالسين فاغري الأفواه، يقلّبون رؤوسهم في جميع الاتّجاهات لا يفهمون ما يجري. لكنّ الرّائد لم يهدر وقته في الصالة. دفع باب الديوان وضبطَ بورل وميلاني في وقت كانت هي تقدّم فيه للنّقيب، بكثير من العطف والمراعاة، كأساً من الروم، فتُناوله المشروب ملعقةً بعد ملعقة تدسّها في فمه كمن يطعم كناريّه الحبيب. لم يحضر إلى المقهى في تلك اللّيلة سوى القاضي المتقاعد والصيدليّ، وكلاهما غادر باكراً تحت وطأة نوبة حزن. اغتنمت ميلاني هذه الخلوة وهي بأمسّ الحاجة إلى ثلاثمئة فرنك لليوم التالي، لتداعب النّقيب وتتغنّج أمامه.

«هيّا، يا حبيبي يا صغيري... افتح منقارك... هذا لذيذ، أليس كذلك؟ أيّها الوحش الصغير!»

كان النّقيب متراخياً ببلادة في المقعد، وجهه قرمزيّ وعيناه منطفئتان، وهو يمصّ الملعقة في متعة وتلذّذ عميقين.

«بالله عليك! صرخ الرّائد واقفاً عند الباب، ها أنّك تدع أنثى تحرسك الآن! قالوا لي إنّك لم تأتِ إلى هنا وطردوني، بينما أنت جالس هنا ببلاهة!»

ارتعد بورل وسارع إلى إبعاد الكأس عنه. تقدّمت ميلاني باستياء كأنّما لتغطّيه بجسدها الكبير، لكنّ لاغيت حدّق في وجهها بذلك التعبير الهادئ الحازم الذي تعرفه النساء حقّ المعرفة، تعبير ينذر بصفعة قادمة.

«دعينا،» قال لها باقتضاب.

تردّدت ثانية. لكن خيّل لها أنّها أحسّت بريح الصفعة، فانضمّت إلى

فروزين خلف منضدة الشّرب والغيظ يخنقها.

حين أصبحا أخيراً وحيدين، وقف الرّائد لاغيت أمام النّقيب بورل، كتف ذراعيه وانحنى صوبه قليلاً ليصرخ بأعلى صوته في وجهه: «نذل!»

ذهل بورل وهمّ بالردّ عليه بغضب لكنّ لاغيت لم يترك له فرصة.

«اصمت!... سخرتَ من صديق، وهذا منتهى القذارة. رميتَني بفواتير مزوّرة كان يمكن أن تقودنا نحن الاثنين إلى الكارثة. هل يجوز ذلك؟ هل يجوز أن يخدع أحدنا الآخر هكذا ونحن صديقان منذ ثلاثين عاماً؟»

سقط بورل في مقعده وقد امتقع وجهه. أخذت أطرافه ترتعد وكأنّه محموم. تابع الرّائد وهو يدور حوله ويضرب بقبضته على الطاولات:

«هكذا إذاً، سرقتَ مثل مأمور وضيع، ومن أجل مَن؟ تلك الناقة الضخمة!... اسمع، لو سرقت من أجل والدتك، لكان ذلك مشرّفاً. لكن بحقّ السّماء! تسرق وتنهب وتأتي بالنقود إلى هذه الزريبة، هذا ما يفقدني صوابي!... قل لي، أليس هناك دماغ في رأسك؟ كيف تدفن نفسك في عمرك مع دركيّة كهذه؟ لا تكذب، رأيتكما قبل لحظة تقومان بقذاراتكما.

- وأنت تقامر، أليس كذلك؟ تأتأ النّقيب.

- أجل، أقامر، اللّعنة! تابع الرّائد وقد انفجر غضباً لهذه الملاحظة، وإنّني لدابّة حقيقيّة لأنّني أقامر، ذلك أنّ المقامرة تبتلع كلّ ما لديّ، وهذا لا يشرّف الجيش الفرنسي. لكن بحقّ الله! إن كنت أقامر فأنا لا أسرق!... إن كان الهلاك ما تريده، فأنت حرّ، يمكنك حتّى أن تدع الوالدة والطفل يموتان جوعاً، لكن عليك أن تحترم الصندوق وألا توقع الأصدقاء في ورطة!»

صمت. بقي بورل محملقاً شاخصاً كالأبله. لم يسمع لبرهة سوى وقع خطى الرّائد وهو يذرع القاعة بجزمتيه العسكريّتين.

«ثمّ إنّك مفلس تماماً! تابع بعنف بعد برهة. قل لي، هل تتصوّر نفسك موقوفاً محاطاً بدركيّين؟ نذل حقّاً!»

هدأ قليلاً، أمسك بورل بمعصمه وأرغمه على النهوض.

«هيّا، تعال! علينا أن نحاول معالجة الأمر حالاً بطريقة ما. لا أريد أن أنام والمسألة على ضميري... لديّ فكرة».

في الصالة الكبرى كانت ميلاني وخادمتها فروزين تتكلّمان بنبرة محتدمة خافضتين صوتهما. حين رأت الرجلين يخرجان، تجرأت ميلاني واقتربت من بورل لتسأله بصوت حادّ مغناج:

«كيف يا نقيب؟ لا تقل لي أنّك ذاهب في هذه السّاعة المبكرة!»

- أجل، إنّه ذاهب، أجاب لاغيت بخشونة وأضاف: سأحرص على ألاّ تطأ قدماه وكرك القذر هذا بعد اليوم».

كانت الخادمة الصغيرة تشدّ على فستان سيّدتها، مذعورة. «سكّير»، تمتمت. كان ذلك خطأ فادحاً ارتكبته، فانطلقت الصفعة التي كانت يد الرّائد تتحرّق منذ برهة لتسديدها. انحنت المرأتان، ولم تطل أصابعه سوى العقيصة على رأس فروزين، فسطّحت قلنسوتها وكسرت مشطها. انتفض الحاضرون من صغار الملاكين مستهجنين.

«اللّعنة! فلنخرج، أسرع، قال لاغيت وهو يدفع بورل على الرصيف. إن بقيت هنا، سوف أحطّم المكان فوق رؤوسهم جميعاً».

غرقت أقدامهما في المياه حتّى الكاحل وهما يعبران الساحة. وفيما كان النّقيب يمشي بصمت، عاود الرّائد تأنيبه بغضب متزايد، آخذاً عليه «غباءه». طقس جميل للتسكّع في الشوارع، أليس كذلك؟ لو لم يُقدِم

على حماقات، لكانا في تلك اللّحظة ينعمان بالدّفء كلّ في سريره، بدل أن يتخبّطا هكذا في الماء والوحل. ثمّ انتقل إلى الكلام عن غانيو. محتال نذل، تاجر لحوم فاسدة، تسبّب ثلاث مرّات بمغص وإسهال معمّمين على الفوج العسكريّ بكامله! العقد الموقّع معه تنتهي مدّته بعد ثمانية أيّام. ليذهب إلى الجحيم هو وعرضه في المناقصة الجديدة!

«القرار لي أنا، أختار من أشاء، زمجر الرّائد. أفضّل قطع ذراعي على أن أجعل هذا المجرم الذي يسمّم الناس يكسب فلساً واحداً!»

انزلق وسقط في قناة حتّى ركبتيه. تابع يلعن ويشتم بصوت يخنقه الغضب:

«أتعلم، سأقصده في منزله... سأصعد إليه. أنت انتظرني عند الباب... أريد أن أجسّ نبضه، أكشف نواياه، لأعرف إن كان سيجرؤ على الذهاب إلى العقيد غداً كما هدّدني... يا إلهي! جزّار! ورّطت نفسك مع جزّار! آه! أليس لديك ذرّة كرامة؟ هذا ما لن أغفره لك أبداً!»

وصلا إلى ساحة الأعشاب. كان منزل غانيو أسود قاتماً، لكنّ ذلك لم يمنع لاغيت من الطرق على الباب بعنف، إلى أن فتحوا له أخيراً. بقي بورل وحيداً في اللّيل الحالك، دون أن يخطر له حتّى أن يبحث عن ملجأ يحتمي فيه. وقف في مكانه عند زاوية السوق، مسمّراً تحت المطر الغزير، رأسه يضجّ بطنين يمنعه من التفكير. لم يملّ الانتظار، لم يكن لديه حسّ بالوقت. بدا المنزل ميتاً ببابه الموصد ونوافذه المغلقة، وكان يحملق فيه. حين خرج الرّائد بعد حوالى ساعة، بدا للنّقيب وكأنّه دخل للتوّ.

كان لاغيت متجهّماً ولم يتفوّه بكلمة. لم يجرؤ بورل على طرح أيّ سؤال عليه. بحث أحدهما عن الآخر لبرهة، كلّ منهم يحزر مكان رفيقه في العتمة، ثمّ سلكا من جديدٍ الشوارع المظلمة حيث المياه تجري

وكأنّها شلّال. مضيا في طريقهما جنباً إلى جنب في صمت مطبق، تائهين في افكارهما. لم يتفوّه الرّائد بكلمة، ولا حتّى ليشتم. لكن حين عبرا من جديد ساحة القصر حيث كان مقهى باريس لا يزال مضاءً، ربّت على كتف بورل وهو يقول:

«إن وطأت قدماك يوماً هذه الزريبة...»

- لا تخف!» ردّ النّقيب دون أن يدعه يكمل جملته.

مدّ له يده مودّعاً، لكنّ لاغيت قال:

- «لا، لا، سوف أرافقك حتّى باب منزلك. هكذا أتثبّت من أنّك لن تعود إلى هناك هذه اللّيلة على الأقلّ».

واصلا طريقهما. أبطآ سيرهما وهما يصعدان شارع ريكولّيه. حين وصلا أمام باب المنزل، أخرج الرّائد المفتاح من جيبه، وقرّر أخيراً أن يسأله.

«إذاً؟ سأله.

- حسناً! قال الرّائد بصوت جلف، أنا نذل مثلك... أجل، قمت بقذارة... آه! اللّعنة! فلتذهب إلى الجحيم! جنودنا سوف يأكلون لحوماً فاسدةً لثلاثة أشهر إضافيّة.

شرح له أنّ غانيو، ذلك الوغد القميء، هو داهية حقيقيّة حمله شيئاً فشيئاً على إبرام صفقة معه: فهو لن يذهب إلى العقيد، بل أنّه مستعدّ حتّى لتقديم الألفَي فرنك هديّة وأن يبدّل الفواتير الزائفة بفواتير تحمل توقيعه. لكنّه في المقابل يطالب بأن يضمن له الرّائد في المناقصة التالية عقد اللّحوم. ذلك هو الترتيب الذي توصّلا إليه.

«ما رأيك؟ تابع لاغيت، لا بدّ أن ذلك البهيم يكسب ثروات طائلة حتّى يمدّنا بألفَي فرنك بهذه السهولة!»

أمسك بورل بيدي صديقه القديم، وهو يكاد يختنق من شدّة التأثّر. لم يسعه سوى أن يتأتئ عبارات شكر متلعثمة. تلك القذارة التي أقدم عليها الرّائد من أجل إنقاذه أثّرت فيه إلى حدّ البكاء.

«هذه أوّل مرّة في حياتي، غمغم الرّائد. كان لا بدّ من ذلك... اللّعنة! لا أملك حتّى ألفي فرنك في دُرجي! هذا كفيل بأن يجعلك تشمئزّ ولا تعود تلامس لعبة ورق في حياتك!... هذا ما جنيته على نفسي! إنّني مجرّد حقير... لكن اسمعني جيّداً، إيّاك أن تعاود الكرّة، ومن جهتي، لعنة الله عليّ إن عاودت الكرّة!»

عانقه النّقيب وبعدما دخل، بقي الرّائد برهة واقفاً أمام الباب ليتأكّد من أنّه سيخلد إلى النوم. ثمّ، إذ سمع الساعة تدقّ منتصف اللّيل فيما المطر لا يزال ينهمر فوق المدينة السوداء، عاد إلى منزله بمشقّة. فكرة رجاله كانت تؤسفه. توقّف وقال بصوت تبدّل تماماً، صوت ليّنته الشفقة: «المساكين! أيّ لحوم بقر سيتناولونها لقاء ألفَي فرنك!»

3

عمّ الذهول الفوج بكامله. «أبو تنّورة» قطع علاقته بميلاني. وبعد أسبوع، بات الأمر مؤكّداً لا يمكن إنكاره. فالنّقيب لم يعد يقصد «مقهى باريس»، ويقال إنّ الصيدليّ احتلّ مكانه الذي كان لا يزال دافئا، ما أحزن القاضي المتقاعد. بل أكثر من ذلك، أصبح النّقيب بورل يعيش حبيساً في شارع ريكوليه، وهو ما يصعب تصديقه. تعقّل حتّى أنّه بات يقضي أمسياته أمام الموقد، يسمّع لشارل الصغير دروسه. والدته التي لم تتفوّه بكلمة عن ترتيباته المريبة مع غانيو، كانت تجلس في أريكتها قبالته. تحتفظ بصلابتها الصارمة في قعدتها، غير أنّ نظراتها تكشف عن قناعة

بأنّه شفي.

بعد خمسة عشر يوماً، جاء الرّائد لاغيت في المساء ليشاركهم العشاء. كان محرجاً قليلاً للقاء بورل من جديد، ليس من أجله بالطبع، بل من أجل النّقيب. يخشى أن يحرّك لديه ذكريات أليمة. لكن بما أنّ النّقيب يعمل على تصحيح مساره، أراد أن يتصافحا ويتقاسما الطعام. لا بدّ أن يفرحه ذلك.

كان بورل في غرفته حين حضر لاغيت، فاستقبلته السيّدة بورل. وبعدما أعلن لها أنّه جاء يتناول الحساء معهما، أضاف خافضاً صوته:

«إذا؟ قولي لي.

- كلّ شيء على ما يرام، أجابت المرأة العجوز.

- ألا تلاحظين أي شيء مريب؟

- لا، إطلاقاً... يأوي إلى السرير في التاسعة، لا يتغيّب ليلة، ويبدو سعيداً جدّاً.

- آه! الحمد لله! هذا أمر سارّ! صاح الرّائد. كنت على ثقة بأنّه بحاجة إلى خضّة. ما زال الرجل طيّباً!»

حين ظهر بورل، صافحه شادّاً على يديه حتّى كاد يسحقهما. جالسين أمام الموقد قبل العشاء، كانوا يتحادثون ببساطة، يتغنّون بهناء الحياة العائليّة. أعلن النّقيب أنّه لن يبادل بيته بمملكة. قال إنّه حين يخلع ملابسه وينتعل خفّيه ويستلقي في أريكته، حتّى الملك ليس أسعد منه. كان الرّائد يوافقه الرأي وهو يتفحّصه. لا شكّ أنّ حسن سلوكه لا يساعده على تخفيف وزنه، فهو أكثر انتفاخاً من ذي قبل، عيناه جاحظتان، وفمه غليظ. جالساً في مقعده مثل كومة مرصوصة من اللّحم، شبه غافٍ، كان يردّد:

«الحياة العائليّة، هذا أفضل ما في الكون!... آه! الحياة العائليّة!
- هذا ممتاز، قاطعه الرّائد بقلق لرؤيته منهكاً على هذه الحال، لكن من الأفضل ألّا تبالغ في شيء... مارس رياضة، اذهب بين الحين والآخر إلى المقهى.
- المقهى؟ ولِمَ أذهب إلى المقهى؟... لديّ كلّ ما أبتغيه هنا. لا، أفضّل البقاء في منزلي».
كان شارل يوضّب كتبه. فوجئ لاغيت حين دخلت خادمة وباشرت نصب مائدة العشاء.
«وظّفتِ أحداً لمساعدتك؟ سأل السيّدة بورل. لم أكن أعلم!
- كان لا بدّ من ذلك، تنهّدت. لم تعد ساقاي تقويان، والمنزل كان مهملاً... من حسن حظّي أنّ العجوز كابرول عهد إليّ بابنته. تعرفه حتماً، ذلك العجوز الذي يكنّس السوق؟... لم يكن يدري ماذا يفعل بابنته روز. إنّني أعلّمها بعض الطهي».
خرجت الخادمة.
«ما عمرها؟ سأل الرّائد.
- سبعة عشر عاماً أو حتّى أقلّ. هي بلهاء وقذرة، لكنّني لا أدفع لها سوى عشرة فرنكات في الشهر، ولا تأكل سوى الحساء».
حين عادت روز حاملة كدسة من الأطباق، لم يسع لاغيت سوى أن يتابعها بعينيه، وهو الذي قلّما يهتمّ للفتيات، من شدّة ما كانت قبيحة. هي فتاة صغيرة القامة، شديدة السواد، محدودبة بعض الشيء، وجهها وجه قرد مفلطح الأنف عريض الفم، تلتمع في وسطه عينان مستدقّتان بلون أخضر حائر. كانت تعطي انطباع قوّة، بوركيها العريضتين وذراعيها المتطاولتين.

«اللّعنة! من أين لها هذه السحنة! تعجّب لاغيت ممازحاً بعدما خرجت الخادمة من جديد لتأتي بالملح والبهار.

– لا يهمّ! أجاب بورل بقلّة اكتراث. إنّها مطواع جدّاً وتقوم بكلّ ما نطلبه. هذا مفيد، أقلّه لغسل الصحون».

كان العشاء لطيفاً. تناولوا طبق حساء باللّحم والخضار، تبعته يخنة بلحم الضأن. جعلوا شارل يروي لهم قصصاً من مدرسته. ولتُظهر السيّدة بورل كم هو فتىً لطيف، طرحت عليه مراراً وتكراراً السؤال نفسه: «أليس صحيحاً أنّك تريد أن تصبح عسكريّاً؟» وكانت ابتسامة تطفو إلى شفتيها الشاحبتين حين يردّ الفتى بطاعة ومهابة مثل كلب مدرَّب: «بلى جدّتي». النّقيب بورل اتّكأ بمرفقيه إلى الطاولة وراح يمضغ طعامه ببطء، ممعناً في أفكاره. كان دفءٌ يتصاعد وينتشر، والمصباح الوحيد يلقي ضوءه على الطاولة، تاركاً زوايا الغرفة الفسيحة غارقة في عتمة غامضة. خيّم رخاء بليد متثاقل، إلفة مَن لا ثروات لديهم، لا يبدّلون الصحون مع كلّ طبق جديد، وتكفيهم رؤية سلطانية تطفح بالكاسترد تُقدَّم لهم في اللّحظة الأخيرة حتّى تنشرح قلوبهم.

لم تكن روز تفوّهت بكلمة واحدة بعد. حين تمشي وتلتف من خلف الجالسين حول الطاولة، تتراقص المائدة على وقع كعبيها الثقيلين. اقتربت وتوقّفت خلف النّقيب وسألته بصوت خشن مبحوح:

«هل يودّ سيّدي بعض الجبنة؟

– ماذا؟ كيف؟ تمتم بورل مختلجاً. آه! أجل، الجبنة... أمسكي الطبق جيّداً».

قطع شرحة من جبنة الغرويير فيما الفتاة واقفة خلفه، تنظر إليه بعينيها الصغيرتين. كان لاغيت يضحك. منذ بدء العشاء وهو يجد في روز الكثير

من الطرافة. خفض صوته وهمس في أذن النّقيب:

«أتعلم، أقرّ بأنّني أجدها مذهلة بحقّ! لن تجد أنفاً أو فماً على هذا الشكل... لا بدّ لك أن ترسلها في أحد الأيّام إلى العقيد حتّى يراها. سوف يتلهّى بالأمر».

تلك البشاعة كانت توقظ فيه انشراحاً أبويّاً. أراد النظر إليها عن كثب.

«وأنا يا ابنتي؟ أنا أيضاً أودّ بعض الجبنة».

اقتربت بالطبق. غارزاً سكّينه في قالب الجبنة، نسي نفسه وهو يحدّق في وجه الفتاة، مطلقاً قهقهات فرح إذ اكتشف أنّ أحد منخاريها أعرض من الآخر. بقيت روز واقفة بجديّة مطلقة، تاركةً السيّد يحملق فيها، في انتظار أن ينتهي من الضحك.

افرغت الطاولة وتوارت. غفا بورل على الفور أمام النار، فيما الرّائد والسيّدة بورل يتحادثان. شارل عاد إلى فروضه المدرسيّة ومن السقف العالي هبط سلام عميق، ذلك السلام الذي يخيّم فوق العائلات البورجوازيّة حين تجتمع في وفاق ووئام في غرفة واحدة. في الساعة التاسعة تماماً، استيقظ بورل متثائباً وأعلن أنه ذاهب إلى فراشه. استأذن وعيناه تغمضان رغماً عنه، وانسحب. بعد نصف ساعة، بحثت السيّدة بورل عبثاً عن روز حتّى تضيء الطريق للرّائد. لا شكّ أنّها صعدت إلى غرفتها. دجاجة حقيقيّة، تلك الفتاة، تغطّ طوال اثنتي عشرة ساعة بلا حراك.

«لا تزعجي أحداً من أجلي، قال لاغيت عند باب الغرفة. ساقاي ليستا أقوى من ساقيك، لكنّني لن أكسر أيّ عظمة من جسدي إن تمسّكتُ بالدرابزون... ترينني، سيّدتي العزيزة، سعيداً للغاية أخيراً. هي ذي همومك تبدّدت. راقبتُ بورل، وأقسم لك بأنّه لا يخفي أيّ

ألاعيب... بحقّ الله! كان الوقت قد حان فعلاً ليقلع عن ملاحقة النساء! كانت المسألة تتّخذ منحىً سيّئاً».

غادر الرّائد سعيداً. منزل طيّبين، جدرانه من زجاج، لا يمكن إخفاء قذارات بينها!

أكثر ما يفرحه في تحوّل سلوك النّقيب في الحقيقة، هو أنّه لم يعد يترتّب عليه بعد ذلك التثبّت من حساباته. ليس هناك أبغض عليه من رزَم الأوراق المملّة هذه. طالما أنّ بورل يلزم الانضباط في سلوكه، بوسعه هو أن يدخّن غليونه ويوزّع توقيعاته مغمض العينين. لكنّه رغم ذلك واصل السّهر ولو بشكلٍ طفيفٍ على تدوينات النّقيب. الإيصالات كانت منتظمة، المجاميع تتوازن بشكل رائع، ولا خلل إطلاقاً. بعد شهر على هذه الحال، بات يكتفي بتصفّح الإيصالات والتثبّت من المجاميع، مثلما فعل على الدوام في مطلق الأحوال. لكن ذات صباح، ودون أن تساوره أيّ ريبة خاصة، توقّف نظره عند أحد الحسابات، هكذا، لمجرّد أنّه أعاد إشعال غليونه. لاحظ خطأ بقيمة ثلاثة عشر فرنكاً. المجموع كان ملغوماً بثلاثة عشر فرنكاً لموازنة الحسابات. ولم يكن هناك أيّ خطأ في القيود، لأنّه قابل المبالغ كلّها بالإيصالات. بدا له الأمر مريباً. لم يفاتح بورل بالمسألة، بل قال في سرّه إنّه سيراجع الحسابات. في الأسبوع التالي، عثر على خطأ جديد: كان هناك تسعة عشر فرنكاً ناقصة. عندها استولى عليه القلق. اختلى بنفسه مع كلّ السجلّات وقضى صبيحة كريهة يراجع جميع الأرقام، يعيد جمع كلّ المبالغ، وهو يتصبّب عرقاً ويطلق الشتائم، ودماغه على وشك الانفجار من كثرة الأرقام. في كلّ حساب يعيده، كان يلاحظ بضعة فرنكات مسروقة. مبالغ زهيدة تافهة، عشر فرنكات، ثمانية فرنكات، أحد عشر فرنكاً. في الحسابات الأخيرة، تدنّت قيمة المبالغ

المسلوبة إلى أربعة أو ثلاثة فرنكات. حتّى أنّه وجد حساباً لم يقتطع منه بورل سوى فرنك ونصف الفرنك، لا غير. هكذا، كان النّقيب يقضم منذ حوالى شهرين من أموال صندوقه. تبيّن للرّائد من مقارنة التواريخ أنّ ذلك الدرس الفظيع لم يجعل الرّائد يتعقّل سوى لثمانية أيّام. وهذا الاكتشاف الأخير هو الذي أفقده ما تبقّى من صوابه نهائيّاً.

«بحقّ الله! غير معقول! راح يصيح لوحده وهو يضرب بقبضته على السجلّات. هذا أكثر قذارة حتّى!... على الأقل كان هناك جسارة في فواتير غانيو الزائفة... في حين أنّه هذه المرّة انحدر إلى مستوى وضيع، مثل طبّاخة تسلب فلسين من ثمن حساء... ربّاه! وصل إلى حدٍّ أنْ بات يكشط من الحسابات! يدسّ فرنكاً ونصف الفرنك في جيبه!... ربّاه! اللّعنة!.. أظهر المزيد من العزّة أيّها النذل الوضيع!... احمل الصندوق بما فيه واهدره على فنّانات!»

تلك الحقارة المعيبة في هذه السرقات أثارت سخطه. غضب أيضاً لأنّه انخدع مجدّداً، وما خدعه هو تلك المجاميع المغلوطة، وسيلة بسيطة وحمقاء إلى أقصى حدّ. نهض وراح يذرع مكتبه على مدى ساعة كاملة بحنق، من غير أن يدري ماذا يفعل، مخاطباً نفسه بين الحين والآخر بصوت عالٍ.

«إنّه رجل ذليل، هذا واضح. يجب أن أتصرّف... لو لقّنته درساً يبثّ فيه الذعر كلّ صباح، لما ارتدّ عن دسّ حصّته اليوميّة من ثلاثة فرنكات عصر كلّ يوم في جيبه... بحقّ الله! أين يمكنه أن ينفق هذا؟ فهو لم يعد يخرج من المنزل، ينام في الساعة التاسعة، وكلّ شيء يبدو لطيفاً وشريفاً في منزلهم!... أتراه ذلك النّذل لديه علل أخرى لم نعلم بها؟»

عاد وجلس إلى مكتبه، جمع المبالغ المقتطعة. وجدها توازي خمسمئة

وخمسة وأربعين فرنكاً. أين عساه يجد مثل هذا المبلغ؟ عمليّة التفتيش تقترب. يكفي أن يخطر لذلك العقيد المهووس أن يعيد عمليّة حسابيّة حتّى يكشف الأمر. وهذه المرّة يكون قُضي على بورل.

هذه الفكرة أخمدت غضب الرّائد. تَوقّف عن إطلاق الشتائم وبقي مسمّراً في كرسيّه، وأمام عينيه صورة السيّدة بورل منتصبة بقامتها المستقيمة، يائسة تماماً. هو نفسه كان يشعر بحزن يضيق به صدره وكأنّه سينفجر.

«حسناً، تمتم. يجب بادئ ذي بدءٍ أن أستوضح شؤون هذا الرجل. بعد ذلك أتصرّف».

توجّه إلى مكتب بورل. لمح من الرصيف المقابل طرف تنّورة يختفي في فتحة الباب. ظنّ أنّه يمسك بسرّ النّقيب، فانسلّ من خلفها وأرهف السمع. كانت هذه ميلاني، عرفها من صوتها الحادّ، صوت امرأة ضخمة القامة. كانت تتشكّى من سادة الديوان، تتحدّث عن كمبيالة لا تدري كيف تسدّدها. المأمورون حضروا إلى المقهى، سوف يباع كلّ شيء في المزاد. وبما أنّ النّقيب ما كان يردّ عليها حقّاً، مردّداً أنّه لا يملك فلساً واحداً، ضاقت بها السبل فانفجرت بالبكاء. راحت تتودّد إليه وتناديه «حبيب أمّك». لكن مهما فعلت وأيّاً كانت الوسائل التي لجأت إليها، بقيت إغواءاتها بلا أيّ مفعول. ظلّ صوت بورل المكبوت يردّد «غير ممكن! غير ممكن!» وبعد انقضاء ساعة، خرجت ميلاني حانقة. دهش الرّائد للمنحى الذي اتّخذته المسألة. انتظر لحظة قبل أن يدخل المكتب، حيث كان النّقيب وحيداً. وجده في غاية الهدوء. كبت رغبته الجامحة في نعته بالنّذل ولم يقل له شيئاً، مصمّماً على كشف الحقيقة أوّلاً.

لم يكن هناك في المكتب أيّ مؤشّر يدلّ على بذاءة. أمام الطاولة الخشبيّة

السوداء، مقعد النّقيب المقشّش وفوقه وسادة مستديرة كما في أي مكتب عاديّ. وفي إحدى الزوايا، تقبع الخزنة مغلقة بإحكام، دون أن يظهر فيها أدنى صدع. كان الصيف قريباً، ومن إحدى النوافذ يصدح تغريد كناري. كلّ ما في المكتب بدا منتظماً مرتّبا، والعلب الكرتون تبعث رائحة أوراق قديمة توحي بالثقة.

«ألم تكن تلك ميلاني خارجة من هنا وأنا أدخل؟» سأل لاغيت.

رفع بورل كتفيه متمتماً «أجل... جاءت تلاحقني إلى هنا، تحاول اقتناص مئتي فرنك... لم تكتفِ بعشرة فرنكات، أو بعشرة فلوس!

- عجباً! تابع الرّائد، ساعياً لجسّ نبضه، قيل لي إنّك عدت تراها.

- أنا؟... آه! إطلاقاً، تصوّر ذلك! سئمت كلّ هذه الناقات على شاكلتها!»

انسحب لاغيت، حائراً في أمره. كيف يمكن أن يكون أهدر خمسمئة وخمسة وأربعين فرنكاً؟ أتراه هذا اللّصّ بدأ يتعاطى الخمر والقمار بعدما أقلع عن النساء؟ قرّر أن يضبط بورل في اليوم نفسه، في منزله في المساء. ربّما يتوصّل إلى كشف الحقيقة إن هو حمله على الكلام واستجوب والدته. لكنّه عانى طوال ما بعد الظهيرة من آلام فظيعة في ساقه. لم تعد حالته على ما يرام منذ بعض الوقت، وبات مضطرّا إلى الاستعانة بعصاً حتّى لا يعرج كثيراً عندما يمشي. تلك العصا تبعث فيه اليأس والاحباط. ها قد صار في فئة المعوّقين، كما كان يقول بغيظ كئيب. لكنّه في المساء، كابد الوجع، نهض من كرسيّه بجهد جهيد، وجرجر نفسه في ظلمة اللّيل الحالكة إلى شارع ريكولّيه، متّكئاً بكلّ ثقله على عصاه. وصل في تمام الساعة التاسعة. في الأسفل كان الباب موارَباً. وصل لاهثاً إلى الطابق الثالث حين فاجأته أصوات قادمة من الطابق العلويّ، بدا له أنّه سمع

بينها صوت بورل. واصل الصعود، مدفوعاً بفضول شديد. في نهاية الممشى، إلى اليسار، كان شعاع من النور ينبعث من باب. أغلق الباب عندما طقطق حذاؤه، ووجد نفسه في عتمة سوداء.

«هذا ضرب من الحماقة! فكّر. لا بدّ أنّها طبّاخة تأوي إلى النوم».

لكنّ هذا الخاطر لم يمنعه من الاقتراب دون إحداث صوت ولصْق أذنه بالباب. سمع صوتين يتحادثان. وقف مصعوقاً. كان ذلك هو النّذل بورل والمسخ روز.

«وعدتَني بثلاثة فرنكات، قالت الخادمة الصغيرة بنبرة قاسية. أعطني ثلاثة فرنكات.

- حبيبتي، سأجلبها لك في الغد، قال النّقيب بصوت متوسّل. لم أستطع اليوم... تعلمين جيّداً أنّني أفي دائماً بوعودي.

- لا، إمّا أن تعطيني ثلاثة فرنكات، أو تنزل».

لا بدّ أنّها عارية وقد خلعت ملابسها وجلست على حافة سريرها الحديديّ، لأنّ أحزمة الفرشة وقضبان الحديد كانت تجلجل وتصرّ عند كلّ حركة تقوم بها. أمّا النّقيب، فيتوثّب في مكانه، خابطاً قدميه في الأرض. ثمّ اقترب منها.

«هيّا، كوني فتاة لطيفة، أفسحي لي قليلاً.

- دعني! صاحت روز بصوتها البغيض. سوف أصرخ وأبوح بكلّ شيء للعجوز في الأسفل... فقط بعدما تعطيني ثلاثة فرنكات!»

كانت متشبّثة بفرنكاتها الثلاثة، مثل تيس عنيد يرفض أن يمضي في طريقه.

تنكّد بورل وراح يبكي. ثمّ أخرج من جيبه مسترضياً جرّة مربّى سلبها من خزانة والدته، سعياً منه لاسترضائها. قبلت روز بها وشرعت

على الفور في ابتلاعها بلا خبز، مستخدمة لذلك مقبض شوكة متروكة فوق دُرجها. كان المربّى شهيّاً. لكن حين ظنّ الكابن أنّه غلبها، دفعته عنها بالتعنّت ذاته.

«ذلك المربّى لا يهمّني!... ما أريده هو الفرنكات الثلاثة!»

عند سماع هذا المطلب الأخير، رفع الرّائد عصاه في الجوّ ليشقّ الباب بها نصفين. كان يختنق. بحقّ الله! يا للمومس اللّعينة! كيف يمكن لنقيب في الجيش الفرنسي أن يرضى بذلك لنفسه؟ نسي بورل وقذارته، ودّ لو يخنق بيديه تلك المرأة الكريهة من شدّة ما كانت أساليبها حقيرة. كيف للواحدة أن تساوم حين تكون لها سحنة كتلك؟ كان يجدر بها هي أن تبرطل النّقيب! لكنّه تمالك نفسه ليرى ما سيجري الآن.

«إنّك تؤلمينني كثيراً، ردّد النّقيب، أنا الذي عاملتك بكثير من الطيبة... أعطيتك فستاناً، ثمّ قرطين، ثمّ ساعة صغيرة... إنّك لا تستخدمين حتّى هداياي.

- بجِدّ؟ تريدني أن أستخدمها لأفسدها؟... أبي هو الذي يحفظ لي أغراضي.

- وكلّ المال الذي حصلتِ عليه منّي؟

- أبي يستثمره من أجلي».

خيّم صمت للحظة. كانت روز تفكّر.

«اسمع، إن أقسمتَ لي أنّكَ ستأتيني بستّة فرنكات مساء غد، لا مانع لديّ... اركع وأقسم بأنّك ستجلب لي ستّة فرنكات... لا، لا، على ركبتيك».

ابتعد الرّائد لاغيت عن الباب وهو يرتجف، وبقي واقفا في الممشى أمام الدرج، متّكئاً إلى الحائط. ساقاه لم تعودا تحملانه، وكان يرفع عصاه

كمن يشهر سيفاً في ليل الأدراج الحالك. تبّاً! آنئذٍ فهمَ كيف أنّ ذلك النّذل بورل لم يعد يخرج من منزله ويخلد إلى الفراش منذ التاسعة! توبة جميلة، لا جدال في ذلك! ومع يقطينة قميئة ما كان أسوأ الجنود وأدناهم سيلمّها من تلّة قمامة!

«لست أفهم بحقّ الله! قال الرّائد بصوت عالٍ، لماذا لم يحتفظ بميلاني؟»

ماذا عساه يفعل؟ يدخل وينهال عليهما بالضرب بعصاه؟ راودته هذه الفكرة في بادئ الأمر، غير أنّه أشفق على العجوز المسكينة في الأسفل. الأفضل أن يدعهما في قذارتهما. لم يعد لديه أيّ أمل في النّقيب. حين ينحطّ الرجل وينحدر إلى مثل هذه المستويات، بوسعك رميه بحفنة تراب على رأسه والانتهاء منه كما كنت ستفعل ببهيمة فاسدة تبثّ السمّ في العالم. ومهما حشرت أنفه في فضلاته، سوف يعاود الكرّة في اليوم التالي، وسينتهي به الأمر حتماً بسرقة فلوس ليبتاع سكاكر للمتسوّلات الصغيرات البائسات. اللّعنة! أموال الجيش الفرنسي! وشرف العلم! واسم بورل، ذلك الاسم المحترم الذي سينتهي ممرّغاً في الوحل! بحقّ السّماء! لا يمكن أن ينتهي الأمر على هذه الشاكلة!

رقّ قلب الرّائد للحظة. لو كان فقط يمتلك الخمسمئة والخمسة والأربعين فرنكاً! لكنّه لن يجد في جيبه فلساً واحداً! بالأمس في الحانة، بعدما شرب الكونياك حتّى سكرَ مثل ملازم صغير، تكبّد خسارة فادحة في لعبة قمار. خير جزاء له أن يجرّ ساقه خلفه! بل كان يستحقّ أن يُصرع وينتهي أمره!

ترك ذينك الحقيرين يغطّان في النوم. نزل ودقّ باب السيّدة بورل. وبعد خمس دقائق طويلة، جاءت السيّدة العجوز بنفسها لتفتح له الباب.

«اعذرني، قالت، كنت أظنّ أنّ تلك الخاملة روز لا تزال هنا... يجدر

بي أن أوقظها وأرميها خارج سريرها».

استوقفها الرّائد.

«وبورل؟ أين هو؟ سأل.

- آه! هو يغطّ منذ الساعة التاسعة... هل تودّ أن أطرق على باب غرفته؟

- لا، أبداً... أردت فقط أن أحيّيكِ للحظة».

في غرفة الطعام، كان شارل جالساً في مكانه الاعتياديّ، وقد أنهى للتوّ ترجمته اللّاتينيّة. لكنّه بدا مذعوراً، ويداه الشاحبتان المسكينتان ترتجفان. كانت جدّته تقرأ له قبل أن يذهب إلى النوم قصص معارك وحروب حتّى تنمّي لديه روح البطولة تلك التي تسري في عروق العائلة. في ذلك المساء، اختارت له قصّة «طالب الثأر»، تلك السفينة التي غرقت في وسط البحر الشاسع حاملةً بحّارة ابتلعتهم المياه، فتركت الطفل فريسة نوبة عصبيّة، ورأسه يضجّ بكابوس رهيب.

استأذنت السيّدة بورل الرّائد لتكمل القصّة. وحين انتهت، أغلقت الكتاب بوقار، بعدما صاح آخر البحّارة «تحيا الجمهوريّة!». كان شارل شاحباً وكأنّه أبصر شبحاً.

«هل سمعت جيّداً؟ قالت السيّدة العجوز. إن واجب كلّ جنديّ فرنسي هو أن يموت في سبيل بلاده.

- أجل، جدّتي».

قبّلها على جبينها وذهب وهو يصطكّ من الفزع، لينام في غرفته الشاسعة، حيث أدنى طقطقة في تلبيسة الجدران الخشبيّة تجعله يتصبّب عرقاً من شدّة جزعه.

كان الرّائد أنصت برزانة. أجل، بحقّ الله! الشرف هو الشرف، ولن

يدع ذلك النذل بورل يلحق العار بالعجوز المسكينة وبهذا الولد. وبما أنّ الفتى يحبّ الحياة العسكريّة إلى هذا الحدّ، من المفترض أن يكون بوسعه الدخول إلى كليّة سان سير العسكريّة مرفوع الرأس. كان الرّائد يصارع فكرة لعينة بدأت تتبلور في رأسه منذ قصّة الفرنكات الستّة في الأعلى، حين تناولت السيّدة بورل المصباح ورافقته. فوجئت لدى مرورها أمام غرفة النّقيب برؤية المفتاح في الباب، وهو ما لم يكن يحصل إطلاقاً.

«ادخُلْ، قالت، لا يجدر به أن ينام كلّ هذا الوقت، ذلك يجعله بليداً».

وقبل أن يتمكّن من اعتراضها، فتحت الباب وبقيت مسمّرة أمام الغرفة الخالية. امتقع وجه لاغيت وبدا كالأبه، فأدركت المسألة على الفور، مسترشدة بألف تفصيل وتفصيل تذكّرتها في الآن.

«كنتَ تعلم، كنتَ تعلم، تأتأت العجوز. لماذا لم تنبّهني؟... يا إلهي! في عقر داري، بجانب ابنه، مع غالسة الصحون تلك، مع هذا المسخ!... وهو عاود الكرّة وسرق، يمكنني أن أحدس ذلك!»

بقيت واقفة مستقيمة، شاحبة ومتيبّسة. ثمّ قالت بصوت قاسٍ: «أتعلم؟ أودّ لو يموت!»

أمسك لاغيت بيديها، شدّ عليهما بقوّة في يديه للحظة، ثمّ خرج مسرعاً. كان يشعر بعقدة في حنجرته لا تدع أيّ كلمة تخرج منها. كان بوسعه أن يبكي! آه! بحقّ الله! هذه المرّة كان مصمّماً!

4

كان التفتيش مقرّراً في نهاية الشهر، وأمام الرّائد عشرة أيّام. جرجر نفسه منذ اليوم التالي وهو يعرج إلى «مقهى باريس» حيث طلب كوباً من البيرة. شحب وجه ميلاني، وفروزين أذعنت وقبلت بتقديم الكوب

المطلوب خشية أن تطالها صفعة جديدة. لكنّ الرّائد بدا في غاية الهدوء. طلب إحضار كرسيّ ثانٍ حتّى يمدّ ساقه، ثمّ جلس يحتسي بيرته بسكون كأيّ رجل ظمئ في مقهى. كان جالساً منذ ساعة حين لمح ضابطين يعبران ساحة القصر، قائد الكتيبة موراندو والنّقيب دوسيه. ناداهما ملوّحا بعصاه في حركات عريضة.

«تعالا لتناول البيرة!» صاح لهما ما إن اقتربا.

لم يجرؤ الضابطان على رفض دعوته. وبعدما قدّمت لهما الخادمة كوبين:

«هل صرتَ تتردّد إلى هنا؟ سأل موراندو الرّائد.

- أجل، البيرة هنا لذيذة».

غمزه النّقيب دوسيه بدهاء.

«هل أنتَ من سادة الديوان، حضرة الرّائد؟»

قهقه لاغيت بالضحك من غير أن يجيب. عندها بدأ يمازحانه بشأن ميلاني، وهو يرفع كتفيه بطيبة وبساطة. الحقيقة أنّها امرأة جميلة. بوسع الذين يتظاهرون بازدرائها أن يسخروا ويتندّروا قدرما يشاؤون، لكانوا رغم كلّ شيء هرعوا إلى أحضانها لو تسنّى لهم. التفت بعد وقت نحو منضدة الشّرب وقال متكلّفاً الظرافة والمجاملة:

«سيّدتي! المزيد من البيرة!»

دهشت ميلاني حتّى أنّها نهضت وجلبت الأكواب. حين وصلت أمام الطاولة، استبقاها الرّائد، حتّى أنّه سمح لنفسه بأن يربّت قليلاً على اليد التي وضعتها على ظهر أحد الكراسيّ. عندها أخذت تتأنّق وتتودّد، هي التي اعتادت اللّطم والمداعبات، ظنّاً منها أنّها نزوة لدى ذلك العجوز المعتوه، مثلما كانت تنعته مع فروزين. تبادل دوسيه وموراندو النظرات.

أمر لا يصدّق! هل يعقل أن يكون ذلك الرّائد اللّعين خَلَف أبا تنّورة؟ آه! عجباً! كم سيضحك رجال الفرقة!

أطلق لاغيت صيحة فجأةً، وكان يراقب بطرف عينه ساحة القصر من الباب الموارَب.

«يا للصدفة! إنّه بورل!

- أجل، هذا توقيتُه، قالت فروزين وهي تقترب بدورها. النّقيب يعبر من هنا كلّ يوم بعد الظهر لدى عودته من مكتبه».

نهض الرّائد مصارعاً الآلام في ساقه وراح يدفع المقاعد ويصرخ:

«هاي! بورل!... تعال! تعال تناول كوباً من البيرة!»

صُعِق النّقيب واقترب تلقائيّاً، دون أن يفكّر في الأمر. ما الذي جلب لاغيت عند ميلاني مع دوسيه وموراندو؟ كيف يمكن ذلك؟ هذا ما يبلبل كلّ أفكاره ويقلبها رأساً على عقب. توقّف عند الباب، وهو لا يزال متردّداً.

«كوباً من البيرة!» أمرَ الرّائد.

ثمّ التفتَ: «ماذا بكَ؟... ادخل واجلس، هيّا. هل تخشى أن نلتهمك؟»

خيّمت لحظة إحراج بعدما جلس النّقيب. كانت يدا ميلاني ترتجفان قليلاً وهي تُحضر كوب البيرة. تخشى باستمرار نشوب عراك يؤدّي إلى إغلاق محلّها. بدأت لباقة الرّائد تقلقها. حاولت التملّص حين دعاها لتناول كأسٍ مع هؤلاء السادة، لكنّه استبق ردّها وأمر فروزين بإحضار كأس صغيرة من مشروب اليانسون، بنبرة الآمر الناهي في المكان، فوجدت ميلاني نفسها مرغمة على الجلوس بينه وبين النّقيب. شرع يردّد بنبرة قاطعة:

«أنا مصرّ على أن نعامل السيّدات باحترام... أين روح الفروسيّة الفرنسيّة، بحقّ الله! نخب السيّدة!»

لم يرفع بورل عينيه عن كوب البيرة أمامه، وعلى وجهه ابتسامة مرتبكة لم تفارقه. أمّا الضابطان الآخران، فقاما بمحاولتين للانسحاب، وقد صدما لرفع الكؤوس على شرف ميلاني. من حسن الحظّ أنّ القاعة كانت خالية. وحدهم صغار الملّاكين كانوا متحلّقين حول الطاولة، مستغرقين في لعبتهم اليوميّة، يجفلون ويلتفتون عند كلّ شتيمة، مصدومين لوجود هذا العدد من الأشخاص في الصالة، وعلى استعداد ليهدّدوا ميلاني بالانتقال إلى مقهى المحطّة اذا كان الجيش سيجتاح المكان. كان سرب كامل من الذباب يدور ويطنّ، محوّماً حول الطاولات القذرة التي لم تعد فروزين تغسلها سوى يوم السبت. مستلقيةً خلف منضدة الشّرب، عادت الخادمة إلى قراءة روايتها.

«هكذا إذاً؟ لا تدقّ كأسك مع السيّدة؟ نهر الرّائد بورل بفظاظة. حافظْ على الحدّ الأدنى من الأدب!»

وحين رأى دوسيه وموراندو ينهضان من جديد صاح بهما «انتظرا، بحقّ السّماء! إنّنا خارجون معاً... المشكلة أنّ هذا الحيوان لم يعرف يوماً كيف يحسن التصرّف».

وقف الضابطان بلا حراك، وقد دهشا لفورة غضب الرّائد المفاجئة. سعت ميلاني لإحلال الصلح بينهما، فوضعت يديها على ذراعَي الرجلين مبتسمة لهما بابتسامتها العطوف المفعمة بالأنوثة، لكنّ لاغيت واصل.

«لا، دعيني... لماذا لم يرفع كوبه؟ لن أدعه يسيء إليكِ، أتسمعينني؟... الواقع أنّني سئمت هذا الوغد!»

نهض بورل وقد شحب وجهه لهذه الإهانة، وقال لموراندو:

«ماذا دهاه؟ يناديني ليصبّ عليّ جام غضبه!... هل هو سكران؟

- بحقّ السّماء!» صرخ الرّائد بأعلى صوته.

نهض بدوره، مصطكّاً على ساقيه، ووجّه للنّقيب صفعة رنّانة. بمشقّةٍ تسنّى لميلاني أن تنحني حتّى لا تطالها الصّفعة هي أيضاً على أذنها. علت جلبة فظيعة وراحت فروزين تزعق خلف منضدة الشّرب وكأنّ أحدهم ينهال عليها بالضرب. ذُعر صغار الملاكّين واختبأوا خلف طاولتهم، ظنّاً منهم أن هؤلاء الجنود سيسلّون سيوفهم ويرتكبون مجزرة. غير أنّ دوسيه وموراندو أمسكا بالنّقيب من ذراعيه لمنعه من الانقضاض على عنق الرّائد، واقتاداه برفق نحو الباب. في الخارج تمكّنا من إخماد غضبه بعض الشيء، بإلقاء اللّوم كاملاً على لاغيت. العقيد سيبتّ في القضيّة، لأنّهما سيذهبان في اللّيلة ذاتها لعرضها عليه بصفتهما شاهدَين على الحادث. وبعدما أبعدا بورل، عادا الى المقهى حيث وجدا لاغيت في غاية التأثّر والدموع تلتمع تحت جفنيه، ينهي ما تبقّى من كوبه، متظاهراً بهدوء تامّ.

«اسمع حضرة الرّائد، قال قائد الكتيبة، هذا لا يجوز... النّقيب ليس برتبتك، وتعلم جيّداً أنّه لا يمكننا السماح له بمنازلتك.

- آه! سوف نرى، ردّ الرّائد.

- لكن ماذا فعل لك؟ لم يكن يكلّمك حتّى... أنتما رفيقان قديمان، هذا هباء!»

قام الرّائد بإشارة مبهمة.

«لا يهمّ! كان يزعجني».

اكتفى بذلك ولم يضف كلمة. لم يعلم أحد يوماً حقيقة المسألة. غير أنّ ذلك لم يمنع انتشار موجة شائعات عارمة. باختصار، كان الرأي السائد بين رجال الكتيبة بصورة عامّة أنّ ميلاني هي التي جلعت الرّائد يصفع

النّقيب انتقاماً منه لتخلّيه عنها، وأنّ الرّائد نفسه وقع في براثنها ولا بدّ أنّها تلفّق له قصصاً فظيعة. ما كان سيخطر لأحد على بالٍ أنّ مثل هذا الأمر يمكن أن يحدث لذلك العجوز لاغيت، بعد كلّ الفظاعات التي كانت تخرج من فمه بحقّ النساء! ها هو وقع في الفخّ بدوره. وبالرغم من الانتفاضة العامّة ضدّ ميلاني، إلّا أنّ هذه القصّة جعلت منها محطّاً للأنظار، أصبحت مثار رهبة ورغبة، وحقّق مقهاها اعتباراً من ذلك النهار ازدهاراً منقطع النظير.

في اليوم التالي، استدعى العقيدُ الرّائدَ والنّقيب. نهرَهما بقسوة، آخذاً عليهما أنّهما ألحقا العار بالجيش في أماكن مشبوهة. كيف يمكنهما يا ترى تسوية المسألة، بما أنّه لا يمكنه أن يأذن لهما بالدخول في مبارزة؟ ذلك السؤال كان محور افتراضات ومشاورات محمومة داخل الكتيبة منذ اليوم السّابق. لم يبدُ الاعتذار حلّاً مقبولاً، بسبب الصفعة. لكن بما أنّ لاغيت لم يعد بوسعه الوقوف على ساقيه، كانت تكهّنات تسري بإمكانيّة ترتيب مصالحة بينهما إذا ما فرض العقيد ذلك.

«لنرَ، قال العقيد، هل تقبلا بي حَكَماً؟

– عذراً سيّدي العقيد، قاطعة الرّائد، جئت أقدّم لك استقالتي... ها هي. هذا يسوّي المسألة. أرجو منك أن ترتّب موعد المبارزة».

نظر إليه بورل بذهول. أمّا العقيد، فرأى أنّ من المناسب أن يعلّق على الأمر.

«ذلك القرار الذي تتّخذه أيها الرّائد قرار خطير... لم يعد أمامك سوى سنتين حتّى تذهب إلى التقاعد...»

لكنّ لاغيت قاطعه من جديد بخشونة:

«هذا يعنيني.

- آه! بالطبع... حسناً، سوف أرسل استقالتك، وما إن يتمّ قبولها حتّى أحدّد موعد المبارزة».

دهشت الكتيبة بهذه النهاية. ما الذي يجول في بال ذلك الرّائد الممسوس، حتّى يكون مصمّماً بهذا الشكل على أن يتبارز مع رفيقه القديم بورل؟ عادت ميلاني وجسدها الأنثويّ الرائع محطّ الأحاديث. ألهبت مخيّلات جميع الضبّاط الذين ما عادوا يحلمون إلّا بها. لا بدّ أنّها ممتعة حقّاً حتّى تثير بهذه الطريقة مشاعر عسكريّ قديم متحجّر القلب. لم يُخف قائد الكتيبة موراندو مخاوفه حين التقى لاغيت. إذا لم يُقتل في المبارزة، فكيف سيعيش؟ فهو لا ثروة لديه، وراتبه من وسام جوقة الشرف برتبة ضابط ومعاشه التقاعديّ الذي سيخفّض إلى نصفه لا يكادان يكفيانه لشراء الخبز. لكن فيما كان موراندو يتكلّم، كان لاغيت يحملق في الفراغ مقلّباً عينيه الجاحظتين، متحصّناً في تعنّته الصامت داخل دماغه الضيّق. ثمّ حين حاول قائد الكتيبة استجوابه بشأن سبب نقمته على بورل، كرّر الجملة ذاتها، مرافقاً إيّاها بالإشارة المبهمة ذاتها.

«كان يزعجني. لا يهم!»

في كلّ صباح، حين يلتقي الضبّاط في المقصف أو في المهاجع، كان أول سؤال يتبادر إليهم: «إذاً؟ هل وصلَتْ هذه الاستقالة أم ليس بعد؟» كان الجميع في انتظار المبارزة، والأحاديث تتناول بصورة خاصّة نهايتها المرجّحة. الغالبية الكبرى كانت على قناعة بأنّ لاغيت سينتهي أمره في ثلاث ثوانٍ لا أكثر، لأنّه من العبث أن يتعمّد الواحد القتال في عمره وبساق مشلولة لن تسمح له حتّى بالدفاع عن نفسه بالحدّ الأدنى. غير أنّ بعضهم كانوا يهزّون رؤوسهم. بالطبع، لم يكن لاغيت يوماً خارق الذكاء، بل أنّ المثل يضرب منذ عشرين عاماً بغبائه. لكنّه كان معروفاً

في ما مضى بأنّه أفضل مُبارزي الكتيبة. ثمّ أنّه انطلق ابن فرقة وارتقى إلى مرتبة قائد كتيبة ببسالة رجل حامي الطباع لا يهاب الخطر. وفي المقابل، فإنّ بورل معروف بجبنه، وهو زيادة على ذلك رديء في التسديد. في مطلق الأحوال، لا بدّ من الانتظار لرؤية ما سيجري. وفي هذه الأثناء، كان الانفعال يتصاعد والمشاعر تحتدم، إذ انّ تلك الاستقالة اللّعينة تتأخّر في الوصول.

غير أنّ الأكثر همّاً وغمّاً كان بالتأكيد الرّائد نفسه. ثمانية أيّام انقضت، والتفتيش العامّ يفترض أن يبدأ بعد يومين، ولم يرِدْ شيء بعد. كان يرتعد من الخوف، خشية أن يكون صفع صديقه القديم وقدّم استقالته عبثاً لمجرّد المتعة، دون أن يتمكّن من تأخير الفضيحة لحظة واحدة. إن قُتِل، فسوف يتفادى الإحراج ولن يترتّب عليه أن يرى ذلك. وإن قَتَل بورل، كما كان مصمّماً أن يفعل، فسوف تُطمَس القضيّة على الفور، وهكذا يكون أنقذ شرف الجيش، وسيتمكّن الصغير شارل من دخول كليّة سان سير. لكنْ بحقّ السّماء! موظّفو الوزارة العديمو الفائدة هؤلاء ينبغي أن يسرعوا قليلاً! عيل صبر الرّائد. كان يمكن رؤيته يطوف أمام مكتب البريد، يترقّب الرسائل، يستجوب حاجب العقيد مستعلماً. لم يعد ينام وبات يرخي ثقله بالكامل على عصاه ويعرج بشكل فظيع، غير آبه على الإطلاق للعالم بأسره.

عشيّة التفتيش، كان متوجّهاً عند العقيد مرّة جديدة حين وقف مصعوقاً عند رؤية السيّدة بورل على مسافة بضع خطوات منه، تصطحب شارل إلى المدرسة. لم يكن رآها منذ تلك اللّيلة، وهي من جهتها لازمت منزلها من غير أن تخرج منه. كاد يغمى عليه وتنحّى إلى طرف الرصيف، تاركاً لها المساحة على عرضها. لم يُلقِ أيّ منهما التحيّة على الآخر، ما جعل

الصبيّ ينظر إليهما بعينين مندهشتين. مرّت السيّدة بورل بقامتها المنتصبة عالياً ووجهها البارد ولامست الرّائد دون أن يرفّ لها جفن. وبعدما تجاوزته، نظر إليها تكمل طريقها بحيرةٍ ورقّة.

«ربّاه! هكذا إذاً، لستُ رجلاً!» همهم حابساً دموعه.

وفيما كان يهمّ بالدخول إلى مكتب العقيد، بادره نقيبٌ كان هناك:

«جئت في الوقت المناسب! وصلت الورقة للتوّ.

– آه!» همسَ، ووجهه ممتقع شاحب.

كان يستعيد في ذهنه مشهد السيّدة العجوز تبتعد ممسكةً يد الطفل، منتصبة القامة في صلابة وقسوة. ربّاه! كم تمنّى وصول الورقة منذ ثمانية أيّام، وها أنّ تلك الخرقة تبعث الاضطراب في نفسه وتحرّك مشاعره إلى هذا الحدّ!

جرت المبارزة في صباح اليوم التالي في فناء الثكنة، خلف جدار واطئ. كان الجوّ بارداً، وفي السماء تلتمع شمس ساطعة. اضطرّوا إلى حمل لاغيت تقريباً. كان أحد شاهديه يسنده بذراعه، فيما يتّكئ من الجانب الآخر إلى عصاه. بدا بورل نائماً، وكأنّه منهك بعد ليلة من العربدة. وجهه منتفخ بدهن أصفر قميء. لم يتفوّه أيّ منهما بكلمة. الجميع كان يتوق إلى الانتهاء من المسألة.

تولّى النّقيب دوسيه، أحد الشهود، إعطاء إشارة الانطلاق. تراجع وأعلن: «هيّا أيّها السادة!»

هاجم بورل على الفور، ساعياً لاختبار لاغيت لمعرفة ما يمكن أن يتوقّعه منه. فهو يعيش منذ عشرة أيّام كابوساً عبثيّاً بسبب هذه القضيّة، كابوساً تاه فيه دون أن يفهم شيئاً. كان هناك شكّ يساوره، لكنّه يستبعده بفزع، لأنّ نهايته كانت الموت. ولم يكن يسعه أن يصدّق أنّ صديقاً دبّر

له مهزلة كهذه حتّى يسوّي الأمور. على كلّ حال، كانت ساق لاغيت تطمئنه بعض الشيء. سوف يغرز سيفه في كتفه، وينتهي الأمر.

اشتبك السيفان حوالى دقيقتين وسط صليل خفيف. ثمّ قام النّقيب بهجمة جانبيّة وأراد الانقضاض، لكنّ الرّائد استعاد مهارته الماضية وصدّه بحركة دفاعيّة رهيبة. ولو كان شنّ هجمة مضادّة، لكان سيفه اخترق النّقيب من جنب إلى جنب. سارع النّقيب إلى فكّ الارتباط، شاحب الوجه، وهو يشعر أنّه تحت رحمة ذلك الرجل الذي عفا عنه هذه المرّة. فهم أخيراً، كانت تلك عمليّة إعدام بحقّ.

وقف لاغيت صامداً على ساقيه المعطوبتين وكأنّه صنم من حجر، منتظراً بلا حراك. شخَصَ كلّ من الخصمين في الآخر، ولاحَ في عيني بورل الزائغتين تضرُّعٌ، التماسُ رحمة. هو يعرف لماذا سوف يموت، ويقسم مثل طفل بأنّه لن يعاود الكرّة. لكنّ عيني الرّائد بقيتا قاسيتين بلا أدنى رأفة. الشرف هو الذي كان يتكلّم، ويخنق في داخله شفقة الرجل الطيّب.

«لننتهِ»، تمتم الرّائد بين أسنانه.

هو الذي بادر هذه المرّة إلى الهجوم. أومض برق. التمع سيفه وهو يشقّ الهواء من اليمين إلى اليسار، ثمّ عاد إلى الخلف وانغرز في ضربة صاعقة في صدر النّقيب الذي هوى أرضاً مثل كتلة، حتّى دون أن يطلق صرخة.

أفلت لاغيت سيفه، محدّقاً في صديقة القديم بورل المسكين ممدّداً على ظهره، وكرشه الضخم في الهواء. راح يردّد بغضب وتأثّر خانق:

«بحقّ الله! بحقّ الله!»

اقتادوه وأبعدوه. كانت ساقاه متراخيتين واضطرّ شاهداه إلى مساندته

من يمينه ويساره، لأنّه لم يعد قادراً حتّى على استخدام عصاه.

بعد شهرين، كان الرّائد السابق يجرّ ساقه في الشمس في أحد شوارع فوشان المقفرة، حين وجد نفسه مرّة جديدة وجهاً لوجه مع السيّدة بورل وشارل الصغير. كانا في حداد.

أراد أن يتفاداهما، لكنّه كان يسير بعسر، وهما متّجهان صوبه مباشرةً دون أن يبطئا سيرهما أو يحثّا الخطى. شارل ما زال لديه وجه فتاة رقيق ووجِل. والسيّدة بورل ما زالت على هيبتها وتصلّبها، لكنّ وجهها ازداد قسوة وضموراً. انسلّ لاغيت في زاوية بوابة، تاركاً لهما الطريق على عرضها، لكنّها توقّفت فجأةً أمامه ومدّت له يدها. تردّد، وبعد لحظة ارتباك تناول اليد الممدودة وصافحها، لكنّه كان يرتجف حتّى راح يهزّ ذراع السيّدة العجوز. خيّم صمت بينهما، تبادلُ نظرات بكماء.

«شارل، قالت الجدّة أخيراً، صافحِ الرّائد».

امتثل الفتى دون أن يفهم. انحسرَ الدم من وجه الرّائد. لم يكد يتجرّأ على ملامسة أصابع الفتى الناعمة. ثمّ أدرك أنّ عليه أن يقول شيئاً ما، فلم يجد سوى السؤال:

«هل ما زلتِ تعتزمين إدخاله إلى كليّة سان سير؟

- على الأرجح، حين يبلغ السنّ»، أجابت السيّدة بورل.

في الأسبوع التالي، قضى شارل بحمّى التيفوئيد. ذات مساء، قرأت له جدّته من جديد قصّة «معركة طالب الثأر» ليُضَرّس ويشتدّ، فأصيب بنوبة هذيان أثناء اللّيل ومات مذعوراً.

كيف نموت[1]

1

الكونت دو فيرْتوي في الخامسة والخمسين من العمر. ينتمي إلى واحدة من أعرق عائلات فرنسا، وهو صاحب ثروة طائلة. قاطعَ الحكومة، فشغل نفسه كما استطاع. كتب مقالات للمجلّات الجديّة فتحت له أبواب أكاديميّة العلوم الأخلاقيّة والسياسيّة. انطلق في مجال الأعمال، واهتمّ بولع بالزراعة وتربية المواشي والفنون الجميلة على التوالي. حتّى أنّه شغل لفترة وجيزة مقعداً في البرلمان حيث تميّز بضراوة معارضته.

أمّا الكونتيسة ماتيلد دو فيرْتوي ففي السادسة والأربعين من العمر. ما زال حتّى الآن يقال عنها إنّها الشقراء الأكثر فتنة في باريس برمّتها. يبدو

(1) يستعيد زولا أسلوب سلسلة الملاحظات السوسيولوجيّة السرديّة التي كان اختبرها في كانون الأوّل 1875 في نصّ «كيف نتزوّج» الصادر في *Le Messager de l'Europe* في كانون الثاني 1876، فيكتب وصفه «الفيزيولوجيّ» هذا للحِداد في تمّوز 1876. نُشر النصّ كاملاً في آب في *Le Messager de l'Europe* تحت عنوان «كيف نموت وكيف نُدفن في فرنسا». وموضوع الموت يشكّل هاجساً لزولا منذ قصّة «جاري جاك» في مجموعة «قصص وحكايات» (1864–1874)، وهو يستخدمه لإلقاء الضوء على الذهنيّات والأعراف الاجتماعيّة. نجد في سلسلة «آل روغون ماكار» الكثير من مشاهد الدّفن. وفي البورتريه الأدبيّ الذي يخصّصه في حزيران 1880 لصديقه فلوبير بُعيد وفاته، يستفيض زولا في وصف جنازته، ويختتم هذا السرد المدهش لتلك المهزلة الجنائزيّة كاتباً «آه ما أحزنَ جنازاتِ العظماء!». وقد نُشِرت القصّة الأولى من هذه السلسلة وحدها في صحيفة *Le Figaro* بتاريخ 1 آب 1881 كمقال بعنوان «وفاة الرجل الثريّ».

وكأنّ العمر يزيد بشرتها بياضاً. كانت نحيلة بعض الشيء في ما مضى، لكنّ كتفيها اكتسبتا مع النضوج اكتناز ثمرة مخمليّة. لم تكن يوماً على هذا القدر من الجمال. حين تدخل أحد الصالونات بشعرها الذهبيّ وحرير صدرها، تشعّ مثل كوكب مشرق، وتحسدها حتّى النساء العشرينيّات.

حياة الكونت والكونتيسة هي من تلك الحيوات العائليّة التي ليس هناك ما يقال فيها. تزوّجا كما تتمّ الزيجات في أغلب الأحيان في عالمهما. يقال حتّى إنّهما عاشا سعيدين طوال ستّ سنوات. أنجبت له في تلك الفترة ابناً يدعى روجيه، هو ملازم أوّل في الجيش، وابنة تدعى بلانش اقترنت العام الماضي بالسيّد دو بوساك، نائب في غرفة العرائض. يبقى الزوجان متّحدَين عبرَ ولديهما. وبعد سنوات على انفصالهما، لا تزال صداقة طيّبة تربط ما بينهما، على خلفيّة أنانيّة كبيرة. يتشاوران، يبدوان على تناغم مثاليّ في عيون النّاس، لكن بعد ذلك يختلي كلّ منهما في جناحه ويستقبل من يحلو له من الحميمين والمقرّبين.

لكن ذات ليلة، عادت ماتيلد من حفلة راقصة قرابة الثانية صباحاً. ساعدتها خادمتها في خلع ملابسها، وعند انسحابها قالت لها:

«السيّد الكونت أصيب بعارض طفيف هذا المساء».

التفتت الكونتيسة وقد غلبها النعاس.

«آه!» تمتمت.

تمدّدت وأضافت:

«أيقظيني غداً في الساعة العاشرة، أنتظر صانعة القبّعات».

في اليوم التالي عند الغداء، حين رأت الكونتيسة أنّ الكونت لم يحضر، أرسلت في بادئ الأمر سائلةً عنه. ثمّ قرّرت الصعود بنفسها إليه. وجدته شاحباً في سريره، متعباً إنّما في حالة مقبولة. كان ثلاثة أطبّاء زاروه،

تناقشوا بصوت منخفض وتركوا وصفات أدوية، على أن يعودوا في المساء. كان خادمان يهتمّان بالمريض، فيذرعان الغرفة صامتين ورزينين، والبساط يكتم وقع خطواتهما. الغرفة الفسيحة غارقة في سبات، وسط صرامة باردة. لا أثر لملابس مرميّة، لا قطعة أثاث إلّا وفي مكانها. إنه المرض النظيف اللّائق، المرض المحاط باحتفاليّة والذي يترقّب زيارات.

«أنت مريض إذاً يا صديقي؟» سألت الكونتيسة وهي تدخل الغرفة.

ابتسم الكونت جاهداً.

«آه! قليل من التعب، أجاب. كلّ ما يلزمني هو الراحة... أشكرك على زيارتك».

مضى يومان. الغرفة لا تزال تحتفظ بوقارها. كلّ غرض في مكانه، العقاقير تختفي دون أن تترك بقعة واحدة على أيّ طاولة. وجوه الخدام الحليقة لا تسمح بالتعبير عن أدنى ضيق. لكنّ الكونت يعرف أنّه يواجه خطر الموت. فرض على الأطبّاء أن يكشفوا له الحقيقة، وهو يدعهم يتصرّفون، دون أن يتشكّى مرّة. يبقى في غالب الأحيان مغمض العينين، أو يحدّق في الفراغ أمامه، وكأنّه يتأمّل في وحدته.

في المَحافل، تقول الكونتيسة إنّ زوجها مصاب بوعكة صحيّة. لم تبدّل حياتها بشيء. تأكل، وتنام وتتنزّه في ساعاتها الاعتياديّة. وفي كلّ صباح ومساء، تعود الكونتَ بنفسها لتسأله عن حاله.

«إذاً؟ هل تحسّنت اليوم يا صديقي؟

- أجل، إنّني أفضل بكثير، أشكرك عزيزتي ماتيلد.

- يمكنني البقاء بجانبك إن أردت.

- لا، هذا ليس ضروريّاً. جوليان وفرنسوا يكفيانني... لا تكلّفي نفسك هذا العناء».

إنّهما متفاهمان تماماً. عاشا منفصلين، وهما حريصان على أن يموتا منفصلين أيضاً. الكونت لديه ذلك الرضى المرير الخاصّ بالأنانيّين. يودّ الرحيل وحيداً، دون أن تحيط بفراشه مهزلة الأسى المضنية. يختصر قدر الإمكان، لأجله ولأجل الكونتيسّة، عناء الخلوة الأخيرة. مشيئته الأخيرة هي أن يتوارى بلباقة، كرجل راقٍ حريص على عدم إزعاج أحد وعدم إضجار أيّ كان.

لكنّه ذات ليلة شعر بأنّه في آخر رمق من حياته، وعرف بيقينٍ أنّ الفجر لن يطلع عليه. فحين صعدت الكونتيسة في زيارتها الاعتياديّة، استجمع قواه ليبتسم لها ابتسامة أخيرة وهو يقول: «لا تخرجي... لست على ما يرام».

هو يريد أن يجنّبها كلام الناس. وهي من جهتها كانت تترقّب مثل هذا الموقف. انتقلت للإقامة في الغرفة. لم يعد الأطبّاء يفارقون المريض المُنازع. أتمّ الخادمان خدمتهما حتّى اللّحظة الأخيرة بالهمّة الصامتة نفسها. وأُرسِلَ في طلب الولدين روجيه وبلانش، فجاءا ووقفا بجانب الفراش، قرب والدتهما. في غرفة مجاورة تجمّعَ أقرباء. هكذا ينقضي اللّيل، في انتظارٍ رزين. وفي الصباح، حضر الكاهن لإعطائه المسحة الأخيرة، على مرأى من الجميع تناول الكونت القربان المقدّس، في دليلٍ أخيرٍ على إيمانه. هكذا استُكمِلت الشعائر والمراسم، وبات بوسعه لفظ أنفاسه الأخيرة.

لكنّه لم يكن على عجلة من أمره، بل بدا وكأنّه استعاد بعض قواه، حرصاً منه على تفادي وفاة صاخبة وسط اختلاجات وتشنّجات. أنفاسه تبعث في الغرفة الفسيحة الصارمة زفيراً محطّماً مثل ساعة جدار معطّلة. إنّه رجل كريم يرحل. وبعدما يقبّل زوجته وولديه، يدفعهم عنه بإشارة

من يده، ثمّ يهوي ووجهه قبالة الجدار، ويموت وحيداً.

عندها ينحني أحد الأطبّاء فوقه، يغمض عينَي الميت، ثمّ يقول بصوت هادئ: «انتهى الأمر».

في الصمت تتصاعد زفرات ودموع. ركعت الكونتيسّة وروجيه وبلانش وانهمرت دموعهم خلف أيديهم المشبوكة. لا يمكن رؤية وجوههم. ثمّ يقتاد الولدان أمّهما وعندما تصل إلى الباب، تترنّح قامتها في زفرة أخيرة تعبّر عن يأسها. واعتباراً من تلك اللّحظة، يصبح الميت ملكاً لمتعهّدي تنظيم الجنائز الذين سيرتّبون دفنه.

الأطبّاء انسحبوا، حانين ظهورهم وعلى وجوههم ملامح أسفٍ مبهم. يرسل أحدهم في طلب كاهن الرعيّة للسهر على الجثة. يبقى الخادمان مع الكاهن، جالسَين على كرسيَّين في قعدة متصلّبة ووقورة. إنّها النهاية المرتقبة لخدمتهما. يلحظ أحدهما ملعقة منسيّة على قطعة أثاث، فينهض ويدسّها في حركة خاطفة في جيبه، حتّى لا تُفسد الترتيب الجميل المخيّم في الغرفة.

من الصالون الفسيح في الأسفل يتصاعد ضجيج مطارق. إنّهم النجّادون يجهّزون القاعة ليُسجّى فيها الجثمان. النهار بكامله مخصّص لإعداد الميت وغسله. الأبواب أُغلقت وبقي المحنِّط وحيداً ومساعديه. حين يُنزلون الكونت في اليوم التالي، يُسجّى في ملابس رسميّة وعلى وجهه نداوة الشباب.

منذ الساعة التاسعة صباح الجنازة، والمنزل يضجّ بالهمسات والوشوشات. يقف ابن الفقيد وزوج ابنته في أحد صالونات الطابق الأرضيّ، يستقبلان حشود المعزّين. ينحنيان في لباقة صامتة، لباقة المحزونين. جميع كبار القوم حضروا. النبلاء، الجيش، القضاة. هناك

حتّى أعضاء في مجلس الشيوخ وعناصر من الأكاديميّة.

تحين الساعة العاشرة أخيراً، وينطلق الموكب متوجّهاً إلى الكنيسة. عربة الدفن فخمة من المرتبة الأولى، مزيّنة بالريش ومغطّاة بستائر ذات شرّابات فضيّة. أطراف بساط الرحمة الذي يكسو النعش يحملها ضابط برتبة مارشال فرنسا، دوق هو صديق قديم للفقيد، وزير سابق وأكاديميّ. روجيه دو فيرْتوي والسيّد دو بوساك يتقدّمان الجنازة، يتبعهما الموكب، فيض من المعزّين بقفّازات وربطات عنق سوداء، جميعهم من كبار الشخصيّات، يلهثون وسط الغبار ويخبطون بأقدامهم باعثين صوت دعس مكبوتٍ مثل قطيع أُطلق عنانه.

الحيّ بكامله في ترقّب، هُرِعَ إلى النوافذ. الناس تجمهروا في حشد متراصّ على الأرصفة، ينزعون قبّعاتهم ويهزّون رؤوسهم لدى مرور عربة النعش المجيدة. حركة السير متوقّفة، قطعها طابور الجنازة الممتدّ إلى ما لا نهاية، بعرباته الخالي أغلبُها. الحافلات والحناطير تتكدّس عند المفارق، تعلو شتائم السائقين وتبعث الأسواط أزيزاً وهي تشقّ الهواء. وفي هذه الأثناء بقيت الكونتيسّة دو فيرْتوي في منزلها حيث أوصدت على نفسها أبواب جناحها، وقد أرسلت تقول للجميع إنّها محطّمة من شدّة ما بكت. ممدّدة على كرسيّ طويل، تتأمّل السقف وهي تعبث بشرّابة حزامها، مُطرقة ومستكينة.

في الكنيسة، تستمرّ مراسم الجنازة حوالى ساعتين. الكهنة جميعهم منهمكون. يمكن منذ الصباح رؤيتهم يهرعون في ملابسهم الكهنوتيّة، يوزّعون تعليمات وأوامر، يمسحون العرق عن جباههم ويتمخّطون بصخب. في وسط الممرّ المتّشح بالسواد بين صفّي مقاعد الكنيسة، وُضِعت منصّة متوهّجة تحمل النعش. استقرّ الموكب أخيراً واستكان،

النساء إلى اليسار والرجال إلى اليمين. الأرغن يبعث شكواه، والمرتّلون يئنّون بأصوات خافتة، والكورس يطلق زفرات حادّة. من المشاعل تنبعث ألسنة لهب خضراء تضفي شحوبها الجنائزيّ على الحفل المهيب.

«أليس من المفترض أن يرتّل فوريه[1]؟ سأل نائبٌ جاره.

- بلى، أعتقد ذلك»، أجاب الجار، وهو حاكم مقاطعةٍ سابق، رجل وسيم يوزّع الابتسامات من بعيد على النساء.

وحين يرتفع صوت المرتّل في الممرّ الذي تعبره ارتعاشات، يواصل خافضاً صوته وهو يهزّ رأسه طرباً: «اسمع هذا الغناء! هذا الصوت العريض!»

الحضور بكامله مسحور. النساء يتذكّرن لياليهنّ في الأوبرا، وعلى شفاههنّ ابتسامة حالمة. فوريه ذاك موهوب حقّاً! حتّى أنّ أحد أصدقاء الكونت المتوفّى قال: «لم يسبق له أن غنّى بأفضل ممّا فعل اليوم!... من المؤسف ألّا يتمكّن ذلك المسكين فيرْنوي من الاستماع إليه، هو الذي كان يحبّ صوته كثيراً!»

المرتّلون يجولون حول منصّة النعش. الكهنة البالغ عددهم حوالى عشرين يزيدون من تعقيد المراسم، يلقون تحيّات، يردّدون جملاً باللّاتينيّة، ويلوّحون بمَناضح ماء مقدّس. وأخيراً يمرّ الشمّاسون أنفسهم أمام النعش بمرشّات الماء المقدّس. ثمّ يخرج الجميع بعد مصافحة العائلة. في الخارج، نور النهار يبهر الحشد.

إنه يوم من أيّام حزيران الجميلة. في الهواء الدافئ تتطاير خيوط رقيقة خفيفة. في هذا الوقت تحدث حركات تدافع أمام الكنيسة، في الساحة الصغيرة. يستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن ينتظم الموكب من جديد.

---

(1) باريتون شهير في حقبة الامبراطوريّة الثانية.

الذين لا يرغبون في المضيّ أبعد يتوارون. وعلى مسافة مئتي متر، في طرف شارع، تلوح باقات الريش التي تزيّن عربة النعش، تتطاير وتختفي، فيما الساحة لا تزال مزدحمة بالعربات. يُسمَع صفق أبواب الحناطير وعدْو الأحصنة المنطلقة على حجارة الطريق. ينخرط السائقون رغم الفوضى في الصفّ ويتوجّه الموكب إلى المدفن.

في العربات، يستكين الجميع. بوسعهم أن يخالوا أنّهم يتسكّعون متوجّهين إلى الغابة، وسط ربيع باريس. ومع تواري عربة النعش عن الأنظار، سرعان ما ينسون الدفن، فيُطلَق العنان للأحاديث، السيّدات يتكلّمن عن موسم الصيف، والرجال يتداولون في أعمالهم.

«قولي لي عزيزتي، هل ما زلت مصمّمة على الذهاب إلى دييّب هذه السنة؟

- أجل، ربّما. لكن ليس قبل آب... إنّنا ذاهبون السبت إلى منزلنا في لْوار.

- هكذا إذاً يا عزيزي، ضبطَ رسالة منافسه وتقاتلا. آه! بكثير من الرفق، مجرّد خدش بسيط... وفي المساء تناولْتُ العشاء معه في النادي. حتّى أنّه جعلني أربح خمسة وعشرين لويسيّة.

- أليس كذلك؟ اجتماع المساهمين يُعقد بعد غد... يريدون تعييني في اللّجنة. لكنّني منشغل كثيراً ولا أدري إن كان ذلك في مقدوري».

يسلك الموكب منذ برهةٍ جادّةً واسعة. من الأشجار يهبط ظلّ يبعث طراوة في الجوّ، والشمس تنشد بهجتها بين الأعشاب. فجأةً تنحني سيّدة في لحظة طيش من فوق باب إحدى العربات وتصيح: «انظروا! كم هذا المكان لطيف!»

كان الموكب يدخل في تلك اللّحظة مقبرة مونبارناس. صمتت

الأصوات ولم يعد يُسمع سوى صرير العجلات فوق رمل الممرّات. ترتّب على الموكب أن يعبر المقبرة حتّى النهاية. مدفن آل فيرْتوي في الركن الأقصى، إلى اليسار. ضريح ضخم من الرخام الأبيض، أشبه ما يكون بمصلّى مزيّن بتماثيل كثيرة. وضعوا النعش أمام باب المصلّى، وبدأت خُطَب التأبين تتعاقب.

أُلقِيت أربع خطب. الوزير السابق استعاد حياة الفقيد السياسيّة، فقدّمه على أنّه عبقريّ متواضع كان سينقذ فرنسا لو لم يكن يزدري المكائد والمؤامرات. ثمّ تغنّى أحد الأصدقاء بالفضائل السريّة لذلك الرجل الذي يبكيه الجميع. بعدها انتقل الكلام إلى سيّد لا يعرفه أحد هو في الحقيقة مندوب شركة صناعيّة كان الكونت دو فيرْتوي رئيساً فخريّاً لها. وأخيراً أعرب رجل قصير القامة ممتقع الوجه عن أسف أكاديميّة العلوم الأخلاقيّة والسياسيّة.

في هذه الأثناء، يبدي الحاضرون اهتماماً بالمدافن المجاورة، يقرؤون الكتابات على الشواهد الرخاميّة. الذين يرهفون السمع يلتقطون فقط كلمات متفرّقة. يسمع عجوز مزموم الشفتين جزءاً من جملة «سجايا القلب، كرم الأخلاق، وطيبة الشخصيّات العظيمة...» فيشير بذقنه متمتماً: «يمكنكم قول ذلك! عرفته جيّداً، أجل، كان كلباً حقيراً!»

الوداع الأخير يتطاير في الجوّ. وبعدما ينتهي الكهنة من مباركة الجسد، ينسحب الجميع، ولا يبقى في تلك الناحية النائية سوى حفّاري القبور، ينزلون النعش في الحفرة. الحبال تبعث حفيفاً مكتوماً، النعش من خشب البلّوط يطقطق. السيّد الكونت دو فيرْتوي بات في مثواه الأخير.

والكونتيسّة على كرسيّها الطويل لم تتزحزح. لا تزال تعبث بشرّابة

حزامها، متأمّلةً السقف، تائهة ساهمة في أحلامٍ يتورّد لها خدّا الشقراء الجميلة.

2

السيّدة غيرار أرمل. زوجها الذي توفّي قبل ثماني سنوات، كان قاضياً. تنتمي إلى البورجوازيّة الراقية وتملك ثروة قدرها مليونا فرنك. لها ثلاثة أطفال، ثلاثة أبناء ورث كلّ منهم عند وفاة والدهم خمسمئة ألف فرنك. لكنّ هؤلاء الأبناء في تلك العائلة الصارمة الباردة المتزمّتة، نشأوا كما ينشأ أولاد بريّون، بخُبْلٍ وشهوات لا أحد يدري من أين أتتهم[1]. ما هي إلّا سنوات قليلة حتّى بدّد كلّ منهم الخمسمئة ألف فرنك. الابن البكر شارل افتتن بالميكانيكا وأنفق مبالغ طائلة على ابتكارات خارجة عن المألوف. الابن الثاني جورج التهمه الولع بالنساء. الثالث موريس نهبه صديق له شرع معه في بناء مسرح. اليوم يعيش الأبناء الثلاثة على نفقة الوالدة التي لا تجد مانعاً في تقديم المأكل والمأوى لهم، غير أنّها تحتفظ بمفاتيح الخزائن من باب الحيطة.

يعيش هذا الجمع الصغير في شقّة فسيحة في شارع تورين بمنطقة الماريه[2] في باريس. السيّدة غيرار في الثامنة والستّين من عمرها. ومع السنين جاءت الوساوس. تفرض في منزلها هدوءاً ونظافة كأنّها في دير راهبات. بُخلها يجعلها تعدّ قطع السكّر، وتسهر على تحزيم الزجاجات المفتوحة، ولا تخرج البياضات وأواني المائدة إلّا طبقاً للحاجة. لا شكّ

---

(1) هذا ما يلخّص مفهوم زولا الإيحائي والروائي للوراثة. كتب الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز Gilles Deleuze تعليقاً شيّقاً على ذلك «الخبل» في مقدّمته لرواية زولا «الوحش البشريّ» *La Bête humaine*.

(2) حيّ تاريخيّ في قلب باريس، كان مقرّاً للنبلاء والنُّخَب في العاصمة الفرنسية.

أنّ أولادها الثلاثة يحبّونها كثيراً، ولا تزال تحتفظ بهيبة مطلقة عليهم بالرغم من بلوغهم الثلاثين ومن الحماقات التي ارتكبوها. لكنّها حين ترى نفسها وحيدة بين هؤلاء الأبالسة الثلاثة الأشدّاء، تساورها مخاوف تكتمها، وهي تخشى على الدوام طلبات أموال لا تعرف كيف ترفضها. لذلك حرصت على استثمار ثروتها في عقارات. فهي تملك ثلاثة منازل في باريس وأراضي في ناحية فانسين. هذه الأملاك تتسبّب لها بمتاعب جمّة، لكنّها مطمئنّة، لديها أعذار حتّى لا تمنح مبالغ كبرى دفعة واحدة.

وفي مطلق الأحوال، فإنّ شارل وجورج وموريس ينهبون المنزل قدر المستطاع. يقبعون فيه، يتناحرون على الفتات، كلّ واحد آخذاً على الآخرَين شراهتهما. وفاة والدتهم سوف تجعلهم أثرياء من جديد. هم على يقين من ذلك، وهذه الحجّة كافية لتجعلهم ينتظرون في خمول وتقاعس كاملين. لم يكونوا يتطرّقون إلى الموضوع إطلاقاً، لكنّ شغلهم الشاغل باستمرار كان كيفيّة تقاسم التركة. وإذا لم يتفاهموا فيما بينهم، فسوف يترتّب عليهم بيع الأملاك، وهذا لا يتمّ إلّا في عمليّة باهظة تقود إلى الإفلاس. تشغل هذه المسائل بالَ كلّ منهم دون أيّ رغبة خبيثة مبيّتة، لمجرّد أنّه يترتّب عليهم أخذ كلّ الاحتمالات في الحسبان. إنّهم مرحو الطباع، طيّبون، متوسّطو النزاهة. ومثل الجميع، يتمنّون لوالدتهم أن تعمّر طويلاً. هي لا تزعجهم. ينتظرون، هذا كلّ ما في الأمر.

ذات مساء، أصيبت السيّدة غيرار بوعكة لدى نهوضها عن طاولة العشاء. أرغمها أبناؤها على أن تتمدّد في سريرها وتركوها مع خادمتها مع أنّها أكّدت لهم أنّها بحال أفضل، وأنّها تعاني فقط من صداع مؤلم. لكن في اليوم التالي، ساءت حال السيّدة العجوز وأبدى طبيب العائلة قلقه عليها طالباً استشارة طبيّة. عندها، ولثمانية أيّام، دارت مسرحيّة

دراميّة حول سرير العجوز المحتضرة.

ما إن رأت نفسها مسمّرة في غرفتها بسبب المرض حتّى حرصت على لملمة كلّ المفاتيح وإخفائها تحت وسادتها. أصرّت على أن تحكم المنزل حتّى من فراشها، وتحمي خزائنها من الهدر والتبذير. كانت نفسها مسرحاً لصراعات ضارية وشكوك مزّقتها. ولم تتّخذ قرارها إلّا بعد طول تردّد. أبناؤها الثلاثة من حولها، وهي تحدّق فيهم بعينيها الزائغتين، لا تزال في انتظار وحي يملي عليها القرار المناسب.

في أحد الأيّام، تضع ثقتها في جورج. تشير له أن يقترب منها وتقول له خافضةً صوتها «خذ، إليك مفتاح الصوّان، خذ السكّر... أغلق الباب جيّداً حين تنتهي وأعِد لي المفتاح». وفي يوم آخر، ترتاب من جورج، تتابعه بعينيها ما إن يتحرّك، وكأنّها تخشى أن يدسّ التحف الصغيرة المعروضة فوق الموقد في جيوبه. تنادي شارل، تعهد إليه بمفتاح بدوره وهي تهمس له: «الخادمة سوف تذهب معك. سوف تراقبها وهي تأخذ شراشف، ثمّ تغلق الباب بنفسك».

تلك كانت معاناتها ولوعتها في احتضارها: ألّا يعود بوسعها السهر على نفقات المنزل. تذكر جيّداً حماقات أولادها. تعرف أنّهم خمولون، شرهون للغاية، في رؤوسهم مسّ من الجنون، ومبذّرون يوزّعون من حولهم الأموال. فقدت أيّ اعتبار لهم منذ زمن طويل. فهم لم يحقّقوا أيّاً من أحلامها ويصدمون التقشّف والصرامة اللّذين درجت عليهما. وحده العطف يطفو فوق كلّ ذلك ويغفر. في عمق عينيها المتوسّلتين يلوح ترجٍّ لهم بأن يرأفوا بها وينتظروا حتّى ترحل عن هذا العالم قبل أن يفرغوا أدراجها ويتقاسموا مقتنياتها.

ذلك التقاسم أمام عينيها سيكون تعذيباً لها في بخلها المحتضر.

غير أنّ شارل وجورج وموريس أبدوا الكثير من الطيبة. تفاهموا فيما بينهم بحيث يبقى أحدهم على الدوام بجانب والدتهم. أظهروا عاطفة صادقة في أدنى إشارة قاموا بها للعناية بوالدتهم. غير أنّهم كانوا يُدخلون حكماً معهم إلى غرفتها كلّ استهتار الخارج وقلّة مبالاته. رائحة السيجار الذي دخّنوه، الانشغال بالأخبار المنتشرة في المدينة. وكانت أنانية المريضة تعاني حين ترى أنّها ليست كلّ شيء بالنسبة لأبنائها في ساعتها الأخيرة. ثمّ حين يغلبها الإعياء، تثير ريبتها وشكوكها ضيقاً متنامياً بينها وبين الشبّان الثلاثة. إن لم تكن الثروة التي سيرثونها ماثلة في أذهانهم، فوالدتهم كفيلة بزرع فكرة هذه الأموال في رؤوسهم لفرط ما كانت تدافع عنها حتّى الرمق الأخير. تحدّق بهم بنظرة حادّة، وبمخاوف واضحة، إلى حدّ أنْ يشيحوا بوجوههم. عندها تظنّ أنّهم يترقّبون لحظتها الأخيرة. وهم في الحقيقة يفكّرون في ذلك، بل أنّ هذه الفكرة تفرض نفسها عليهم باستمرار في الأسئلة الصامتة التي تطرحها نظراتها. هي التي تبعث فيهم الجشع. حين تباغت أحدهم مطرقاً في أفكاره، ووجهه شاحب، تقول له:

«تعال بجانبي... ما الذي يجول في خاطرك؟

- لا شيء يا أمّاه».

لكنّها رأته ينتفض بجفول. تهزّ رأسها ببطء وتضيف: «إنّني أتسبّب لكم بهمّ كبير يا أولادي. هيّا، لا تقلقوا، قريباً لن أعود بينكم».

يحيطون بها، يقسمون لها بأنّهم يحبّونها وبأنّهم سوف ينقذونها. تجيب نافيةً بإشارة متعنّتة. تغوص أعمق في ريبتها. إنّه احتضار شنيع، يبثّ فيه المال سمّه.

استمرّ المرض ثلاثة أسابيع. خضعت لخمسة معاينات طبيّة،

استقدموا من أجلها أشهر الأطبّاء. الخادمة تساعد أولاد السيّدة على معالجتها. وبالرغم من كلّ الحرص والحيطة، ظهر شيء من الفوضى في الشقّة. لم يعد هناك من أمل، الطبيب أعلن أنّ المريضة قد تفارق الحياة في أيّ ساعة.

عندها، وفي صباح ظنّ فيه الأولاد أنّها نائمة، وقفوا قرب نافذة يناقشون فيما بينهم مشكلة طرأت عليهم. كانوا في الخامس عشر من تمّوز، وهي اعتادت أن تتقاضى بنفسها بدل إيجار منازلهم، فوجدوا أنفسهم مرتبكين، لا يعرفون كيف يقبضون هذه الأموال. البوّابون لم ينتظروا وطلبوا تعليمات. لا يمكنهم مناقشة الأعمال معها وهي في تلك الحالة من الوهن. لكن إذا ما وقعت كارثة، فسوف يحتاجون إلى بدلات الإيجار لتأمين بعض النفقات الشخصيّة.

«يا إلهي! قال شارل خافضاً صوته، يمكنني أن أذهب إلى المستأجرين إن أردتم... سوف يتفهّمون الوضع ويدفعون».

لكن يبدو أنّ هذا الحلّ لم يعجب جورج وموريس. هما أيضاً باتا يرتابان وتساورهما الشكوك.

«يمكننا مرافقتك، قال الأوّل. لدينا جميعنا نفقات يترتّب تأمينها.

- حسناً! سوف أجلب لكما المال. أنتما لا تظنّان بالطبع أنّني قادر على الفرار به، أليس كذلك؟

- لا، لكن من الأفضل أن نكون معاً. هكذا يكون الأمر نظاميّاً أكثر».

يتبادلون النظرات بعيون بدأت تلتمع فيها نقمات القسمة وأحقادها. أبواب الوراثة باتت مشرّعة، والكلّ يريد أن يضمن لنفسه الحصّة الكبرى. يتابع شارل بفظاظة، معبّراً بصوت عالٍ عمّا يكتمه شقيقاه:

«اسمعوا، سوف نبيع، هذا أفضل للجميع... إن كنّا نتشاجر اليوم،

فغداً سوف نفترس بعضنا البعض».

لكنّ حشرجة جعلتهم يلتفتون دفعة واحدة. وجدوا والدتهم شاحبة تقلّب عينيها التائهتين، وقد نهضت في السرير وجسدها يرتعد. هي سمعت كلامهم. تمدّ ذراعيها النحيلتين وتردّد بصوت جزع: «أبنائي... أبنائي...»

ثمّ رمتها اختلاجة على السرير ولفظت أنفاسها على قناعة رهيبة بأنّ أبناءها يسرقونها.

جثا الثلاثة مذعورين أمام السرير، وراحوا يقبّلون يدَي الميتة، يغمضون عينيها وهم ينتحبون. في هذه اللّحظة عادت الطفولة إلى قلوبهم وباتوا مجرّد أيتام. لكنّ هذا الموت الرهيب بقي في أعماقهم، مثل ندم وضغينة في آن.

قامت الخادمة بغسل الميتة وتحضيرها. أرسلوا بحثاً عن راهبة للسهر على الجثمان. وفي تلك الأثناء انهمك الأبناء الثلاثة في المراسيم. ذهبوا لإعلان الوفاة والتوصية على رسائل النعي، وإعداد مراسم الجنازة. يتناوبون في اللّيل للسهر مداورةً على الجثّة مع الراهبة. في الغرفة التي أُسدلت ستائرها، سجّيت الميتة في وسط السرير، رأسها متيبّس، يداها مكتّفتان، وعلى صدرها وُضع صليب فضيّ. إلى جانبها أُشعلت شمعة، وفي إناء مليء بالماء المقدّس وضع غصن شمشير. تنتهي السهرة مع ارتعاشة الصباح. الراهبة متعبة، تطلب كوباً من الحليب الساخن.

قبل ساعة من انطلاق موكب الجنازة، كانت الأدراج تغصّ بالناس. على بوّابة المنزل الخارجيّة أُسدلت ستائر سوداء ذات شرّابات فضيّة. هنا عُرض النعش كأنّما في عمق مصلّى ضيّق، محاطاً بشموع ومغطّى بالأكاليل والباقات. كلّ من يدخل يتناول منضحة من جرن ماء مقدّس

وُضع أسفل النعش، ويرشّ على الجثمان. في الساعة الحادية عشرة، ينطلق الموكب. أبناء الفقيدة يتقدّمون الجنازة. خلفهم يأتي القضاة، وبعض كبار الصناعيّين، وبورجوازيّة رصينة مدركة لأهمّيتها تسير بخطى بطيئة، تسترق النظر مواربةً إلى الفضوليّين الواقفين على الأرصفة. وتختتم الموكب اثنتا عشرة عربة جنائزيّة. يعدّها الجميع، هي محطّ الأنظار في الحيّ.

غير أنّ المشيّعين يشفقون على شارل وجورج وموريس الذين كانوا يسيرون خلف النعش بملابسهم الرسميّة وقفّازاتهم السوداء، مطأطئي الرؤوس، ووجوههم محمرّة من كثرة البكاء. في مطلق الأحوال، كان الكلام نفسه يتردّد على كلّ الشفاه: إنّهم يدفنون والدتهم في جنازة لائقة. عربة النعش من الدرجة الثالثة، لا بدّ أنّهم سيدفعون بضع آلاف الفرنكات طبقاً لحسابات الجميع. يقول كاتب عدل عجوز بابتسامة ماكرة: «لو دفعت السيّدة غيرار بنفسها نفقات جنازتها، لكانت وفّرت كلفة ستّ عربات».

في الكنيسة، الباب مشرّع، الأرغن يعزف، وكاهن الرعيّة يؤدّي الصلاة على الميتة. ثمّ بعدما يمرّ المشيّعون في صفّ أمام الجثمان، يجدون عند مدخل الممرّ في وسط الكنيسة الأبناء الثلاثة مصطفّين لتلقّي مصافحات مَن لا يمكنهم الذهاب إلى المقبرة. يمدّون الأيدي طوال عشر دقائق، يصافحون الناس حتّى دون معرفتهم، يعضّون على شفاههم، ويكبتون دموعهم. وما أكبر ارتياحهم حين تفرغ الكنيسة ويستأنفون مسيرتهم البطيئة خلف النعش!

مدفن عائلة غيرار في مقبرة بير لاشيز. يقطع العديد من المشيّعين المسافة سيراً على الأقدام، فيما يصعد آخرون في عربات الجنازة. يعبر

الموكب ساحة الباستيل ويتبع شارع لا روكيت. يرفع بعض المارّة أنظارهم، يخلعون قبّعاتهم. إنّه موكب ثريّ، يتأمّل عمّال هذا الحيّ المكتظّ عبوره وهم يأكلون نقانق في قطع خبز مشقوقة في نصفها.

حين يصل الموكب إلى المقبرة، ينعطف يساراً فيصل مباشرةً إلى المدفن. إنّه بناء صغير، أشبه ما يكون بمصلّى قوطيّ حُفر على واجهته بالأسود «عائلة غيرار». البوابّة من الحديد المقطّع مفتوحة، يظهر خلفها مذبح صغير أُشعِلت عليه شموع. حول القبر تصطفّ مدافن أخرى مماثلة تنتظم في ممرّات وطرقات، وكأنّها واجهات متجر أثاث عرضت فيها خزائن وأدراج ومكاتب أُنجزت للتوّ وصُفّت بشكل متناسق لعرضها. المشيّعون تائهون في أفكارهم، يتأمّلون هذه الهندسة، يبحثون عن بعض الظلّ تحت أشجار الممشى المجاور. ابتعدت سيّدة لتتأمّل نبتة ورد رائعة، باقة مزهرة عطرة نمت فوق إحدى المقابر.

في تلك الأثناء أُنزل النعش، تلا كاهنٌ الصلوات الأخيرة فيما ينتظر الحفّارون في بدلاتهم الزرقاء على مسافة بضع خطوات. الأبناء الثلاثة يجهشون بالبكاء، عيونهم شاخصة في القبر الفاغر الذي أُزيحت عنه البلاطة. هناك، في عتمة هذا الظلّ الذي يبعث برودةً، سوف يرقدون بدورهم. يقتادهم بعض الأصدقاء بعيداً حين يقترب الحفّارون.

وبعد يومين، عند كاتب العدل المكلّف من قِبل والدتهم، يتجادلون كازّين على أسنانهم، بعيون جافّة وبغضبِ أعداء مصمّمين على عدم التنازل عن فلس واحد. من مصلحتهم أن ينتظروا وألّا يتسرّعوا في بيع الأملاك. لكنّهم يتواجهون ويتقاذفون الحقائق والتّهَم: شارل سوف يلتهم كلّ شيء في ابتكاراته، وجورج لا بدّ أنّ له عشيقة تنهبه، وموريس غارق بالتأكيد في مضاربات جنونيّة سيبدّد فيها كلّ رساميلهم. عبثاً

حاول كاتب العدل دفعهم إلى توافقٍ بالتراضي، إذ انفصلوا وهم يهدّدون بعضهم البعض بالأوامر القضائيّة.

إنّها الميتة استيقظت في داخلهم، ببخلها ومخاوفها من أن تُسلَب منها ممتلكاتها. حين تُسمّم الأموال الموت، لا يخرج من الموت سوى الغضب ويدور عراك من فوق النعوش.

3

كان السيّد روسو في العشرين من عمره حين تزوّج يتيمةً في الثامنة عشرة تدعى آديل لوميرسييه. كانا يملكان معاً سبعين فرنكاً ليلةَ بدأت حياتهما الزوجيّة. قاما في بادئ الأمر ببيع أوراق رسائل وقضبان شمع للأختام في مدخل بوّابة. ثمّ استأجرا محلّاً ضيّقاً، متجراً بمساحة منديل جيب قضيا عشر سنوات فيه يوسّعان أشغالهما شيئاً فشيئاً. واليوم يملكان محلّ قرطاسيّة على شارع كليشي يساوي خمسين ألف فرنك بأقلّ تقدير.

آديل لم تكن يوماً شديدة البنية. لطالما كانت تعاني من سعال طفيف. جوّ المحلّ المغلق والجلوس خلف المكتب بلا حراك لا يساعدانها. أوصاها طبيب استشارته بالراحة وبالقيام بنزهات حين يكون الطقس لطيفاً. لكنّ هذه وصفات لا يمكن تطبيقها حين يسعى الواحد لجمع عائدات صغيرة يعتاش منها بسلام لاحقاً. تقول آديل إنّها سوف تستريح وتتنزّه لاحقاً، بعدما يبيعان المحلّ ويتقاعدان في الريف.

أمّا روسو، فيقلق عليها كثيراً حين يراها في بعض الأيّام شاحبة وعلى وجنتيها بقع حمراء. لكن لديه محلّه الذي يستغرق اهتمامه، ولا يمكنه أن يتابعها باستمرار لمنعها من التهوّر والاستهتار بصحّتها. لا يجد على مدى أسابيع لحظة واحدة ليستفسر عن صحّتها. ما إن يسمع سعلتها الجافّة

الخافتة حتّى يثور عليها ويرغمها على الالتفاف بشالها والذهاب معه في نزهة على جادّة الشانزيليزيه. لكنّها تعود أكثر إعياءً وقد اشتدّ عليها السعال. ثمّ ينهمك السيّد روسو مجدّداً في متاعب محلّه فيعود المرض ويغرق في النسيان، إلى أن تطرأ نوبة جديدة. هكذا هي الحال في التجارة. يموت فيها الواحد من غير أن يتسنّى له أن يتداوى.

في أحد الأيّام، انفرد السيّد روسو بالطبيب وسأله بصراحة إن كانت زوجته في خطر. بدأ الطبيب بالقول إنّه ينبغي الاعتماد على الطبيعة، وأنّه عاين الكثير من الأشخاص كانوا مصابين بمرض أشدّ ونجوا منه. ثمّ أمام إصرار السيّد روسو في أسئلته، أقرّ بأنّ السيّدة روسو مصابة بالسلّ، بل أنّها في مرحلة متقدّمة من المرض. امتقع وجه الزوج وشحبَ عند سماع اعتراف الطبيب. هو يحبّ آديل، يحبّها من أجل هذا المجهود الذي بذلاه معاً لوقت طويل قبل أن يتوصّلا إلى تناول الخبز الأبيض يوميّاً. هي ليست زوجة له فحسب، بل أيضا شريك يعرف مقدار نشاطه وذكائه. وإن توفّيت، فسوف يصاب بنكبة في قلبه وفي محلّه. لكن لا بدّ له من التسلّح بالشجاعة. لا يسعه إغلاق محلّه ليبكي كما يحلو له. كبت إذاً مشاعره وحاول ألّا يثير هلع آديل إذا ما رأت عينيه حمراوين. عاد إلى حياته اليوميّة الاعتياديّة. وبعد شهر، كان أقنع نفسه إزاء هذه الخواطر الحزينة بأنّ الأطباء غالباً ما يخطئون. لم تظهر على زوجته عوارض اشتداد المرض. وفي نهاية المطاف، بات يراها تموت أمام عينيه ببطء دون أن يتألّم كثيراً هو نفسه، متلهّياً بانشغالاته. يترقّب كارثة، لكنّه يستمهلها إلى ما لا نهاية.

تردّد آديل أحياناً: «آه! حين ننتقل إلى الريف، سوف ترى كيف سأكون على ما يرام!.. يا إلهي! لم يعد أمامنا سوى ثماني سنوات. سوف

تنقضي بسرعة».

لا يخطر حتّى للسيّد روسو أنّ بوسعهما التقاعد على الفور، ولو بمدّخرات أقلّ. أولاً آديل نفسها لن تقبل. ثمّ حين يحدّد الواحد لنفسه رقماً، لا بدّ له من بلوغه.

غير أنّ السيّدة روسو اضطرّت إلى ملازمة السرير مرّتين. ثمّ نهضت ونزلت مجدّداً إلى المكتب. كان الجيران يقولون: «هذه امرأة واهنة لن تذهب بعيداً». ولم يكونوا على خطأ. فعندما حان موعد الجرْدة، اضطرّت إلى لزوم سريرها مرّة ثالثة. جاء الطبيب في الصباح، كلّمها ووقّع لها على وصفة بيد شاردة. يعرف السيّد روسو أنّ النهاية المحتومة تقترب، وقد حذّره الطبيب. لكنّ الجردة السنويّة تستبقيه في الأسفل، في المحلّ. بمشقّة يمكنه التفلّت خمس دقائق بين الحين والآخر. يصعد حين يكون الطبيب موجوداً، ثمّ يخرج معه ويظهر مجدّداً قبل الفطور بلحظة. يخلد إلى النوم في الحادية عشرة في جوف حجرة ضيّقة نصب فيها سريراً حديديّاً بائساً. الخادمة فرنسواز هي التي تعتني بالمريضة. فتاة رهيبة، هي فرنسواز تلك. ريفيّة من منطقة أوفيرنيه، ذات يدين ضخمتين قاسيتين، وأدب ونظافة هما موضع ارتياب! تُعامل المريضة بخشونة، تجلب لها عقاقيرها بوجه متجهّم، تثير جلبة لا تحتمل حين تكنّس الغرفة التي تبقي فيها فوضى عارمة: قوارير صغيرة متروكة فوق الدرج، طسوت وآنية غير مغسولة، خرَق متدلّية فوق ظهر المقاعد. لا يعرف الواحد أين يدوس في الغرفة من شدّة ما هناك أغراض مرميّة في أرضها. غير أنّ السيّدة روسو لا تشكّى، وتكتفي بالضرب بقبضتها على الجدار عندما تأبى الخادمة أن تستجيب لنداءاتها. عمل فرنسواز لا يقتصر على الاهتمام بها، بل عليها أن تبقي المحلّ في الأسفل نظيفاً، تطهو للسيّد والبائعين، إضافة إلى القيام

بمهامّ في الحيّ وغيرها من الأعمال التي تطرأ بشكل غير منتظر. لذلك لا يمكن للسيّدة أن تفرض عليها البقاء بجانبها. هي تحصل على العناية اللّازمة حين يتسنّى ذلك.

في مطلق الأحوال، فإنّ آديل تهتمّ بشؤون محلّها حتّى من فراشها. تتابع المبيعات، تسأل في كلّ مساء كيف تجري الأشغال. الجردة تثير قلقها. حين يتمكّن زوجها من التفرّغ للصعود لبضع دقائق إلى جانبها، لا تكلّمه على الإطلاق في صحّتها، بل تسأله فقط عن الأرباح المحتملة. تغتمّ كثيراً حين يقول لها إنّ السنة كانت رديئة، ألف وأربعمئة فرنك أقلّ من العام الماضي. وحين تلهبها الحمّى، لا تفتأ تذكر ورأسها على الوسادة طلبيّات الأسبوع الفائت، تسوّي حسابات، وتدير المنزل. وهي التي تطرد زوجها لينزل إلى المحلّ إنْ هو نسي الوقت وتأخّر في الغرفة. وجوده لا يشفيها، وإنّما يهدّد الأعمال. هي واثقة من أنّ البائعين يهدرون الوقت وهم يتأمّلون المارّة في الشارع، فتردّد له:

«انزل يا صديقي، لست بحاجة إلى شيء، صدّقني. ولا تنسَ أن تتزوّد بالدفاتر. السنة الدراسيّة الجديدة تقترب، وسوف تنفد الدفاتر لدينا».

تخدع نفسها لوقت طويل بشأن حقيقة حالتها الصحيّة. لا تزال تأمل أن تنهض في الصبح التالي وتعود إلى مكانها خلف المكتب. حتّى أنّها تخطّط لمشاريع في المستقبل. إن تمكّنت من الخروج قريباً من منزلها، فسوف يذهبون لقضاء يوم أحد في سان كلو. لم يسبق لها أن شعرت بمثل هذا التوق إلى رؤية أشجار. ثمّ ذات صباح، تبدو رزينةً فجأةً. أدركت وحيدة في اللّيل، وعيناها مشرّعتان، أنّها ستموت. لم تتفوّه بكلمة حتّى المساء، هي تفكّر محدّقة في السقف. وفي المساء، تستبقي زوجها، تتحدّث بهدوء، وكأنّها تقدّم له فاتورة.

«اسمع، تقول له، سوف تذهب في الغد وتجلب لي كاتب عدل. هناك واحد بالقرب منّا، في شارع سان لازار.

– لماذا تريدين كاتب عدل؟ صاح بها السيّد روسو، لسنا عند هذا الحدّ بالتأكيد!»

لكنّها تكمل بنبرتها الهادئة المنطقيّة.

«ممكن! لكنّني سوف أطمئنّ إن علمتُ أننا رتّبنا كلّ أمورنا... تزوّجنا تحت نظام المشاركة في المِلْكيّة، حين لم يكن أيّ منّا يملك فلساً. اليوم وقد جنينا بعض المال، لا أريد أن تأتي عائلتي وتنهبك. شقيقتي آغات ليست لطيفة إلى حدّ أنْ أترك لها شيئاً. أفضّل أن آخذ كلّ ما لديّ معي».

أصرّت بتعنّت، إلى أن ذهب زوجها في اليوم التالي لجلب كاتب العدل. استجوبت الأخير مطوّلاً، إصراراً منها على اتّخاذ كلّ تدابير الحيطة حتّى لا يكون بوسع أحدٍ الطعن. وبعد إنجاز الوصيّة ومغادرة كاتب العدل، تمدّدت وتمتمت:

«الآن، بوسعي أن أموت مسرورة... جنيت الكثير قبل أن أذهب إلى الريف، لا يمكنني القول إنّني لست نادمة على الريف. لكنّك ستذهب أنت... عليك أن تعدني بأن تتقاعد في المكان الذي كنّا اخترناه. أتذكر؟ تلك القرية التي ولدت فيها أمّك، قرب مولان... هذا سيفرحني».

بكى السيّد روسو بحزن شديد، فيما هي تواسيه وتعطيه نصائح وإرشادات. إن سئم من العيش وحده، كان محقّاً بأن يتّخذ زوجة ثانية. لكن يترتّب عليه اختيار امرأة ناضجة، لأنّ الفتيات اللّواتي يتزوّجن رجلاً أرمل، إنّما يتزوّجن ماله. أشارت له إلى سيّدة يعرفانها، ستكون مسرورة إن هو اقترن بها.

ثمّ في اللّيلة ذاتها، نازعت وسط آلام فظيعة. كانت تختنق، تطلب بعض الهواء. فرنسواز غفت على كرسيّ. واقفاً عند السرير، لا يسع السيّد روسو سوى أن يمسك بيد زوجته المنازعة ويشدّ عليها ليقول لها إنّه هنا، إنّه لن يتركها. في الصباح، شعرت فجأةً بهدوء عظيم. وجهها شاحب جداً، عيناها مغمضتان، ونفسها بطيء. ظنّ زوجها أنّ بوسعه أن ينزل إلى الأسفل مع فرنسواز ليفتح المحلّ. وحين صعد من جديد، وجد زوجته لا تزال شاحبة جدّاً، متيبّسة في مكانها، غير أنّ عينيها مفتوحتان. لقد توفّيت.

كان السيّد روسو يتوقّع منذ زمن طويل أن تفارقه. لم يكن يبكي، بل يشعر بنفسه بكلّ بساطة مسحوقاً تحت وطأة الإحباط والإرهاق. نزل من جديد، نظر إلى فرنسواز تعيد إغلاق ستائر المحلّ الخشبيّة. كتب على ورقة: «مغلق بداعي الوفاة»، ولصق الورقة بشمع ختْم الرسائل على الستارة في الوسط. في الأعلى، خصّص ما قبل الظهيرة بالكامل لتنظيف الغرفة وترتيبها. راحت فرنسواز تمسح الارض، وتزيل القوارير، وتضع قرب الجثمان شمعة مشتعلة وطاسة من الماء المقدّس. فهم ينتظرون قدوم شقيقة آديل، أغاث تلك ذات لسان الأفعى، ولا تريد الخادمة أن يتّهمها أيّ كان بإهمال المنزل. السيّد روسو أرسل أحد الباعة في المحلّ لإنجاز المعاملات الضروريّة. هو ذهب إلى الكنيسة وتفاوض مطوّلاً في أسعار مختلف المواكب الجنائزيّة. قد يكون محزوناً، لكنّ ذلك ليس مبرّراً حتّى ينهبوه. كان يحبّ زوجته كثيراً، ولو كان بوسعها أن تراه الآن، فهو واثق من أنّها ستُسَرّ لرؤيته يساوم الكهنة ومتعهّدي الجنائز. لكنّه مصرّ على أن تكون الجنازة لائقة، من أجل أعين الجيران في الحيّ. يوافق في نهاية المطاف، سوف يعطي الكنيسة مئة وستّين فرنكاً، وشركة تنظيم الدفن

ثلاثمئة فرنك. يقدّر أنّه بعد إضافة النفقات الجانبيّة، سوف يتكبّد ما لا يقلّ عن خمسمئة فرنك.

حين عاد السيّد روسو إلى المنزل، رأى ابنة حميه آغات جالسة قرب الميتة. آغات امرأة طويلة القامة جافّة، عيناها حمراوان وشفتاها زرقاوان ورقيقتان. كان الزوجان على خلاف معها منذ ثلاث سنوات ولم يعودا يلتقيان بها. تنهض باحتفاليّة وتقبّل صهرها. أمام الجثمان تنتهي كلّ الشجارات. عندها، ينهار السيّد روسو باكياً، وهو الذي لم يذرف دمعة في الصباح، أمام زوجته المسكينة البيضاء المتصلّبة، أنفها مزموم أكثر من ذي قبل ووجهها ضامر بحيث لم يكد يعرفها. عينا آغات بقيتا جافّتين. اختارت أفضل أريكة للجلوس فيها. راحت تجول نظرها ببطء في أرجاء الغرفة، وكأنّها تقوم بجردة دقيقة لما تحويه من أثاث. لم تفاتحه بَعد بمسألة الأملاك، لكن من الواضح أنّ الأمر كان يشغل بالها، وأنّها كانت تتساءل حتماً إن كان هناك وصيّة.

في صباح الجنازة، عند وضع الجثمان في النعش، تبيّن أنّ شركة تنظيم الدفن أخطأت وأرسلت نعشاً قصيراً جدًّا، فاضطرّ الحمّالون إلى الذهاب لإحضار نعش آخر. غير أنّ عربة الجنازة كانت تنتظر أمام الباب، والحيّ يضجّ ويغلي. زاد هذا معاناة إلى عذاب السيّد روسو. لو كان فقط استبقاء زوجته في المنزل يعيدها إلى الحياة! أخيراً، أُنزلت جثّة السيّدة روسو المسكينة ولم يُعرَض النعش سوى عشر دقائق في الأسفل، تحت الباب المكسوّ بالسواد. كان مئة شخص ينتظرون في الشارع. تجّار من الحيّ، سكّان المبنى، أصدقاء للزوجين، بضعة عمّال يرتدون معاطف. انطلق الموكب، وفي مقدّمه السيّد روسو.

لدى مرور المشيّعين، كانت الجارات يرسمن إشارة صليب سريعة

ويخفضن أصواتهنّ. «إنّها صاحبة محلّ القرطاسيّة، أليس كذلك؟ تلك المرأة الصفراء الوجه التي كانت أشبه ما تكون بهيكل عظميّ. حسناً، ستكون أفضل حالاً في التربة! ذلك هو مصيرنا التعسّ. تاجران ميسوران، يعملان للتمتّع بشيخوختهما! سوف تتمتّع الآن بالتأكيد، صاحبة محلّ القرطاسيّة!» وتلفي الجارات السيّد روسو رجلاً طيّباً، لأنّه يسير خلف عربة الدفن حاسر الرأس، وحيداً، شاحباً، وشعره الخفيف يتطاير في الريح.

في الكنيسة، استعجل الكهنة المراسيم فاختتموها في أربعين دقيقة. جالسة في الصفّ الأوّل، بدت آغات وكأنّها تعدّ الشموع المضاءة. لا شكّ أنّها تقول في سرّها إنّه كان بوسع صهرها الحدّ من كلّ هذه المظاهر. لأنّه في نهاية الأمر إن لم يكن هناك وصيّة، وإن كانت ترث نصف ثروة شقيقتها، فسيترتّب عليها دفع حصّتها من الجنازة. تلا الكهنة صلاة أخيرة، وانتقلت منضحة الماء المقدّس من يد إلى أخرى، وخرج الحاضرون من الكنيسة. غادر أغلب الحضور. تقدّمت عربات الجنازة الثلاث، وقد جلست فيها السيّدات. خلف عربة النعش لم يعد هناك سوى السيّد روسو حاسر الرأس، وثلاثين مشيّعاً، أصدقاء لا يجرؤون على التهرّب. النعش مغطّى فقط ببساط أسود تتدلّى منه شرّابات بيضاء. كان المارّة يكشفون رؤوسهم ويبتعدون مسرعين.

بما أنّ السيّد روسو لا يملك مدفناً عائليّاً، فهو استأجر بكلّ بساطة قطعة أرض صغيرة لخمس سنوات في مقبرة مونمارتر، وهو يعلّل نفسه بأنّه سيشتري لاحقاً أرضاً مدى الحياة، فينقل رفات زوجته ليدفنها نهائيّاً في مثواها الأخير.

توقّفت عربة دفن الموتى في نهاية ممرّ، فرفعوا النعش وحملوه بين مقابر

خفيضة إلى حفرة في الأرض الطريّة. كان المشيّعون يخبطون الأرض بأرجلهم دون أن يتفوّهوا بكلمة. ثمّ انسحب الكاهن بعدما غمغم عشرين كلمة بين أسنانه. من كلّ ميل تمتدّ بساتين صغيرة مسيّجة، مقابر يزيّنها المنثور وتظلّلها أشجار خُضر. البلاطات البيضاء وسط كلّ هذه الخضرة تبدو جديدة وزاهية. ذُهل السيّد روسو لرؤية نصب، عمود نحيف تعلوه جرّة رماد رمزيّة. في الصباح جاءه صانع رخام يضايقه بمخطّطات عرضها عليه. خطر له أنّه حين يشتري قطعة أرض مدى الحياة، فسوف يوصي على عمود مماثل تعلوه الجرّة الجميلة ذاتها ليُنصب فوق ضريح زوجته.

غير أنّ آغات جاءت تقتاده وتعود به إلى المحلّ حيث تقرّر أخيراً أن تناقش معه مسألة التركة. حين علمت بأنّ هناك وصيّة، وقفت منتصبة القامة وغادرت صافقةً الباب خلفها، ولم تعد يوماً إلى ذلك المحلّ الصغير. ما زال السيّد روسو يشعر بين الحين والآخر بحزن شديد يطبق على صدره. لكنّ ما يجعله يشعر بالبلادة أكثر من سواه، فيتيه عقله وترتعش أطرافه من القلق، كان إغلاق المحلّ في يوم عمل عاديّ.

4

كان شهر كانون الثاني قاسياً[1]. لا عمل، ولا خبز ولا نار في المنزل. وصل آل موريسو إلى أدنى مستويات البؤس. الزوجة غاسلة ملابس، والزوج عامل بناء. يسكنان في حيّ باتينيول، في شارع كاردينيه، داخل مبنى أسود يسمّم محيطه. غرفتهما في الطابق الخامس متداعية حتّى أنّ

(1) القصّة الرابعة من «كيف نموت» صدرت تحت عنوان «بؤس» في صحيفة ***Le Figaro*** في 31 كانون الثاني 1881.

المطر يرشح من الشقوق في السقف. لو لم يكن ابنها الصغير شارلو البالغ من العمر عشر سنوات، بحاجة إلى طعام مغذّ ليصبح رجلاً لما كانا تذمّرا[1].

الطفل واهن، ويمكن أن يمرض لأيّ سبب. حين كان يذهب إلى المدرسة، كان يجتهد محاولاً أن يتعلّم كلّ شيء دفعة واحدة، فيعود إلى المنزل مريضاً. ورغم ذلك، فهو فتى متّقد الذكاء، طفل لطيف للغاية، كلامه أنضج من عمره. حين لا يملك الوالدان خبزاً لإطعامه، يبكيان بكاء شديداً. لا سيّما وأنّ الأطفال يقضون كالذباب في المبنى بكامله، من أعلاه إلى أسفله، من شدّة ما هو ضارّ للصحّة.

يعملون في الشارع على تكسير الجليد. حتّى الوالد تمكّن من العثور على عمل. فهو يزيل الجليد من القنوات بالمعول، وفي المساء يجلب معه إلى المنزل أربعين فلساً. هذا ما يسمح لهم بألّا يموتوا من الجوع في انتظار انتعاش قطاع البناء مجدّداً.

لكن في أحد الأيام، يعود الرجل ليجد في المنزل شارلو ممدّداً في فراشه. لا تعرف الوالدة ما به. أرسلَته إلى كورسيل عند عمّتها، وهي بائعة ملابس مستعملة، ليرى إن كان يعثر عندها على سترة تدفّئه أكثر من قميصه القطنيّ الذي كان يرتعد فيه من البرد. العمّة لم يكن لديها سوى معاطف رجال قديمة فضفاضة أكثر من أن تناسبه، فعاد الطفل تهزّه ارتعاشات، يبدو ثملاً وكأنّه شرب. والآن هو ممدّد ووجهه قرمزيّ على الوسادة، يقول حماقات، يظنّ أنّه يلعب بالكريّات الزجاجيّة وينشد أغاني.

(1) وصف البؤس في هذه القصّة يشبه ذكره في رواية «الحانة» التي ألّفها زولا في الفترة نفسها. لكنّ الرسالة أوضح وأكثر قسوة في القصّة القصيرة التي تتّسم بأسلوب تعليميّ أكثر وتسعى ليكون وقعها قويّاً.

علّقت الوالدة خرقة شالٍ أمام النافذة لتسدّ مربّع زجاج مكسوراً. لم يعد هناك في الأعلى سوى قطعتي زجاج عاريتين يتسرّب منهما نور السماء الرماديّ الشاحب. البؤس أفرغ الدرج، كلّ بياضات المنزل باتت في مكتب الإقراض بالرهن. وفي مساء أحد الأيّام، باعوا طاولة وكرسيَّين. كان شارلو ينام على الأرض. لكن منذُ أصيب بالمرض، أعطوه السرير. وهو رغم ذلك غير مرتاح فيه على الإطلاق، لأنّهم حملوا صوف الفراش حفنة حفنة إلى بائعة سَقْط، في كلّ مرّة نصف رطل لقاء أربعة أو خمسة فلوس. والآن، ينام الوالد والوالدة في إحدى الزوايا، على حصيرة لن ترضى بها كلاب.

ينظر الوالدان إلى شارلو يتوثّب في السرير. ما به ذلك الطفل يهتاج ويهذي على هذا النحو؟ ربّما عضّته حشرة، أو جعله أحدهم يشرب شيئاً ما. دخلت جارة لهم، السيّدة بونيه، وبعدما اشتمّت الطفل، ادّعت أنّه يعاني من لفحة برد. هي تعرف في هذه الأمور، إذ فقدت زوجها في مرض مماثل.

الأمّ تبكي وهي تضمّ شارلو بين ذراعيها. يخرج الوالد كالمجنون ويهرع بحثاً عن طبيب. يعود مع طبيب طويل القامة، متجهّم الوجه، يلصق أذنه بظهر الطفل ويستمع، يطرق على صدره، دون أن يقول كلمة. ثمّ يطلبون من السيّدة بونيه أنْ تأتي بقلم وورقة من شقّتها حتّى يكتب وصفته. وحين يهمّ بالانسحاب من غير أن يتفوّه بكلمة، تسأله الأمّ بصوت تخنقه العبرات:

«ما به سيّدي؟

- ذات الرئة»، يجيب باقتضابٍ دون إعطاء أيّ توضيح.

ثمّ يسأل بدوره:

«هل أنتم مسجّلون في مكتب الأعمال الخيرية؟

- لا سيّدي... كانت أوضاعنا جيّدة الصيف الماضي. الشتاء هو الذي قضى علينا.

- لا بأس! لا بأس!»

يعِد بأن يعود. تقرضهم السيّدة بونيه عشرين فلساً للذهاب إلى الصيدليّ. ومع الأربعين فلساً التي جلبها موريسو، يشترون رطلين من لحم البقر، فحماً وشمعاً. اللّيلة الأولى تلك انقضت بخير. أبقوا النار مشتعلة. الطفل المريض توقّف عن الكلام، وكأنّه غفا من شدّة الدفء. يداه الصغيرتان ملتهبتان. يطمئنّ الوالدان إذ يريانه مصروعاً تحت وطأة الحمّى. وفي اليوم التالي، يصابان بالذهول ويستولي عليهما الهلع مجدّداً حين يهزّ الطبيب رأسه أمام السرير، وعلى وجهه تكشيرة مَن فقد الأمل.

لم يطرأ أيّ تغيير لخمسة أيّام. بقي شارلو نائماً، مصروعاً على الوسادة. في الغرفة يعصف البؤس ويشتدّ، وكأنّه يتسرّب مع الريح، من ثقوب السقف وشقوق النافذة. في اللّيلة الثانية، باعا آخر قميص متبقٍّ للوالدة. وفي اللّيلة الثالثة، توجّب سحب حفنات إضافيّة من الصوف من تحت الطفل المريض لدفع نفقات الصيدليّ. ثمّ فرغ كلّ ما في المنزل، ولم يعد هناك شيء.

واصل موريسو كسر الجليد، لكنّ الأربعين فلساً لم تعد كافية. يتمنّى لو يذوب هذا الجليد الذي يتسبّب ببرد قارس يهدّد بقتل شارلو، وفي الوقت نفسه يخشى ذوبانه. حين يذهب إلى العمل، يشعر بالسرور لرؤية الشوارع بيضاء، ثمّ يفكّر في الطفل ينازع في الأعلى، ويرجو من كلّ قلبه طلوع شعاع شمس، دفء ربيعيّ يزيل الثلج. لو كانوا فقط مسجّلين في مكتب الأعمال الخيريّة، لكانوا حصلوا على الطبيب والأدوية مجّاناً.

ذهبت الأمّ إلى البلديّة تطلب المساعدة، لكنّهم أجابوها أنّ لديهم طلبات لا تعدّ ولا تحصى، وأنّ عليها الانتظار. لكنّها حصلت على بضعة قسائم خبز. وفي مرّة أخرى، أعطتها سيّدة عطوف خمسة فرنكات. ثمّ عادوا ألى بؤسهم.

في اليوم الخامس، جاء موريسو بآخر أربعين فلساً. الجليد ذاب أخيراً، وصرفوه. عندها كانت النهاية. الموقد بقي بارداً، الخبز نفد من المنزل، ولم يعد أحد ينزل بوصفة الطبيب إلى الصيدليّة. في الغرفة المبلّلة من شدّة الرطوبة، يرتعد الوالدان برداً، أمام الطفل الذي يبعث حشرجات. السيّدة بونيه لم تعد تأتي لزيارتهم، لأنّها حسّاسة وتتألّم كثيراً لحالهم. سكّان المبنى يعبرون أمام بابهم مسرعين. أحياناً ترتمي الوالدة منهارة بالبكاء على السرير، تقبّل الطفل كأنّها للتخفيف من معاناته وشفائه. الوالد يبقى ساعات كالمخبول أمام النافذة، يرفع الشال البالي ويتأمّل الجليد يذوب ويسيل، والمياه تتساقط من السطوح قطرات ضخمة، وتزيد من سواد الشارع. ربّما كان هذا مفيداً لشارلو.

وفي صباح أحد الأيّام، أعلن الطبيب أنّه لن يعود. الطفل لن ينجو.

«هذا الطقس الرطب هو الذي أجهز عليه»، قال.

يرفع موريسو قبضته إلى السماء. كيفما اختلف الطقس، فهو إذاً يقتل الشعب الفقير! الجليد يكسو المدينة، وهذا مضرّ جدّاً. ثمّ يذوب الجليد، ويزداد الأمر سوءاً. لو تقبل زوجته، لكانوا أشعلوا صاعاً من الفحم ورحلوا ثلاثتهم معاً. هكذا ينتهي الأمر بسرعة.

عادت الوالدة إلى البلديّة. وعدوها بأن يرسلوا لهم إسعافات، وهم الآن ينتظرون. كم هو فظيع ذلك اليوم! من السقف يهبط برد حالك. وفي إحدى الزوايا، يتسرّب المطر. عليهم أن يضعوا دلواً لتلقّف القطرات.

لم يأكلوا شيئاً منذ الأمس. جالساً أمام الطاولة، ممسكاً رأسه بين يديه، يبقى الوالد شاخصاً كالمخبول، وأذناه تطنّان. كلّما سُمع وقع أقدام هرعت الوالدة إلى الباب، ظنّاً منها أنّ الإغاثة المنتظرة وصلت أخيراً. دقّت الساعة السادسة، ولم يأتِ أحد. الغسق موحل، بطيء وكئيب مثل احتضار.

فجأةً، في اللّيل الذي يشتدّ سواداً، يتمتم شارلو كلمات متقطّعة: «أمّي... أمّي...»

تقترب الوالدة، يلفحها نفس قويّ في وجهها، ولا تعود تسمع شيئاً. تميّز طفلها بشكل مبهم، رأسه مقلوب إلى الخلف، عنقه متشنّج. تصرخ مذعورة مترجّية: «نور! نور بسرعة!... شارلو حبيبي، كلّمني!»

لم يبق شموع في المنزل. تحكّ عيدان ثقاب على عجل، تكسرها بين أصابعها. ثمّ تتلمّس وجه الطفل بيدين ترتجفان.

«آه! يا إلهي! مات!... موريسو، إنّه ميت!»

يرفع الوالد رأسه. الظلمة تعميه.

«حسناً! ماذا عساني أفعل؟ لقد مات... هذا أفضل».

عند سماع نشيج الوالدة، ظهرت السيّدة بونيه حاملة مصباحاً. وفيما المرأتان تعملان على غسل شارلو وإعداد جثمانه، يدقّ أحدهم على الباب: إنّها فرقة الإغاثة تصل مع عشر فرنكات، قسائم خبز ولحم. يضحك موريسو كالأبله، وهو يقول إنّهم دائماً يفوّتون القطار في مكتب الأعمال الخيريّة.

إنّها حقّاً جثّة طفل مسكينة، هزيلة وخفيفة مثل ريشة! لو مدّدوا على الفراش عصفوراً دوريّاً مات في الثلج ولمّوه في الطريق، لما احتلّ كومة أصغر.

لكنّ السيّدة بونيه التي استعادت ودّها وعطفها، شرحت للزوجين موريسو أنّهما لن يعيدا شارلو إلى الحياة إن هُما انقطعا عن تناول الطعام بجانبه. عرضت عليهما أن تذهب لتأتيهما بخبز ولحوم، مضيفة أنّها ستجلب أيضاً شمعاً. يدعانها تفعل. وحين تعود، تعدّ الطاولة، وتقدّم لهما نقانق ساخنة. كان الزوجان يتضوّران جوعاً. فراحا يلتهمان الطعام بنهم قرب الطفل الميت الذي يطفو وجهه الأبيض الصغير في الظلمة. الموقد يقرقر، الجوّ طيّب. بين الحين والآخر، تدمع عينا الوالدة، تتساقط دموع غزيرة على خبزتها. كم كان شارلو سيحسّ بالدفء! كان سيأكل النقانق بشهيّة!

تصرّ السيّدة بونيه على السهر رغم كلّ الاعتراضات. ومع اقتراب الساعة الواحدة بعد منتصف اللّيل، بعدما يغفو موريسو، واضعاً رأسه على الفراش عند أسفل السرير، تعدّ المرأتان إبريقاً من القهوة. تدعوان جارة أخرى، خيّاطة في الثامنة عشرة. تجلب معها ما تبقّى في قعر زجاجة من المشروب، حرصاً منها على تقديم مساهمة. تجلس النساء الثلاث يرتشفن قهوتهنّ ويتحدّثن بأصوات منخفضة، يروين لبعضهنّ البعض قصصَ ميتات خارقة. شيئاً فشيئاً، ترتفع أصواتهنّ، يتّسع نطاق ثرثراتهنّ، يتحدّثن عن المنزل، عن الحيّ، عن جريمة وقعت في شارع نوليه. بين الحين والآخر، تنهض الأمّ، تقترب من شارلو لتتفقّده، كأنّها للتثبّت من أنّه لم يتحرّك من مكانه.

بما أنّ الوفاة لم تُسَجّل في المساء نفسه، يترتّب عليهما الاحتفاظ بالولد في اليوم التالي طوال النهار. لديهما غرفة واحدة لا غير. يعيشان مع شارلو، يأكلان وينامان معه. أحياناً ينسيانه، ثمّ حين يتنبّهان مجدّداً لوجوده، فكأنّهما يخسرانه من جديد.

أخيراً، في اليوم الثاني، يُحضرون لهم النعش، صندوق بحجم علبة ألعاب، وليس أكثر. أربعة ألواح غير سويّة، قدّمتها الإدارة مجّاناً بناءً على شهادة العوز. وها هم ينطلقون! يهرعون مسرعين إلى الكنيسة. خلف شارلو، هناك الوالد مع رفيقين التقاهما في الطريق، ثمّ الوالدة، والسيّدة بونيه والجارة الأخرى، الخيّاطة. تتخبّط المجموعة في الوحل والقذارة حتّى الركبتين. لا تمطر، لكنّ الضباب رطب حتّى أنّه يبلّل الملابس. في الكنيسة، تجري المراسم على عجل، ثمّ يستأنفون عدْوهم على حجارة الطريق الدبقة.

المقبرة في موقع ناءٍ، خارج تحصينات المدينة. ينحدرون على جادّة سانت وان، يتخطّون الحاجز، ويصلون أخيراً. إنّه حقل مسيّج، أرض خلاء تحيط بها جدران بيضاء خفيضة وتكسوها أعشاب. التربة المنكوشة محدودبة. وفي قعر المقبرة تصطفّ أشجار هزيلة تلوّث السماء بأغصانها الداكنة.

يتقدّم الموكب ببطء على الأرض الطريّة. إنّها تمطر الآن، وعليهم أن ينتظروا تحت الزخّة قدوم كاهن عجوز، يقرّر بعد طولِ انتظارٍ أن يخرج من كنيسة صغيرة. شارلو سيرقد في قعر المقبرة الجماعيّة. الحقل مزروع بصلبان قلبتها الريح، أكاليل أزهار متعفّنة تحت المطر. حقل من البؤس والحداد، مطبوع بالفاجعة، داسته أرجل كثيرة، يزدحم بالجثامين المتكدّسة ألقاها هنا الجوع والبرد المتفشّيان في الضواحي.

انتهى الأمر. التربة تسيل، شارلو بات في قعر الحفرة، ووالداه يبتعدان دون أن يتمكّنا من الركوع في الوحل المائع الذي كانا يغرقان فيه. في الخارج، ما زال المطر يتساقط. يدعو موريسو الرفيقين والجارتين لتناول كأس عند بائع خمر، بالفرنكات الثلاثة المتبقّية من أصل العشرة التي

أعطاه إيّاها مكتب الأعمال الخيريّة. يجلسون، يشربون ليترين، يأكلون قطعة من جبنة بْري. ثمّ يقدّم الرفيقان بدورهما ليترين آخرين. وحين تعود المجموعة إلى باريس، تبدو في غاية المرح.

5

جان لوي لاكور في السبعين من العمر[1]. ولد وشاخ في كورتاي، بلدة من مئة وخمسين نسمة تائهة في بلاد الذئاب. لم يخرج من قريته طوال حياته سوى مرّة للذهاب إلى آنجيه على مسافة ستّين كيلومتراً. لكنّ ذلك كان في شبابه منذ زمن بعيد إلى حدّ لم يعد معه ليذْكر. كان له ثلاثة أولاد، هم ابنان، أنطوان وجوزيف، وابنة اسمها كاترين. كاترين تزوّجت، ثمّ توفّي زوجها وعادت لتقيم مع والدها، مع فتىً في الثانية عشرة اسمه جاكينيه. تعتاش العائلة من رزق صغير، قطعة أرض تكاد لا تكفي لتأمين القوت والكساء. ليسوا على الإطلاق من أتعس الناس في تلك الناحية، لكن عليهم أن يعملوا بمشقّة. يكسبون حساءهم بشدّة معاولهم. وإن شربوا كأس خمر، فهم حصلوا عليه بعرق جبينهم.

تقع كورتاي في قعر واد، وسط غابات تحيط بها من كلّ صوب، تطبق عليها وتخفيها. ليس هناك كنيسة لأنّ البلدة أفقر من أن تشيّد واحدة. يأتي كاهن كورمييه لإحياء القدّاس فيها، وبما أنّه يترتّب عليه قطع ثمانية

(1) هذا النصّ الأخير من هذه السلسلة القصصيّة نُشر عدّة مرّات. في صحيفة *Le Figaro* في 20 حزيران 1881 تحت عنوان «موت الفلّاح»، وفي مجموعة قصصيّة مشتركة صدرت عام 1885 بعنوان «الديكاميرون الجديد» *Le Nouveau Décaméron*، ثمّ بطلب من كاتول منديس تحت عنوات معدّل بشكل طفيف هو «موت فلاح» *La Mort d'un paysan* في «الحوليّات السياسيّة والأدبيّة» *Annales politiques et littéraires* بتاريخ 25 تشرين الأوّل 1885، وأخيراً بعد عشر سنوات في كانون الأوّل 1895 في *La Revue illustrée* بصيغة معدّلة بشكل طفيف اخترناها لهذه المجموعة.

كيلومترات، فهو لا يأتي سوّى مرّة في الأسبوعين. في البلدة عشرون منزلاً مخلّعاً، مبعثرة كأنّها مرميّة على طول الطريق. ثمّة دجاجات تنبش الزّبل أمام الأبواب. حين يعبر غريب على الطريق، يكون ذلك حدثاً استثنائياً، فتمدّ النساء رؤوسهنّ ويتفرّق الأطفال الممدّدون في الشمس وهم يطلقون صيحاتِ حيواناتٍ بريّة مذعورة.

لم يعرف جان لوي المرض يوماً. إنّه رجل طويل القامة، جسده نحيل وصلب مثل شجرة بلّوط. الشمس لوّحت بشرته وشقّقتها، أعطتها لون الأشجار وقسوتها وسكونها. فقد لسانه مع تقدّمه في السنّ، فلم يعد يتكلّم إذ ألفى الكلام غيرَ مُجدٍ. عيناه تبقيان مسمّرتين في الأرض، وجسده انحنى في وقفة العمل في الحقول.

في العام الماضي، كان لا يزال أكثر نشاطاً وحيويّة من ابنيه. يحتفظ لنفسه بالأعمال الشاقّة، صامتاً في حقله الذي كان يبدو وكأنّه يعرفه، ومرتجفاً. لكن في أحد الأيّام، قبل شهرين، سقط أرضاً وبقي ساعتين ممدّداً في عرض ثلم، مثل جذع شجرة مقطوعة. في اليوم التالي، عاد إلى العمل، لكن كأنّما فقد السيطرة فجأةً على ذراعيه. لم تعد الأرض تمتثل له. راح ولداه يهزّان رأسيهما، وأرادت ابنته استبقاءه في المنزل، لكنّه أصرّ بعناد، فأرسلوا جاكينيه برفقته، حتّى ينادي الولد إذا ما سقط جدّه أرضاً.

«ماذا تفعل هنا أيّها الكسول؟ نهرَ جان لوي الولد الذي لم يكن يفارقه. حين كنت في سنّك، كنت أكسب خبزي.

- إنّني أحرسك، جدّي»، أجاب الولد.

عند سماع هذه الكلمات، انتفض الرجل العجوز. لم يقل شيئاً. وعند عودته في المساء، تمدّد ولم ينهض بعدها. في اليوم التالي، حين ذهب ابناه وابنته إلى الحقل، دخلوا ليتفقّدوا والدهم الذي لم يسمعوه يقوم بحركة،

فوجدوه ممدّداً في السرير، عيناه مشرّعتان، مطرقاً وكأنّه يفكّر. جلده قاسٍ وملوّح بنور الشمس، حتّى أنّ لون المرض لم يكن يظهر عليه.

«ما بك أبي؟ ألستَ على ما يرام؟»

همهم وأشار برأسه نافياً.

«ألن تأتي؟ هل نذهب بدونك؟»

أشار لهم برأسه أن يذهبوا بدونه. فموسم الحصاد بدأ، هم بحاجة إلى جميع الأذرع. إن أهدروا صبيحة، قد تحلّ عاصفة وتذهب بالحُزَم. حتّى جاكينيه تبع والدته وخالَيه. بقي الأب لاكور وحيداً. حين عاد الأولاد في المساء، وجدوه في المكان نفسه، ممدّداً على ظهره، عيناه مشرّعتان، مطرقاً وكأنّه يفكّر.

«إذاً أبي، لا تشعر بتحسّن؟»

لا، ليس هناك تحسّن. يهمهم، يهزّ رأسه. ماذا عساهم يفعلون من أجله؟ خطر لكاترين أن تغلي نبيذاً مع أعشاب. لكنّ المشروب قويّ جدّاً وكاد يقضي عليه. اقترح جوزيف أن ينتظروا ليروا في الغد، وذهب الجميع إلى النوم.

في اليوم التالي، بقي الابنان والبنت لحظة واقفين أمام السرير قبل الذهاب إلى الحصاد. من المؤكّد أنّ العجوز مريض. فهو لم يبق يوماً على هذه الحال، ممدّداً على ظهره. ربّما يجدر بهم إحضار طبيب. لكنّ المشكلة أنّه يترتّب من أجل ذلك الذهاب إلى روجمون. خمسة وعشرون كيلومتراً ذهاباً، وخمسة وعشرون إياباً، ما يعني خمسين كيلومتراً بالإجمال. سوف يخسرون يوماً بكامله. العجوز الذي كان يستمع إلى أولاده، بدأ يتململ ويظهر إشارات استياء. ليس بحاجة إلى طبيب. فالأطبّاء يتقاضون مبلغاً باهظاً.

«ألا تريد؟ سأل أنطوان. إذاً يمكننا الذهاب للعمل؟»

بالتأكيد يمكنهم الذهاب للعمل. ماذا سيفعلون له إن بقُوا هناك؟ الأرض بحاجة إلى من يعتني بها أكثر منه. حين يموت، ستكون المسألة بينه وبين ربّه. في حين أنّه لو ضاع موسم الحصاد، فسوف يعاني الجميع من ذلك. انقضت ثلاثة أيّام، ذهب خلالها الأولاد الثلاثة كلّ يوم إلى الحقل، فيما بقي جان لوي وحيداً، بلا حراك، يشرب ماء من إبريق حين يعطش. إنّه أشبه ما يكون بتلك الأحصنة الهرمة التي تهوي في زاوية من جرّاء الإعياء فيتركونها تنفق. عملَ طوال ستّين عاماً، وبوسعه الآن أن يرحل. فهو لم يعد ذا فائدة. كلّ ما يفعله أنّه يشغل مساحة ويزعج الأولاد. هل يتردّدون في قطع الأشجار التي تجفّ وتتشقّق؟ أولاده أنفسهم لا يشعرون بألم كبير من أجله. الأرض علّمتهم أن يصبروا على مثل هذه المسائل. إنّهم أقرب إلى الأرض من أن ينقموا عليها لاسترجاعها الرجل العجوز[1]. يلقون نظرة عليه في الصباح، ونظرة في المساء. لا يسعهم القيام بالمزيد. إن مات، فذلك سيعني أنّ الموت كان يسكن جسده. والكلّ يعلم أنّه حين يسكن الموت جسداً، فلا سبيل لطرده منه، لا إشارة الصّليب ولا الأدوية. لو مرضت بقرة على سبيل المثال، فلا بدّ من مداواتها، لأنّها إذا ما أُنقِذت، فذلك سيعني كسب ما لا يقلّ عن أربعمئة فرنك.

في المساء، يسأل جان لوي أولاده بعينيه عن الحصاد. وحين يسمعهم يعدّون الحزَم، ويتحدّثون عن الطقس الجميل المؤاتي لأعمال الأرض، ترفّ جفونه. طرحوا مرّة أخرى احتمال الذهاب بحثاً عن الطبيب، لكنّ المسافة بعيدة حقّاً. جاكينيه لن يصل إلى وجهته، والابنان لا يمكنهما

(1) في رواية «الأرض» *La Terre* (1887) يطوّر زولا فكرة تفوّق الطبيعة على الإنسان الذي لا يساوي الكثير أمام مشيئتها.

ترك أعمالهما والذهاب. كلّ ما يطلبه العجوز هو أن يحضروا له حارس الأحراج، وهو رفيق قديم له. العجوز نيكولا يكبره سنّاً، بلغ الخامسة والسبعين في عيد تطهير مريم العذراء. هو لا يزال منتصباً مثل شجرة حور. يأتي ويجلس بجانب جان لوي، هازّاً رأسه. ينظر إليه جان لوي بعينيه الصغيرتين الشاحبتين، لم يعد بوسعه الكلام منذ الصباح. العجوز نيكولا أيضاً مقلّ في كلامه. ينظر إلى جان لوي هو أيضاً ولا يجد ما يقوله له. يبقى الاثنان جالسين على هذه الحال وجهاً لوجه طوال ساعة دون أن يتفوّه أيّهما بكلمة، سعيدين بلقائهما. لا شكّ أنّهما يستحضران ذكريات بعيدة جدّاً من الماضي. في ذلك المساء، وجد الأولاد عند عودتهم من الحصاد الأب لاكور ميتاً، ممدّداً على ظهره، متيبّساً وعيناه محملقتان.

أجل، مات العجوز بلا حراك. لفظ نفسه الأخير باعثاً لهاثه مباشرةً أمامه، مجرّد نفَس تائه في الحقول الشاسعة. مثل تلك الحيوانات التي تختبئ وتسلّم أمرها. لم يزعج الجيران، سوّى أمره وحيداً، حاملاً معه ربّما أسفاً لإرباك أولاده بجثّته.

«الوالد توفّي»، قال الابن البكر أنطوان، منادياً شقيقه وشقيقته. وردّد الجميع من بعده، جوزيف وكاترين وحتّى جاكينيه:

«الوالد مات!».

لا عجب في ذلك. جاكينيه يمدّ رأسه بفضول، المرأة تسحب منديلها، الابنان يذرعان الغرفة دون أن ينبسا ببنت شفة، وجهاهما متجهّمان وشاحبان تحت سمرة الشمس. صمد رغم كلّ شيء في وجه السنين، الوالد العجوز! كان لا يزال صلباً! يجد الأولاد عزاء في هذا الخاطر، يفتخرون بهذه الصلابة العائليّة. في اللّيل، يسهرون على الوالد حتّى الساعة العاشرة، ثمّ ينام الجميع. ويبقى جان لوي وحيداً من جديد،

بعينيه المشرّعتين. عند طلوع الفجر، يذهب جوزيف إلى بلدة كورمييه لإبلاغ الوفاة إلى الكاهن. وبما أنّه ما زال يترتّب جمع الحزَم وتخزينها، يذهب أنطوان وكاترين رغم كلّ شيء إلى الحقول في الصباح، تاركين الجثّة في عهدة جاكينيه.

يجد الطفل الوقت مملّاً في صحبة جدّه الذي لم يعد حتّى يتحرّك، فيخرج بين الحين والآخر إلى شارع القرية لرشق عصافير الدوريّ بالحجارة ومراقبة بائع جوّال يعرض شالات وأقمشة على جارتين. ثمّ يتذكّر العجوز، فيعود مسرعاً للتثبّت من أنّ الجثة لا تزال في مكانها بلا حراك. ثمّ لا يلبث أن ينسلّ من جديد إلى الخارج ليتابع مشهد كلبين يتعاركان. وبما أنّه يترك الباب مفتوحاً، تدخل الدجاجات، تتنزّه بطمأنينة حول السرير، تنقر الأرض الترابيّة بضربات عنيفة من منقارها. ينتصب ديك أحمر على قائمتيه، يمدّ عنقه، يحملق بعينين متّقدتين، قلقاً لرؤية هذه الجثة التي كان يعجز عن تفسير وجودها هناك. إنّه ديك حذر وحاذق، يعلم جيّداً أنّه ليس من عادة العجوز أن يبقى ممدّداً بعد طلوع الشمس. وفي نهاية الأمر، يصدح بصيحته مثل زفير بوق. ربّما أدرك ما جرى، وهو يبكي العجوز على طريقته، فيما الدجاجات تخرج الواحدة تلو الاخرى وهي تقوقئ وتنقر الأرض.

بلّغ كاهن كورمييه بأنّه لن يأتي قبل حوالى الساعة الرابعة. تُسمع منذ الصباح جلبة صانع العجلات ينشر الخشب ويدقّ المسامير. الذين لم يردهم الخبر بعد يقولون: «أتسمعون؟ لا بدّ أنّ جان لوي توفّي»، لأنّ أهل كورتاي يعرفون جيّداً هذه الأصوات. أنطوان وكاترين عادا إلى المنزل، الحصاد انتهى. لا يسعهما القول إنّهما غير راضيين على الموسم، لأنّهما لم يشهدا منذ سنوات حبوباً بهذه الجودة. تنتظر العائلة برمّتها

الكاهن، وفي هذه الأثناء ينهمك الجميع حتّى لا يشعروا بالوقت طويلاً. كاترين تضع الحساء على النار، جوزيف يجلب الماء من البئر. يرسلون جاكينيه ليرى إن كانت الحفرة أُنجزت في المقبرة. وأخيراً، يصل الكاهن في الساعة الخامسة. جاء في عربة مع طفل يقوم مقام كاتب لديه. ينزل أمام باب عائلة لاكور، يُخرج رداءه الكهنوتيّ ووشاحه الطويل، وكانا ملفوفين في ورقة، يرتديهما وهو يقول: «أسرعوا! عليّ أن أعود بحلول الساعة السابعة».

لكنّ ذلك لا يحثّ أحداً على الإسراع. عليهم أوّلاً أن يذهبوا في طلب الجارين الطيّبين اللّذين سيرفعان المحمل. المحمل ذاته والغطاء الأسود ذاته يُستخدمان منذ خمسين عاماً، وقد أكلهما الدود وباتا باليين وباهتين. يضع أولاد العجوز الجثّة في التابوت الذي جاء به صانع الدواليب. يبدو أشبه ما يكون بوعاء لدعك العجين، من شدّة سماكة ألواحه الخشبيّة. وقبل أن ينطلقوا بقليل، يصل جاكينيه مهرولاً وهو يصيح أنّ الحفرة لم تنته تماماً، لكن بوسعهم الذهاب رغم ذلك.

عندها تقدّم الكاهن الجميع، وهو يتلو بصوتٍ عالٍ صلوات باللّاتينيّة يقرأها في كرّاس، يتبعه الكاتب الصغير يحمل بيده إناء نحاسيّاً قديماً للماء المقدّس فيه منضحة. وفقط بعدما وصلوا إلى منتصف القرية خرج طفل آخر من مخزن الحبوب الذي يقيمون فيه القدّاس كلّ أسبوعين، ومشى في رأس الموكب حاملاً صليباً كبيراً مثبّتاً على رأس عصا. ثمّ يأتي المحمل الذي يرفعه فلّاحان، وبعدهما العائلة. انضمّ جميع أهل القرية شيئاً فشيئاً إلى الموكب الذي تختتمه شلّة أطفال حاسري الرؤوس عراة الأقدام في ملابس مترهّلة.

المقبرة في الطرف الآخر من كورتاي. لذلك يُنزل الفلّاحان المحمل

مرّتين أثناء الطريق، يستريحان لحظة، يبصقان في أيديهما ويفركانها، فيتوقّف الموكب معهما. ثمّ ينطلق الجميع مجدّداً، تواكبهم قرقعة القباقب الخشبيّة على الأرض الصلبة. حين يصلون إلى المقبرة، يجدون الحفرة لم تكتمل بعد. الحفّار ما زال في قعرها، يواصل الحفر. يرونه يغوص ثمّ يظهر من جديد، في حركة منتظمة، قاذفاً حفنات من التراب بمجرفته.

إنّها مقبرة هادئة ساكنة، غافية في أشعّة الشمس الساطعة! تسيّجها شجيرات تعشّش بين أغصانها عصافير الدوري، ونبتت فيها أشواك. يأتي الأطفال إلى هنا في أيلول ليأكلوا التوت. إنّها أشبه ما تكون ببستان في وسط السهل، ينمو فيه النبات كما يحلو له. في القعر تنتصب أشجار كشمش ضخمة، وفي إحدى الزوايا شجرة إجاص عالية مثل سنديانة. في الوسط يمتدّ مسلك محاط بأشجار زيزفون يحلو التنزّه في طراوة ظلّها، يقصده القرويّون الهرمون في الصيف لتدخين غلايينهم بسلام. الأرض المقفرة غير المزروعة تكسوها أعشاب بريّة عالية، ونبتات شوكيّة رائعة، وأحواض مزهرة تحوم فوقها أسراب من الفراشات البيضاء. الشمس تُحرق، الجنادب تطقطق، والذباب الذهبيّ يهدر في ارتعاشات الحَرّ. والصمت ينضح حياةً، يمكن سماع آخر فرحات الموتى، عصارة هذه الأرض الخصبة تروي أزهار الخشخاش فتسيل فيها دماءً حمراء.

وضعوا النعش قرب الحفرة، فيما الحفّار يواصل رمي حفنات التراب خارجها بمجرفته. اقترب الفتى الذي يحمل الصليب وغرسه في الأرض أسفلَ النعش. واقفاً في مقدّم الجنازة، واصل الكاهن تلاوة صلوات باللّاتينية في كرّاسه. المشيّعون يبدون اهتماماً خاصّاً بعمل الحفّار، يحيطون بالحفرة ويتابعون بعيونهم حركة المجرفة. وحين يلتفتون من جديد، يكون الكاهن غادر مع الطفلين، ولم يبقَ سوى العائلة تنتظر.

أخيراً انتهى الحفّار من عمله.

«العمق بات كافياً، هيّا!» يصيح واحد من الفلّاحين اللّذين حملا النعش. آه! سيكون الجدّ لاكور هانئاً في هذه الحفرة! هو يعرف الأرض والأرض تعرفه. سوف يكونان في توافق ووئام معاً. أعطته هذا الموعد قبل خمسين عاماً، يوم غرز فيها معوله لأوّل مرّة. كان لا بدّ لحبّهما أن يصل إلى مثل هذه الخاتمة. لا بدّ للأرض أن تأخذه وتحتفظ به. ويا لَطيب السكينة! لن يسمع سوى وقع قوائم العصافير الخفيفة تقفز في العشب. لن يدوس أحدٌ فوقه، سيبقى هنا سنوات في زاويته، دون أن يزعجه أحد، لأنّه لا يموت شخصان حتّى في السنة في كورتاي، وبوسع الشباب أن يشيخوا ويموتوا بدورهم دون أن يزعجوا القدامى. إنّه الموت الهانئ المشمس، سبات بلا نهاية في كنف الحقول الهانئة.

اقترب الأولاد. يتناول كلّ من كاترين وأنطوان وجوزيف حفنة تراب ويرميها فوق العجوز. جاكينيه الذي قطف أزهار خشخاش يرميها مع التراب. ثمّ ترجع العائلة الى المنزل، الدوابّ تعود من الحقول، الشمس تغيب، وتغفو القرية بين أحضان ليلةٍ حارّة.

الفيضان[1]

1

اسمي لويس روبيو وعمري سبعون عاماً. ولدت في قرية سان جوري، على مسافة بضعة كيلومترات من تولوز، عند عالية نهر الغارون[2]. عاركت الأرض على مدى أربعة عشر عاماً لأكسب خبزي، إلى أن عرفت أخيراً البحبوحة. وفي الشهر الماضي، كنت لا أزال أغنى فلّاح في المنطقة.

كأنّ بَرَكة كانت تسكن بيتنا. السعادة تنمو وتتفتّح فيه، والشمس كانت شقيقتنا. لا أذكر موسماً إلّا وكان وفيراً. كناً عشرة في المزرعة، مغمورين بهذا العيش الهانئ. كنّا هناك أنا، وكنت ما زلت في عزّ قوّتي وعافيتي، أقود الأولاد في العمل، ثمّ شقيقي الأصغر بيار، رقيب سابق في الجيش، أعزب، ثمّ شقيقتي آغات التي عادت لتعيش معنا بعد وفاة

---

(1) تختتم «الفيضان» مجموعة «النّقيب بورل» *Le Capitaine Burle* . كتب زولا هذه القصّة في تمّوز 1875 ونشرت للمرّة الأولى في الشهر التالي في *Le Messager de l'Europe*. كتب زولا في رسالة إلى مدير تحرير هذه المجلّة الروسيّة في 13 تمّوز 1875: «اخترت موضوع الفيضانات التي اجتاحت مقاطعاتنا الجنوبيّة. ستكون أشبه بقصّة أجمع فيها أبرز المحطات المؤثّرة والأشدّ وقعاً في النفوس». ففي مطلع حزيران 1875 خرج نهر الغارون فجأةً من مجراه واجتاح عدداً كبيراً من القرى. لكنّ زولا لم يكن يعرف المنطقة بشكل جيّد، وما يهمّه في هذا الفيضان كما يقول هو نفسه، لم يكن سرد الوقائع، بل نقل المعاناة البشريّة. نُشرت قصّة «الفيضان» من جديد في *Le Voltaire* بين 26 و31 آب 1880.

(2) سان جوري Saint-Jory هي في الحقيقة بلدة من أعالي الغارون تقع على مسافة 17 كلم شمال غرب تولوز، عند سافلة المدينة.

زوجها. هي امرأة قويّة تدير المنزل بيد من حديد، طويلة القامة مرحة الطباع تتردّد أصداء ضحكتها في القاطع الآخر من القرية. ثمّ يأتي الأولاد: ابني جاك، وزوجته روز وبناتها الثلاث أيميه، وفيرونيك، وماري. الأولى متزوّجة من سيبريان بوئِسون، فتى قويّ البنية طويل القامة أنجبت له طفلين، الأول عمره سنتان والثاني عشرة أشهر. والثانية خُطبت مؤخّراً وكانت ستتزوّج قريباً مع غاسبار رابوتو. والثالثة أخيراً، فتاة راقية رهيفة حقّاً، بيضاء البشرة، شقراء الشعر، لكأنّها ولدت في المدينة. كنّا عشرة جميعنا بالإجمال. كان لي أحفاد وأبناء أحفاد. نجلس إلى المائدة، فأجدني محاطاً بشقيقتي آغات إلى اليمين وشقيقي بيار إلى اليسار، وبعدهما الأولاد يقفلون الدائرة بحسب تدرّج العمر. صفّ من الرؤوس تتعاقب من الأكبر إلى الأصغر، وصولاً إلى طفل العشرة أشهر الذي لم يكن سنّه يمنعه من التهام حسائه كالرجال. وكم كانت الملاعق تقرقع في الأطباق! كان الأولاد يأكلون بشهيّة. وبين قضمتين تعلو الفرحة. كنت أشعر بالاعتزاز والسرور يسريان في عروقي حين يمدّ لي الصغار أيديهم وهم يصيحون:

«جدّي، أعطنا بعض الخبز!... قطعة كبيرة جدّي، أليس كذلك؟»

تلك كانت أيّاماً طيّبة! مزرعتنا المنهمكة في العمل كانت تصدح غناءً من كلّ نوافذها. في المساء، يبتكر بيار ألعاباً، يروي قصصاً من أيّامه في الفرقة العسكريّة. العمّة آغات تعدّ الكعك يوم الأحد لبناتنا. ثمّ كانت ترتفع ترانيم تعرفها ماري، تنشدها بصوتها الجميل، صوت فتاة كورس. كانت أشبه ما تكون بقدّيسة، بشعرها الأشقر المسترسل فوق عنقها، ويداها مشبوكتان فوق مئزرها. حين اقترنت أيميه بسيبريان، شيّدت طابقاً جديداً في المنزل. وكنت أردّد ضاحكاً أنّه يجدر إقامة طابق إضافيّ

بعد زواج فيرونيك وغاسبار. لو واصلنا البناء مع كلّ زيجة جديدة لكان المنزل لامسَ السماء في نهاية الأمر. لم يكن أيّ منّا يريد أن يفارق العائلة. كنّا سنشيّد مدينة بكاملها خلف المزرعة، في مرجنا المسيّج، عوض أن نفترق. حين تعيش العائلات في توافق ووئام، كم يحلو للواحد أن يعيش ويموت حيث نشأ!

كان شهر أيّار في تلك السنة رائعاً. مضى وقت طويل ولم نتوقّع مثل ذلك المحصول الممتاز. في ذلك اليوم تحديداً، قمت بجولة مع ابني جاك. انطلقنا قرابة الساعة الثالثة. كانت حقولنا تمتدّ على ضفّة نهر الغارون، فارشةً خضرة لا تزال نضرة. وجدناها مكسوّة بعشب لا يقلّ ارتفاعه عن ثلاثة أقدام، كما وجدنا حقلاً من الصفصاف زرعناه العام الماضي باتت الآن تنتصب فيه نبتات طولها متر. ثمّ من هناك زرنا أراضينا المزروعة بالقمح وكرومنا، حقول اشتريناها الواحد تلو الآخر، مع توارد الثروات. السنابل كانت تنبت كثّة، والكروم المزهرة تعِد بقطاف وفير. كان جاك يضحك، تلك الضحكة النابعة من قلبه، وهو يربّت على كتفي.

«ما رأيك والدي؟ لن ينفد لدينا الخبز ولا النبيذ بعد اليوم. قل لي، هل التقيت الله تعالى حتّى يمطر الآن أموالاً على أراضيك؟»

غالبا ما كنّا نتمازح حول بؤس الماضي. كان جاك على حقّ، لا بدّ أنّني كسبت مودّة أحد القدّيسين في الأعلى، أو رضا الله نفسه، لأنّ كلّ الحظوظ في المنطقة كانت من جانبنا نحن. حين يتساقط البَرَد، تتوقّف الحُبَيبات عند حدود حقولنا تماماً. وإن مرضت كروم جيراننا، فكأنّ جداراً خفيّاً يسيّج كرومنا فيحميها. لم أكن أؤذي أيّاً كان، فظننت أنّ هذه السعادة حقٌّ اكتسبته.

عند عودتنا، عبرنا الأراضي التي كنّا نملكها في القاطع الآخر من

القرية. حقول مزروعة بأشجار التوت طابت لها التربة فنمت بشكل رائع. كان هناك أيضا أشجار لوز تدرّ بسخاء. كنّا نتحادث بفرح، نبني مشاريع. حين يصبح لدينا المال الكافي، سوف نشتري قطع أراض تربط أراضينا ببعضها البعض فنصبح ملّاكي ناحية كاملة من البلدة. ولا شكّ أنّ محاصيل السنة، إن هيَ وفت بوعودها، سوف تسمح لنا بتحقيق هذا الحلم.

مع اقترابنا من المنزل، رأينا روز في البعيد تلوّح لنا بذراعيها وتصيح: «تعالا بسرعة!»

كانت إحدى أبقارنا وضعتْ عجلاً، والمنزل برمّته في اضطراب وهيجان. العمّة آغات مهتاجة تملأ المكان بقامتها الضخمة، والبنات يتأمّلن الصغير. ولادة هذا العجل كانت بركة تضاف إلى مجموع البركات. اضطررنا مؤخّراً إلى توسيع الحظائر التي باتت تغصّ بحوالى مئة رأس ماشية، معظمها أبقار وخراف، فضلاً عن أحصنة.

«هيّا! إنه يوم سعيد! صحت. سوف نحتفل هذا المساء بزجاجة من نبيذ العصارة».

غير أنّ روز جذبتنا على حدة وأعلنت لنا أنّ غاسبار، خطيب فيرونيك، جاء لتحديد يوم الزفاف فاستبْقَته على العشاء. غاسبار هو الابن البكر لمزارع من مورانج. هو فتىً في العشرين طويل القامة، معروف في المنطقة برمّتها بقوّته الخارقة. حتّى أنّه في أحد المهرجانات في تولوز غلب مارسيال، «أسد الجنوب». وهو رغم ذلك شاب طيّب له قلب من ذهب، بل خجول يحمرّ حين تنظر فيرونيك في وجهه بعينيها الهادئتين.

طلبتُ من روز أن تناديه. كان في آخر الفناء، يساعد الخادمات على

نشر غسيل الفصل. حين دخل غرفة الطعام حيث كنّا جالسين، التفت جاك صوبي قائلاً:

«نعم أبي، تفضّل.

- إذاً جئتنا يا بنيّ لنحدّد يوم الزفاف؟ قلت.

- نعم، هذا صحيح أيّها السيّد روبيو، أجاب ووجنتاه قرمزيّتان.

- لا داعي لأن يحمرّ وجهك يا بنيّ. يمكن إن أردت أن يتمّ الزفاف في عيد القديسة فيليسيتيه، في العاشر من تمّوز. نحن اليوم في الثالث والعشرين من حزيران، هذا ما يترك لك أقلّ من عشرين يوماً من التريّث والانتظار... زوجتي المسكينة رحمها الله كانت تدعى فيليسيتيه، وهذا سيجلب لكما الحظّ... ما قولك؟ هل اتّفقنا؟

- أجل، اتّفقنا أب روبيو. يوم عيد القدّيسة فيليسيتيه».

ناولَنا أنا وجاك صفقة في يدنا يمكنها أن تصرع ثوراً، ثمّ قبّل روز منادياً إيّاها «أمّي». ذلك الفتى بقامته الجسيمة وقبضتيه المخيفتين كان يحبّ فيرونيك إلى حدّ يجعله يفقد صوابه. أقرّ لنا بأنّه كان سيمرض لو منعنا عنه يدها.

«والآن، قلت، تبقى لتناول العشاء معنا، أليس كذلك؟... إذاً هيّا، الجميع إلى المائدة! إنّني أتضوّر جوعاً!»

في ذلك المساء، جلسنا أحد عشر فرداً حول الطاولة. جعلنا غاسبار يجلس بجانب فيرونيك، وبقي طوال الوقت عيناه مسمّرتان عليها، ناسياً الصحن والطعام، في غاية التأثّر والانفعال لفكرة أنّها باتت له، حتّى أنّ دموعاً كانت تطفو أحياناً إلى طرف عينيه. سيبريان وأيميه المتزوّجان منذ ثلاث سنوات فقط، كانا يبتسمان لهذا المشهد. جاك وروز بقيا أكثر رصانة، وخلفهما خمسة وعشرون عاماً من الحياة الزوجيّة، غير أنّهما كانا

يتبادلان خلسة بين الحين والآخر نظرات مفعمة بنداوة غرامهما الماضي. أمّا أنا، فكان يُخيّل لي أنّ الحياة عادت إلى عروقي لرؤية هذين العاشقين وقد فرشت سعادتهما زاوية من الجنّة على مائدتنا. كم كان طيّباً حساؤنا في ذلك المساء! قطعت العمّة آغات هذا السحر ممازحة، وهي التي تجد على الدوام مادّة للضحك. عندها أراد بيار في طيبته أن يروي غراميّاته مع آنسة راقية من ليون. من حسن الحظّ أنّنا كنّا وصلنا إلى الحلوى، والجميع يتكلّم في الوقت نفسه في صخب. كنت جلبت زجاجتين من نبيذ العصارة من القبو. شربنا نخب غاسبار وفيرونيك، داعين لهما بالحظّ السعيد. هكذا نقول عندنا: الحظّ هو ألّا نتقاتل يوماً، وننجب الكثير من الأطفال ونجمع صرراً من النقود. ثمّ صدح الغناء. كان غاسبار يعرف أغاني حبّ بالعاميّة المحليّة. وأخيرا طلبنا من ماري أن تنشد لنا ترنيمة، فنهضت وارتفع صوتها الرفيع الرقيق مدغدغاً الآذان.

ابتعدت ووقفت عند النافذة. وحين انضمّ إليّ غاسبار سألته:

«لا جديد في ناحيتكم؟

- لا، أجاب. يتحدّثون عن الأمطار الغزيرة التي انهمرت في الأيّام الأخيرة، يقولون إنّها قد تحمل معها نكبات».

بالفعل، تساقط المطر ستّين ساعة بلا توقّف في الأيّام الماضية وارتفع مستوى مياه الغارون كثيراً منذ الأمس، لكنّنا كنّا نثق في النهر، وطالما أنّه لا يفيض، لا يمكننا اعتبار جيرته مشؤومة. فهو يسدي لنا الكثير من الخدمات الطيّبة! مياهه سخيّة وعلى قدر لا يوصف من العذوبة! ثمّ أنّ الفلاحين لا يتركون جحرهم بسهولة، حتّى حين يكون السقف على وشك الانهيار.

«لا خوف! قلت هازّاً كتفيّ، لن يحصل شيء. كلّ سنة يتكرّر الأمر

ذاته: النهر يهدّد ويتوعّد وكأنّه ثائر غضباً، ثمّ يهدأ في ليلة ويعود إلى مجراه، وديعاً كالنعجة. سوف ترى يا بنيّ، إنّه يخدعنا هذه المرّة أيضاً... انظر! أترى هذا الطقس الجميل؟»

أشرت له بيدي إلى السماء. كانت الساعة السابعة والشمس تغيب. آه! يا للزرقة! السماء برمّتها مجرّد زرقة خالصة، بركة شاسعة زرقاء، صافية نقيّة، تحلّق فيها الشمس الغاربة مثل التبْر. من الأعالي تنسدل فرحة بليدة تعمّ الأفق برمّته. لم يسبق أن رأيت القرية تغفو في سلام بهذه الحلاوة. سطوح القرميد مصبوغة بمسحة ورديّة تضمحلّ شيئاً فشيئاً. كنت أسمع قهقهات جارة، ثمّ أصوات أطفال عند منعطف الطريق أمام منزلنا. في البعيد يرتفع ضجيج القطعان تعود إلى الحظيرة، تكتمه المسافة. نهر الغارون يبعث هديره المتواصل العريض، لكنّه هدير الصمت عينه في أذنيّ من شدّة ما اعتادتاه. السماء تبْيَضّ شيئاً فشيئاً، والقرية تغرق في النوم. كان ذلك مساء يوم جميل، وخطر لي أنّ سعادتنا برمّتها، المحاصيل الوفيرة، البيت الهانئ، خطبة فيرونيك، كلّ ذلك يمطر علينا من الأعلى ويهبط علينا في نقاوة النور نفسه. كانت بركة تغمرنا مع وداع المساء.

عدت إلى وسط الغرفة. كانت فتياتنا يتحدّثن ونحن نستمع إليهنّ مبتسمين، حين دوّت صيحة فظيعة في الحقول الوديعة، صرخة يأس وموت:

«الغارون! الغارون!»

2

هرعنا إلى باحة المزرعة.

تقع قرية سان جوري في قعر منخفض من الأرض، على مسافة حوالى

خمسمئة متر عند أسفل الغارون[1]، غير أنّ صفوف أشجار الصفصاف العالية التي تقطع الحقول ترتفع مثل ستار يحجب النهر تماماً.

لم نكن نرى شيئاً، غير أنّ الصيحة تواصلت:

«الغارون! الغارون!»

فجأةً ظهر من الطريق العريض أمامنا رجلان وثلاث نساء، تحمل إحداهنّ طفلاً بين ذراعيها. كانوا يصرخون مذعورين، وهم يعدون بأسرع ما أمكنهم على الأرض الصلبة. أحياناً يلتفتون، ينظرون إلى الخلف بعيون هلعة، وكأنّ عصبة ذئاب تطاردهم.

«ما بهم؟ سأل سيبريان. هل يتراءى لك شيء في البعيد يا جدّي؟

- لا، إطلاقاً، قلت. أوراق الأشجار لا ترتعش حتّى».

كان خطّ الأفق الخفيض هادئاً هامداً. لكنّني لم أكد أنتهي من الكلام حتّى أطلقنا هتافاً. من خلف الفارّين على الدرب، من بين جذوع أشجار الصفصاف، وسط ضمّات الأعشاب العالية، ظهر ما يشبه قطيعاً من الدواب الرماديّة المبقّعة بالاصفر المتدافعة. تتدفّق من كلّ مكان، أمواجاً تقذف أمواجاً، كتل صخمة من الماء تنهمر مهتاجةً مزبدةً إلى ما لا نهاية، تهزّ الأرض بوقع حوافرها المكتوم.

الصرخة اليائسة نفسها ارتفعت من حناجرنا:

«الغارون! الغارون!»

على الدرب واصل الرجلان والنساء الثلاث الركض. يسمعون العدْو الفظيع من خلفهم يقترب أسرع منهم. الأمواج باتت تصل خطّاً واحداً، تتدحرج، تنهمر قاصفةً راعدةً مثل جحافل جيوش تشنّ

---

(1) الواقع أنّ سان جوري الواقعة على ارتفاع يزيد عن مئة متر، ليست قريبة إلى هذا الحدّ من نهر الغارون.

هجوماً. أوّل ما اصطدمت به كان حاجز الصفصاف، فكسرت ثلاث أشجار هوت أغصانها العالية واختفت. اقتلعت كوخاً من الألواح الخشبيّة، هدمت جداراً، جرفت عربات محلولة دوابّها وكأنّها عيدان قشّ. لكنّها بدت وكأنّها تطارد بصورةٍ خاصّةٍ المجموعة الفارّة. عند منعطف الطريق التي تنحدر بشدّة في هذه النقطة، انصبّت دفعة واحدة مشكّلةً بحيرة شاسعة وقطعت لهم الطريق، حارمةً إيّاهم من أيّ إمكانية للهروب. لكنّهم واصلوا الركض، واثبين في البحيرة والمياه تتناثر تحت أقدامهم. لم يعودوا يصرخون، بل جنّ جنونهم من شدّة الرعب. كانت المياه تمسكهم بركبهم. انقضّت موجة هائلة على المرأة التي تحمل الطفل وابتلعت المياه كلّ ما هنالك.

«بسرعة! بسرعة! صحت. يجب أن ندخل... المنزل متين، لا نخشيَنّ شيئاً».

لجأنا على الفور من باب الحيطة إلى الطابق الثاني. جعلنا الفتيات يصعدن أوّلاً. أصررت على أن أكون الأخير. كان المنزل مشيّداً على مرتفعٍ فوق الطريق. راحت المياه تنفذ ببطء إلى الباحة، باعثةً خريراً خفيفاً. لم نكن نشعر بفزع كبير.

«لا عليكم! قال جاك مطَمْئناً الجميع، لن يحصل شيء... هل تذكر يا أبي في العام 1855، وصلت المياه كما اليوم إلى الباحة، ارتفعت إلى علوّ قدم، ثمّ انحسرت.

- لكنّ هذا يضرّ بالمحاصيل رغم كلّ شيء، تمتم سيبريان.

- لا لا، لن يحصل شيء»، أكّدْت بِدوري حين رأيت عيون بناتنا محملقة متوسّلة.

مدّدت أيميه طفليها في سريرها وجلست عند أسفل الفراش برفقة

فيرونيك وماري. العمّة آغات همّت بتسخين نبيذ جلبته معها إلى الطابق العلوي لتشدّ عزيمة الجميع. وقف جاك وروز عند نافذة يتأمّلان ما يجري في الخارج، فيما وقفتُ عند النافذة الأخرى مع شقيقي وسيبريان وغاسبار.

«اصعدا هيّا! قلت لخادمتينا اللّتين كانتا تتخبّطان في المياه المتجمّعة في وسط الباحة. لا تبقيا هنا واقدامكما في المياه.

- لكن ماذا عن الدوابّ؟ سألتا. إنها خائفة وهائجة في الحظيرة.

- لا لا، اصعدا... لاحقاً. سوف نرى».

من المستحيل إنقاذ القطعان إن اتّسعت الكارثة وتفاقمت. لكنّني وجدت من غير المجدي أن أبثّ الهلع في نفوس العائلة، فجهدت لإبداء طمأنينة. متّكئاً إلى النافذة، كنت أحادثهم، أنقل إليهم تطوّر الفيضان. فبعدما هاجم النهر القرية، ها أنّه استولى عليها بأضيق أزقّتها. لم يعد ذلك انقضاض أمواج متوثّبة متدافعة، بل خنق بطيء للبلدة بشكل لا يقاوم ولا يقهر. منخفض الأرض الذي شيّدت سان جوري في قعره كان يتحوّل إلى بحيرة. سرعان ما بلغ علوّ المياه متراً في باحة مزرعتنا. كنت أراها ترتفع، وإن كنت أوكّد للجميع أنّها راقدة، بل أدّعي حتّى أنّها كانت تتراجع.

«ها إنّك مضطر للنوم هنا يا ابني، قلت ملتفتاً صوب غاسبار. إلّا إذا عادت الطرقات سالكة بعد بضع ساعات. هذا محتمل».

نظر إليّ دون أن يجيب، ووجهه شاحب. ثمّ رأيته يحدّق بفيرونيك بعينين تسكنهما ظلالُ فزع لا يمكن للكلام أن يعبّر عنه.

كانت الساعة الثامنة والنصف. في الخارج، لا يزال نور النهار مخيّماً، نور أبيض ينشر كآبة عميقة تحت السماء الشاحبة. خطرَ للخادمتين قبل أن

تصعدا أن تجلبا معهما مصباحين. أضأتهما، ظنّاً منّي أنّ ضوءهما سيلطّف قليلاً أجواء الغرفة القاتمة التي لجأنا إليها. دفعت العمّة آغات طاولة إلى وسط القاعة وأرادت تنظيم لعبة ورق. تلك المرأة الشجاعة التي تجول بنظرها بين الحين والآخر باحثةً عن عينيّ، كانت تسعى قبل أيّ شيء إلى تسلية الأطفال. حافَظَت على مرحها ببسالة مذهلة، فكانت تضحك لمكافحة الفزع الذي تشعر به يتصاعد من حولها. جرت لعبة الورق، وأرغمت العمّة آغات أيميه وفيرونيك وماري بالقوّة على الجلوس. وضعت الورق بين أيديهنّ وراحت هي نفسها تلعب مدّعيةً الحماسة، تخلط الرزمة، تقطعها وتوزّع، مسترسلةً في الدردشة والثرثرة حتّى لَيكاد صوتها يطغى على صخب المياه. لكنّ ذلك لم يحوّل انتباه بناتنا، بل بقين منصتات، وجوههنّ شاحبة وأيديهنّ محمومة. وفي كلّ لحظة كانت لعبة الورق تتوقّف. تلتفت إحداهنّ وتسالني بصوت مكبوت:

«جدّي، هل لا تزال ترتفع؟»

كانت المياه ترتفع بسرعة مرعبة. لكنّني أردّ ممازحاً:

«لا، لا، بوسعكم اللّعب بطمأنينة. ليس هناك أيّ خطر».

لم أشعر يوماً بمثل هذا القلق يعصر قلبي. وقف الرجال صفّاً أمام النافذتين لحجب المشهد الرهيب. كنا نجهد لنبتسم، ملتفتين إلى داخل الغرفة، أمام المصباحين اللّذين يلقيان بهدوء دائرتين من النور على الطاولة، فتبدو الجلسة أشبه ما تكون بسهرة لطيفة هانئة. عادت إليّ ذكرى سهراتنا الشتائيّة، حين كنّا نتحلّق حول هذه الطاولة نفسها. الجوّ ذاته كان يخيّم في الغرفة، جوّ متبالد نعس، مفعم بمودّة دافئة طيّبة. وفيما كان السلام يعمّ الغرفة، كنت أسمع من خلف ظهري زئير النهر الجامح يواصل صعوده.

«لويس، قال لي شقيقي بيار، المياه باتت أدنى من النافذة بثلاث أقدام فقط. لا بدّ من التصرّف».

أشرت إليه أن يصمت، ضاغطاً على ذراعه. لكنّه لم يعد من الممكن إخفاء الخطر المحْدق. في حظائرنا، كانت الدواب مذعورة. ارتفع فجأةً ثغاء وخوار، أصوات قطعان هلعة. الأحصنة أطلقت صيحات خشنة مجروحة تُسمع من بعيد، صهيلاً تطلقه حين تكون في خطر.

«يا إلهي! يا إلهي!» قالت أيميه وهي تنهض مرتعدة، ضاغطة صدغيها بقبضتيها.

نهضن جميعاً وهرعن إلى النافذة قبل أن يتسنّى لنا اعتراضهنّ. وقفن منتصبات بقاماتهنّ المتشنّجة، صامتات، ورياح الخوف تشعّث شعورهنّ. كان المساء يهبط، ونور غامض مريب يطفو فوق بركة المياه الموحلة بكلّ ما جرفته من ترسّبات. بدت السماء مثل شرشف أبيض ملقىً فوق الأرض. في البعيد يتصاعد دخان هنا وهناك. كلّ شيء بدا مبلبلاً مشوّشاً. كانت تلك نهاية نهارٍ مرعبة تتبدّد في ليل من الموت. لا صوت بشريّاً يتصاعد، مجرّد هدير هذا البحر المنفلش على اتّساع الأفق، خوار الدوابّ وصهيل الأحصنة!

«يا إلهي! يا إلهي!» ردّدت النساء في هتافات مخنوقة، وكأنّهن يخشين رفع أصواتهنّ.

قاطعهنّ دويّ تصدّع فظيع. الدوابّ الثائرة خلعت بوّابات الحظائر. رفعها الفيض الأصفر فعبرت متدحرجة يجذبها التيّار. كانت الخراف تنجرف مثل أوراق أشجار يابسة، مجموعات مجموعات، تدور وسط العباب. الأبقار والأحصنة تقاوم، تدبّ ثمّ تغوص في عمق الماء. حصاننا الرماديّ الكبير ابدى أكبر قدر من المقاومة، لم يشأ أن ينفق. راح يشبّ

هائجاً، يمدّ عنقه وينفث بصوتِ كور حدّاد. لكنّ المياه الشرسة غمرته من ردفه، فرأيناه يستسلم محبطاً مغلوباً.

عندها أطلقنا صرخات للمرّة الأولى. اندفعت من حناجرنا رغماً عنّا. كنّا بحاجة إلى الصراخ. مادّين أذرعنا صوب كلّ تلك الدوابّ العزيزة على قلبنا التي تبتعد وتغيب عن أنظارنا، رحنا نشكو ونئنّ، نخرج من صدورنا النحيب والنشيج اللّذين كنّا كبتناهما حتّى الآن. آه! إنّه الخراب! إنّها المحاصيل تضيع، الماشية تغرق، الحظّ ينقلب في ساعات قليلة! هذا ليس عدلاً من السماء. لم نسئ بشيء إلى الربّ، وها هو يستعيد منّا كلّ شيء. رفعت قبضتي بوجه الأفق. استذكرت نزهتنا بعد الظهر، تلك الحقول، تلك السنابل، تلك الكروم الممتدّة أمامنا بوعودها الكثيرة السخيّة. إذاً كلّ ذلك كان مجرّد نفاق؟ السعادة تكذب. الشمس تكذب حين تغيب بسلام وهدوء في سكينة المساء.

واصلت المياه ارتفاعها. صرخ لي بيار الذي كان يراقبها:

«لويس، حذار! المياه تلامس النافذة!»

ذلك التحذير أخرجنا فجأةً من يأسنا. استعدت وعيي كاملاً وقلت هازّاً كتفيّ:

«المال لا يساوي شيئاً. طالما أنّنا على قيد الحياة جميعاً، يجب ألّا نشعر بأيّ أسف... سوف نعاود العمل، هذا كلّ ما في الأمر.

– أجل، أجل، إنّك على حقّ يا أبي، ردّ جاك بهمّة واندفاع. ولا نواجه أيّ خطر، الجدران متينة. سوف نصعد إلى السطح».

كان هذا ملاذنا الأخير. أخذت المياه تتسرّب من الباب، تصخب وتطبطب بتعنّت، بعدما تصاعدت في الأدراج درجةً درجة. هرعنا إلى العليّة، متمسّكين بعضنا بالبعض الآخر دون أن يُفلت أيٌّ منّا الثاني ولو

لخطوة واحدة، موحَّدين في تلك الحاجة أمام الخطر إلى أن نشعر بأنفسنا متراصّين متلاصقين. اختفى سيبريان. ناديته ورأيته يعود من الغرف المجاورة، والهلع على وجهه. عندها تنبّهت إلى غياب الخادمتين، وحين أردت أن ننتظرهما رمقني بنظرة غريبة وقال لي خافضاً صوته:

«ماتتا. انهارت زاوية الحظيرة للتوّ تحت غرفتهما».

لا بدّ أنّ الفتاتين المسكينتين ذهبتا لجلب مدّخراتهما المخبّأة في صندوقيهما. روى لي همساً أنّهما استخدمتا سلّماً مدّتاه جسراً للعبور إلى المبنى المجاور. أوصيته بعدم التفوّه بكلمة. شعرت ببرد شديد يعبر عنقي. إنّه الموت يدخل بيتنا.

حين صعدنا بدورنا، لم يخطر لنا حتّى أن نطفئ المصباحين. بقيت لعبة الورق مفلوشة على الطاولة. الغرفة غارقة في قدم من المياه.

3

من حسن حظّنا أنّ السطح كان عريضاً وخفيف الانحدار. وصلنا إليه عبر كوّة تحت السطح يعلوها شريط على شكل مصطبة. تجمّعنا فوقه. جلست النساء فيما ذهب الرجال لاستكشاف القرميد وصولاً إلى المدخنتين الضخمتين المنتصبتين عند طرفي السطح. بقيت متّكئا إلى الكوّة من حيث خرجنا، مقلّباً النظر بين أطراف الأفق حتّى أقاصيه.

«لا بدّ أن تصل الإغاثة، قلت مشجّعاً. سكّان سانتان لديهم قوارب. سوف يمرّون من هنا... انظروا! هناك! أليس هذا مصباحاً فوق الماء؟»

لم يُجب أحد. أشعل بيار غليونه دون أن يدري ما يفعل، وراح يدخّن ماجّاً التبغ بقوّة، ومع كلّ نفَس ينفثه، يبصق أجزاء صغيرة من عقب الغليون. جاك وسيبريان يحدّقان في البعيد بوجه كئيب، فيما غاسبار

يدور على السطح بلا توقّف شادّاً قبضتيه، وكأنّه يبحث عن مخرج. عند أقدامنا، كانت النساء المتجمّعات في كومة صامتة يرتعدن خوفاً وبرداً، يخفين وجوههنّ حتّى لا يرين المشهد. ثمّ رفعت روز رأسها فجأةً، ألقت نظرة من حولها وسألت:

«والخادمتان؟ أين هما؟ لماذا لا تصعدان؟»

تهرّبتُ من الإجابة. عندها سألتني مباشرةً، وعيناها محدّقتان بي:

«أين الخادمتان؟»

أشحت بوجهي عنها، عاجزاً عن الكذب عليها. شعَرْتُ ببرودة الموت التي لفحتني قبل قليل تعصف بنسائنا وفتياتنا. فهمنَ. وقفت ماري بكلّ قامتها، أطلقت تنهّدة عميقة ثمّ هوت أرضاً، منهارةً في نوبة بكاء. أيميه كانت تضمّ طفليها في حضنها، تخبئهما كأنّها لحمايتهما. فيرونيك تسمّرت بلا حراك، غارزةً وجهها بين يديها. حتّى العمّة آغات شحب وجهها وراحت تقوم بإشارات صليب على صدرها وتتمتم بصلوات.

المنظر من حولنا ارتدى جلالاً مهيباً. اللّيل الذي أطبقَ ظلماته كان يحتفظ بنقاوة ليلة صيفيّة. لم يطلع القمر لكنّ السماء كانت مرصّعة بالنجوم، تمدّ زرقتها الصافية مالئةً الفضاء بنور أزرق. بدا وكأنّ الوقت لا يزال غسقاً من شدّة ما كان الأفق متألّقاً. والبركة الشاسعة لا تزال تتّسع تحت عذوبة هذه السماء، ناصعة وكأنّها تشعّ بنور منبعث من جوفها، يشرق ويضيء شُعلات صغيرة عند رأس كلّ موجة. اليابسة توارت، لم شكّ أنّ الفيض غمرَ السهول. أحياناً كنت أنسى الخطر. أذكر ليلةَ رأيت مثل هذا المشهد، مشهد البحر في ناحية مرسيليا. وقفت أمامه مشدوهاً مبهوراً.

«المياه ترتفع! المياه ترتفع!» ردّد شقيقي بيار وهو لا يزال يقضم بين

أسنانه عقب الغليون الذي انطفأ دون أن ينتبه حتّى.

لم تعد المياه سوى على مسافة متر من السطح. لم تعد مستكينة مثل بحيرة راقدة بل ظهرت على سطحها تيّارات متحرّكة. حين تبلغ المياه ارتفاعاً معيّناً، لا يعود الثلم العميق في الأرض قبل القرية يحمينا. عندها، في أقلّ من ساعة، تصفرّ المياه متوعّدة، تنقضّ على المنازل وتكتسحها، جارفةً معها حطاماً، براميل مكسّرة، قطعَ خشب ورزمَ أعشاب. في البعيد كان الطوفان بدأ يهاجم جدراناً، فتصلنا الصدمات المدوّية. أشجار صفصاف تهوي وسط انقصام ينذر بالموت، بيوت تنهار مثل حصى تفرغها عربات عند حافة طريق.

راح جاك يردّد وقد روّعه نحيب النساء:

«لا يمكننا البقاء هنا. علينا أن نحاول القيام بشيء... أبي، أرجوك، دعنا نحاول القيام بشيء».

وأنا أردّد من بعده متلعثماً:

«نعم، نعم، لنحاول القيام بشيء».

لكنّنا لم نكن ندري ماذا نفعل. غاسبار عرض أن يحمل فيرونيك على ظهره ويسبح بها بعيداً. بيار تحدّث عن صنع طوْف. كان الوضع جنونيّاً. قال سيبريان أخيراً:

«لو نستطيع فقط الوصول إلى الكنيسة!»

كانت الكنيسة لا تزال واقفة فوق الماء رافعةً برج جرسها المربّع، تفصلنا عنها سبعة منازل. كانت مزرعتنا الأولى في القرية، تستند إلى مبنى أعلى منها، يستند بدوره إلى المبنى المجاور. ربّما يمكننا بالفعل الوصول عبر السطوح إلى بيت الكاهن، من حيث سيسهل علينا ولوج الكنيسة. لا بدّ أنّ الكثيرين لجأوا إليها، لأنّ السطوح المجاورة كانت فارغة، وكنّا

نسمع أصواتاً قادمة بالتأكيد من برج الجرس. لكن هناك مخاطر كثيرة قبل الوصول إلى هناك!

«هذا مستحيل، قال بيار. منزل آل رامبو عالٍ جدّاً. تلزمنا سلالم.

- سوف أحاول رغم كلّ شيء، قال سيبريان. سوف أعود إن لم يكن الطريق سالكاً. وإلّا، فسوف نذهب جميعاً معاً، ونحمل الفتيات».

تركته يبتعد. كان على حقّ. لا بدّ لنا أن نحاول المستحيل. رأيته يتسلّق سطح منزل مجاور مستعيناً بمشبك حديديّ ثبّته بمدخنة، حين رفعَتْ زوجته أيميه رأسها، لم تجده.

«أين هو؟ صاحت. لا أريد أن يتركني. نحن معاً، وسوف نموت معاً».

حين لمَحَتْه عند أعلى المنزل، ركضَتْ عابرةً القرميد وهي لا تزال تحمل طفليها وصاحت:

«سيبريان، انتظرني. سوف أذهب معك، أريد أن أموت معك».

أصرّت متعنّتة، فيما هو انحنى يتوسّلها، مؤكّداً لها أنّه سيعود، وأنّه إنما يفعل ذلك من أجل خلاصنا جميعاً. لكنّها كانت تهزّ رأسها تائهة متضعضعة وتردّد:

«إنّني ذاهبة معك، إنّني ذاهبة معك. ما المانع لديك؟ إنّني ذاهبة معك».

اضطرّ إلى تناول الطفلين من بين ذراعيها. تابعناهم بعيوننا فوق المنزل. كانا يتقدّمان ببطء، وقد حملتْ من جديدٍ الطفلين اللّذين يبكيان، وهو عند كلّ خطوة يستدير نحوها ويساندها.

«ضعها في مأمن وعُدْ على الفور!» هتفتُ له.

رأيته يلوّح بيده، لكنّ هدير المياه طغى على جوابه. وبعد لحظة غابوا

عن أنظارنا. هبطوا إلى سطح المنزل التالي، وهو منخفض عن الأوّل. انقضت خمس دقائق، ظهروا من بعدها فوق البيت الثالث. لا بدّ أنّ السطح كان حادّ الانحدار، لأنهم كانوا يزحفون على ركبهم على طول الحافّة عند أعلى القرميد. سيطر عليّ هلع مفاجئ ورحت أصرخ بكلّ قوّة رئتيّ، محيطاً فمي بيديّ مثل بوقٍ:

«عودوا! عودوا!»

ارتفعت صيحات بيار وجاك وغاسبار أيضاً يصرخون بهم أن يعودوا. توقّفوا دقيقة عند سماعنا، ثمّ واصلوا تقدّمهم. باتوا بمستوى المنعطف على الطريق، قبالة منزل آل رامبو، وهو مبنى مرتفع يعلو سطحه أكثر من ثلاثة أمتار فوق سطوح المنازل المحيطة به. تردّدا لوهلة قصيرة، ثمّ تسلّق سيبريان ماسورة مدخنة بخفّة هرّ. بقيت أيميه واقفة في وسط سطح القرميد. لا شكّ أنّها اضطرّت إلى الموافقة على انتظاره. كنّا نميّزها بوضوح، تضمّ طفليها إلى صدرها، خيال أسود على خلفيّة السماء المضيئة، كأنّما تمدّدت قامتها. عندها وقعت المأساة المروّعة.

منزل آل رامبو الذي شيّد في بادئ الأمر ليكون ضمن مشروع صناعيّ، كان مبنيّاً بهشاشة كبيرة. وكان التيّار المتدفّق من الشارع يرتطم به مباشرةً في واجهته. خلْتُ أنّني رأيته يهتزّ تحت هجمات المياه. كنت أتابع سيبريان يعبر السطح وصدري منقبض. فجأةً سمعت دويّاً. طلع القمر، كان قمراً بدراً ارتفع في السماء دون أن يحجبه شيء، مضيئًا بوجهه الأصفر صفحة البحيرة الشاسعة وكأنّه نور مصباح مسلّط عليها. لم يغب عن أنظارنا أدنى تفصيل من الكارثة.

كان منزل آل رامبو انهار للتوّ. أطلقنا صيحة رعب إذ رأينا سيبريان يختفي. لم نعد نميّز من المنزل المتداعي سوى عاصفة هائجة، صخب

أمواج تندفع من حول حطام السقف المتهاوي قبل أن تبتلعه. ثمّ ختيم الهدوء، عادت البركة إلى مستواها، وفوقها الفراغ الأسود مكان المنزل الذي انهار، رافعاً فوق المياه هيكل أرضيّاته المتصدّعة، كتلة من الدعائم المتداخلة كأنّها هيكل كاتدرائيّة انهدم نصفها. تراءى لي جسد يتحرّك بين هذه الدعائم، شيء حيّ يبذل مجهوداً خارقاً يفوق الطاقة البشريّة.

«إنّه حيّ! صرخت. آه! الحمد لله! إنّه حيّ!... هناك، فوق هذه البركة البيضاء، في نور القمر!»

استولت علينا ضحكة عصبيّة. رحنا نصفّق فرحين وكأنّنا نجونا جميعاً.

«سوف يتسلّق مجدّداً، قال بيار.

- أجل، صحيح، انظروا! قال غاسبار، ها هو يحاول التمسّك بالعارضة، هناك إلى اليسار».

لكنّ قهقهاتنا توقّفت. لم تعد كلمة تخرج من حناجرنا المنقبضة من شدّة القلق. أدركنا الوضع الفظيع الذي بات فيه سيبريان. فمع انهيار المنزل علقت ساقاه بين دعامتين وبقي معلّقاً في الجوّ، عاجزاً عن تخليص نفسه، ورأسه يتدلّى إلى الأسفل، على مسافة بضعة سنتيمترات من المياه. عانى الأمرّين في احتضاره المروّع. على سطح المنزل المجاور، كانت أيميه لا تزال واقفة مع طفليها، تنتفض في اختلاجات متشنّجة. كانت تشهد موت زوجها، عيناها لا تفارقان المسكين العالق تحتها على مسافة بضعة أمتار، وهي تطلق عويلاً متواصلاً، عويل كلب ممسوس، عويل الجنون أمام الفظاعة.

«لا يمكننا أن ندعه يموت هكذا، قال جاك بحُرقة. علينا أن نذهب إلى هناك.

- ربّما يمكننا الوصول إليه نزولاً على الدعائم، قال بيار. سوف نخلّص ساقيه».

كانا في طريقهما إليه على السطوح المجاورة حين انهار المنزل الثاني بدوره، فباتت الطريق مقطوعة. عندها نزل علينا صقيع الرعب. تمسّكنا بعضنا ببعض بلا شعور، يشدّ بعضنا على أيدي البعض الآخر ويضغط حتّى تكاد تنسحق الأيدي، عاجزين عن تحويل أنظارنا عن المشهد المروّع.

حاول سيبريان في بادئ الأمر أن يشدّ جسده فابتعد عن الماء باذلاً مجهوداً جبّاراً وأبقى جسده متصلّباً في وضع مائل. غير أنّ التعب حطّمه. رغم ذلك قاوم قدر المستطاع، أراد أن يتشبّث بالعارضات، لوّح بيديه من حوله ليرى إن كان يجد ما يتمسّك به. ثمّ تقبّل مصيره، فهوى وتدلّى من جديد بلا حراك. مات ميتة بطيئة. كان شعره لا يكاد يلامس الماء المرتفع رويداً رويداً. لا بدّ أنّه كان يشعر ببرودته في أعلى رأسه. ثمّ بلّلت موجة أولى جبينه. وأغمضت موجات أخرى عينيه. رأينا الرأس يختفي ببطء في المياه[1].

النساء اللّواتي ارتمين عند أقدامنا أخفين وجوههنّ بين أيديهنّ. سقطنا بدورنا جاثمين، مادّين أذرعنا ونحن نبكي ونتمتم مترجّين متوسّلين.

(1) استلهم زولا هذا المقطع من حادثة نقلتها الصحف. كتبت صحيفة ***L'Illustration*** في 10 تمّوز 1875 ما يلي: «في أحد منازل شارع سان جوزيف، عَلقت ساقا شابّ في عارضات سقطت عند انهيار المبنى وبقي معلّقاً من قدميه. لكنّ رأسه كان غارقاً في المياه حتّى العنق. لا بدّ أنّه قاوم قبل أن يموت، شدّ جسده وبذل جهوداً خارقة لإبقاء رأسه خارج الماء». وكتب روجيه ريبول **Roger Ripoll** في تقديم كتاب إميل زولا «حكايات وقصص» ***Contes et nouvelles*** الصادر عن دار غاليمار في سلسلة لا بلياد ***La Pléiade*** عام 1976: «حتّى اسم الشخصيّة قد يكون مستوحىً من المصدر ذاته، لأنّ الحادث وقع في حيّ سان سيبريان في تولوز».

على السطح، كانت أيميه لا تزال واقفة تضمّ طفليها إليها وتطلق عويلها بأعلى صوتها في اللّيل.

4

لست أدري كم من الوقت بقينا مسمّرين مصعوقين على هذه الحال. حين عدت إلى رشدي، كانت المياه واصلت ارتفاعها وبلغت القرميد الآن. لم يعد السطح سوى جزيرة عائمة تطفو فوق البركة الهائلة. لا شكّ أنّ المنازل انهارت يميناً ويساراً والبحر يواصل امتداده.

«إنّنا نسير»، تمتمت روز متشبّثة بالقرميد.

كنّا نشعر بالفعل جميعاً بالسطح يترنّح، وكأنّه تحوّل إلى طوف عائم. كان يُخيَّل لنا أنّ السيول العظيمة تجرفنا. ثمّ حين ننظر إلى جرس الكنيسة منتصباً قبالتنا، يتوقّف هذا الدوار ونجد أنفسنا في مكاننا، وسط العباب.

عندها بدأت الأمواج هجومها. كانت السيول تتبع حتّى تلك اللحظة سير الطريق، لكنّها اصطدمت بالحطام الذي بات يقطعها، فارتدّت في غزوة حقيقيّة. ما إن تعبر قطعة خشبيّة عائمة أو رافدة في متناول التيّار، حتّى يستولي عليها ويقذفها على المنزل وكأنّه ينطحه بها ليهدّه، ولا يعود يفلتها، فيسحبها إلى الخلف ليلقيها من جديد، يخبط بها الجدران بشراسة متزايدة، مسدّداً ضربات تتعاقب متواترة. وبعد وقت قصير كانت عشر رافدات، اثنتي عشرة رافدة تهاجمنا دفعة واحدة على هذا النحو، محاصرةً المنزل من كلّ صوب. المياه تهدر وتزأر، والزّبَد يغلي ويبلّل أقدامنا. كنّا نسمع المنزل الممتلئ بالماء يئنّ أنيناً مكتوماً، وقد بدأت جدرانه الداخليّة الخشبيّة تطقطق وتتشقّق. أحياناً حين تشتدّ الهجمات، حين تطرق الرافدات المنزل بشكل مباشر، نقول لأنفسنا إنّ أمرنا انتهى،

إنّ الجدران تبقرها المياه فتسلّمنا للنهر من تصدّعاتها الفاغرة.

جازف غاسبار وتقدّم حتّى طرف السطح. تمكّن من التقاط عارضة وشدّها إليه بقوّة ذراعيه العريضتين، ذراعَي مصارعٍ جبّارتين.

«علينا أن ندافع عن أنفسنا»، صرخ.

من جهته حاول جاك التقاط قضيب خشبيّ طويل عائم مع التيّار. ساعده بيار فيما كنت ألعن العمر الذي تركني خائر القوى، ضعيفاً مثل طفل. لكنّ الدفاع بدأ ينتظم في مبارزة، ثلاثة رجال في مواجهة نهر. تشبّث غاسبار بالعارضة وجمّدها، مترقّباً الرافدات التي ينقضّ بها التيّار على المنزل، فيستوقفها بعنفٍ على مسافة ضئيلة من الجدران. أحياناً كان يسقط تحت وطأة الصدمة العنيفة. جاك وبيار بجانبه كانا يستخدمان العصا الطويلة لإبعاد الحطام الخشبيّ. استمرّ هذا الصراع غير المجدي حوالى ساعة. راحوا يفقدون صوابهم شيئاً فشيئاً، فيشتمون ويخبطون المياه ويلعنونها. غاسبار يعاركها وكأنّه يهشّمها بسيف في منازلة جسديّة، يسدّد لها ضربات كمن يخترق صدراً برأس نصله. لكنّ المياه تواصل بعنادها الهادئ، منزّهة عن الجروح، لا تُقهر. عندها سلّم جاك وبيار أمرهما على السطح، منهكَين، فيما غاسبار ترك بعد مجهود أخير التيّارَ يقتلع منه الرافدة التي صدمتنا بدورها. كانت تلك معركة مستحيلة.

ارتمت ماري وفيرونيك إحداهما على الأُخرى وتعانقتا وهما تردّدان بصوت يائس صيحة ذعر لا تزال حتّى اليوم تدوّي في أذنيّ:

«لا أريد أن أموت!... لا أريد أن أموت!»

كانت روز تضمّهما بذراعيها، تحاول طمأنتهما والتخفيف من روعهما، وهي نفسها ترتعد وتطلق الصيحة ذاتها كأنّها رغماً عنها، رافعة وجهها إلى السماء:

«لا أريد أن أموت!»

وحدها العمّة آغات بقيت صامتة. لم تعد تصلّي، ولا ترسم على صدرها إشارة الصّليب. بل تجول بنظرها مخبولة، محاولةً رغم كلّ شيء أن تبتسم حين تصادف عينين أُخريين.

باتت المياه تخبط على القرميد ولا أمل في وصول أيّ إغاثة. كنّا لا نزال نسمع أصواتاً قادمة من ناحية الكنيسة. عبَر مصباحان لوهلة في البعيد، ثمّ خيّم الصمت من جديد فيما راحت البركة الصفراء تفرش صفحتها الشاسعة العارية. لا بدّ أن الطوفان باغت قبلنا أهل سانتان الذين يملكون قوارب.

بقي غاسبار يذرع السطح. وفجأةً نادانا قائلاً:

«حذار!... ساعدوني. أمسكوني».

تناول عصاً من جديد ووقف يترقّب قطعة حطام سوداء صخمة، كتلة عائمة تقترب ببطء من المنزل. كانت تلك قطعة كبيرة من سطح حظيرة مؤلّفة من ألواح خشبيّة متينة، انتزعتها المياه دفعةً واحدةً فعامت على وجه التيّار مثل طوف. حين أصبحت قطعة السطح في متناوله، أوقفها بعصاه الطويلة وصاح بنا أن نساعده إذ شعر بالتيّار يجرفه. أمسكنا به من خصره وتشبّثنا به بقوّة. ثمّ ما إن ولج حطام السطح التيّار، حتّى جاء من تلقاء نفسه والتصق بسطحنا، بل ارتطم به بعنفٍ جعلنا نخشى للحظة أن يتفكّك ويتكسّر.

قفز غاسبار بجسارة على هذا الطوف الذي أرسلته لنا صدفة سعيدة. جابه طولاً وعرضاً للتثبّت من متانته، فيما جعل بيار وجاك يشدّانه لإبقائه لصق حافة السطح. راح يضحك ويقول فرِحاً:

«نجَونا جدّي!... أنتنّ النساء، توقّفن عن البكاء والنحيب! هذا

قارب حقيقيّ! انظرن، قدماي جافّتان. سوف يحملنا جميعاً بالتأكيد. سنكون عليه كأنّنا في بيتنا!»

لكنّه ظنّ أنّ من الأفضل تدعيم الطوف. التقط الرافدات العائمة، أوثقها بحبالٍ كان بيار حملها معه حين صعد من الغرف في أسفل المنزل علّها تخدمنا. انهمك بحماسة حتّى أنّه سقط في الماء. وحين ارتفعت صيحتنا أجابنا بقهقهات جديدة. المياه تعرفه جيّداً، فهو يسبح عبر نهر الغارون أربعة كيلومترات. تسلّق السطح مجدّداً ونفض الماء عنه وهو يصرخ:

«هيّا، اصعدوا على متنه! ينبغي ألّا نهدر الوقت!»

كانت النساء راكعات. اضطرّ غاسبار إلى حمل فيرونيك وماري إلى وسط الطوف حيث جعلهما تجلسان. انحدرت روز والعمّة آغات وحدهما على سطح القرميد وجلستا بجانب الفتاتين. التفتّ صوب الكنيسة حيث كانت أيميه لا تزال واقفة. كانت تتّكئ إلى مدخنة، رافعةً طفليها في الهواء، وقد وصلت المياه إلى خصرها.

«لا تحزن جدّي، قال لي غاسبار. سوف ننقذها في طريقنا، أعدك بذلك».

صعد بيار وجاك على ظهر الطوف. قفزْتُ إليه بدوري. جنحَ قليلاً، لكنّه كان متيناً بما يكفي ليحملنا جميعاً. كان غاسبار آخر من غادر السطح، وهو يشير إلينا أن نلتقط زانات أعدّها لنستخدمها كمجاذيف. هو نفسه كان يحمل عصاً طويلة جدّاً راح يستخدمها بمهارة كبيرة. تركناه يتولّى قيادة مركبنا. وبأمرٍ منه، ضغطنا جميعاً بالزانات على القرميد لنبعد الطوف عن السطح. لكنْ بدا وكأنّه ملتصق به وعجزْنا رغم كلّ جهودنا عن فصله عنه. وفي كلّ محاولة جديدة، كان التيّار يعود ويلصقنا بعنفٍ

بالمنزل. كانت تلك مناورة بالغة الخطورة، لأنّ الصدمة تهدّد في كلّ مرّة بتحطيم الألواح الخشبيّة التي تحملنا.

أحسسنا من جديد بعجزنا. ظننّا أنّنا وجدنا سبيلاً للخلاص، وها أنّنا ما زلنا تحت رحمة النهر. حتّى أنّني وددت لو أنّ النساء لم يغادرن السطح. ففي كلّ لحظة كنت أتوقّع أن يسقطن وتجرفهنّ المياه الثائرة. لكن حين اقترحتُ العودة إلى ملاذنا صاح الجميع:

«لا، لا، دعنا نحاول مرّة جديدة. نفضّل الموت هنا!»

لم يعد غاسبار يضحك. أخذنا نكافح ونجهد من جديد، نستجمع قوانا لنضغط على الزانات. خطر لبيار في نهاية المطاف أن يتسلّق السطح المنحدر ويشدّنا نحو اليسار بواسطة حبل. نجح بهذه الطريقة في دفعنا خارج التيّار ثمّ، بعدما قفز من جديد إلى الطوف، تمكنّا من الابتعاد على صفحة المياه بواسطة بضع ضرباتِ زانات. لكنّ غاسبار تذكّر الوعد الذي كان قطعه لي باصطحاب أيميه المسكينة التي لم تتوقّف عن إطلاق عويلها الجريح. غير أنّه كان يتوجّب علينا من أجل ذلك عبور الطريق حيث يسيطر ذلك التيّار الفظيع الذي كنّا قاومناه للتوّ. نظر إليّ مستشيراً. كنت متكدّراً مبلبلاً. لم يسبق أن دار في نفسي مثل هذا الصراع. فالمناورة ستعرّض ثماني نفوس للخطر. تردّدت لحظة، لكنّني لم أقوَ على مقاومة ذلك النداء الكئيب.

«أجل، أجل، قلت لغاسبار. أمر مستحيل! لا يمكننا الابتعاد بدونها».

خفض رأسه دون أن يتفوّه بكلمة، وراح يضغط بعصاه، مستخدماً جميع الجدران التي كانت لا تزال منتصبة. انزلقنا بمحاذاة المنزل المجاور وعبرنا من فوق حظائرنا. لكن ما إن وصلنا إلى الشارع حتّى أطلقنا صيحة، إذ استولى التيّار علينا من جديد وجرفنا دافعاً الطوف نحو المنزل

مرّة أخرى. سيطر علينا الدوار لبضع ثوانٍ. راحت المياه تتقاذفنا مثل ورق شجر بسرعة متزايدة، إلى أن انتهت صيحاتنا مع ارتطام الطوف بالقرميد. تحطّم مركبنا، تفكّك وراحت الألواح الخشبيّة تدور، وسقطنا جميعاً في المياه. أجهل ما حصل عندها. أذكر فقط أنّني لمحت، وأنا أهوي، العمّةَ آغات ممدّدة في المياه وسط تنّورتها المنفلشة، تغوص ويغرق رأسها إلى الخلف دون أن تتخبّط.

فتحت عينيّ على ألم حادّ. كان بيار يشدّني من شعري على طول القرميد. بقيت ممدّداً، محملقاً ببلاهة. غطس بيار من جديد. فوجئت وسط ذهولي برؤية غاسبار يظهر في الموقع الذي اختفى فيه شقيقي. كان الشابّ يحمل فيرونيك بين ذراعيه. وبعدما وضعها بجانبي، غطس من جديد وسحب ماري، وجهها شاحب كالشمع، متيبّسة بلا حراك حتّى أنّني خلتها ميتة. ثمّ قفز مرّة أخرى، لكنّه هذه المرّة راح يبحث عبثاً. كان بيار انضمّ إليه. أخذا يتشاوران، يتبادلان تعليمات لا أسمعها. وحين تسلّقا السطح مجدّدا مرهقَين، صرخت:

«ماذا عن العمّة آغات! وجاك! وروز!»

هزّا رأسيهما. من عيونهما تساقطت دموع غزيرة. فهمت من الكلمات القليلة التي تفوّها بها أنّ جاك اصطدم بعارضة حطّمت رأسه. وروز بقيت متشبّثة بجثّة زوجها التي أغرقتها معها. العمّة آغات لم تظهر من جديد على سطح الماء. ظننّا أنّ التيّار دفع جثتها فدخلت المنزل في الأسفل من نافذة مفتوحة.

رفعت صدري ونظرت إلى السطح، إلى الموقع حيث كانت أيميه متشبّثة قبل دقائق قليلة. لكنّ المياه كانت تواصل ارتفاعها ولم يعد يُسمع صراخ أيميه. لمحتُ فقط ذراعيها المشدودتين اللّتين كانت ترفعها لحمل

طفليها فوق السيول. ثمّ غمرت المياه كلّ شيء وأغلقت البركة صفحتها في نور القمر الهامد.

5

لم نعد سوى خمسة على السطح. كانت المياه لا تكاد تترك لنا سوى شريط ضيّق على طول قمّة القرميد. اقتلع التيّار للتوّ إحدى المدخنتين. ترتّب علينا حمل فيرونيك وماري اللّتين أغمي عليهما وإبقاؤهما واقفتين حتّى لا تبتلّ سيقانهما. استيقظتا أخيراً من غيبوبتهما، وازداد هلعنا حين رأيناهما مبتلّتين ومرتعشتين تصيحان من جديد أنّهما لا تريدان أن تموتا. أخذنا نطمئنهما قدر الإمكان كمن يطمئن طفلاً، مؤكّدين لهما أنّنا لن ندع الموت يخطفهما. لكنّهما لم تعودا تصدّقان كلامنا، كانتا على يقين من أنّهما سوف تموتان لا محالة. وكلّما وردت كلمة «موت» مثل جرس يقرع ناعياً، اصطكّت أسنانهما فزعاً وتعانقتا متشبّثتين الواحدة بالأخرى.

كانت تلك النهاية. من القرية المهدومة لم يعد ينبثق حولنا سوى بضعة أجزاء من جدران. وحدها الكنيسة كانت ترفع برج جرسها سالماً لم يطله الدمار، ولا تزال أصوات تتصاعد منه، همس ناجين في مأمن. في البعيد كانت السيول الهائلة المنسابة تهدر. لم نعد حتّى نسمع البيوت تتهدّم باعثةً جلجلة مثل عربة تفرغ حمولة من الحصى دفعة واحدة. إنّه استسلام تامّ، غرق وسط المحيط، على بعد آلاف الكيلومترات من اليابسة.

خلنا للحظة أنّنا سمعنا حفيف مجاذيف إلى اليسار، مثل طرق خفيف منتظم راح يزداد وضوحاً. آه! يا لموسيقى الأمل! انتصبنا جميعاً متقصّين الفراغ من حولنا، حابسين أنفاسنا. لم نميّز شيئاً. كانت البركة الصفراء تمتدّ، تتخلّلها ظلال سوداء، تبعثها قمم أشجار غمرها الطوفان أو بقايا

جدران منهارة، لكنّ أيّاً من تلك الظلال لم يكن يتحرّك. ثمّ لاحت قطع حطام، ضمّات أعشاب، براميل فارغة، بعثت في نفوسنا فرحة خائبة، فكنّا في كلّ مرّة نلوّح بمناديلنا إلى أن نتنبّه لخطئنا، فيسيطر علينا من جديدٍ الخوف من ذلك الصوت الذي كان لا يزال ينفذ إلى آذاننا من غير أن نكتشف مصدره.

«آه! إنّني أراه! صرخ غاسبار فجأةً. انظروا! هناك، قارب كبير!»

مدّ ذراعه مشيراً لنا إلى نقطة بعيدة. لم أكن أرى شيئاً، ولا بيار كذلك. لكنّ غاسبار أصرّ معانداً، مؤكّداً أنه قاربٌ بالفعل. سمعنا خبط المجاذيف بمزيد من الوضوح. وفي النهاية، لمحناه نحن أيضاً. كان ينساب ببطء وكأنّه يطوف من حولنا دون أن يقترب. أذكر أنّنا أُصبنا عند هذه اللّحظة بالجنون. رحنا نلوّح رافعين أذرعنا مهتاجين، نصرخ ونزعق إلى أن بُحّت حناجرنا. وكنّا نشتم القارب ونلعنه، ننعته بالجبن. وهو أسود وصامت، يدور ببطء متزايد. هل كان قارباً حقّاً؟ ما زلت حتّى الآن غير واثق من ذلك. رأيناه يتوارى، حاملاً معه أملنا الأخير.

عندها توقّعنا أن تبتلعنا المياه في أيّ ثانية مع انهيار المنزل. بات البيت مقوّضاً، لا يسنده على الأرجح سوى جدار واحد ضخم سوف يهوي وينهار معه البناء برمّته. لكنّ ما كنت أخشاه بصورة خاصّة، هو أن أشعر بالسطح يتهاوى تحت ضغط وزننا. ربّما كان المنزل سيصمد طوال اللّيل، لكنّ القرميد أخذ يتداعى تحت صدمات الرافدات التي خبطته وأحدثت فيه فجوات. لجأنا إلى اليسار، فوق دعامات كانت لا تزال متينة. ثمّ بدا لنا أنّ تلك الدعامات أخذت تضعف بدورها. لا شكّ أنّها ستغوص في الماء إن نحن بقينا خمستنا متجمّعين فوق مساحة ضيّقة كتلك.

كان شقيقي بيار قد وضع الغليون مجدّداً منذ بضع دقائق بين شفتيه،

في حركة لاشعوريّة. وكان يفتل شاربيه، شاربَي العسكريّ السابق ذينك، مقطّباً ومتمتماً كلاماً غير مفهوم. بدأ يفقد صبره ويغضب أمام ذلك الخطر المتزايد الذي كان يحاصره دون أن يسعه مواجهته بشجاعته. بصق مرّتين أو ثلاث مرّات في الماء بحنق وازدراء. وإذ واصلنا غوصنا البطيء، حسم أمره وانحدر على السطح.

«بيار! بيار!» صحت به، متخوّفاً ممّا كنت أحدسه.

التفتَ وقال لي بهدوء:

«وداعاً لويس... افهمني، المسألة أطول من أن أحتملها. هذا سيترك لكم بعض المساحة».

رمى غليونه أوّلاً في المياه، ثمّ قفز بدوره وهو يقول:

«كفى! سئمت!»

لم يظهر بعد ذلك. لم يكن يجيد السباحة. وفي مطلق الأحوال، فهو استسلم بالتأكيد للتيّار، وقد تحطّم قلبه لرؤية ما حلّ بنا من خراب وموت، رافضاً البقاء على قيد الحياة بعد فراق كلّ مَن غرقوا.

دقّت ساعة الكنيسة الثانية صباحاً. أوشك اللّيل على نهايته، ذلك اللّيل الفظيع المثقل بالموت البطيء والدموع. المساحة الجافّة تحت أقدامنا كانت تتقلّص تدريجيّاً وسط همس المياه الجارية ولغط الأمواج الخفيفة التي تلهو وتتدافع لتداعب القرميد مخاتلةً. التيّار غيّر وجهته من جديد والحطام صار يعبر إلى يمين القرية، عائماً ببطء وكأنّ المياه التي شارفت على بلوغ أعلى مستواها استكانت أخيراً، متعبة ومتكاسلة.

فجأةً خلع غاسبار حذاءيه وقميصه. كنت أراه منذ لحظة يشبك يديه، يسحق أصابعه. وإذ نظرت إليه مستفسراً، قال:

«اسمع جدّي، سوف أموت من الانتظار، لم يعد بوسعي التريّث

هنا... دعني أتصرّف، سوف أنقذها».

كان يتكلّم عن فيرونيك. أردت أن أقاوم فكرته. فهو لن يجد القوّة الكافية لحمل الفتاة حتّى الكنيسة. غير أنّه تعنّت.

«بلى! بلى! ذراعاي متينتان، أحسّ بي قويّاً... سوف ترى!»

أضاف أنّه يفضل أن يحاول إنقاذها حالاً، أنّه يشعر بنفسه يضعف كالطفل الواهن وهو ينصت إلى المنزل يتفتّت هكذا تحت أقدامنا. وكان يردّد:

«إنّني أحبّها، سوف أنقذها».

بقيت صامتاً وضممت ماري إلى صدري. ظنّ أنّني آخذ عليه أنانيّة حبّه، فتمتم:

«سوف أعود لأحمل ماري، أقسم لك على ذلك. سوف أجد قارباً وأنظّم عمليّة الإنقاذ كيفما تيسّر... ثق بي يا جدّي».

لم يحتفظ سوى ببنطاله. راح يعطي فيرونيك توصيات مقتضبة سريعة خافضاً صوته: عليها ألّا تتخبّط في الماء، بل أن تستسلم بلا حراك، والأهمّ ألّا تخاف. وعند كلّ جملة، كانت الفتاة تجيب موافقة، رافعة عينيها التائهتين. وفي نهاية الأمر، رسم على صدره إشارة الصّليب رغم أنّه لم يكن عادةً تقيّاً، وانزلق على السطح وهو يمسك فيرونيك بحبل ربَطه تحت ذراعيها. أطلقَتْ صيحة حادّة، خبطَت المياه بأطرافها، ثمّ غابت عن الوعي فاقدةً أنفاسها.

«هذا أفضل، هتفَ لي غاسبار. أنا الآن أتحكّم بها».

يمكن تصوّر قلقي وأنا أتابعهما بنظري. كنت أميّز أدنى حركات غاسبار على سطح المياه البيضاء. كان يسند الفتاة بواسطة الحبل الذي لفّ طرفه الآخر حول عنقه، فيحملها على هذا النحو، نصف جسمها

ملقىً على كتفه اليمنى. ذلك الثقل الكبير كان يغلبه أحياناً فيغوص في الماء، لكنّه يتقدّم، باذلاً قوّة جبّارة تفوق الطاقة ليواصل السباحة. لم تعد تساورني شكوك. كان قد قطع ثلث المسافة حين اصطدم بجدار خفيّ تحت الماء. كانت الصدمة فظيعة. اختفى الاثنان، ثمّ رأيته يظهر من جديد وحيداً. لا بدّ أنّ الحبل انقطع. غطس مرّتين، وطفا أخيراً حاملاً فيرونيك على ظهره. لم يعد لديه حبل ليجرّها وكان وزنها يشدّه أكثر إلى الأسفل. لكنّه واصل التقدّم. كانت ارتعاشات تهزّني كلّما اقترب بها من الكنيسة. فجأةً، أردت أن أصرخ. رأيت رافدات تنقضّ عليهما مواربةً. بقيتُ فاغر الفاه إذ فصلهما ارتطام جديد، وأغلقت المياه صفحتها عليهما.

اعتباراً من تلك اللّحظة، بقيت مسمّراً كالمخبول. وحدها غريزة بهيميّة ظلّت حيّة في داخلي، تسهر على بقائي. حين تتقدّم المياه، كنت أتراجع. وفي هذا الذهول الخدر، أسمع قهقهات دون أن أتبيّن من الذي كان يضحك هكذا بجانبي. طلع النور، كان فجراً مشعّاً باهراً. الجو طيّب، نديّ وهادئ كأنّنا على ضفّة بحيرة تستيقظ قبل طلوع الشمس. لكنّ الضحكة لا تزال تتردّد في أذنيّ. التفتّ، فوجدت ماري، واقفة في ملابسها المبلّلة. كانت تلك قهقاتها.

آه! كم كانت عذبة وجميلة، تلك الطفلة الحبيبة المسكينة في ذلك الصباح الباكر! رأيتها تنحني، تتلقّف قليلاً من الماء في قعر يدها وتغسل بها وجهها. ثمّ لوت شعرها الأشقر الرائع وربطته خلف رأسها. لا شكّ أنّها كانت تغتسل، تخال نفسها في غرفتها الصغيرة صباح يوم أحد، حين يبعث جرس الكنيسة رنينه الفرح. واصلت مقهقهة بضحكتها الطفوليّة وعينيها الصافيتين ووجهها المبتهج.

رحت أضحك معها، وقد انتقل جنونها لي. الذعر أفقدها صوابها،

وتلك كانت نعمة من السماء، من شدّة ما بدت مسرورة بنقاوة ذلك الفجر الربيعيّ.

تركتها تستعجل دون أن أفهم، وأنا أهزّ رأسي بحنان. كانت ما انفكّت تغتسل وتستعدّ، ثمّ حين ظنّت أنّها باتت جاهزة للرحيل، أنشدت إحدى أجمل تراتيلها بصوتها البلّوريّ الرقيق. لكنّها توقّفت بعد لحظة وصرخت كأنّها تردّ على صوت يناديها لا يسمعه سواها:

«إنّني قادمة! إنّني قادمة!»

أكملت ترتيلتها، ثمّ انحدرت على السطح ودخلت المياه التي غمرتها بهدوء، بلا أدنى صدمة أو انتفاضة. لم تفارق الابتسامة وجهي. كنت أتأمّل بحبور المكانَ الذي كانت فيه قبل أن تختفي.

لا أذكر شيئاً بعد ذلك. كنت وحيداً على السطح. المياه ارتفعت أكثر. كان هناك مدخنة لا تزال منتصبة وأعتقد أنّني تشبّثت بها بكلّ ما تبقّى لي من قوّة، مثل حيوان يأبى أن يموت. وبعد ذلك، لا شيء، لا شيء على الاطلاق، مجرّد ثقب أسود، العدم.

6

لماذا لا أزال هنا؟ قيل لي إنّ أهل سانتان جاؤوا قرابة الساعة السادسة في قوارب ووجدوني ممدّداً على مدخنة، مغمى عليّ. المياه في قسوتها لم ترحمني وتبتلعني بعدما ابتلعت عائلتي، في وقت لم أعد أحسّ فيه بمصيبتي.

أنا من تشبّث بالحياة، أنا العجوز الهرم. كلّ الآخرين رحلوا، الأطفال الذين كانوا في الأقمطة، والفتيات اللّائي كنّ في سن الزواج، والأزواج الفتيان، والأزواج القديمون. ولا أزال أنا على قيد الحياة مثل عشبة بريّة

متصلّبة ويابسة، متجذّرة في الحصى! لو كان لي الشجاعة، لكنت فعلت مثل بيار، لكنت قلت لنفسي: «كفاني، وداعاً!» ورميت نفسي في الغارون حتّى أرحل من حيث رحلوا جميعاً. لم يعد لي ولد، بيتي حطام، وحقولي خراب. آه! في المساء، حين كنّا نجلس جميعاً حول المائدة، الشيوخ في الوسط، والأصغر سنّاً مصطفّون الواحد تلو الآخر، فتغمرني تلك الفرحة وتحيطني بدفئها! آه! أيّام الحصاد وقطاف العنب، حين كنّا ننكبّ جميعاً على العمل فنعود في المساء إلى المنزل، صدورنا تفيض فخراً واعتزازاً بثروتنا! يا لروعة الأطفال وسخاء الكروم، تألّق الفتيات وجمال السنابل، بهجة شيخوختي، المكافأة الحيّة لحياتي برمّتها! الآن وقد مات كلّ هذا، لماذا تريدني يا إلهي أن أحيا؟

لا عزاء لي. ولا أريد مساعدة. سأهب حقولي لأهل القرية الذين ما زال لديهم أولاد. هم سيجدون الشجاعة الكافية لإزالة الحطام عن الأرض وزرعها من جديد. حين لا يكون للواحد أولاد، تكفيه زاوية صغيرة ليموت فيها.

كان لديّ رغبة واحدة، رغبة أخيرة. وددت لو أجد جثث أفراد عائلتي لأدفنهم في مقبرتنا، تحت بلاطة حيث أنضمّ إليهم فيما بعد. قيل إنّهم عثروا في تولوز على أعداد من الجثث التي جرفها النهر. قرّرت القيام بالرحلة إلى هناك.

يا للكارثة المروّعة! حوالى ألفي منزل منهار، سبعمئة قتيل، كلّ الجسور اقتلعتها المياه، حيّ بكامله مهدّم، مطمور تحت الوحل، مآسٍ فظيعة، عشرون ألف بائس أشباه عراة يتضوّرون جوعاً، مدينة تنتشر فيها رائحة الموت المنبعثة من الجثث، تعيش في ذعر خوفاً من انتشار التيفوس. والحِداد في كلّ مكان، الشوارع تحتلّها مواكب تشييع، والصدقات عاجزة

عن تضميد الجراح. لكنّني كنت أمشي من غير أن أبصر شيئاً، متقدّماً وسط كلّ تلك الأنقاض. كان لي أنقاضي، كان لي موتاي، وتلك الخسارة كانت تسحقني.

قيل لي إنّه تم انتشال الكثير من الجثث دُفنت على عجل في صفوف طويلة في إحدى زوايا المقبرة، لكنّهم حرصوا على تصوير المجهولين بينها. عثرت بين تلك الصور الكئيبة على صور غاسبار وفيرونيك. بقي العاشقان المخطوبان متمسّكين أحدهما بالآخر في معانقة ولهة، يتبادلان في الموت قبلة زفافهما. كانا متشبّثين أحدهما بالآخر بكلّ قوّة أذرعهما المتيبّسة، حتّى لقد توجّب كسر أطرافهما للفصل بينهما. لذلك صوّروهما معاً، ومعاً يرقدان في التراب.

لم يعد لديّ سواهما. تلك الصورة الفظيعة، هذان الطفلان الفتيّان المتفخان المشوّهان، لا يزال وجهاهما الشاحبان يحفظان بطولة حبّهما. أنظر إليهما وأبكي.

نانتاس[1]

1

كانت الغرفة التي يسكنها نانتاس منذ وصوله من مرسيليسا في الطابق الأخير من منزل في شارع لِيل، بجانب قصر البارون دانفيلييه، العضو في مجلس الدولة. ذلك المنزل كان ملكاً للبارون الذي شيّده على أملاك عامّة سابقة. بوسع نانتاس إن هو انحنى أن يلمح زاوية من حديقة القصر، حيث ترتفع أشجار ظليلة رائعة. وخلف القمم الخضراء كانت فرجة في الأفق تكشف عن باريس، فيتراءى خلالها مجرى السين، وقصر التويلري، ومتحف اللّوفر، وتعاقب الأرصفة على النهر، وبحر من السطوح، وصولاً إلى أقاصي المدينة عند مقبرة بير لاشيز.

كانت عليّة ضيّقة، فيها كوّة مشقوقة بين الصفائح الصخريّة التي تكسو السطح. أثّثها نانتاس ببساطة بسرير، وطاولة وكرسيّ. نزل فيها بحثاً عن مسكن بخس الإيجار، مصمّماً على المكوث هناك طالما أنّه لم يعثر على وظيفة ما. قلّما كان يكتئب لرؤية ورق الجدران القذر، والسقف

(1) كتب زولا قصّة «نانتاس» في أيلول 1878 ونشرت أوّلاً في *Le Messager de l'Europe* في تشرين الأوّل تحت عنوان «الحياة المعاصرة» *La Vie contemporaine*، ثمّ صدرت لأوّل مرّة بالفرنسية تحت عنوانها النهائيّ في *Le Voltaire* في عدد 19–26 تمّوز 1879. وهي القصة الثانية في مجموعة «ناييس ميكولان» *Naïs Micoulin* الصادرة عن دار شاربانتييه في تشرين الثاني 1883. فيها أوجه شبه عديدة مع «الجشع»، الرواية الثانية في سلسلة «آل روغون ماكار». زولا نفسه أشار إلى الرابط بينهما في مقدّمته عام 1887 لمسرحيّة «رينيه» *Renée* التي استوحاها من روايته.

الأسود، والبؤس والعري في ذلك الجُحر الخالي من مدفأة. منذ أن بات يغفو على منظر اللّوفر وقصر التويلري، وهو يشبّه نفسه بجنرال يبيت في نزل تعس على حافة طريق، أمام المدينة الشاسعة الثريّة التي سيغزوها في اليوم التالي.

قصّة نانتاس قصيرة. فهو ابن بنّاء من مرسيليا، باشر دروسه في مدرسة تلك المدينة، مدفوعاً في ذلك بحنان والدته الطموح، وهي التي تحلم بأن تجعل منه سيّد مجتمع. والداه أنفقا كلّ ما لديهما حتّى يوصلاه إلى شهادة الباكالوريا.

ثمّ توفّيت والدته، فاضطرّ نانتاس إلى القبول بوظيفة وضيعة عند أحد التجّار، قضى هو في محلّه اثنتي عشرة سنة سئم فيها رتابة حياته. لكان هربَ عشرين مرّة لولا ذلك الحسّ بالواجب البنويّ الذي استبقاه في مرسيليا، قرب أبيه المقعد منذ أن سقط عن سقالة. بات عليه أن يتحمّل كلّ النفقات ويسدّ كلّ الحاجات. لكنّه لدى عودته من العمل ذات مساء، وجد البنّاء ميتاً، وغليونه لا يزال ساخناً بجانبه. بعد ثلاثة أيّام، باع المقتنيات القليلة البالية التي كانت العائلة تملكها وغادر إلى باريس، وفي جيبه مئتا فرنك.

كان نانتاس يمتلك طموحاً متعنّتاً لتحقيق الثروة، ورثه من والدته. كان فتىً صاحب قرار سريع وإرادة باردة. كان يقول عن نفسه منذ صغره إنّه قوّة خالصة. غالباً ما أثار السخرية حين كان يبوح بها في قلبه مستأمِناً ويردّد لازمته المفضّلة «أنا قوّة خالصة»، لازمة تبدو مضحكة حين يراه الواحد في معطفه الأسود الرثّ المشقّق عند الكتفين، بكمّيه اللّذين لا يغطّيان معصميه. شيئاً فشيئاً جعل من القوّة عقيدة له، فلا يرى سواها في العالم، واثقاً من أنّ الأقوياء هم المنتصرون مهما كان. يكفي للواحد بنظره

أن تكون له الإرادة والقدرة. أمّا الباقي، فلا قيمة له.»[1]

حين كان يتنزّه وحيداً يوم الأحد في ضاحية مرسيليا، كان يشعر بالعبقريّة تسكنه. وكأنّ في أعماق كيانه حافزاً فطريّاً يدفعه إلى الأمام. ثمّ يعود ويتناول مع والده المقعد طبقاً رديئاً من البطاطس، وهو يعلّل نفسه بيوم آتٍ لا محالة سيجد فيه مكانة لنفسه في ذلك المجتمع حيث لا يزال في الثلاثين من عمره نكِرة. لم تكن تلك رغبة وضيعة، نهماً إلى ملذّات بذيئة، بل إحساساً في غاية الوضوح بذكاء وإرادة في غير محلّهما، تعتزمان الارتقاء بهدوء إلى هذا المحلّ، مدفوعتين بحاجة طبيعيّة إلى إيجاد منطق للأمور.

ما إن وطئت قدماه شوارع باريس حتّى ظنّ نانتاس أنّه يكفيه أن يمدّ يديه ليجد وظيفة تليق به. باشر حملة البحث في اليوم نفسه. كان يحمل رسائل توصية سلّمها كلّاً على عنوانها. كما دقّ أبواب بعض أبناء منطقته، علّهم يساعدونه. لكنّ شهراً انقضى دون أن يحقّق أيّ نتيجة. قال له بعضهم إنّ الظروف غير مؤاتية. وقطع آخرون له وعوداً لم تتحقّق. وفي هذه الأثناء كانت صرّته الصغيرة تفرغ. لم يعد لديه سوى عشرين فرنكاً على أبعد تقدير. وهذا المبلغ كان ينبغي أن يكفيه ليعيش شهراً كاملاً. كان يأكل الخبز الحافّ ويذرع باريس من الصباح إلى المساء، فيعود بعدها وينام في غرفته دون إشعال أيّ نور، منهكاً وخالي الوفاض. لم تكن عزيمته تضعف، غير أنّ غضباً مكتوماً يتصاعد في نفسه. كان مصيره

(1) إنّ الأنموذج الذي رُسِمت عليه شخصيّة نانتاس هنا هو زولا نفسه الذي كان يُشيد بذكر العمل والقوّة والعزيمة انطلاقاً من مثاله ومن مسيرته الشخصيّة. كتبَ: «قولوا لأنفسكم ما يلي: إن كنتم أصحاب موهبة وقوّة، فلا بدّ لكم من إدراك المجد والثروة» («المال في الأدب»، في كتابه «الرواية التجريبيّة»).

يبدو له غير منطقيّ وغير عادل(1).

في إحدى اللّيالي، عاد نانتاس دون أن يكون تناول أيّ طعام. في اليوم السابق استهلك آخر كسرة خبز متبقّية له. نفد ماله، ولا صديق لإقراضه عشرين فلساً. هطل المطر طوال النهار، مطر باريس ذاك الرماديّ المثلج، وكان نهر من الوحل يسيل في الشوارع. كان نانتاس مبلّلاً بكامله. ذهب في ذلك النهار إلى بيرسي، ثمّ إلى مونمارتر، حيث قيل له إنّه سيجد وظائف. لكنّ المنصب في بيرسي لم يعد شاغراً، وفي مونمارتر لم يجدوا خطّه بمستوى الوظيفة. تلك كانت آخر فرصتين متبقّيتين له. كان سيقبل بأيّ عمل، وهو على ثقة بأنّه سيجني ثروته في أوّل وظيفة تتاح له. لم يكن يطلب في بادئ الأمر إلّا خبزاً، ما يعتاش منه في باريس، وقطعة أرض، أيْ قطعة يبني عليها فيها بعد حجراً بعد حجر. مشى متباطئاً قاطعاً المسافة من مونمارتر إلى شارع لِيل، والمرارة تغمر قلبه. المطر توقّف، وعلى الأرصفة حشد مستعجل يدفعه. توقّف دقائق أمام محلّ صرّاف. ربّما كانت خمسة فرنكات ستكفي ليصبح ذات يوم سيّداً على كلّ ما كان حوله. خمسة فرنكات تكفي لسدّ نفقات ثمانية أيّام. وفي ثمانية أيّام، يمكن إنجاز الكثير. وفيما كان يحلم مطرقاً على هذا النحو، رشّته عربة عابرة، فتناثر الوحل على جبينه واضطرّ إلى مسحه. حثّ خطاه كازّاً على أسنانه، وقد تملّكته رغبة جامحة في الانهيار بقبضتيه على الحشد الذي يعترضه على الطرقات، انتقاماً لغباء القدر. كادت حافلة أن تدهسه في شارع ريشليو. وصل إلى وسط ساحة كاروسيل، فرمق قصر التويلري بنظرة حسد. على جسر سان-بير، أرغمته فتاة صغيرة جميلة الهندام على الانحراف

(1) في بداية الفصل الثاني من «الجشع»، يروي زولا بالطريقة نفسها وصول أريستيد روغون إلى باريس.

عن الخطّ المستقيم الذي كان يسير فيه بتصلّب خنزير بريّ تطارده جموع. ذلك الانعطاف عن طريقه بدا له ذروة الذلّ. حتّى الأطفال يمنعونه من المرور! وبعدما لجأ أخيراً إلى غرفته، مثل حيوان جريح يعود إلى جحره ليموت فيه، ارتمى متثاقلاً على كرسيّه، مسحوقاً، يتفحّص بنطاله الذي تيبّس تحت متناثر الوحل، وحذاءه البالي الذي تنساب منه المياه وتتجمّع بركةً على الأرض.

هذه المرّة، إنّها فعلاً النهاية. تساءل نانتاس كيف عساه يقتل نفسه. كبرياؤه لا يزال منتفضاً، وهو يعتبر أنّ انتحاره سيكون خيرَ عقابٍ لباريس. كيف يُعقل أن يكون الواحد قوّة خالصة، أن يشعر بطاقة في داخله، ولا يجد من يحدسه، من يعطيه أوّل فلس يحتاج إليه! بدا له ذلك على قدر فظيع من الحماقة، حتّى أنّ كيانه انتفض له بكامله غضباً. كان أسف هائل يعصر نفسه حين تقع عيناه على ذراعيه العديمتَي الجدوى. ليس هناك من عمل يخيفه، وسيقدر أن يرفع عالماً كاملاً برأس خنصره. ورغم ذلك، ها هو هنا، منبوذاً في زاويته، عاجزاً تماماً، يفترس نفسه مثل أسد في قفص. ثمّ ما لبث أن هدأ، وجد في الموت عظَمة. أخبروه وهو صغير قصّة مبتكر بنى آلة رائعة، وفي أحد الأيّام حطّمها بمطرقة أمام حشد غير مبالٍ. حسناً! إنّه ذلك الرجل، يحمل في نفسه قوّة جديدة، ماكينة نادرة بذكائها وعزيمتها، وسوف يدمّر هذه الآلة، سوف يحطّم رأسه على حجارة الشارع.

كانت الشمس تغيب خلف الأشجار العالية المنتصبة أمام قصر دانفيلييه، شمس خريفيّة تلهب أشعّتها الذهبيّة أوراق الأشجار الصفراء. نهض نانتاس، وكأنّ وداع النجم هذا يناديه. سوف يموت، إنّه بحاجة إلى نور. انحنى لوهلة. غالباً ما كان يلمح من بين الأغصان الوارفة، عند

منعطف أحد المسالك، فتاة شقراء ممشوقة تمشي في خيلاء بمشية أميرة. قلّما كان رومنسيّاً، فقد تخطّى السنّ التي يحلم فيها الفتيان في العليّات بآنسات راقيات رهيفات يأتينهم بعشقٍ ولِهٍ وثروات طائلة. لكن شاءت الصدف في تلك اللّحظة الأخيرة، لحظةِ الانتحار، أن عاودته فجأةً ذكرى تلك الفتاة الشقراء المتغطرسة. يا ترى ما اسمها؟ لكنّه في الوقت نفسه شدّ قبضتيه، وهو لا يكنّ سوى الحقد لسكان هذا القصر الذي يكشف له من نوافذه الموارَبة زوايا غرف يعمّها ترف صارم. تمتم في فورة حنق:

«آه! سوف أبيع نفسي، أبيع نفسي إن ناولني أحد أوّل مئة فلس من ثروتي القادمة!»

فكرة بيع نفسه تلك شغلته لبعض الوقت. لو كان هناك في مكان ما مكتب إقراض بالرهن يقرض أموالاً لقاء العزم والطاقة، لكان ذهب إليه. تصوّر أسواقاً، سياسيّاً يأتي لشرائه حتّى يستخدمه أداةً، مصرفيّاً يأخذه ليستغلّ ذكاءه في أيّ وقت يحتاجه، وهو يقبل، في ازدرائه للكرامة، قائلاً في سرّه إنّه يكفي أن يكون قويّاً وأن ينتصر ذات يوم. ثمّ ابتسم. هل يجد الواحد من يشتريه؟ المحتالون الذين يترصّدون الفُرَص يقضون في بؤسهم دون أن يعثروا على من يشتريهم. خاف أن يكون جباناً، أن يكون يبتكر بأفكاره هذه وسائل يتلهّى بها. جلس من جديد، مصمّماً على أن يرمي نفسه من النافذة ما إن يخيّم ظلام اللّيل.

غير أنّه كان متعباً حتّى أنّه غفا على كرسيّه. استيقظ فجأةً عند سماع أصوات. كانت تلك هي البوّابة تفتح الباب لسيّدة.

«سيّدي، بادرته، سمحْتُ لنفسي أن أقود إليك...»

تنبَّهَت إلى عدم وجود أيّ ضوء في الغرفة، فنزلت على وجه السرعة لإحضار شمعة. بدا واضحاً أنّها تعرف السيّدة التي كانت ترافقها،

فتعاملها بمزيج من المراعاة والاحترام.

«تفضّلا، قالت منسحبةً. يمكنكما التحدّث، لن يزعجكما أحد».

نانتاس الذي استيقظ جافلاً، كان ينظر إلى السيّدة بدهشة. رفعت بُرقعها الصّغير عن وجهها. كانت في حوالى الخامسة والأربعين من العمر، صغيرة القامة سمينة، وجهها طفوليّ وأبيض كوجه عجوز ورعة. لم يسبق أن رآها من قبل. حين قدّم لها كرسيّه الوحيدة سائلاً إيّاها بعينيه، عرّفته على نفسها:

«أُدعى الآنسة شوين... جئت سيّدي لأبحث معك مسألة هامّة».

جلس في المكان الوحيد المتبقّي له، على حافة السرير. اسم الآنسة شوين لا يعني شيئاً له. قرّر الانتظار حتّى توضّح مبتغاها. لكنّها لم تكن على عجلة من أمرها. استعرضت بنظرةٍ أرجاء الغرفة الضيّقة، وبدت متردّدة في كيفيّة الدخول في صلب الموضوع. تكلّمت أخيراً بصوت عذب، مرفقةً الجمل الحسّاسة من كلامها بابتسامة.

«جئتك سيّدي صديقةً... تلقّيت معلومات مؤثّرة جدّاً بشأنك. أرجو منك بالطبع ألّا تظنّ أنّني أتجسّس عليك. ليس هناك خلف كلّ ذلك سوى رغبة كبيرة في إسداء خدمة لك. أعرف كم كانت الحياة قاسية عليك حتّى الآن، وبأيّ قدر من الشجاعة قاومتَ بحثاً عن مكانة لك، وما هي اليوم النتيجة المؤسفة لكلّ هذه الجهود الحثيثة... عذراً مرّة أُخرى سيّدي لتدخّلي على هذا النحو في حياتك، أقسم لك أنّه التعاطف وحده...»

لم يقاطعها نانتاس، وقد أثارت فضوله. خطر له أنّ البوّابة هي التي أمدّتها بكلّ هذه التفاصيل. كان بوسع الآنسة شوين مواصلة كلامها، غير أنّها كانت تبحث جاهدةً عن المزيد من الإطراء والمديح، وعن

أساليب متملّقة للتعبير عمّا تريد قوله.

«إنّك فتى ذو مستقبل باهر سيّدي. سمحت لنفسي أن أتابع محاولاتك، وفوجئت كثيراً بتصميمك الجديد بالإعجاب في المصيبة. باختصار، يبدو لي أنّك سوف تمضي بعيداً إن مدّ لك أحدٌ يده».

توقّفت مرّة جديدة. كانت تنتظر كلمة. ظنّ الفتى الشابّ أنّ تلك السيّدة جاءت تعرض عليه وظيفة. أجاب بأنّه سوف يقبل بأيّ شيء. لكنّها سألته بصراحة فجّة بعدما كسرت الجليد بينهما:

«هل لديك مانع في أن تتزوّج؟

- أتزوّج؟ صاح نانتاس. يا إلهي! أيّ امرأة تقبل بي زوجاً لها سيّدتي؟... ستكون تلك فتاة مسكينة لن أتمكّن حتّى من إطعامها.

- لا، بل فتاة شابّة رائعة الجمال، كريمة النسل، تضع دفعة واحدة بين يديك سبل الوصول إلى أرقى المراتب».

غابت الابتسامة عن وجه نانتاس.

«إذاً ما هي الصفقة؟ سأل خافضاً صوته بطريقة عفويّة.

- تلك الفتاة حامل، ويجب الاعتراف بالطفل»، قالت الآنسة شوين بصراحة، متغاضية عن تنميق كلامها وتجميله للمضيّ أسرع في الاتفاق.

ردّ فعل نانتاس الأوّل كان أن يطرد السمسارة.

«ما تعرضينه عليّ شائن، تمتمَ هو.

- آه! شائن؟ احتجّت الآنسة شوين، مستعيدةً صوتها المعسول. لا أقبل بهذه الكلمة البشعة... الحقيقة سيّدي أنّك سوف تنقذ عائلة من اليأس. الوالد يجهل المسألة تماماً، الحمل ما زال في بدايته، وأنا التي ابتكرت فكرة تزويج الفتاة المسكينة بأسرع ما يمكن

والتعريف بالزّوج على أنّه أبو الطفل. أعرف الوالد، سوف يموت لو علمَ بذلك. خطّتي ستخفّف من حدّة الصدمة، سيظنّ الأمر إصلاحاً للمشكل... المصيبة أنّ الوالد الحقيقيّ الذي أغوى الفتاة متزوّج. آه! سيّدي، بعض الرجال يفتقرون إلى أدنى حسّ أخلاقيّ...»

كان بوسعها الاسترسال طويلاً على هذا النحو، لكنّ نانتاس لم يعد يستمع إليها. لِمَ يرفض؟ ألم يكن منذ قليل يعرض نفسه للبيع؟ حسناً! جاء من يشتريه! الأمر مبادلة، يعطي ويأخذ. هو يعطي اسمه، ويحصل على مركز. إنّه عقد كغيره من العقود. نظر إلى بنطاله المبقّع بوحل باريس، تذكّر أنّه لم يتناول أيّ طعام منذ الأمس، عاد إليه كلّ غضب شهرين من البحث والخيبة والإذلال. أخيراً! سوف يطأ هذا العالم الذي ينبذه ويدفعه إلى الانتحار!

«إنّني موافق»، قال باقتضاب بلا مواربة.

ثمّ طالب الآنسة شوين بتفسيرات واضحة. ماذا تريد لقاء وساطتها؟ صاحت مستهجنةً أنّها لا تريد شيئاً، لكنّها في نهاية المطاف طلبت عشرين ألف فرنك من أصل المخصّصات التي ستقدّم للشابّ. وحين رأت أنّه لا يساومها، انشرحت واستفاضت في ثرثرتها.

«اسمع، أنا التي فكّرت فيك. الفتاة لم ترفض حين ذكرت اسمك... آه! إنّها صفقة ممتازة، سوف تشكرني لاحقاً. كان بوسعي العثور على رجل ذي لقب، أعرف أحدهم، كان سيقبّل يديّ ممتناً. لكنّني فضّلت أن أختار لهذه الطفلة المسكينة شابّا من خارج المجتمع الراقي. سيبدو الأمر أكثر رومنسيّة... ثمّ إنّك تعجبني. آه! سوف تمضي بعيداً. لا تنسَ أنّني على استعداد دوماً لمساعدتك».

لم يرد أيّ اسم حتّى تلك اللّحظة. حين سأل نانتاس، نهضت العانس وعرّفت بنفسها من جديد:

«الآنسة شوين... أعمل مدبّرة منزل لدى البارون دانفيلييه منذ وفاة البارونة. تولّيت تربية الآنسة فلافي، ابنة السيّد البارون... الآنسة فلافي هي الفتاة التي كنت أتحدّث عنها».

ثمّ انسحبت، بعدما وضعت بخفر على الطاولة ظرفاً فيه خمسمئة فرنك. كانت تلك سلفة من حسابها الخاص للتكفّل بالنفقات الأوّليّة. حين أصبح وحيداً في غرفته، وقف نانتاس إلى النافذة. كان اللّيل دامساً ولا يمكنه تمييز شيء في الظلام سوى كتلة الأشجار، يحزرها من كثافة العتمة. كانت نافذة تشعّ في واجهة القصر القاتمة. إنّها هي إذاً، تلك الفتاة الشقراء الممشوقة التي تمشي مشية أميرة ولا تتنازل حتّى لرؤيته. سواء كانت هي أو فتاة أخرى، ما همّ في مطلق الأحوال؟ المرأة غير مدرجة في الصفقة. رفع نانتاس نظره إلى الأعلى، تأمّل باريس تهدر وتزمجر في الظلام، أرصفة النهر، الشوارع، مفارق الضفّة اليسرى للسين، تضيؤها أنوار الغاز المتراقصة. خاطب باريس بإلفة، كلّمها بحميميّة وتعالٍ.

«أنتِ لي الآن [1]!»

2

كان البارون دانفيلييه جالساً في الصالون الذي يستخدمه مكتباً. قاعة صارمة عالية السقف مكسوّة جدارنها بالجلد ومزيّنة بقطع أثاث قديمة قيّمة. كان لا يزال منذ يومين مصعوقاً بالخبر الذي نقلته له الآنسة شوين

---

(1) نجد مشهداً مماثلاً في الفصل الثاني من رواية «الجشع» حيث يتأمّل ساكار بنهم باريس من أعلى تلّة مونمارتر.

عن العار الذي لحق بفلافي. ومهما بذلت من جهود لتصوير الوقائع من وجهة نظر موضوعيّة عن مسافة وتلطيفها، فقد انهار العجوز تحت وطأة الصدمة، والأمر الوحيد الذي كان يبقيه على قدميه هو احتمال أنّ يُقْدم المغرِّر بالفتاة على التعويض عن فعلته. في ذلك الصباح، كان ينتظر زيارة ذلك الرجل الذي لا يعرفه والذي سلبه ابنته على هذا النحو. قرع الجرس.

«جوزيف، سوف يأتي شابٌ عليك إدخاله إلى هنا... ولست موجوداً لأيّ أحدٍ سواه».

راح يقلّب أفكاراً مريرة في رأسه، جالساً وحيداً أمام موقده. ابن بنّاء، معدم بائس لا محلّ له من الأعراب! بوسع الآنسة شوين أن تكرّر بقدرِ ما تشاء أنّه فتى ذو مستقبل واعد، الحقيقة أنّ ذلك كان عاراً على عائلة لم تلحق بها أيّ وصمة حتّى ذلك اليوم! سارعت فلافي في اندفاع حانق إلى تحمّل الذنب بالكامل لحماية خادمتها من أيّة ملامة. ومنذ ذلك السجال الأليم، وهي تلزم غرفتها، وقد رفض البارون أن يقابلها مجدّداً. كان حريصاً قبل أن يغفر لها على تسوية هذه المسألة الشنيعة بنفسه. وقد اتّخذ في هذا السبيل جميع الاستعدادات. غير أنّ الشيب كان قد كسا شعره بالكامل، وبدأ رأسه يهتزّ بارتجافة الشيخوخة.

«السيّد نانتاس»، أعلن جوزيف.

لم ينهض البارون. اكتفى بالالتفات برأسه وحدّق بنانتاس الذي كان يتقدّم صوبه. قاوم الشابّ الرغبة في ارتداء ملابس جديدة، وقد أعرب في ذلك عن ذكاء. اشترى سترة وبنطالاً أسود ما زالا نظيفين، إلّا أنّهما باليان رثّان. وهذا ما أعطاه مظهرَ طالب فقير متأنّق، لا يمتّ بصلة إلى شخصيّة المغامر. توقّف في وسط الغرفة وانتظر واقفاً وبلا خنوع.

«هذا أنت إذاً سيّدي»، قال العجوز متلعثماً.

لكنّه عجز عن إكمال جملته. كان التأثّر يخنق صوته وخاف أن ينساق إلى ارتكاب عمل عنيف. وبعد لحظة صمت قال بكلّ بساطة:

«سيّدي، لقد ارتكبتَ فعلاً سيّئاً».

وحين همّ نانتاس بالاعتذار، ردّد بمزيد من القوّة:

«فعل سيّء... لا أريد أن أعرف شيئاً، أرجو منك ألّا تحاول أن تشرح لي المسألة. حتّى لو كانت ابنتي رمت بنفسها في أحضانك، فإنّ جريمتك تبقى على ما هي عليه... وحدهم اللّصوص يفرضون أنفسهم على العائلات بهذه الطريقة العنيفة».

طأطأ نانتاس رأسه من جديد.

«إنّه مهْر كسبتَه بلا مجهود، فخّ كنتَ على ثقة بأنّك ستوقع فيه الابنة والأب...

- اسمح لي سيّدي»، قاطعة الشابّ وقد بدأ يثور غضباً.

لكنّ البارون قام بإشارة فظيعة.

«ماذا؟ ما الذي تريدني أن أسمح به؟... لا يجوز لك أن تتكلّم هنا. أنا أقول لك ما يترتّب عليّ قوله وما يترتّب عليك أن تسمعه، بما أنّك جئتني مثل مذنب... أهنتني. انظر إلى هذا البيت، عاشت فيه عائلتنا أكثر من ثلاثة قرون دون وصمة عار واحدة. ألا تشعر فيه بشرف عريق، تقليد من الكرامة والاحترام؟ أنت سيّدي ضربت عرض الحائط بكلّ ذلك. كادت المسالة تقضي عليّ، ويداي اليوم ترتجفان وكأنّني شخت عشر سنوات دفعة واحدة... اصمت واستمع لي».

امتقع وجه نانتاس. إنّه دور مرهق للغاية، ذلك الذي وافق على أدائه. غير أنّه حاول ادّعاء العشق الأعمى.

«فقدت صوابي، تمتم ساعياً لابتكار رواية. لم أستطع أن أرى الآنسة

فلاڤي...»

نهض البارون عند سماع اسم ابنته وصاح بصوت لعلع كالرعد:

«اصمت! قلت لك إنّني لا أريد أن أعرف أيّ شيء. سواء كانت ابنتي طاردتك، أو أنت طاردتها، هذا لا يعنيني. لم أسألها شيئاً، ولا أسألك شيئاً أنت أيضاً. يمكنكما الاحتفاظ باعترافاتكما، إنّها قذارة لا أودّ الخوض فيها».

جلس من جديد وهو يرتعد منهكاً. حنى نانتاس رأسه بتأثّر شديد بالرغم من قدرته على التحكّم بنفسه. وبعد برهة صمت، أكمل العجوز بنبرة جافّة، نبرة رجل يبرم صفقة عمل:

«اعذرني سيّدي. قطعت وعداً على نفسي بأن أحافظ على هدوئي. لستَ أنت رهن تصرّفي، بل أنا رهن تصرّفك، بما أنّني تحت رحمتك. حضرتَ إلى هنا لتعرض عليّ صفقة باتت ضروريّة. دعنا نعقد الصفقة سيّدي».

منذ تلك اللّحظة، تعمّد الكلام بنبرة محامٍ يرتّب تسوية بالتراضي لقضيّة معيبة لا يبلّ يديه فيها إلّا باشمئزاز. قالَ بهدوء ومنطق:

«ورِثَت الآنسة فلاڤي دانفيلييه عند وفاة والدتها مبلغ مئتي ألف فرنك[1] لا يمكنها الحصول عليه سوى يوم زفافها. هذا المبلغ أعطى حتّى الآن فوائد. إليك في مطلق الأحوال حساباتي بصفتي وليّ أمرها، أودّ إطلاعك عليها».

فتح ملفّاً فيما كان يتكلّم وتلا فيه أرقاماً. حاول نانتاس عبثاً أن يقاطعه. غمرته مشاعر قويّة أمام هذا الرجل العجوز المستقيم والبسيط الذي بدا له شهماً وجليلاً منذ أن استعاد هدوءه.

---

(1) حوالى 760 ألف يورو حاليّاً.

«وأخيراً، اختتمَ، أخصّص لك في العقد الذي أعدّه كاتب العدل هذا الصباح مبلغ مئتي ألف فرنك. أعرف أنّك لا تملك فلساً. سوف تتقاضى المئتي ألف فرنك عند مصرفيّي غداة يوم الزفاف.

- لكن سيّدي، قال نانتاس، إنّني لا أطلب مالك، ما أريده هو ابنتك...»

قاطعه البارون.

«ليس من حقّك أن ترفض، ولا يمكن لابنتي أن تتزوّج رجلاً أدنى منها... أعطيك المهر الذي كنت أحفظه لها، هذا كلّ ما في الأمر. ربّما كنت تتوقّع المزيد، لكنّ الناس يخالون ثروتي أكبر ممّا هي فعليّاً سيّدي».

وحين رأى الشاب صامتاً إزاء هذه الوخزة المهينة الأخيرة، قرع البارون الجرس للخادم معلناً نهاية اللّقاء.

«جوزيف، قل للآنسة أنّني في انتظارها على الفور في مكتبي».

نهض وهو يتكلّم وراح يذرع الغرفة ببطء دون أن يعود يتفوّه بكلمة. بقي نانتاس مسمّراً بلا حراك. إنّه يخدع هذا الرجل العجوز، أحسّ بنفسه وضيعاً وضعيفاً بلا قوّة أمامه. أخيراً دخلت فلافي.

«ابنتي، قال البارون، إليك هذا الرجل. الزواج سيتمّ في المهلة المشروعة».

خرج وتركهما وحيدين، وكأنّ الزفاف تمّ بنظره. حين أُغلِق الباب خيّم صمت بينهما. كان نانتاس وفلافي يتبادلان النظر. لم يسبق أن تقابلا. بدت له رائعة الجمال بوجهها الشاحب المتعالي وعينيها الرماديّتين الكبيرتين اللّتين لم تخفضهما. ربّما قضت الأيّام الثلاثة التي لازمت غرفتها خلالها وهي تبكي، لكنّ برودة وجنتيها لا بدّ أنّها جلّدت دموعها. بادرت إلى الكلام.

«سوّيت القضيّة إذاً سيّدي؟

- نعم سيّدتي»، أجاب نانتاس ببساطة.

علت وجهها تكشيرة لاشعوريّة، إذ رمقته بنظرة مطوّلة وكأنّها تبحث عن الدناءة فيه.

«حسناً، هذا جيّد، تابعت. كنت أخشى ألّا أجد أحداً لمثل هذه الصفقة».

أحسّ نانتاس في صوتها بكلّ الاحتقار الذي تكنّه له. لكنّه رفع رأسه. إن كان ارتعد أمام الوالد وهو على علم بأنّه يخدعه، فهو يعتزم إبداء شدّة وصراحة حيال الابنة، شريكته في الاحتيال.

«عذراً سيّدتي، قال بهدوء وبكثير من الأدب، أعتقد أنّك تخطئين في تقييم الوضع الذي جعل منّا نحن الاثنين طرفين في ما وصفْتِه بحقٍّ بصفقة. أنوي منذ اليوم أن أفرض وقوفنا على قدم المساواة...

- آه حقّاً؟ قاطعته فلافي بابتسامة احتقار.

- أجل، على قدم المساواة بشكل كامل.. أنت بحاجة إلى اسم لإخفاء إثم لا أسمح لنفسي أن أحكم عليه، وأنا أعطيك اسمي. من جهتي، أنا بحاجة إلى رصيد، إلى موقع اجتماعيّ لإنجاز مشاريع كبرى، وأنت تقدّمين لي هذه الأموال. صرنا اليوم شريكين قدّم كلاهما إسهاماً متساوياً، ليس علينا سوى أن نتبادل الشكر على الخدمة المتبادلة التي يسديها كلّ منّا للآخر».

غابت الابتسامة عن وجهها واعترضت جبينها ثنية كبرياء مغتاظ. لكنّها لم تجب. وبعد لحظة صمتٍ قالت:

«تعرف شروطي، أليس كذلك؟

- لا سيّدتي، أجابَ نانتاس متمسّكاً بهدوء تامّ. أرجو منكِ أن تمليها

عليّ، وإنّني أمتثل لها مسبقاً».

عند سماع ردّه، أخذت تتكلّم بوضوح، بلا ارتباك ولا احمرار.

«لن تكون يوماً زوجي سوى بالاسم. ستبقى حياتانا مختلفتين ومنفصلتين تماماً. تتخلّى عن كامل حقوقك عليّ، ولن يترتّب عليّ أيّ واجب تجاهك».

كان نانتاس يهزّ رأسه موافقاً عند كلّ جملة. تلك كانت رغباته أيضاً. أضاف:

«لو كنتُ أظنّ أنّ عليّ أن أغازلك، لكنت قلت لك إنّ شروطاً صارمة كهذه تبعث فيّ اليأس، لكنّنا فوق مجاملات فارغة كهذه. يسرّني كثيراً أن أرى لديك الشجاعة المطلوبة إزاء وضع كلّ منّا. إنّنا ندخل الحياة من درب لا نقطف الزهور فيه... أطلب منك أمراً واحداً سيّدتي، ألّا تستخدمي الحريّة التي أتركها لك بشكل يلزمني بالتدخّل.

- سيّدي!» صاحت فلافي بحدّة وقد انتفض غرورها.

لكنّه انحنى أمامها بلباقة وأدب، راجياً إيّاها ألّا تشعر بالإهانة. فوضْعهما دقيق للغاية، وعليهما تقبّل بعض التلميحات، وإلّا لأصبح التوافق بينهما مستحيلاً. تفادى قول المزيد. فالآنسة شوين روت له في مقابلة ثانية بينهما زلّة فلافي. الرجل الذي غرّر بها يدعى السيّد دي فونديت، وهو زوج إحدى صديقاتها في سنوات الدّير. كانت تقضي شهراً عندهما في الريف، وذات مساء وجدت نفسها بين ذراعَي ذلك الرجل، دون أن تعرف بالضبط كيف حصل ذلك، وإلى أيّ مدى كانت هي موافقة. حتّى أنّ الآنسة شوين تحدّثت عمّا يشبه الاغتصاب.

قام نانتاس فجأةً ببادرة ودّ. فهو يحبّ أن يتصرّف بطيبة، شأنه في ذلك شأن كلّ المتيقّنين من قوّتهم.

«اسمعيني سيّدتي، قال لها، نحن لا يعرف أحدنا الآخر، لكنّنا سنخطئ بالتأكيد إن تبادلنا الكره على هذا النحو منذ النظرة الأولى. ربّما نحن منسجمان بالفطرة... أرى بوضوح أنّك تحتقرينني. هذا لأنّك تجهلين قصّتي».

راح يكلّمها بحرارة، مأخوذاً بشغف روايته، سارداً لها حياة من الطموح الجارف في مرسيليا، شارحاً عناء هذين الشهرين من المساعي غير المجدية في باريس. ثمّ أعرب لها عن ازدرائه لما وصفه بالأعراف الاجتماعيّة التي يتخبّط فيها عموم البشر. ما همّ الأحكام التي تطلقها الجموع، حين يكون الواحد يدوسها! المطلوب الارتقاء فوق الجميع. السلطة المطلقة تعذر أيّ شيء. رسم لها الخطوط العريضة لحياة التفوّق التي سيحسن بناءها لنفسه. لم يعد يخشى أيّ عقبة، لا يمكن لأيّ شيء أن يغلب القوّة. سوف يكون قويّاً، سوف يكون سعيداً.

«لا تظنّيني انتهازيّاً بذيئاً، تابعَ القول. إنّني لا أبيع نفسي لقاء ثروتك. لا أقبل بمالك إلّا كوسيلة للارتقاء إلى مراتب عالية جدّاً... آه! لو عرفتِ كلّ ما يغلي ويزمجر في داخلي، لو عرفتِ اللّيالي المتّقدة التي قضيتها يراودني الحلم نفسه، يجرفه دوماً واقع الصباح، لكنت فهمتني، لكنت ربّما استندت بفخر إلى ذراعي وأنت تقولين لنفسك إنّك تمنحينني أخيراً سبيلاً حتّى أكون أحداً ما!»

استمعت إليه مستقيمةً في وقفتها، دون أن تعكس ملامحها أدنى تعبير. وهو يطرح على نفسه مراراً وتكراراً سؤالاً يراوده منذ ثلاثة أيّام، من غير أن يجد له إجابة: هل أنّها لاحظته من نافذتها، حتّى قبلت بخطّة الآنسة شوين ما إن ذكرتْه هذه لها؟ خطرت له فكرة غريبة أنّها قد تحبّه حبّاً رومنسيّاً إنْ هوَ رفض مستهجناً الصفقة التي جاءت خادمتها

تعرضها عليه[1].

صمتَ، وبقيت فلافي مسمّرة دون أن تحرّك ساكناً. ثمّ ردّدت بجفاء وكأنّه لم يفتح لها قلبه:

«إذاً كما قلتُ، زوجي بالاسم فقط، حياتان منفصلتان تماماً، حريّة مطلقة».

استعاد نانتاس على الفور سلوكه الرسميّ وصوته الرزين كصوتِ رجل يجادل في اتفاقيّة.

«اتّفقنا سيّدتي».

وانسحب ساخطاً على نفسه. كيف استسلم لرغبة حمقاء في إقناع تلك المرأة؟ إنّها في غاية الجمال، ومن الأجدى له ألّا يكون هناك أي شيء مشترك بينهما، فهي قد تعيقه في الحياة.

3

عشر سنوات انقضت. وذات صباح كان نانتاس في المكتب حيث استقبله البارون دانفيلييه في الماضي بكثير من القسوة في لقائهما الأوّل. صار مكتبه هو. فبعدما تصالح البارون مع ابنته وصهره، تخلّى لهما عن القصر ولم يحتفظ سوى ببيت في الطرف الآخر من الحديقة، على شارع بون. عشر سنوات ارتقى خلالها نانتاس إلى أن احتلّ أحد أعلى المناصب الماليّة والصناعيّة[2]. شارك في جميع مشاريع السكك الحديد الكبرى، انطلق في جميع المضاربات على الأراضي التي شكّلت مؤشّرات السنوات

(1) هذه التفاصيل الايحائيّة خاصّة بالقصّة، في حين يصف زولا شخصيّة ساكار في رواية «الجشع» بأنّه وصوليّ لا تساوره أيّة مشاعر رقيقة.

(2) هذا الصعود هو الذي أولاه زولا اهتماماً خاصّاً في «الجشع». أما في القصّة القصيرة هذه، فإن اختزال الوقت يشير إلى منظور مختلف.

الأولى للامبراطوريّة، وسرعان ما أحرز ثروة طائلة. غير أنّ طموحه لم يقتصر على هذا الحدّ، بل أراد أن يلعب دوراً سياسيّاً، ونجح في الفوز بمقعد نيابيّ عن محافظة كان يملك فيها عدّة مَزارع. وما إن دخل المجلس التشريعيّ حتّى طرح نفسه في موقع وزير الماليّة المقبل. وبات يحتلّ فيه مكانة تزداد أهميّة يوماً بعد يوم، مسخّراً من أجل ذلك درايته الخاصّة وطلاقة لسانه. وفي ما عدا ذلك، كان يتصرّف بحذاقة، فيبدي إخلاصاً مطلقاً للامبراطوريّة، مع التعبير في الوقت نفسه عن نظريّات خاصّة به في الماليّة راحت تلقى أصداء واسعة وكان على يقين من أنّها تشغل الامبراطور كثيراً.[1]

كان نانتاس في ذلك الصباح منهمكاً في قضايا كثيرة. في المكاتب الشاسعة التي أقامها في الطابق الأرضيّ من القصر يخيّم نشاط محموم. جيش من الموظّفين، بعضهم جالس خلف مكاتب لا يفارقها، والبعض الآخر يذرع المكان بلا توقّف، صافقاً الأبواب باستمرار. طنينُ ذهبٍ متواصل، صرَر تُفتح ويُدلق محتواها على الطاولات، ودائماً موسيقى صندوق رنّان وكأنّ دفقه سوف يغرق الشوارع. ثمّ في ردهة المدخل، يزدحم حشد من أصحاب التماسات، ورجال أعمال، وسياسيّين، باريس برمّتها جاثمة على ركبتيها أمام سلطته. وغالباً ما كانت شخصيّات بارزة تنتظر هنا باصطبارٍ ساعة كاملة. وهو جالس إلى مكتبه، على تواصل مع أطراف البلاد والخارج، قادراً إذا ما بسط ذراعيه على ضمّ العالم بأكمله، محقّقاً أخيراً حلمه القديم بامتلاك القوّة، وشاعراً بنفسه المحرّك الذكيّ لآلة هائلة تحرّك الممالك والامبراطوريّات.

(1) هذا البعد السياسيّ في ارتقاء نانتاس يذكّر هذه المرّة برواية أخرى من سلسلة «آل روغون ماكار» بعنوان «مَعالي السيّد أوجين روغون» *Son Excellence Eugène Rougon* (1876).

دقّ نانتاس للحاجب الذي يحرس بابه. بدا مغتمّاً.

«جيرمان، سأله، هل تعرف إن كانت السيّدة عادت؟»

وحين أجابه الحاجب أنّه لا يدري، أمره بجلب مدبّرة منزل السيّدة له. لكنّ جيرمان لم ينسحب.

«عذراً سيّدي، تمتم، هناك السيّد رئيس المجلس التشريعيّ يصرّ على الدخول».

قام بإشارة استياء قائلاً:

«أدخله إذاً، وافعل ما أمرتك به».

كان نانتاس ألقى عشيّة ذلك اليوم خطاباً حول مسألة جوهريّة تتعلّق بالميزانيّة، أثار انطباعاً قويّاً بحيث تمّ رفع البند المطروح للمناقشات إلى اللّجنة لتعديله على النحو الذي ذكَره. وبعد الجلسة، سرت شائعات حول انسحاب وزير الماليّة، وبدأت الأصابع في مختلف الكتل تتّجه إلى النائب الشابّ كخلف له. غير أنّه كان يرفع كتفيه مستبعداً ويجادل بأنّ الأمور لم تُحسم بعد، وبأنّه لم يلتقِ الامبراطورَ سوى مرّة واحدة لبحث نقاط خاصّة محدّدة. غير أنّ زيارة رئيس المجلس التشريعيّ قد تكون ذات مغزى هامّ. بدا وكأنّه ينفض عنه المتاعب التي تكدّره. نهض وذهب لملاقاة الرئيس مادّاً يده لمصافحته.

«آه! سيّدي الدوق! قال، اعذرني، لم أكن أعلم بحضورك هنا... لي الشرف أن أستقبلك».

تبادلا الحديث لبعض الوقت بلا كلفة، في أجواء وديّة بعيدة عن الرسميّات. ثمّ أقرّ له الرئيس دون أن يكشف عن أنّ شيء واضح، بأنّ الامبراطور أرسله لسبر نواياه. هل يقبل بتسلّم حقيبة الماليّة؟ وبأيّ برنامج؟ عندها، وضع نانتاس شروطه ببرودة أعصاب مهيبة. لكن تحت

ذلك القناع المغلق الذي لا يرشح منه أيّ انفعال، كانت تتصاعد في نفسه نشوة الانتصار. ها هو أخيراً يرتقي الدرجة العليا، بات في القمّة. لم يعد عليه سوى اجتياز مسافة ضئيلة، وسوف يكون فوق كلّ الرؤوس. وإذ كان الرئيس يختتم الحديث قائلاً إنّه متوجّه للتوّ إلى الامبراطور ليعرض عليه البرنامج الذي جرت مناقشته، فُتح باب صغير يؤدّي إلى داخل المنزل وخرجت منه مدبّرة منزل السيّدة.

امتقع وجه نانتاس فجأةً وبقيت جملته عالقة دون أن يكملها. هُرِعَ إلى المرأة متمتماً:

«عذراً سيّدي الدوق...»

وراح يستجوبها بصوت خافت. إذاً السيّدة خرجت في ساعة مبكرة؟ هل قالت إلى أين هي ذاهبة؟ متى يفترض أن تعود؟ كانت الفتاة تجيب بكلام غامض، متجنّبة بكثير من الفطنة أن تورّط نفسها. أدرك نانتاس في نهاية الأمر سذاجة هذا الاستجواب، فاختتمه قائلاً:

«نبّهي السيّدة فور عودتها أنّني أودّ أن أكلّمها».

فوجىء الدوق فاقترب من إحدى النوافذ وراح يتأمّل الفناء أمام القصر. عاد إليه نانتاس مبدياً أسفه من جديد، لكنّه كان متلعثماً وفقد رباطة جأشه، حتّى أنّه أدهشه بارتباكه في الكلام.

«من المؤكّد أنّني أفسدت قضيّتي، قال مخاطباً نفسه بعدما خرج رئيس المجلس. لا شكّ أنّ الحقيبة الوزاريّة ستفلت من يدي».

بقي في حالة من الامتعاض، تتخلّلها نوبات غضب. أدخل الحاجب العديد من الأشخاص إلى مكتبه. مهندس رفع إليه تقريراً يتوقّع أرباحاً طائلة من تشغيل منجم ما. دبلوماسيّ فاتحه في قرض تودّ قوّة مجاورة طلبه في باريس. أفرادٌ تعاقبوا في صفّ ليعرضوا عليه حسابات عشرة مشاريع

كبرى. ثمّ استقبل أخيراً عدداً كبيراً من زملائه في المجلس، أغدقوا عليه جميعاً الثناء مغالين في مديح خطابه الذي كان ألقاه في أمس ذلك اليوم. أمّا هو، فكان مستلقياً في قعر أريكته، يتلقّى هذا الإطراء دون حتّى أن يبتسم. رنين القطع الذهبيّة لم يتوقّف في المكاتب المجاورة، وارتجاجات جديرة بمصنع كانت تهزّ الجدران وكأنّهم يصنّعون كلّ ذلك الذهب الرنّان. لم يكن عليه سوى أن يتناول ريشة ليرسل برقيّات يمكن أن تثير لدى تلقّيها فورة أو انهياراً في أسواق أوروبا. بوسعه منع نشوب حرب أو تسريعها، بتأييد القرض المطلوب أو معارضته. كانت ميزانيّة فرنسا في قبضته، وسوف يعرف قريباً إن كان سيقف مع الامبراطوريّة أو ضدّها. كان ذلك النصر، شخصه الذي تعاظم إلى حدٍّ بالغ بات هو المحور الذي يدور حوله عالم برمّته. لكنّه لم يكن يشعر بزهو هذا النصر مثلما كان يعلّل نفسه من قبل، بل تملّكه سأم، وكان شارد الذهن، يرتعد عند سماع أدنى صوت. وحين يعلو وجهه لهبٌ، حمّى طموحٍ تَحقّق، يشعر بوجهه على الفور يمتقع، وكأنّ يداً باردة امتدّت فجأةً من خلفه ولامست عنقه.

انقضت ساعتان، ولم تظهر فلافي بعد. نادى نانتاس جيرمان وكلّفه بإحضار السيّد دانفيليه إن كان البارون في منزله. وبعدما بقي وحيداً، راح يذرع مكتبه، رافضاً استقبال المزيد من الزوّار لذلك النهار. ازداد اضطراباً مع مرور الوقت. من المؤكّد أنّ زوجته على موعد مع أحدهم. لا بدّ أنّها عادت للسيّد دي فونديت الذي ترمّل منذ ستّة أشهر. بالطبع، كان نانتاس ينفي أيّ إحساس بالغيرة عليها. بقي عشر سنوات ملتزماً بشكل صارم بالاتّفاق المبرم بينهما. لكنّه كان يرفض أن يتمّ الاستهزاء به، على ما كان يقول في سرّه. لن يسمح إطلاقاً لزوجته بأن تعرّض مكانته للخطر بجعله أضحوكة للجميع. كانت القوّة تغادره، فيتملّكه

إحساس زوجٍ يريد بكلّ بساطة أن يكون موضع احترام، مثيراً في نفسه بلبلة لم يشعر بمثلها من قبل، حتّى حين كان يقدم على أخطر المجازفات في بدايات إثرائه.

دخلت فلافي، وهي لا تزال ترتدي ملابسها الأنيقة، ولم تخلع سوى قبّعتها وقفّازيها. قال لها نانتاس بصوت يرتجف أنّه لو أبلغته بعودتها لكان صعد إليها بنفسه. لكنّها أشارت إليه دون أن تجلس أن يسرع في قول ما يريده، على عجلة من أمرها وكأنّها زبونة تزوره لغرضٍ ما.

«سيّدتي، بادرها، بات من الضروريّ توضيح بعض المسائل بيننا... أين ذهبتِ هذا الصباح؟»

فوجئت إلى أقصى حدّ بصوت زوجها المرتجف، باغتها ذلك السؤال الفجّ. أجابت ببرودة:

«لكن كنت حيث أشاء.

- بما أنّك طرحت الأمر على هذا النحو، هذا ما لا يمكن أن يناسبني بعد اليوم، قال وقد انحسر الدم من وجهه. عليك أن تذكري ما قلته لك في الماضي، لن أسمح بأن تستخدمي الحرية التي أتركها لك بشكل يلحق العار باسمي».

ضحكت فلافي ضحكة ازدراء مطلق.

«يلحق العار باسمك سيّدي؟ هذا شأنك، إنّه واقع ليس بحاجة إلى من يُقدم عليه».

عند سماع هذا الكلام، جنّ جنون نانتاس وتقدّم صوبها كأنّما ليلطمها، وهو يتأتئ:

«أيّتها البائسة، إنّك خارجة من بين ذراعي السيّد دي فونديت... لديك عشيق، إنّني على يقين من ذلك.

- لكنّك مخطئ، قالت دون أن تتراجع شبراً أمام تهديده، لم أقابل السيّد دي فونديت من جديد على الإطلاق... لكن حتّى لو كان لديّ عشيق، فلا يعود لك أن تلومني. ما شأنك في ذلك؟ إنّك تنسى اتّفاقنا».

نظر إليها لوهلة بعينيه التائهتين، ثمّ انهار عند قدميها، مطلقاً صرخة تفجّر فيه عشق لطالما كبته، والزفرات تهزّ جسده:

«آه! فلافي، إنّني أحبّك!»

بقيت متصلّبة وابتعدت عنه خطوة حين لامس طرف فستانها. لكنّه لحق بها يائساً، جارّا نفسه على ركبتيه ومادّاً يديه لها.

«أحبّك يا فلافي، أحبّك بجنون... لست أدري كيف حصل ذلك. منذ سنوات مديدة. وهذا الشعور تملّكني بشكل تامّ يوماً بعد يوم. آه! كم قاومت! كنت أجد أنّ هذا الوله لا يليق بي، أذكّر نفسي بمقابلتنا الأولى... لكنّني اليوم أتألّم كثيراً، لا بدّ أن أكلّمك...»

واصل الكلام لوقت طويل. كلّ ما يؤمن به كان ينهار. ذلك الرجل الذي وضع إيمانه بالكامل في القوّة، مؤكّداً أنّ العزم والتصميم هما الرافعة الوحيدة القادرة على حمل العالم، ها هو يهوي مدمّراً، ضعيفاً كطفل، أعزل أمام امرأة. حلمه بالثروة الذي حقّقه، المكانة الرفيعة التي فاز بها... كان سيتخلّى عن كلّ ما لديه من أجل أن تجعله تلك المرأة ينهض بقبلة على جبينه. هي تفسد عليه انتصاره. لم يعد يسمع رنين الذهب في مكاتبه، لم يعد يفكّر في صفوف المتملّقين الذين جاؤوا يحيّونه، نسي أنّ الامبراطور قد يدعوه في تلك اللّحظة بالذات إلى السلطة. كلّ ذلك لم يعد له وجود. هو يملك كلّ شيء، وفلافي هي كلّ ما يريده لا غير. إن رفضت فلافي أن تهبه نفسها، فسوف يكون معدماً تماماً.

«اسمعي، تابع، كلّ ما فعلته، إنّما فعلته من أجلك... صحيح أنّني لم أُقم لك حساباً في بادئ الأمر، كنت أعمل من أجل إرضاء كبريائي. لكنّك بعد ذلك أصبحت الهدف الوحيد الأوحد لكلّ أفكاري وكلّ جهودي. كنت أقول لنفسي إنّ عليّ الارتقاء إلى أعلى مرتبة ممكنة حتّى أستحقّك. كنت آمل أن أجعلك تبدّلين موقفك، يومَ أطرح سلطتي عند قدميك. انظري إليّ اليوم إلى أين وصلت. ألم أكسب مغفرتك؟ كفّي عن احتقاري، أتوسّل إليك».

لم تكن تفوّهت بكلمة حتّى تلك اللّحظة. تكلّمت بهدوء:

«انهض سيّدي، قد يدخل أحدهم».

رفض الاستجابة لطلبها واستمرّ في التوسّل والترجّي. لربّما كان انتظر المزيد من الوقت لولا غيرته من السيّد دي فونديت. تلك كانت معاناة أليمة تفقده صوابه. ثمّ أصبح وديعاً كالحمل.

«أرى أنّك ما زلت تحتقرينني. حسناً! تريّثي قليلاً، لا تهبي حبّك لأحد. أعدك بأشياء عظيمة ستثنيك عن موقفك. اعذريني أرجوك إن تصرّفت بفظاظة قبل قليل. إنّني أفقد صوابي... آه! اتركي لي أملاً بأنّك سوف تحبّينني في يوم من الأيّام!

– مستحيل!» قالت بقوّة.

وإذ بقي جاثماً على الأرض، همّت بالخروج. لكنّه نهض وأمسك بها من معصميها، وقد فقد صوابه وتملّكته نوبة غضب شديد. ها أنّ امرأة تتحدّاه، في حين أنّ العالم برمّته عند قدميه! بوسعه القيام بأي شيء، إثارة بلبلة في الدّول، قيادة فرنسا على هواه، ولا يسعه كسب حبّ زوجته! هو بكلّ قوتّه وجبروته، هو الذي تكون أدنى طلباته أوامر، لم يعد لديه سوى رغبة واحدة، وهذه الرغبة لن تتحقّق يوماً، لأنّ مخلوقة ضعيفة كالطفل

تمنعها عنه! راح يشدّ على ذراعيها ويردّد بصوت خشن:

«أريد... أريد...

- وأنا لا أريد»، قالت فلافي شاحبة ومتصلّبة في إرادتها.

كانا يتصارعان على هذا النحو حين دخل عليهما البارون دانفيلييه. ما إن رآه نانتاس حتّى أفلت ذراعي فلافي وصاح:

«سيّدي، ها هي ابنتك تعود من عند عشيقها... قل لها إنّ على الزوجة أن تحترم اسم زوجها، حتّى حين لا تحبّه وحين لا تعود فكرة شرفها هي نفسها تكبحها».

بقي البارون الذي ظهرت عليه بقوّة علامات الشيخوخة، واقفاً عند الباب أمام مشهد العنف هذا. تلك كانت مفاجأة أليمة له. كان يظنّ أنّ الزوجين منسجمان، الرسميّات في التعاطي بينهما كانت تلقى استحسانه، ظنّاً منه أنّها مجرّد تحفّظ لائق في السلوك. هو وصهره من جيلين مختلفين، لكن إن كان يستاء من أنشطة رجل المال الخارجة قليلاً عن الضوابط، إن كان يدين بعض المشاريع المتهوّرة بنظره، فهو اضطرّ في المقابل إلى الإقرار له بقوّة إرادته وحدّة ذكائه. وها أنّه يجد نفسه فجأةً أمام هذه المأساة التي لم تكن لا على البال ولا على الخاطر.

حين سمع نانتاس يتّهم فلافي بأنّ لديها عشيق، تقدّم البارون الذي كان لا يزال يعامل ابنته بالصرامة ذاتها كما حين كانت في العاشرة من العمر، بمشية العجوز الوقور.

«أقسم لكَ أنّها خارجة من عند عشيقها، ردّد نانتاس، وانظر إليها! واقفة هنا تتحدّاني!»

اشاحت فلافي بوجهها بازدراء وأخذت تسوّي كمّيها اللّذين غضّنهما زوجها بشراسته. لم تظهر أيّ حمرة على وجهها. قال لها والدها:

«يا ابنتي، لماذا لا تدافعين عن نفسك؟ هل أنّ زوجك يقول الحقيقة؟ هل حفظت لي هذا الألم الأخير لشيخوختي؟... الإهانة ستكون لي أنا أيضاً. يكفي في العائلة أن يخطئ فرد واحد حتّى يلطّخ جميع الآخرين معه».

عند سماع هذا الكلام، قامت بحركة وكأنّها ضاقت ذرعاً. واصل والدها اتّهامها مستفيضاً في الكلام! كابدت نفسها وتحمّلت استجوابه لبعض الوقت، حرصاً منها على تجنيبه الإحساس بالعار عند سماع شرحها. لكن حين أخذ يغضب بدوره ازاء صمتها وسلوكها الاستفزازيّ، قالت في نهاية الأمر:

«لا تهتمّ والدي! دع هذا الرجل يلعب دوره... أنت لا تعرفه. لا ترغمني على الكلام، احتراماً لك.

- إنّه زوجك، أجاب العجوز. إنّه والد طفلك».

انتصبت فلافي مرتعشة.

«لا، لا، ليس والد طفلي... سوف أبوح لك بكلّ شيء في نهاية الأمر. هذا الرجل ليس حتّى مغرّراً. فلو أحبّني، لكان ذلك على الأقلّ برّر سلوكه. هذا الرجل باع نفسه بكلّ بساطة، باع نفسه من أجل المال... لم أحبّه يوماً، ولم يمسّني يوماً برؤوس أصابعه... أردت أن أجنّبك ألماً كبيراً، اشتريته حتّى يكذب عليك... انظر إليه، وسترى إن كنت أقول الحقيقة».

كان نانتاس يخفي وجهه بين يديه.

«واليوم، تابعت المرأة الشابّة، ها هو يريدني أن أحبّه... ركع أمامي وبكى. مسرحيّة على الأرجح. اعذرني والدي إن كنت خدعتك، لكن بحقّ، هل أنّني أنتمي لهذا الرجل؟... الآن وقد عرفت الحقيقة، خذني

من هنا. عامَلَني بعنفٍ منذ قليل، لن أبقى هنا دقيقة واحدة بعد».

تطاول العجوز مقوّماً ظهره المحني، ومدّ ذراعه بصمت لابنته. عبرا الغرفة معاً، دون أن يقوم نانتاس بحركة لاستبقائهما. وعندما وصلا إلى الباب، تفوّه العجوز بكلمتين لا غير:

«وداعاً سيّدي».

أُغلق الباب خلفهما. بقي نانتاس وحيداً، مسحوقاً، محملقاً بجنونٍ في الفراغ حولَه. كان هناك أمامه رسالة وضعها جيرمان للتوّ على المكتب. فتحها في حركة تلقائيّة وتصفّحها. الرسالة المكتوبة بكاملها بخطّ يد الامبراطور نفسه، كانت تستدعيه بكثير من الملاطفة والمراعاة إلى وزارة الماليّة. كاد يعجز عن فهْم مضمونها. ها هي كلّ طموحاته تتحقّق، وهو لم يعد يبالي. في القاعات المجاورة، ازداد رنين الذهب حدّة. تلك هي الساعة التي تمتلئ فيها مكاتب نانتاس بالهدير، محرّكةً عالماً كاملاً. وهو، في وسطِ هذا العمل الهائل الذي صنعه بنفسه، في ذروة قوّته وسلطانه، محملقاً ببلاهة في خطّ الامبراطور، أطلق شكوى الطفل تلك التي كانت بمثابة نفيٍ لحياته برمّتها:

«لستُ سعيداً... لست سعيداً...»

راح يبكي، حانياً رأسه على مكتبه، ودموعه المنسكبة بسخاءٍ تمحو رسالة تعيينه وزيراً.

4

مضت ثمانية عشر شهراً على تعيين نانتاس وزيراً للماليّة، وهو منكبّ على العمل باذلاً مجهوداً يفوق الطاقة البشريّة، كأنّما ليلهي نفسه ويتيه عن أفكاره. غداة الحادث العنيف الذي وقع في مكتبه، قابل البارون

دانفيلييه. وعلى أثر ذلك، وافقت فلافي، بناءً على نصائح والدها، على العودة إلى المنزل الزوجيّ. لكنّ الزوجين لم يعودا منذ ذلك الحين يتبادلان أيّ كلمة، باستثناء المسرحيّة المفروضة عليهما أمام الناس. قرّر نانتاس أنّه لن يغادر قصره. وفي المساء، كان يجلب معه مساعديه وينهي عمله في المنزل.

كانت تلك الفترة من حياته هي التي أنجز فيها أهمّ أعماله. كان صوتٌ يهمس له في داخله، يلهمه أفكاراً سامية ومثمرة. وحيثما مرَّ، كانت ترتفع همهمات تعاطف وإعجاب. غير أنّه كان يبقى منيعاً في وجه الثناء والمديح. لكأنّه يجدّ بلا أمل في الثواب، ومشروعه أن يكدّس الإنجازات بهدف وحيد هو تحقيق المستحيل. وكلّما ارتقى درجة، نظر في وجه فلافي مستنبطاً. هل حرّك مشاعرها أخيراً؟ هل غفرت له فعلته الشائنة القديمة، فلا تعود ترى سوى تنامي ذكائه؟ لكنّه لم يكن يلتقط أدنى شعورٍ على وجه تلك المرأة الصامت، فيقول في سرّه وهو يعاود العمل: «هيّا! ما زلت غير أهل بها بالمستوى الذي أنا فيه، عليّ أن أرتقي أكثر، أرتقي باستمرار!» كان مصمّماً على الفوز بالسعادة بالقوّة، مثلما فاز بالثروة. كان يعود إليه إيمانه بقوّته، ولا يقبل بوسيلة سواها للتحكّم بهذا العالم، لأنّ الإرادة في الحياة هي التي صنعت البشريّة. وحين يستولي عليه الإحباط بين الحين والآخر، يوصد الباب على نفسه حتّى لا يكشف لإحد عن ضعفه البشريّ. وحدهما عيناه الغائرتان المحاطتان بدائرتين سوداوين واللّتان تلتمع فيهما شعلة متوهّجة، كانتا تفضحان الصراعات التي تعتمل في نفسه.

باتت الغيرة تلتهمه الآن. فشله في كسب حبّ فلافي كان عذاباً يكويه. لكنّ غضباً جارفاً كان يستولي عليه حين يخطر له أنّها قد تهَب

نفسها لسواه. هي قادرة على الخروج علناً برفقة السيّد دي فونديت لمجرّد أن تؤكّد حريّتها. فكان إذاً يتظاهر بعدم الاكتراث لها على الإطلاق، وهو في الحقيقة يتحرّق قلقاً لأدنى غياب تغيبه. لو لم يكن يخشى أن يصبح مهزلة، لكان تبعها بنفسه في الشوارع. عندها أراد أن يُبقي بجانبها شخصاً يشتري هو إخلاصه.

كانوا احتفظوا بالآنسة شوين في المنزل. البارون كان معتاداً عليها، كما أنّها كانت تعرف عنهم الكثير، أكثر من أن يتمّ التخلّص منها. فكّرت الفتاة العانس لفترة أن تتقاعد مع العشرين ألف فرنك التي أعطاها إيّاها نانتاس غداة زواجه، لكن لا بدّ أنّها قالت في سرّها إنّ المنزل بات مناسباً للاصطياد في مياهه العكرة. قبعت إذاً مترصّدة فرصة جديدة، وقد احتسبت أنّها بحاجة إلى عشرين ألف فرنك أخرى إن هي أرادت شراء منزل كاتب العدل في روانفيل مسقط رأسها، منزل كانت معجبة به في شبابها.

لم يكن نانتاس ملزماً بالتكلّف مع تلك العانس التي لم تعد تخدعه حين تتعفّف وتدّعي عزّة النفس. ورغم ذلك، حين استقدمها إلى مكتبه في الصباح وعرض عليها بشكل واضح وصريح أن تبلغه بأدنى تحرّكات زوجته، ثارت ثائرتها وتظاهرت بالاستياء وراحت تسأله من يخالها ليعرض عليها ذلك.

«هيّا آنستي، قال وقد عيل صبره، إنّني على عجلة من أمري، لديّ من ينتظرني. دعينا نختصر الطريق أرجوك».

لكنّها لم تشأ الاستماع إليه ما لم يحترم الشكليّات. كانت تعتمد مبدأ أنّه ليس هناك ما هو قبيح بحدّ ذاته، بل يتوقّف القبح على طريقة عرض الأمور، وعندها إمّا أن تبدو شنيعة أو لا.

«حسناً! قال من جديد، ما أطلبه منك آنستي عمل صالح... أخشى أن تكون زوجتي تخفي عليّ بعض الهموم التي تكدّرها. أراها حزينة منذ بضعة أسابيع، وخطر لي أنّ بوسعك الحصول على معلومات.

- يمكنك الاعتماد عليّ، قالت عندها في فورة من الأمومة. إنّني مخلصة للسيّدة، وسأفعل كلّ ما بوسعي من أجل شرفها وشرفك... سنسهر عليها اعتباراً من الغد».

وعدها بمكافأتها على خدماتها. انتفضت ساخطة في بادئ الأمر، ثمّ ناورت بمهارة لترغمه على تحديد مبلغ. قال إنّه سوف يعطيها عشرة آلاف فرنك إن قدّمت له إثباتاً قاطعاً على حسن سلوك السيّدة أو سوء تصرّفها. هكذا توصّلا شيئاً فشيئاً إلى توضيح المسائل بينهما.

اعتباراً من ذلك اليوم، خفتت معاناة نانتاس. انقضت ثلاثة أشهر، وكان منهمكاً في مهمّة جسيمة هي إعداد الميزانيّة. أدخل نانتاس بالتوافق مع الامبراطور تعديلات هامّة على النظام الماليّ. كان على يقين من أنّه سيتعرّض لهجوم حادّ في المجلس، ولا بدّ له من تحضير عدد هائل من الوثائق. غالباً ما كان يسهر اللّيل بكامله. كان ذلك ينهكه ويساعده على التصبّر. وحين يلتقي الآنسة شوين، يستجوبها باقتضاب. هل علمت بشيء؟ هل قامت السيّدة بكثير من الزيارات؟ هل توقّفت في منازل معيّنة تحديداً؟ كانت الآنسة شوين تعدّ سجلّاً يوميّاً مفصّلاً، لكنّها لم تجمع حتّى ذلك الحين سوى وقائع غير هامّة. كان نانتاس يطمئنّ، والعانس تطرف بعينها أحياناً، مردّدةً أنها قد تحصل قريباً على معلومات جديدة.

الحقيقة أنّ الآنسة شوين فكّرت مليّاً. عشرة آلاف فرنكات مبلغٌ غير كافٍ وفق حساباتها. هي بحاجة إلى عشرين ألفاً لشراء منزل كاتب

العدل. خطر لها أوّلاً أن تبيع خدماتها للزوجة، بعدما باعتها للزوج. لكنّها تعرف السيّدة جيّداً، وتخشى أن تطردها ما إن تتفوّه بكلمة. قامت منذ وقت طويل بالتجسّس عليها لحسابها الخاصّ، قبل أن تُكلَّف حتّى بهذه المهمّة، معلّلة نفسها بأنّ نزوات الأسياد مصدر ثروة للخدّام. غير أنّها اصطدمت بنزاهة صارمة، يزيدها شدّة الشموخ الذي تنبع منه. احتفظت فلافي من الخطأ الذي ارتكبته بنقمة على جميع الرجال وبدأت الآنسة شوين تفقد الأمل حين التقت ذات يوم السيّد دي فونديت. أبدى من الاندفاع والحرارة في السؤال عن سيّدتها ما جعلها تدرك أنّه لا يزال يتحرّق شوقاً إليها، وذكرى اللّحظة التي أمسكها فيها بين ذراعيه لا تزال تلهبه. عندها حسمت أمرها: سوف تقدّم خدماتها للزوج والعشيق في آن، تلك هي الخطّة البارعة.

والواقع أنّ المناسبة جاءت في محلّها. فالسيّد دي فونديت يائس منذ أن نبذته فلافي، وكان سيهب كلّ ثروته ليستعيد تلك المرأة التي امتلكها في الماضي. بادر هو نفسه إلى سبر نوايا الآنسة شوين. قابلها من جديد، لعب معها ورقة المشاعر والتأثّر، مقْسماً لها أنّه سوف يقتل نفسه إن لم تساعده. وبعد ثمانية أيّام شهدت فيضاً من المشاعر الجيّاشة والتورّع، حُسِمت المسألة: سوف يعطيها عشرة آلاف فرنك، وهي ستخفيه ذات مساء في غرفة فلافي.

ذهبت الآنسة شوين في الصباح لمقابلة نانتاس.

«ماذا علِمْتِ؟» سألها ممتقعاً.

لكنّها لم تكشف له في بادئ الأمر عن أيّ معلومات دقيقة. من المؤكّد أنّ السيّدة على علاقة. بل هي تعطي مواعيد.

«حدّدي، حدّدي»، ردّد لها بحنق وقد ضاق ذرعاً.

وفي نهاية الأمر، ذكرت اسم السيّد دي فونديت.

«سيكون هذا المساء في غرفة السيّدة.

- حسناً، شكراً»، تمتم نانتاس متلعثماً.

صرفها بإشارة من يده خوفاً من أن يتهاوى أمامها. دهشت لهذا التصرّف من جانبه وسرّت به في آن، لأنّها توقّعت استجواباً مطوّلاً، حتّى أنّها أعدّت أجوبتها كي لا تختلط عليها الأمور. انحنت له وانسحبت متباكيةً وملامحها تعكس ألماً مفتعلاً.

كان نانتاس قد نهض. ما إن وجد نفسه وحيداً حتّى راح يتكلّم بصوت عالٍ.

«هذا المساء... في غرفتها...»

ضغط رأسه بين يديه وكأنّه سمِعه يتصدّع. ذلك الموعد داخل المنزل الزوجيّ بدا له على قدر سافر من الوقاحة. لا يمكن أن يدعها تهينه بهذه الطريقة. كان يشد قبضتيه القويّتين مثل قبضتي مصارع، والغضب يغلي في صدره باعثاً فيه أحلاماً بالقتل. رغم ذلك، كان لديه عمل يترتّب إنجازه. عاد ثلاث مرّات وجلس خلف مكتبه، وثلاث مرّات انتفض جسده وجعله يثب على قدميه من جديد، فيما شيء خفيّ من خلفه يدفعه، حاجة إلى الصعود فوراً إلى زوجته ليصيح بوجهها أنّها مومس. تمكّن أخيراً من كبح مشاعره وعاود العمل، وهو يقسم أنّه سوف يخنقها هذا المساء. كان ذلك أكبر انتصار حقّقه في حياته على نفسه بالذات.

ذهب نانتاس بعد الظهر إلى الامبراطور ليطرح عليه مشروع الميزانيّة النهائيّ. وحين أبدى الامبراطور بعض الاعتراضات، ناقشها معه بوضوح ذهنيّ تامّ، لكنّه اضطرّ أن يعده بتعديل جزء كامل من عمله، على أن يقدّم المشروع في اليوم التالي.

«سوف أقضي اللّيل عاكفاً عليه، جلالتك».

فكّر وهو عائد: «سوف أقتلها في منتصف اللّيل، ويبقى لي بعد ذلك حتّى الفجر لإتمام هذا العمل».

حين التقوا في المساء حول مائدة العشاء، تحدّث البارون دانفيليه تحديداً عن مشروع الميزانيّة ذاك الذي يثير ضجّة كبيرة. لم يكن موافقاً على كلّ أفكار صهره في ما يتعلّق بالماليّة، لكنّه كان يجدها شديدة الانفتاح وملفتة للغاية. وفيما كان نانتاس يردّ على البارون، خُيِّلَ له أكثر من مرّة أنّه لمح زوجته تحدّق في عينيه. غالباً ما كانت تنظر إليه على هذا النحو في الآونة الأخيرة. لم تكن نظرتها تلين، بل كانت تستمع إليه بكلّ بساطة وكأنّها تريد أن تقرأ ما وراء تعابير وجهه. ظنّ نانتاس أنّها تخشى أن يكون فُضِح أمرها، فبذل مجهوداً ليبدو خليّ البال. استرسل في الحديث، وسّع أفق كلامه، ونجح في نهاية المطاف في إقناع عمّه الذي سلّم بذكائه الشديد. كانت فلافي لا تزال تنظر إليه، وعبَرت على وجهها للحظةٍ ليونة يصعب تمييزها.

بقي نانتاس يعمل في مكتبه حتّى منتصف اللّيل. استولى عليه شيئاً فشيئاً الشغف بما يفعله، فلم يعد من وجود لشيء عدا ذلك الإنجاز الذي يبتكره، تلك الآليّة الماليّة التي بناها ببطء، مفصّلاً بعد مفصلٍ، مجتازاً بها عقبات لا تعدّ ولا تحصى. وحين دقّت الساعة منتصف اللّيل، رفع رأسه بلا شعور منه. كان القصر غارقاً في صمت عميق. تذكّر فجأةً. الخيانة الزوجيّة قابعة هناك، في قعر تلك العتمة وذلك الصمت. لكنّه وجد عناءً في النهوض من مقعده. وضع ريشته على المكتب رغماً عنه، تقدّم بضع خطوات كأنّها استجابة لإرادة قديمة لم يعد يجدها في داخله. ثمّ تصاعدت فيه حرارة ألهبت وجهه والتمعت شعلة في عينيه. صعد إلى

جناح زوجته.

في ذلك المساء، صرفت فلافي خادمتها في وقت مبكر. كانت ترغب في البقاء وحيدة. ظلّت حتّى منتصف اللّيل في الصالون الصغير الذي يتقدّم غرفة نومها. ممدّدةً على أريكة ذات مسند، كانت تمسك كتاباً، لكنّه ينزلق في كلّ لحظة من بين يديها، فتطرق في أفكارها، ونظرها تائه في الفراغ. وجهها لان من جديد وبين الحين والآخر كانت ترتسم عليه ابتسامة شاحبة.

نهضت منتفضةً حين سمعت دقّة على بابها.

«من هناك؟

- افتحي»، أجاب نانتاس.

كانت مفاجأتها كبيرة، حتّى أنّها فتحت الباب دون أن تفكّر. لم يأتِ زوجها يوماً هكذا إلى بابها. دخل وكان في حال من الاضطراب الشديد. عاوده غضبه العارم وهو يصعد الأدراج. كانت الآنسة شوين تترصّده في ردهة الدرج وهمست له في أذنه أنّ السيّد دي فونديت موجود هناك منذ ساعتين. لذلك لم يهدر الوقت في أيّ مقدّمات.

«سيّدتي، قال، هناك رجل مخبّأ في غرفتك».

لم تجب فلافي على الفور، بقدر ما كانت أفكارها بعيدة. وحين فهمت أخيراً ما يقول تمتمت:

«إنك مجنون تماماً، سيّدي».

لكنّه همّ بدخول الغرفة دون أن يتوقّف ليجادلها، فوثبت واعترضت طريقه عند الباب وهي تصيح:

«لن تدخل... أنا هنا في جناحي، وأمنعك من الدخول!»

كانت تحرس الباب وهي ترتعد وكأنّ قامتها تطاولت. بقيا لحظة

بلا حراك، صامتين، محدّقين أحدهما بالآخر. وقف مادّاً عنقه، يداه إلى الأمام، على وشك الانقضاض عليها للعبور.

«أفسحي لي، همس بصوت أجشّ. إنّني أقوى منك، سأدخل مهما فعلت.

- لا، لن تدخل، لا أريد ذلك».

راح يردّد بجنون:

«ثمّة رجل هنا، ثمّة رجل هنا...»

رفعت كتفيها، غير آبهة حتّى لنفي ذلك. وحين رأته يتقدّم خطوة من جديد، صاحت به:

«حسناً! لنفترض أنّ هناك رجلاً، ما دخلك أنت؟ ألست حرّة؟»

تراجع تحت وطأة هذه الكلمة التي لطمته مثل صفعة. صحيح أنّها حرّة. أحسّ ببرد شديد يطبق على كتفيه، شعر بشكل جليّ أنّها متفوّقة عليه، وأنّه كان في مشهد مسرحيّ يؤدّي هو فيه دور الطفل المريض النزق. لم يكن يحترم الاتفاقيّة المبرمة بينهما، وولهه الغبيّ يجعله بغيضاً. لماذا لم يبقَ في مكتبه ويواصل العمل؟ انحسر الدم من وجنتيه وامتقع وجهه وقد خيّمت عليه ظلال ألم لا يوصف. حين لاحظت فلافي مدى تأثّره، ابتعدت عن الباب ورقّت عيناها.

«انظرْ»، قالت ببساطة.

دخلت هي نفسها الغرفة حاملةً مصباحاً بيدها، فيما بقي نانتاس عند الباب. أشار لها بيده أنّ ذلك غير ضروريّ، أنّه لا يريد أن يرى. لكنّها باتت تصرّ على دعوته. وحين وصلت أمام السرير، رفعت الستائر، وظهر السيّد دي فونديت مختبئاً خلفها. ذهلت لرؤيته وأطلقت صرخة ذعر.

«صحيح، تمتمت متلعثمةً تحت وطأة الوهلة، صحيح، هذا الرجل

كان هنا... كنت أجهل ذلك، آه! أقسم لك بحياتي».

ثمّ هدأت، محكّمةً إرادتها، وبدت حتّى نادمةً على ردّ فعلها الأوّل ذاك، الذي جعلها تدافع عن نفسها.

«كنتَ على حقّ، سيّدي، أعتذر منك»، قالت لنانتاس جاهدةً لاستعادة صوتها البارد.

شعر السيّد دي فونديت بنفسه سخيفاً. التوى وجهه في تكشيرة غبيّة. كان سيُعطي الكثير حتّى يفقد الزوج صوابه. لكنّ نانتاس لزم الصمت. شحب وجهه، هذا كلّ ما بدا عليه. انتقل بناظرَيه من السيّد دي فونديت إلى فلافي، وانحنى أمامها مكتفياً بالقول:

«سيّدتي، اعذريني، إنّك حرّة».

ثمّ استدار ورحل. في أعماقه انكسر شيء. وحده نظام العضلات والعظام كان لا يزال يعمل. حين بات في مكتبه، توجّه مباشرةً إلى درج كان يخبّئ فيه مسدّساً. تفحّص السلاح وقال بصوت عالٍ كأنّه يقطع عهداً رسميّاً على ذاته:

«انتهينا، كفى. سوف أقتل نفسي بعد قليل».

أحيا شعلة المصباح التي كانت تنازع، جلس أمام مكتبه وعاود العمل بهدوء. ودون أن يتردّد وسط الصمت التامّ المخيّم، أكمل الجملة التي كان بدأها. كانت الأوراق تتكدّس الواحدة تلو الأخرى، بانتظام. وبعد ساعتين، حين نزلت فلافي عارية القدمين بعدما طردت السيّد دي فونديت لاستراق السمع عند باب المكتب، لم تسمع سوى صرير الريشة الخافت على الورق. انحنت وألصقت عينها بثقب المفتاح. كان نانتاس يواصل الكتابة بالهدوء نفسه، وعلى وجهه السلام والرضا إزاء عمله، فيما فوهة المسدّس الموضوع قربه تلتمع في شعاع نور منسكب من المصباح.

5

المنزل الملاصق لحديقة القصر بات ملكاً لنانتاس الذي اشتراه من عمّه. لكنّه في لفتة إلى ماضيه، منع تأجير العليّة الضيّقة التي كافح البؤسَ فيها على مدى شهرين عند وصوله إلى باريس. منذ أن حقّق ثروته الطائلة، عاودته مراراً الحاجة إلى الصعود إليها للاختلاء بنفسه بضع ساعات. في تلك العليّة تألّم وتعذّب، وفيها يريد أن يذوق طعم النصر. وحين تعترضه عقبة، يحبّ أيضاً أن يرجع إليها ليفكّر ويتّخذ القرارات الكبرى في حياته. فيها يعود هو الشخص الذي كان عليه قديماً. وكان من المنطقيّ بالتالي إزاء حتميّة الانتحار، أن يصمّم على الموت في تلك العليّة.

لم ينهِ نانتاس عمله إلاّ قرابة الساعة الثامنة في الصباح. غسل وجهه مطوّلاً بالماء خشية أن يغفو. ثمّ نادى عدّة موظّفين على التوالي ليعطيهم تعليمات. وحين وصل سكرتيره، قابله وأمره بحمل مشروع الميزانيّة حالاً إلى قصر التويلري وتقديم بعض التفسيرات في حالِ أبدى الامبراطور اعتراضات جديدة. انطلاقاً من تلك اللّحظة، اعتبر نانتاس أنّ ما فعله كان كافياً. فهو يترك خلفه كلّ الأمور في ترتيب وانتظام، لن يرحل وكأنّه مفلس مصاب بالجنون. وآنئذٍ بات أخيراً ملكاً لذاته، يمكنه التصرّف بنفسه كما يشاء دون أن يُتّهم بالأنانيّة والتخاذل.

دقّت الساعة التاسعة. حان الوقت. لكن فيما كان يهمّ بالخروج من مكتبه حاملاً معه المسدّس، ترتّب عليه تجرّع كأس مريرة أخيرة: حضرت الآنسة شوين لتقاضي العشرة آلاف فرنك الموعودة. دفع لها المبلغ وتوجّب عليه احتمال نبرتها الحميمة. أبدت عن عطف أموميّ حياله، عاملته كما يُعامَل تلميذ نجيب نجح في اختبار. ولو كان لا يزال يساوره

أدنى تردّد، لكان ذلك التواطؤ المخزي جعله يحسم أمره ويصمّم نهائيّاً على الانتحار. صعد مسرعاً وفي عجلته نسي المفتاح في الباب.

لا تزال العليّة على ما هي عليه، لم يتغيّر فيها شيء. التشقّقات ذاتها على ورق الجدران، السرير، الطاولة والكرسيّ في موضعها، تفوح منها رائحة الفقر القديمة. تنشّق للحظة تلك الرائحة التي تذكّره بصراعاته الماضية. ثمّ اقترب من النافذة وتراءت له الفرجه ذاتها في الأفق تكشف عن باريس، وأشجار القصر، والسين، والأرصفة، وزاوية كاملة من الضفّة اليمنى للنهر، وبحر المنازل المتلاصقة المتهاوجة تعلو وتنهمر متداخلةً حتّى أقاصي المدينة عند مقبرة بير لاشيز.

كان المسدّس موضوعاً على الطاولة العرجاء، في متناول يده. لم يعد مستعجلاً، فهو واثقٌ من أنّ أحداً لن يأتي إلى هناك وأنّه أصبح له الحريّة التامّة في أن يقتل نفسه. في تلك الغرفة ذاتها أراد ذات مساء أن يحطّم رأسه. كان حينها أفقر من أن يشتري مسدّساً، ولم يكن لديه من وسيلة سوى حجارة الطريق، لكنّ الموت كان رغم ذلك في نهاية النفق. هكذا إذاً في الحياة، وحده الموت لا يخدع، وحده دوماً محطّ ثقة ودوماً في التصرّف. لم يعرف في حياته غير الموت صُلباً متيناً. أنّى فكّر ونقّب، وجد كلّ شيء ينهار من تحته باستمرار، وحده الموت يبقى يقيناً. أسِف على تلك السنوات العشر الزائدة في حياته التي لم يكن يجدر به أن يعيشها. بدت له سخيفة تجربته للحياة، بارتقائه الى الثروة والسلطة. ما الجدوى من توظيف كلّ تلك الإرادة، ما الفائدة في بذل كلّ هذه القوّة، إن لم تكن الإرادة والقوّة في الحقيقة كلّ ما هنالك؟ كان شغفٌ كافياً لتدميره. وقع بكلّ بساطة وبلاهة في حبّ فلافي، فأخذ البناء الذي كان يشيّده يتشقّق ويتداعى مثل قصر من ورق يتهاوى ما إن ينفخ فيه طفل. أمر مزرٍ حقّاً!

لكأنّه عقاب تلميذ هرب من المدرسة، ينقصف غصن الشجرة من تحته ويهلك حيث ارتكب خطأه. سخيفة هي الحياة، ينتهي المتفوّقون فيها كالأغبياء، بالتفاهة ذاتها.

تناول نانتاس المسدّس عن الطاولة وبدأ يلقّمه ببطء. راودته حسرة أخيرة جعلته يضعف لثانية في تلك اللّحظة القصوى. كم من الأشياء العظيمة كان سيحقّقها لو فهمته فلافي! لو اندفعت يوماً وعانقته بحرارة وهي تقول له «أحبك!» لكان في ذلك اليوم وجد قوّة يرفع بها العالم بأسره. آخِر ما خطر له كان ازدراء عظيماً للقوّة، لأنّ القوّة التي كان يفترض أن تهبه كلّ شيء عجزت عن منحه فلافي.

رفع مسدّسه. كانت صبيحة رائعة. من النافذة المشرّعة تتدفّق الشمس موقظةً العليّة بعصفة شباب. في البعيد كانت باريس تباشر عملها الكادح، كدح مدينة عملاقة. وضع نانتاس الفوهة على صدغه.

في تلك اللّحظة انفتح الباب بعنف ودخلت فلافي. أبعدت المسدّس بحركة خاطفة فانغرزت الرصاصة في السقف. نظر أحدهما إلى الآخر. كانت تلهث فاقدةً أنفاسها ولا يسعها الكلام. أخيراً وجدت الكلمة التي كان ينتظرها، الكلمة الوحيدة التي يمكن أن تقنعه بالبقاء على قيد الحياة. انقضّت عليه وعانقته وهي تخاطبه لأوّل مرّة بإلفة.

«أحبّك! صاحت وهي تشهق بالبكاء، منتزعةً هذا الاعتراف من أعماق كبريائها، من كامل كيانها المروّض. أحبّك لأنّك قويّ!»

وفاة أوليفييه بيكاي[1]

1

كان يوم سبت، في الساعة السادسة صباحاً، حين فارقْتُ الحياة بعد مرض استمرّ ثلاثة أيّام. كانت زوجتي المسكينة تنقّب منذ لحظة في الحقيبة بحثاً عن بياضات، وحين نهضت ووجدتني متصلّباً، عيناي مشرّعتان ولا ينبعث أيّ نفس من فمي، هرعت ظنّاً منها أنّه أغمي عليّ. لامست يديّ، انحنت على وجهي، ثمّ تملّكها الذعر، وتأتأت جزعةً وهي تجهش بالبكاء:

«يا إلهي! يا إلهي! لقد مات!»

كنت أسمع كلّ شيء، لكنّ الأصوات الخافتة تبدو لي وكأنّها قادمة من بعيد، بعيد. وحدها عيني اليسرى لا تزال تبصر نوراً مبهماً، نوراً أبيض تذوب فيه الأشكال، فيما العين اليمنى مشلولة تماماً. كانت تلك إغماءة لكياني كاملاً، لكأنّ صاعقة قضت عليّ. إرادتي ماتت، ولم تعد أيّ خليّة من خلايا جسدي تطيعني. وفي هذا العدم، فوق أطرافي الهامدة، وحده

(1) كتب زولا قصّة «وفاة أوليفييه بيكاي» في شباط 1879 ونُشرت في *Le Messager de l'Europe* في آذار 1879، ثمّ في *Le Voltaire* في 30 نيسان وفي 1 إلى 5 أيّار 1879، قبل أن تُمثل في مجموعة *Naïs Micoulin* حيث وردت بعد قصّة «نانتاس». وإن كانت هذه القصّة، وهي من أشهر قصص زولا وأكثرها فرادة أيضاً، تشهد على العديد من التأثيرات الأدبيّة الممكنة (ما بين بلزاك وتيوفيل غوتييه وفلوبير وسواهم)، إلّا أنها نابعة بشكل أساسيّ من العصاب الهجاسيّ الذي كان يعاني منه الكاتب إذ يروي الأخَوان غونكور في يوميّاتهما كيف ظلّ زولا يشكو بعد وفاة والده من كونه يشعر بدنوّ الموت منه ما إن يخلد إلى النّوم.

فكري بقيَ، بطيئاً وخاملاً، لكنّه واضح منقشع.

كانت زوجتي المسكينة مارغريت تبكي، جاثيةً أرضاً أمام السرير، تردّد بصوت أليم:

«مات! يا إلهي! مات!»

أهذا هو الموت إذاً، ذلك الخدر البليد، ذلك الجسد الهامد، فيما العقل لا يزال يعمل؟ أهي روحي تتمهّل هكذا في دماغي قبل أن تنطلق وتحلّق؟ منذ طفولتي تراودني نوبات عصبيّة. صرعتني مرّتين وأنا صغيرٌ حمّى حادّة كادت تخطفني[1]. ثمّ اعتاد الجميع من حولي على رؤيتي سقيماً. أنا نفسي منعت مارغريت من الذهاب لجلب طبيب، حين اضطجعتُ صباح وصولنا إلى باريس في ذلك الفندق المفروش في شارع دوفين. يكفي أن أرتاح قليلاً. لا بدّ أنّ تعب الرحلة هو ما يبعث فيّ هذا الانقباض الأليم في مفاصلي وعضلاتي. لكن قلقاً فظيعاً كان يتملّكني رغم ذلك. غادرنا منطقتنا بشكل مفاجئ، في فقر مدقع، لا نكاد نملك ما يكفينا ريثما أتقاضى أجر شهري الأوّل في المديريّة التي حصلت فيها على وظيفة. وها أنّ نوبة مفاجئة تخطفني!

أهو الموت حقّاً؟ كنت أتصوّر ليلاً أكثر عتمة، صمتاً أكثر ثقلاً. منذ صغري وأنا أخشى أن أموت. وبما أنّني كنت ضعيفاً، وأنّ الناس كانوا يداعبونني بتعاطف، كنت أفكّر باستمرار أنّني لن أبقى على قيد الحياة، أنّهم سيدفنونني في سنّ مبكرة. فكرة التراب هذه كانت تبعث فيّ

(1) أصيب زولا الشابّ خلال شتاء 1858 بحمّى التيفوئيد وكان في حالة خطيرة. ولم يبق هذا المرض مجرّد محطّة من حياته سرعان ما تخطّاها، بل ترك بصمة في ذهن الكاتب المبدع. وغالباً ما نجد في سلسلة «آل روغون ماكار» صوراً كابوسيّة للتكفين والدفن كما في روايات «غلطة الأب موريه» *La Faute de l'Abbé Mouret* و«جرمينال» *Germinal* و«الوحش البشريّ» *La Bête humaine* .

جزعاً لا يسعني التكيّف وإيّاه، رغم أنّها كانت تسكنني ليل نهار. وحين كبرت، احتفظت بهذا الهاجس. أحياناً كنت أظنّ، بعد أيّام من التأمّل، أنّني غلبت خوفي. حسناً! إنّنا نموت، وينتهي كلّ شيء. الكلّ يموت في يوم من الأيّام، وهذا حتماً أنسب وأفضل ما يمكن. كنت أوشك حتّى على مقاربة المسألة بخفّة، أنظر في الموت وجهاً لوجه. ثمّ تعتريني فجأةً ارتعاشة تبعث فيّ ذعراً يشلّني، تعيدني إلى دوّامتي، وكأنّ يداً عملاقة قذفتني فوق هوّة سحيقة سوداء. إنّها فكرة التراب تعاودني وتجرف كلّ حججي وتبريراتي. كم مرّة استيقظتُ جافِلاً وسط اللّيل من غير أن أدري أيّ عصفة هبّت على نومي، شابكاً يديّ يائساً وأنا أتمتم: «يا إلهي! يا إلهي! لا بدّ من الموت!» كان قلق يطبق على صدري. حتميّة الموت تبدو لي أكثر فظاعة في غشاوة اليقظة. ولم أكن أغفو من جديد إلّا بعناء. النوم يخيفني من شدّة ما يشبه الموت. ماذا لو كنت سأنام إلى الأبد؟ ماذا لو كنت سأغلق عينيّ من غير أن أفتحها بعد الآن[1]!

لست أدري إن كان آخرون عانوا هذا العذاب. فهو نغّص حياتي. وقف الموت حاجزاً بيني وبين كلّ ما أحببت. أذكر أسعد لحظات قضيتها مع مارغريت. في الأشهر الأولى من زواجنا، حين كانت تغفو بجانبي في اللّيل، حين كنت أفكّر فيها وأحلام المستقبل تراودني، كنت أترصّد دوماً انفصالاً محتوماً يفسد فرحتي ويقضي على آمالي. لا بدّ أن

(1) زولا الذي كان يقرّ بمثل هذه المخاوف، نسبها بتعابير مشابهة إلى شخصيّة لازار شانتو في «لذّة العيش» (1884): «كان يكره النوم، يمقت الإحساس بكيانه يضعف، وهو يتهاوى من اليقظة إلى دوار العدم. ثمّ يقظاته المباغتة تروّعه أكثر، تسحبه من السواد، وكأنّ قبضة عملاقة أمسكته من شعره وقذفته مجدّداً إلى الحياة، فيما يتملّكه ذعر متلعثم حيال المجهول الذي هو خارج منه. يا إلهي! يا إلهي! لا بدّ من الموت! لم يشبك يديه يوماً باندفاعة يائسة كهذه!»

نفترق، ربّما غداً، أو بعد ساعة. كان إحباط هائل يستولي عليّ، فأتساءل ما جدوى سعادتنا معاً، إن كانت ستفضي بنا إلى انفصال أليم إلى هذا الحدّ. عندها كانت مخيّلتي تستطيب الأسى. من منّا سيرحل قبل الآخر، أنا أم هي؟ وكلا الاحتمالين كان يؤثّر في نفسي حتّى الدموع، راسماً أمامي مشهد حياتنا المحطّمة. هكذا في أسعد أوقات حياتي، راودتني نوبات كآبة مفاجئة لم يكن أحد يفهمها. حين يضحك لي الحظّ، يندهش الجميع لرؤيتي حزيناً. ففكرة العدم الذي أنا فيه كانت تعبر فرحتي فجأة. وعبارة «ما الفائدة؟» الفظيعة تلك تتردّد في أذنيّ مثل ناقوس ينذر بالموت. لكنّ أسوأ ما في هذه المعاناة أنّنا نكتمها في إحساس بالخزي. لا نجرؤ على البوح بشجوننا لأحد. لا بدّ أنّ الارتعاشة ذاتها تعتري في غالب الأحيان الزوج والزوجة حين يطفئان النور، ممدّدين جنباً إلى جنب. ولا يتفوّه أيّ منهما بكلمة، فلا يمكن الكلام عن الموت، مثلما لا يمكن التلفّظ ببعض الكلام البذيء. نهابه حتّى أنّنا لا نقول اسمه. نخفيه مثلما نخفي أعضاءنا التناسليّة.

كنت أفكّر في هذه الأمور، فيما عزيزتي مارغريت تنتحب وتبكي. كان يحزنني كثيراً ألّا أعرف كيف أخفّف من حزنها، كيف أقول لها إنّني لا أتألّم. إن كان الموت مجرّد اضمحلال الجسد هذا، فكم كنت مخطئاً حقّاً بأن أهابه إلى هذا الحدّ. إنّه نعيم أنانيّ، استكانة أنسى فيها غمّي وهمومي. ذاكرتي تحديداً باتت على قدر استثنائيّ من الحدّة. راحت حياتي برمّتها تعبر بسرعة أمامي مثل شريط صرت غريباً عنه. إحساس غريب عجيب وجدته طريفاً، وكأنّ صوتاً نائياً يروي لي قصّتي.

كان هناك زاوية من الريف قرب غيراند، على طريق بيرياك، تلاحقني

ذكراها[1]. تنعطف الطريق، وتنحدر غابة صغيرة من أشجار الصنوبر عشوائيّاً على سفح صخريّ. كنت أقصد تلك الناحية مع والدي حين كنت في السابعة، فننزل في بيت شبه منهدم ونأكل فطائر عند أبوَي مارغريت اللّذين كانا آنذاك يعتاشان بعناءٍ من جمع الملح في الملّاحات القريبة. ثمّ تذكّرت مدرسة نانت حيث نشأت، وسط سأم الجدران القديمة، وفي نفسي توق متواصل إلى آفاق غيراند الرحيبة، الملّاحات الشاسعة على مدى النظر عند أسفل المدينة، والبحر المترامي يفرش زرقته تحت السماء. هنا يتخلّل خطّ حياتي ثقب أسود: والدي توفّي ودخلت موظّفاً إلى إدارة المستشفى وبدأت حياة رتيبة كانت فرحتي الوحيدة فيها زياراتي يوم الأحد للمنزل القديم على الطريق إلى بيرياك. الأوضاع هناك كانت تتردّى بشكل متزايد. فالملّاحات لم تعد تدرّ شيئاً تقريباً، وبؤس شديد ينتشر في المنطقة. كانت مارغريت لا تزال طفلة. كانت تحبّني لأنّني أجول بها في عربة يد. لكن فيما بعد، في الصباح الذي طلبت فيه يدها، أدركت حين رأيتها تجفل بهلع أنّها كانت تجدني دميماً. وافق والداها على الفور، فهذا يزيل عبئاً عن كاهلهما. أمّا هي، فأذعنت ولم ترفض. وحين اعتادت فكرة أن تكون زوجتي، لم تعد تبدو مستاءة. يوم زفافنا في غيراند، أذكر أنّ المطر كان ينهمر غزيراً. وحين دخلنا المنزل، اضطرّت إلى البقاء في تنورتها الداخليّة لأنّ فستانها كان مبلّلاً.

ذلك هو شبابي كلّه. عشنا بعض الوقت هناك. ثمّ ذات يوم حين عدت إلى المنزل، وجدت زوجتي تبكي وتنتحب. كانت سئمة وتودّ الرحيل من هناك. وبعد ستّة أشهر، كنت جمعت مدّخراتٍ فلساً فلساً

(1) قضى زولا عطلة في بيرياك عام 1876 استوحى منها قصّة قصيرة أخرى هي «صدف السيّد شابر» *Les Coquillages de Monsieur Chabre*.

من أشغال إضافيّة قمت بها. وبما أنّ صديقاً قديماً للعائلة تكفّل بالعثور على عمل لي في باريس، اصطحبت الطفلة الحبيبة ورحلنا حتّى لا تعود تبكي. في القطار أخذتْ تضحك. السرير الصغير في مقصورة الدرجة الثالثة كان قاسياً جدّاً، فجعلتها تجلس في حضني حتّى تتمكّن من النوم بشكل مريح.

كان ذلك الماضي. وأنا قضيت للتوّ على ذلك الفراش الضيّق في غرفة فندق مفروشة، فيما زوجتي تئنّ وتشكو جاثية على الأرض. البقعة البيضاء التي تلمحها عيني اليسرى تشحب تدريجيّاً، لكنّني أذكر الغرفة بوضوح كامل. إلى اليسار هناك الدرج، وإلى اليمين الموقد وفوقه في الوسط ساعة معطّلة بلا رقّاص تشير إلى العاشرة وستّ دقائق. النافذة تطلّ على شارع دوفين القاتم والممتدّ إلى البعيد. باريس برمّتها تعبر من هنا، وسط ضجيج صاخب حتّى أنّني أسمع الزجاج يرتجّ.

لم نكن نعرف أحداً في باريس. وبما أنّنا قدّمنا موعد رحيلنا، لم يكن أحد في إدارتي ينتظرني قبل الاثنين التالي. كان إحساس غريب ينتابني منذ اضطررت إلى لزوم السرير، شعور بالضيق لاحتجازي في تلك الغرفة حيث ألقتنا الرحلة، ونحن لا نزال منهكين بعد خمس عشرة ساعة في القطار، ودائخين من ضوضاء الشوارع. اعتنت بي زوجتي بعذوبتها ووجهها الباسم، لكنّني كنت أحدس مدى اضطرابها. بين الحين والآخر تقترب من النافذة وتلقي نظرة إلى الشارع، ثمّ تعود شاحبة، مرتاعة من تلك المدينة الهائلة التي لا تعرف فيها حجراً والتي تبعث تلك الزمجرة الفظيعة. ماذا عساها تفعل إن لم أستيقظ؟ ماذ سيحلّ بها في هذه المدينة الشاسعة، وحيدة ليس لديها من يساندها ولا تعرف شيئاً هنا؟

أمسكت مارغريت يدي المتدلّية هامدة من حافة السرير وأخذت

تقبّلها وهي تردّد كالمجنونة:

«أوليفييه، أجبني... يا إلهي! لقد مات! لقد مات!»

لم يكن الموت إذاً العدم، بما أنّني أسمع وأفكّر. وحده العدم أرعبني منذ طفولتي. لم يكن بوسعي تصوّر تلاشي كياني، زوال كلّ ما كنت بشكل تامّ، وذلك إلى الأبد، لقرون وقرون، دون إمكانٍ أن يبدأ وجودي من جديد في أيّ من الأيّام. كنت أرتعش أحياناً حين أجد في صحيفة تاريخاً من المستقبل في القرن القادم. من المؤكّد أنّي لن أكون على قيد الحياة عندما يحلّ ذلك التاريخ، وتلك السنة في مستقبل لن أبصره ولن أعود في الوجود فيه، كانت تبعث فيّ قلقاً كبيراً. هكذا إذاً لست أنا الكون، والعالم لن ينهار برمّته حين أرحل؟

أن أحلم بالحياة في موتي، ذلك كان أملي على الدوام. لكن لا بدّ أنّ هذا ليس هو الموت. سأستيقظ بالتأكيد بعد قليل. أجل، بعد قليل سأنحني وأضمّ مارغريت بين ذراعيّ لأكفكف دموعها. كم ستكون كبيرةً فرحة لقائنا من جديد! وكم سيكون حبّنا أكبر! سوف أستريح يومين إضافيّين، ثمّ أذهب إلى إدارتي. ستبدأ حياة جديدة بالنسبة لنا، أكثر سعادة، أكثر يسراً. غير أنّني لست على عجلة من أمري. منذ قليل كنت لا أزال مغتمّاً. مارغريت تخطئ حين تفقد الأمل على هذا النحو، لإنّني لم أكن أقوى على أن أدير رأسي على الوسادة لأبتسم لها. بعد قليل حين ستقول من جديد «لقد مات! يا إلهي!» لقد مات!» سأقبّلها وأهمس لها خافضاً صوتي حتّى لا أخيفها: «لا يا حبيبتي، كنت نائماً. ترين جيّداً أنّني على قيد الحياة وأحبّك!»

2

عند سماع صيحات مارغريت، فُتح الباب فجأةً وصرخ صوت:

«ما بك يا جارتي؟... نوبة جديدة، أليس كذلك؟»

عرفت الصوت. إنّه صوت عجوز، السيّدة غابان، تقيم في الطابق ذاته مثلنا. أبدت لنا الكثير من المودّة منذ وصولنا، وقد تأثّرت لرؤية حالنا. أخبرتنا قصّتها على الفور. كان ملّاك صعب المراس باع أثاثها الشتاء الماضي، ومنذ ذلك الحين تقطن في الفندق مع ابنتها آديل، طفلة في العاشرة من العمر. تفصّلان مظلّات مصابيح. بمشقّةٍ تجنيان من هذا العمل أربعين فلساً.

«يا إلهي! هل قُضيَ الأمر؟» سألت خافضةً صوتها.

أدركتُ أنّها تقترب. نظرَتْ إليّ، لمستني، ثمّ قالت بشفقة:

«يا صغيرتي المسكينة! يا صغيرتي المسكينة!»

كانت مارغريت منهكة، تجهش بالبكاء مثل طفلة. رفعتها السيّدة غابان وجعلتها تجلس في الأريكة العرجاء القريبة من الموقد، وهناك حاولت أن تواسيها.

«اهدأي، سوف تتسبّبين لنفسك بآلام. إن كان زوجك رحل، فهذا لا يعني أنّ عليك أن تقتلي نفسك من شدّة اليأس. صحيح أنّني حين فقدت غابان، كنت مثلك، بقيت ثلاثة أيّام دون أن أتمكّن من تناول لقمة طعام. لكنّ هذا لم يساعدني، بل بالعكس، زاد من محنتي... هيّا، بحقّ الله! حكّمي عقلك!»

صمتت مارغريت شيئاً فشيئاً. كانت محطّمة وبين الحين والآخر تعاودها نوبة بكاء. في تلك الأثناء كانت العجوز تحتلّ الغرفة حيث تبسط سطوتها بخشونة.

«لا تكترثي لشيء، ردّدت. بالمناسبة، ديديه ذهبت تسلّم العمل. ثمّ لا بدّ للجيران من أن يساعدوا بعضهم البعض... عجباً! لم تفرغي حقائبكما تماماً بعد. لكن هناك بياضات في الدّرج، أليس كذلك؟»

سمعتها تفتح الدّرج. لا بدّ أنّها تناولت منديلاً فرشته على المنضدة اللّيليّة بجانب السرير. ثمّ حكّت عود ثقاب، ما جعلني أفكّر أنّها تشعل إحدى شموع الموقد بقربي. كنت أتابع أدنى تحرّكاتها في الغرفة، أدرك كلّ ما تقوم به.

«ذلك السيّد المسكين! تمتمت. من حسن الحظّ أنّني سمعتكِ تبكين يا عزيزتي».

اختفى فجأةً النور المبهم الذي كنت لا أزال أبصره بعيني اليسرى. السيّدة غابان أغمضت عينيّ. لم أشعر بإصبعها على جفني. وحين تنبّهتُ للأمر، بدأ إحساس طفيف بالبرد يبعث فيّ الفزع.

فُتح الباب من جديد. دخلت ديديه، فتاة العشر سنوات، وهي تصيح بصوتها الهزيل:

«أمّي! أمّي! آه كنت واثقة من أنّك هنا!... إليك حسابك، ثلاثة فرنكات وأربعة فلوس... وجلبت معي عشرين دزّينة مظلّات مصابيح...

- اصمتي! هششش! اصمتي!» ردّدت والدتها عبثاً.

ولمّا لم تتوقّف الفتاة عن الكلام، أشارت لها إلى السرير. توقّفت ديديه، أحسستُ بها قلقة، تتراجع صوب الباب.

«هل السيّد نائم؟ سألت همساً.

- أجل، اذهبي والعبي»، أجابت السيّدة غابان.

لكنّ الفتاة بقيت مسمّرة مكانها. لا بدّ أنّها كانت تنظر إليّ محملقة

بذعر وقد فهمت بشكل مبهم. استولى عليها الهلع فجأةً فهربت وكأنّها جنّ جنونها، متعثّرة بكرسيّ سقط أرضاً.

«إنّه ميت! آه أمّي، إنّه ميت!»

خيّم صمت مطبق. رازحةً في الأريكة، توقّفت مارغريت عن البكاء. السيّدة غابان تواصل طوافها في الغرفة. عادت تتمتم بين أسنانها.

«الأطفال اليوم يعرفون كلّ شيء. انظري إلى تلك، الله يعلم إن كنت أحسن تربيتها! حين تذهب لشراء غرض أو أرسلها لتسليم العمل، أحسب الدقائق لأتأكّد من أنّها لا تعرّج يميناً ويساراً... لكنّ كلّ ذلك لا يجدي، إنّها تعرف كلّ شيء، أدركت في طرفة عين ما يحصل. لكنّنا لم ندعها يوماً ترى سوى ميتٍ واحد، عمّها فرنسوا، وفي تلك الفترة كان عمرها أربع سنوات... مهما يكن! لم يعد هناك أولاد في هذا الزمن، ما عساني أقول؟»

توقّفت وانتقلت بشكل مباغت إلى موضوع آخر.

«قولي لي صغيرتي، لا بدّ من التفكير في الإجراءات الرسميّة، إعلان الوفاة في البلديّة، ثمّ كلّ تفاصيل الجنازة. لستِ بحالة تسمح لك بالاهتمام بهذه الأمور. وأنا لا أريد أن أتركك وحيدة... ما رأيك؟ إن سمحت لي، سأذهب وأرى إن كان السيّد سيمونو في منزله».

لم تردّ مارغريت. كنت أتابع كلّ هذه المشاهد كأنّها من بعيدٍ جدّاً. بدا لي في بعض الأوقات أنّني أحلّق مثل شعلة رقيقة في هواء الغرفة، فيما شخص غيري يرقد هامداً، كتلة فاقدة الشكل في السرير. وددت لو ترفض مارغريت خدمات سيمونو ذاك. رأيته ثلاث أو أربع مرّات خلال مرضي القصير. إنّه يسكن غرفة مجاورة ويسارع إلى عرض خدماته. روت لنا السيّدة غابان أنّه في زيارة قصيرة لباريس حيث جاء لجباية ديون

قديمة مستحقّة لوالده الذي انسحب إلى الريف وتوفّي مؤخّراً. إنّه رجل شابّ طويل القامة، وسيم جدّاً وقويّ جدّاً. كنت أكرهه، ربّما لأنّه بصحّة جيّدة. بالأمس أيضاً عرّج علينا، واضطررت إلى تحمّل منظره جالساً قرب مارغريت. كم كانت فاتنة وبيضاء بجانبه!

وكم حدّق فيها مطوّلاً وهي تبتسم له وتشكره على طيبته وتفقّده لأخباري!

«ها هو السيّد سيمونو»، تمتمت السيّدة غابان عائدة إلى الغرفة.

دفع الباب برفق وما إن رأته مارغريت حتّى راحت تنتحب من جديد. وجود هذا الصديق، الرجل الوحيد الذي تعرفه، كان يوقظ ألمها. لم يسعَ لمواساتها. لم يكن بوسعي رؤيته، لكنّني استحضرت وجهه في الظلمة التي كانت تلفّني، وكنت أتصوّره بوضوح كامل، أراه مضطرباً، حزيناً لرؤية المرأة المسكينة في مثل هذه الحالة اليائسة. رغم الشدّة، لا بدّ أنّها تبدو جميلة للغاية، بشعرها الأشقر المسترسل على كتفيها، وجهها الشاحب، ويديها الصغيرتين المؤثّرتين مثل يدي طفلة تلهبهما الحمّى!

«إنّني في تصرّفك سيّدتي، قال سيمونو همساً. بوسعي إن سمحْتِ التكفّل بكلّ شيء...»

أجابت ببضع كلمات متقطّعة مفكّكة. وفيما كان الشابّ يغادر، سمعت السيّدة غابان التي كانت ترافقه تتكلّم عن المال وهي تمرّ قربي. الجنازات باهظة الكلفة على الدوام، وهي تخشى ألّا تكون الصغيرة العزيزة تملك فلساً واحداً. في مطلق الأحوال، يمكن الاستفسار منها. طلب سيمونو من العجوز أن تلزم الصمت. لم يشأ إزعاج مارغريت. سوف يذهب بنفسه إلى البلديّة ويوصي على الموكب.

حين خيّم الصمت من جديد، تساءلْتُ إن كان هذا الكابوس سيستمرّ

إلى الأبد. كنت على قيد الحياة، إذ أميّز كلّ حدث خارجيّ. بدأت أضع بنفسي تشخيصاً دقيقاً لوضعي. لا بدّ أنّها من حالات جمود العضلات تلك التي سمعت بها. سبق أن أُصبت حين كنت طفلاً، في فترة مرضي العصبيّ الخطير، بإغماءات استمرّت عدّة ساعات. إنّها بالتأكيد نوبة من هذا القبيل تبقيني متخشّباً على هذا النحو وكأنّني ميت، تخدع كلّ الذين يحيطون بي. لكنّ القلب سيعاود دقّاته، والدم سيجري من جديد عندما تلين العضلات. وسوف أستيقظ وأواسي مارغريت. رحت أعلّل نفسي بهذه الأفكار داعياً نفسي إلى الاصطبار.

مرّت الساعات وجلبت السيّدة غابان غداءها. رفضت مارغريت تناول أيّ طعام. ثمّ انقضى ما بعد الظهيرة. من النافذة المفتوحة تتصاعد أصوات شارع دوفين. بدا لي عند سماع رنين طفيف أحدثه نحاس الشمعدان على رخام منضدة اللّيل أنّهم بدّلوا الشمعة. وأخيراً دخل سيمونو مجدّداً.

«هل من جديد؟ سألته المرأة العجوز بصوت منخفض.

- سوّيت كلّ شيء، أجابها. الجنازة ستجري غداً في الساعة الحادية عشرة... لا تقلقي لشيء ولا تطرحي هذه المسائل أمام هذه المرأة المسكينة».

لكنّ السيّدة غابان أضافت رغم توصيته:

«طبيب الموتى لم يحضر بعد».

ذهب سيمونو وجلس قرب مارغريت، شجّعها قليلاً ثمّ صمت. إذاً الجنازة غداً الساعة الحادية عشرة. تلك الجملة كانت تتردّد في دماغي مثل دقّة ناقوس. وذلك الطبيب لم يحضر بعد، طبيب الموتى كما قالت السيّدة غابان عنه! هو سيدرك على الفور حتماً أنّني في حالة من الجمود لا

غير. سوف يتّخذ الإجراءات الضروريّة ويعرف كيف يوقظني. رحت أنتظره بلهفة رهيبة.

غير أنّ النهار انقضى. وفي نهاية المطاف جلبت السيّدة غابان مظلّاتها كي لا تهدر الوقت. حتّى أنّها استقدمت ديديه أيضاً بعدما استأذنت مارغريت، لأنّها لا تحبّ أن تترك الأولاد لوحدهم لفترة طويلة، كما شرحت.

«هيّا، ادخلي، تمتمتْ وهي تُدخل الفتاة. ولا تتصرّفي ببلاهة، إيّاك أن تنظري إلى هذه الناحية، وإلّا سوف ترين».

كانت تمنعها من النظر إليّ، تجد ذلك أكثر لياقة. لا شكّ أنّ ديديه كانت تسترق النظر بين الحين والآخر، لأنّني كنت أسمع والدتها تناولها صفعات على ذراعيها وتردّد لها بحنق:

«اعملي وإلّا أخرجتك من هنا، وهذه اللّيلة سيذهب السيّد ويشدّك من قدميك».

جلست الاثنتان، الوالدة والابنة، أمام طاولتنا. كنت أميّز بوضوح صوت مقصّيهما وهما تفصّلان المظلّات. لا بدّ أنّه عمل دقيق للغاية يتطلّب تقطيعاً معقّداً لأنّ العمل عليها لم يكن يجري بسرعة. كنت أعدّ المظلّات واحدة واحدة، علّ ذلك يساعدني على مكافحة قلقي المتزايد.

لم يكن هناك سوى صوت المقصّين يملأ الغرفة. فلا بدّ أنّ مارغريت غفت، وقد غلبها التعب. نهض سيمونو مرّتين. كانت تؤرّقني فكرة أنّه ربّما يستغلّ نوم مارغريت ليلامس شفتيها، شعرها. لم أكن أعرف هذا الرجل، وأحسست أنّه يحبّ زوجتي. وفي النهاية أطلقت الصغيرة ديديه ضحكة أثارت استيائي تماماً.

«لماذا تضحكين أيّتها البلهاء؟ نهرتْها والدتها. سوف ألقّنك درساً...

هيّا، أجيبي، ما الذي يضحكك؟»

تلعثمت الفتاة. لم تكن تضحك، بل سعلت. لكنّني تصوّرت أنّها لمحت سيمونو ينحني فوق مارغريت، وبدا لها الأمر طريفاً.

كانوا أشعلوا المصباح حين دقّ أحدهم على الباب.

«آه! إنّه الطبيب!» قالت المرأة العجوز.

كان الطبيب فعلاً. لم يعتذر حتّى للحضور في مثل هذا الوقت المتأخّر. لا بدّ أنّه صعد الكثير من الأدراج خلال النهار. لم يكن نور المصباح يضيء الغرفة بشكلٍ كافٍ، فسأل:

«هل الجثّة هنا؟

- أجل سيّدي»، ردّ سيمونو.

نهضت مارغريت منتفضة. سارعت السيّدة غابان إلى إخراج ديديه إلى الردهة أمام الأدراج، فلا حاجة لطفلة إلى رؤية ذلك. وكانت تحاول جاهدة أن تبعد زوجتي صوب النافذة لتجنّبها مثل هذا المشهد.

غير أنّ الطبيب اقترب منّي بخطى سريعة. حدستُه متعباً، مستعجلاً وفاقد الصبر. هل لامس يدي؟ هل وضع يده على قلبي؟ لا يمكنني أن أعرف. لكن بدا لي أنّه انحنى فوقي بكلّ بساطة، غير آبه.

«هل تريدني أن أجلب لك المصباح حتّى ترى بشكل أفضل؟ سأل سيمونو عارضاً المساعدة.

لا، هذا غير ضروريّ». أجاب الطبيب بهدوء.

كيف؟ غير ضروريّ! هذا الرجل يمسك حياتي بين يديه، ويرى من غير الضروريّ القيام بفحص متأنّ. لكنّني لست ميتاً! وددت أن أصرخ بوجههم أنّني لست ميتاً!

«في أيّ ساعة توفّي؟ تابع.

- الساعة السادسة صباحاً، قال سيمونو.

- هذا الطقس المرهق مضرّ، أضاف الطبيب... أيّام الربيع الأولى تلك أثقل ما يكون».

وابتعد. إنّها حياتي برمّتها تبتعد معه. كانت الصرخات، الدموع، الشتائم تخنقني، تمزّق حنجرتي المتشنّجة حيث لم يعد يعبر نفسٌ واحد. يا له من بائس جعلت منه الرتابة المهنيّة مجرّد آلة، يأتي ليكشف على الأموات وكأنّه مجرّد إجراء بسيط مفروض عليه! ألا يعرف شيئاً ذلك الرجل؟ كلّ علمه إذاً دجل وكذب، إن لم يكن بوسعه التمييز بنظرة بين الحياة والموت! وها هو يغادر! إنّه يغادر!

«طاب مساؤك سيّدي»، قال سيمونو.

خيّم صمت. لا بدّ أنّ الطبيب كان ينحني أمام مارغريت التي عادت، فيما السيّدة غابان تغلق النافذة. ثمّ خرج من الغرفة، وسمعتُ وقع خطاه ينزل الأدراج.

هكذا إذاً، انتهى أمري، حُكِم عليّ. توارى أملي الوحيد مع ذلك الرجل. وإن لم أنهض قبل الحادية عشرة غداً، سوف يدفنونني حيّاً. تلك الفكرة كانت مرعبة حتّى أنّني فقدت الوعي لما يحيط بي. كان الأمر أشبه ما يكون بإغماءة داخل الموت نفسه. آخر صوت وردني كان صوت مقصّي السيّدة غابان وديديه. بدأت سهرة الميت. لم يكن أحد يتكلّم. مارغريت رفضت أن تنام في غرفة الجارة. إنّها هنا، شبه ممدّدة في عمق الأريكة، بوجهها الشاحب الرائع وعينيها المغمضتين والدموع لا تزال عالقة في أهدابها، فيما سيمونو جالس أمامها يتأمّلها، صامتاً في العتمة.

3

لا يمكنني وصف العذاب الذي عانيته صبيحة اليوم التالي. بقي الأمر في ذهني مثل حلم مروّع راودتني فيه أحاسيس غريبة، مضطربة ومشوّشة، يصعب عليّ وصفها بشكل دقيق. ما زاد معاناتي فظاعة أنّني كنت لا أزال آمل أن أستيقظ فجأةً. ومع اقتراب موعد الجنازة، كان الذعر يطبق عليّ أكثر فأكثر.

في الصباح فقط عاودني الوعي للأشخاص والأشياء المحيطة بي. انتزعني صرير مزلاج الشبّاك من غفوتي. السيّدة غابان فتحت النافذة. لا بدّ أنّها حوالى الساعة السابعة، لأنّني كنت أسمع صرخات الباعة في الشارع، وصوتاً هزيلاً لفتاة تبيع طعاماً للعصافير، ثمّ صوتاً آخر أجشّ ينادي على الجزَر. نهوض باريس الصاخب هذا طمأنني في بادئ الأمر. بدا لي من المستحيل أن أُدفن في التراب وسط كلّ هذه الحياة. راودتني ذكرى طمأنتني تماماً. تذكّرت أنّني رأيت حالة مشابهة لحالتي حين كنت أعمل في مستشفى غيراند، حيث بقي رجل راقداً على هذا الشكل طوال ثمانٍ وأربعين ساعة. كان نائماً نوماً عميقاً حتّى أنّه جعل الأطبّاء يتردّدون في تشخيصهم. ثمّ نهض وجلس، وتمكّن من الوقوف على الفور. أمّا أنا، فإنّني نائم منذ خمس وعشرين ساعة. وإن استيقظت في الساعة العاشرة، فلن يكون فات الأوان.

حاولت تمييز الأشخاص الموجودين في الغرفة، تبيان ما يجري فيها. لابدّ أنّ الصغيرة ديديه تلعب في الرواق في الخارج، لأنّه حين فُتح الباب، تعالت ضحكة طفلة آتية من الخارج. سيمونو لم يعد هنا على الأرجح، لأنّني لم أسمع أيّ صوت يكشف عن وجوده. وحدهما نعلا السيّدة غابان الغليظان الباليان كانا يتجرجران على الأرض. أخيراً تكلّم أحدهم.

«عزيزتي، قالت العجوز، إنّك تخطئين، يجدر بك تناول القليل منها فيما هي ساخنة، سوف تسندك».

كانت تخاطب مارغريت، وعلمتُ من صوت القطرات الخفيف فوق مشبّك الموقد أنّها تعدّ القهوة.

«لا أريد التشكّي، تابعتْ، لكنّني كنت بحاجة فعلاً إلى ذلك... السهر لا يناسب سنّي. واللّيل حزين للغاية حين تكون هناك مصيبة حلّت بالبيت... هيّا عزيزتي، تناولي بعض القهوة، القليل فقط».

أرغمت مارغريت على تناول فنجان.

«ما رأيك؟ إنّها ساخنة، سوف تعطيك قوّة. يجب أن تستجمعي قواك حتّى تتمكّني من إكمال هذا النهار حتّى النهاية... والآن ما رأيك لو تتعقّلين قليلاً وتذهبين إلى غرفتي للانتظار هناك؟

- لا، أريد البقاء هنا»، أجابت مارغريت بنبرة حازمة.

صوتها الذي لم أسمعه منذ الأمس كان له وقع شديد التأثير عليّ. بدا لي مختلفاً، وكأنّ الألم حطّمه. يا للمرأة العزيزة! أحسست بها بجانبي، مثل عزاء أخير. كنت أعرف أنّ عينيها لا تفارقانني، أنّها تبكيني بكلّ دموع قلبها.

لكنّ الدقائق كانت تنقضي الواحدة تلو الأخرى. سمعت صوتاً عند الباب لم أفهمه أوّل الأمر، وكأنّهم ينقلون قطعة أثاث ضخمة تصطدم بجدران الدرج الضيّق. ثمّ فهمت عند سماع مارغريت تنتحب من جديد. إنّه النعش.

«جئتم في وقت مبكّر جدّاً، بادرت السيّدة غابان بحنق. ضعوا ذلك خلف السرير».

كم يمكن أن تكون الساعة؟ ربّما التاسعة. إذاً أحضروا ذلك النعش.

كان بوسعي أن أبصره في اللّيل الدامس، نعش جديد ذو ألواح خشبيّة كاد لا يتسنّى لهم كشطها. يا إلهي! هل يُعقل أن ينتهي كلّ شيء؟ هل سيحملونني في ذلك الصندوق الذي أحسّ به عند قدميّ؟

كان لي رغم ذلك فرحة أخيرة. أصرّت مارغريت رغم وهنها على أن تُجري لي بنفسها التحضيرات الأخيرة. فهي التي كستني، بمساعدة المرأة العجوز، مبديةً حنان شقيقة وزوجة. وكلّما وضعت لي قطعة ملابس شعرت بنفسي بين ذراعيها من جديد. كانت تتوقّف أحياناً حين تغلبها مشاعرها، تضمّني فتنسكب دموعها عليّ. وددت لو أعانقها بدوري وأصيح لها: «إنّني حيّ!» لكنّني بقيت عاجزاً، لا يسعني سوى أن أستسلم كتلةً هامدة بلا حراك.

«إنّك تخطئين، تهدرين كلّ هذا»، راحت السيّدة غابان تردّد.

أجابت مارغريت بصوتها المتهدّج:

«دعيني، أريد أن أُلبِسَه أجمل ما لدينا».

أدركْتُ أنّها تهندمني كما في يوم زفافنا. كنت لا أزال أحتفظ بتلك الملابس ولم أكن أنوي ارتداءها في باريس سوى في المناسبات الكبرى. ثمّ ارتمت في الأريكة، منهكة بعد المجهود الذي بذلته.

عندها تكلّم سيمونو فجأةً. من المؤكّد أنّه دخل للتوّ.

«إنّهم في الأسفل، تمتم.

– حسناً، ليسوا على عجلة من أمرهم، أجابت السيّدة غابان خافضةً صوتها هي أيضاً. قل لهم أن يصعدوا، يجب أن ننتهي من هذه المسألة.

– الحقيقة أنّني أخشى على هذه المرأة المسكينة، إنّها يائسة».

بدا لي أنّ العجوز تفكّر. ثمّ قالت:

«اسمع سيّد سيمونو، سوف تصطحبها بالقوّة إلى غرفتي... لا أريدها أن تبقى هنا. سوف تسدي لها خدمة... وفي هذه الأثناء، ينتهي الأمر بلمحة بصر».

تلك الكلمات كانت مثل طعنة في قلبي. لا يمكن أن أنقل ما أحسست به وأنا أسمع الصراع الذي دار عندئذ! اقترب سيمونو من مارغريت وهو يتوسّل إليها ألّا تبقى في الغرفة.

«رجاءً، ناشدها، تعالي معي، وفّري على نفسك معاناة غير ضروريّة.

لا، لا، ردّدت زوجتي، سوف أبقى. أريد أن أبقى حتّى اللّحظة الأخيرة. يجب أن تعرف أنّه ليس لديّ سواه في العالم، وأنّني سأكون وحيدة بعد رحيله».

لكنّ السيّدة غابان قرب السرير كانت تهمس في أذن الرجل الشابّ:

«هيّا، اخرج، أمسك بها واحملها بين ذراعيك».

هل سيقْدم سيمونو ذاك على حمل مارغريت وإخراجها هكذا بين ذراعيه؟ أطلقَتْ صرخة على الفور. أردت أن أنهض في اندفاعة حنق، لكنّ مفاصل جسدي كانت محطّمة، فبقيت متصلّباً، لا يسعني حتّى رفع جفنيّ لأرى ما يجري هنا، أمامي. استمرّ العراك وكانت زوجتي تتشبّث بقطع الأثاث وهي تردّد:

«آه! أرجوك، أرجوك سيّدي... دعني، لا أريد».

لا بدّ أنّه رفعها بذراعيه القويّتين لأنّها لم تعد تطلق سوى أنين طفلة. خرج بها وابتعد النشيج. كنت أتصوّر مشهدهما، يتراءيان لي، هو طويل القامة جسيم، يحملها على صدره وهي متمسّكة بعنقه، تنتحب محطّمةً، تستسلم وتتبعه أينما أراد أن يقودها.

«وأخيراً! لم يكن الأمر سهلاً! تمتمت السيّدة غابان. لننهِ المسألة الآن

وقد خلت الأجواء!»

في غمرة الغيرة الخانقة التي أفقدتني صوابي، كنت أرى في إخراج زوجتي على هذا النحو عمليّة خطف سافرة. لم أعد أرى مارغريت منذ الأمس، لكنّني كنت لا أزال أسمعها. أمّا في تلك اللحظة، فقد انتهى كلّ شيء. انتزعوها منّي. خطفها رجل حتّى قبل أن يطمروني تحت التراب. ولقد كان في تلك اللحظة معها خلف الفاصل الخشبيّ، وحده معها يواسيها، يقبّلها ربّما!

فُتح الباب من جديد، فسمعت وقع خطوات ثقيلة في الغرفة.

«أسرعوا، أسرعوا، ردّدت السيّدة غابان. قد تعود السيّدة في أيّ لحظة».

كانت تكلّم غرباء وهم لا يردّون سوى بغمغمات.

«تعلمون، أنا لست قريبة لهما، لست سوى جارة. لا منفعة لي في كلّ ذلك على الإطلاق. إن كنت أهتمّ بشؤونهما، فبدافع الطيبة لا غير. لم يكن الأمر سارّاً... أجل، أجل، سهرت اللّيلة بكاملها. مع أنّ الطقس لم يكن دافئاً قرابة الرابعة صباحاً. حسناً، لطالما كنتُ غبيّة من شدّة طيبتي».

في تلك اللّحظة جرّوا النعش إلى وسط الغرفة، وفهمت. هكذا إذاً، حُكِم عليّ بما أنّني لا أستيقظ. أخذت أفكاري تفقد من وضوحها، كلّ ما في داخلي اتّشح بضباب أسود وتملّكني إحباط فظيع حتّى أنّني شعرت بما يشبه الفرج حين أدركت أنّه لم يعد بيدي حيلة.

«لم يدّخروا الخشب، قال أحد الحمّالين بصوت مبحوح. الصندوق طويل أكثر ممّا ينبغي.

حسناً، سيترحرح فيه»، قال آخر ممازحاً.

لم أكن ثقيل الوزن، وأبدوا سرورهم لذلك لأنّ عليهم أن ينزلوا بي

ثلاثة طوابق. وإذ أمسكوا بي من كتفيّ وقدميّ، غضبت السيّدة غابان فجأةً.

«أيّتها الطفلة اللّعينة! صاحت. لا بدّ لها أن تحشر أنفها في كلّ مكان... سوف ترين، سأعلّمك كيف تتلصّصين من شقوق الأبواب».

كانت ديديه شقّت الباب ومدّت منه رأسها الأشعث. أرادت أن تراهم يضعون السيّد في الصندوق. دوّت صفقتان قويّتان، تبعهما انفجار بكاء. وبعدما عادت الوالدة إلى الغرفة، راحت تتحدّث عن ابنتها مع الرجال الذين كانوا يضعونني في النعش.

«عمرها عشر سنوات. إنّها فتاة طيّبة، لكنّها شديدة الفضول... لا أضربها يوميّاً، لكن لا بدّ لها أن تطيعني.

- آه! تعلمين، قال أحد الرجال، كلّ الفتيات هكذا... حين يكون ميت في مكان ما، لا يتوقّفن عن الطواف من حواله».

كنت ممدّداً في وضعيّة مريحة. لكنت ظننتُني ما أزال في السرير، لولا ذلك الإحساس بالضيق وبذراعي اليسرى مضغوطة قليلاً على لوح خشبيّ. كانوا على حقّ، الصندوق يتّسع لي بما يريح قامتي القصيرة.

«انتظروا! صاحت السيّدة غابان، وعدتُ زوجته أن أضع وسادة تحت رأسه».

لكنّ الرجال كانوا مستعجلين. حشروا الوسادة دون أيّ مراعاة لي. راح أحدهم يبحث عن المطرقة في كلّ مكان مطلقاً شتائم. كانوا قد تركوها في الأسفل، وترتّب عليهم النزول لجلبها. وضعوا الغطاء وأحسست بجسدي ينتفض بالكامل حين غرزوا أوّل مسمار بضربتَي مطرقة. قُضيَ الأمر، عشتُ حياتي. ثمّ غرزوا المسامير الواحد تلو الآخر بسرعة، فيما المطرقة تدقّ بانتظام، وكأنّهم بخفّة يدهم وقلّة اكتراثهم

يعلّبون رزمة من الفاكهة المجفّفة. بعد ذلك لم تعد تردني الأصوات إلّا مكتومة متبالدة، تترك صدى غريباً وكأنّ النعش الخشبيّ تحوّل إلى صندوقٍ رنّان ضخم. آخِر ما التقطته أذناي في تلك الغرفة في شارع دوفين كان جملة قالتها السيّدة غابان:

«انزلوا على مهل، واحذروا الدرابزون في الطابق الثاني، لم يعد متيناً».

حملوني. خُيِّلَ لي أنّ بحراً هائجاً كان يتقاذفني. وعلى كلّ حال، فإنّ ذكرياتي مبهمة جدّاً انطلاقاً من تلك اللّحظة. لكنّني أذكر أنّ الهمّ الوحيد الذي كان لا يزال يشغلني، همّ أبله وكأنّها لاشعوريّ، كان أن أتبيّن الوجهة الذي كنّا نسلكها للذهاب إلى المقبرة. لم أكن أعرف شارعاً واحداً في باريس، وأجهل موقع المقابر الكبرى التي ذُكِر اسمها أحياناً أمامي، لكنّ هذا لم يمنعني من تركيز آخِر مجهود يمكن أن يبذله عقلي لأحزر إن كنّا ننعطف يميناً أم يساراً. كانت العربة تخضخضني على حجارة الطريق، فيما ترتفع من حولي جلبة العربات وخطى المارّة في ضوضاء مبهمة يضخّمها وقع النعش. تابعتُ مسار العربة في بادئ الأمر بقدر من الوضوح. ثمّ كانت هناك وقفة وحملوني، فأدركت أنّنا في الكنيسة. لكن حين انطلقت العربة من جديد، فقدت أيّ وعي بالمواقع التي كنّا نعبرها. بعد ذلك أحسست بتمايلٍ كان أكثر هدوءاً وثباتاً، ما جعلني أعتقد أنّنا نسير في ممرّ. كنت أشبه ما أكون بمحكوم عليه يقتادونه إلى موقع إعدامه، وهو ينتظر في ذهولٍ الضربةَ القاضية التي لا تأتي.

توقّفوا وأخرجوني من العربة. انتهى الأمر على الفور. الأصوات توقّفت، شعرت أنّني في مكان مقفر، تحت الأشجار، وفوق رأسي السماء المترامية. لا شكّ أنّ بعض الأشخاص كانوا يتبعون الموكب، سكّان الفندق، سيمونو وغيرهم، لأنّ همساً كان يتناهى إلى أذنيّ. ارتفع صوت

مرنّماً، كان كاهناً يهمهم باللّاتينيّة. ساروا دقيقتين، ثمّ فجأةً شعرت بي أهبط، وحبال تحتكّ على زوايا النعش مثل أقواس كمنجات، فتنتزع منه أنيناً عريضاً متكسّراً. تلك هي النهاية. انفجرت صدمة فظيعة شبيهة بدويّ مدفع على مسافة قريبة إلى يسار رأسي. ووقعت صدمة ثانية عند قدميّ. أصابتني ثالثة أعنف من سابقتيها على بطني، دوّت بشدّة حتّى أنّني ظننت أنّ النعش انشقّ اثنين. وأغمي عليّ.

4

كم من الوقت بقيت على هذه الحالة؟ لا يمكنني أن أجزم. الأبديّة والثانية لهما المدّة ذاتها في العدم. لم أعد في الوجود. ثمّ شيئاً فشيئاً، عاودني بشكلٍ مبهمٍ الوعيُ بوجودي. كنت لا أزال نائماً، لكنّني رحت أحلم. انبثق كابوسٌ من السواد الذي كان يعترض أفقي. وذلك الحلم الذي حلمته كان تخيلاً غريباً لطالما طاردني في الماضي وأنا مشرّع العينين، حين كنت أبتكر لنفسي كوارث تبعث فيّ لذّة مروّعة، مدفوعاً إلى ذلك بطبيعتي الميّالة بالفطرة إلى الابتكارات الفظيعة.

كنت أتصوّر إذاً أنّ زوجتي تنتظرني في مكان ما، غيراند على ما أعتقد، وأنّني استقللت القطار لملاقاتها. وفيما القطار يعبر في نفق، يرتفع فجأةً صوت فظيع، مثل دحرجة هي أقرب إلى دويّ صاعقة. كان ذلك انهياراً مزدوجاً وقع للتوّ. لم يسقط أيّ حجر على قطارنا، العربات سليمة لم تصب بخدش، غير أنّ السقف انهار عند طرفَي النفق أمامنا وخلفنا، ووجدنا أنفسنا في وسط جبل، محتجزين بين جدارين منيعين من الكتل الصخريّة. عندها بدأ احتضار طويل مروّع. لا أمل في وصول أيّ إغاثة. فتح النفق يستغرق شهراً، وعلاوةً على ذلك، فإنّ العمل يتطلّب تدابير

حيطة لا تعدّ ولا تحصى وآلات قويّة. كنا محاصرين في ما يشبه قبواً لا منفذ منه. موتنا جميعاً كان مسألة ساعات لا غير.

أكرّر أنّ مخيّلتي غالباً ما نشطت حول هذه المعطيات الفظيعة نفسها، فكنت أبتكر تنويعات حول المأساة ذاتها إلى ما لا نهاية. كان لديّ ممثّلون، رجال، نساء وأطفال، أكثر من مئة شخص، حشد كامل أستلهم منه أحداثاً جديدة دون انقطاع. كان القطار يحوي بعض المؤن، لكنّ الطعام سرعان ما نفد، ولئن لم يصل البائسون الجياع إلى حدّ التهام بعضهم البعض، إلّا أنّهم راحوا يتصارعون بضراوة على آخِر لقمة خبز. كان هناك عجوز يبعدونه بالضرب واللّكم يُنازِع. أمّ تصارع مثل ذئبة لتدافع عن ثلاث لقم أو أربع لطفلها. في مقطورتي زوجان شابّان يئنّان ويحشرجان متعانقين بلا حراك، فاقدَي الأمل. كانت السكّة الحديد سالكة، والناس ينزلون من القطار، يهيمون حوله مثل بهائم طليقة تبحث عن فريسة. الطبقات جميعها كانت تختلط وتتداخل، رجل شديد الثراء قيل إنّه موظّف رفيع كان يبكي بين ذراعَي عامل ويكلّمه بحميميّة. انطفأت المصابيح منذ الساعات الأولى، وبعدها انطفأت أضواء القاطرة بدورها. وحين كنّا نعبر من عربة إلى أخرى، كنّا نتلمّس العجلات بأيدينا حتّى لا نصطدم بشيء، وصولاً إلى القاطرة التي كنّا نحزرها من ذراعها المعدنيّ البارد، جوانبها الهائلة الغافية، كتلة قوّة غير مجدية، صامتة بلا حراك في الظلمة. لم يكن هناك ما يبعث الفزع أكثر من ذلك القطار الحبيس برمّته تحت الأرض، وكأنّه مطمور حيّاً بركّابه الذين يقضون الواحد تلو الآخر.

كنت أستمتع بالقصّة، أغوص في فظاعة أصغر التفاصيل. كان عويل يمزّق العتمة. فجأةً يهوي على كتف الواحد جارٌ لم نكن متنبّهين لوجوده ولا نراه. لكن أكثر ما كنت أعاني منه هذه المرّة كان البرد وفقدان

الهواء. لم أشعر يوماً بمثل هذا البرد. كان معطف من الثلج يهبط على كتفيّ، ورطوبة ثقيلة تمطر على رأسي. ورغم ذلك كنت أختنق، يُخيّل لي أنّ قبّة هذه الصخرة تنهار على صدري، أنّ الجبل برمّته يلقي بثقله عليّ ويسحقني. لكنّ صيحة انفراج دوّت بغتة. كان يُخيّل لنا منذ زمن أنّنا نسمع صوتاً مكتوماً في البعيد، ويراودنا الأمل بأنّ ثمّة من يعمل بالقرب منّا لإنقاذنا. غير أنّ الخلاص لم يكن آتياً من تلك الجهة، بل عثر أحدنا على ثقب في سقف النفق، فهرعنا جميعاً لنتفقّد هذا الثقب من الهواء، تعلوه بقعة زرقاء بحجم دائرة ختم. كم كانت عظيمة فرحتنا بتلك البقعة الزرقاء! إنّها السماء! كنّا نتطاول صوبها لنأخذ نفساً عميقاً، نميّز بوضوح النقاط السوداء المتحرّكة، عمّال على الأرجح ينصبون رافعة للشروع بعمليّة إنقاذنا. ومن جميع الأفواه تنطلق هتافات متحمّسة: «نجونا! نجونا!»، فيما الأذرع ترتفع مرتجفةً نحو البقعة الصغيرة الزرقاء الشاحبة.

استيقظت على عنف تلك الهتافات المتصاعدة. أين أنا؟ ما زلت في النفق على الأرجح. ممدّداً بطولي، كنت أحسّ إلى يميني ويساري بالجوانب القاسية تضغط خاصرتيّ. أردت أن أنهض، لكنّ رأسي اصطدم بشيء ما بقوّة. هل الصخور تحاصرني من كلّ صوب؟ البقعة الزرقاء توارت، السماء لم تعد تظهر، ولو من بعيد. لا أزال أختنق، أسناني تصطكّ وجسدي يرتعش.

فجأةً تذكّرت. انتصب شعري من شدّة الهول. وأحسست بالحقيقة المروّعة تسري في عروقي، من رأسي إلى أخمص قدميّ، مثل دفق من الجليد. هل أنّني خرجت أخيراً من تلك الإغماءة التي سمّرتني مثل جثّة هامدة ساعات طويلة؟ أجل، كنت أتحرّك، أمرّر يديّ على طول ألواح النعش. ثمّة امتحان أخير ينتظرني: فتحت فمي وتكلّمت. ناديت

مارغريت في اندفاع عفويّ. أطلقت عويلاً، وبدا صوتي في هذ الصندوق من خشب الصنوبر أجشّ إلى حدّ مرعب أفزعني أنا نفسي. يا إلهي! أهذا يحصل حقيقةً؟ بوسعي أن أمشي وأصرخ أنّني على قيد الحياة، غير أنّ صوتي لا يُسمع، وأنا أسيرٌ هنا، مطمور تحت الأرض!

قمت بمجهود يفوق طاقتي حتّى أهدأ وأفكّر. أما من سبيل للخروج من هنا؟ ها هو حلمي يعاودني. دماغي لا يزال هشّاً، والأمور تختلط عليّ ما بين الرؤية المتخيّلة لثقب الهواء وفوقه بقعة السماء، وواقع الحفرة حيث أفقد أنفاسي. كنت أحدّق محملقاً في الظلمة. ربّما ألمح ثقباً، شقّاً، قطرة نور! لكنْ وحدها شرارات من النار كانت تعبر اللّيل، أنوار حمراء تتّسع وتتلاشى. لا شيء، هوّة سوداء سحيقة لا قعر لها. ثمّ تنقشع أفكاري من جديد، فأُبعد ذلك الكابوس الغبيّ. لا بدّ لي أن أحافظ على وضوح أفكاري إن أردتُ أن أحاول النجاة.

بدا لي أوّلاً أنّ الخطر الأكبر هو الاختناق الذي كان يزداد حدّة. لا شكّ أنّني، إن استطعت أن أبقى هذا الوقت الطويل محروماً من الهواء، فذلك بفضل الإغماءة التي أوقفت مؤقّتاً وظائف الحياة. لكنّ قلبي عاد يدقّ ورئتيّ عادتا تتنفّسان، وسوف أقضي اختناقاً إن لم أتوصّل إلى الخروج بأسرع ما يمكن. كنت أعاني أيضاً من البرد، وأخشى أن يغلبني ذلك الخدر القاتل كالرجال الذين يسقطون في الثلج ولا ينهضون بعد ذلك.

كنت أشعر بهبّاتِ جنون تغزو دماغي، وأنا أردّد لنفسي أنّ عليّ أن أبقى هادئاً. عندها كنت أحضّ نفسي بشدّة، جاهداً لاستجماع كلّ ما أعرفه عن كيفيّة دفن الموتى في الأرض. لا بدّ أنّني كنت مدفوناً في قطعة أرض مستأجرة لخمس سنوات، وهذا ما ينتزع منّي أملاً. لاحظت فيها

مضى في نانت أنّ خنادق المقابر الجماعيّة تنبثق منها بسبب حركة الحفر والطمر المتواصلة أطراف آخِر نعوشٍ دفنت فيها. ولكان يكفي عندها أن أحطّم لوحاً خشبيّاً حتّى أتمكّن من الخروج. في حين أنّني إن كنت في حفرة مطمورة بالكامل، فثمّة فوقي طبقة سميكة من التربة ستشكّل عائقاً فظيعاً. ألم أسمع أحدهم يقول إنّهم في باريس يدفنون الموتى على عمق ستّ أقدام؟ كيف عساني أخترق هذه الكتلة الهائلة؟ ولو تمكّنت من شقّ غطاء النعش، أفلن تتسرّب التربة إلى الداخل، تنزلق مثل رمل ناعم، فتملأ عينيّ وفمي؟ عندها ينتظرني الموت من جديد، موت فظيع، غرَق في الوحل.

تحسّست مطوّلاً الجوانب المحيطة بي. النعش كبير، بوسعي أن أحرّك ذراعيّ بارتياح فيه. لم أشعر بأيّ شقوق في الغطاء. إلى اليمين واليسار، كانت الألواح الخشبيّة خشنة، غير مكشوطة بشكل متقن، غير أنّها متينة وصلبة. ثنيت ذراعي ورفعتها على طول صدري وصولاً إلى رأسي. هنا اكتشفت في اللّوح الأخير عند الطرف عقدة في الخشب تتحلحل بشكل طفيف عند الضغط عليها. ركّزت جهدي بعناء شديد إلى أن أخرجت العقدة من محلّها. غرزت إصبعي عبرها ولمست من الجانب الآخر التربة، تربة صلصاليّة دبقة ومبلّلة. لكنّ ذلك لم يساعدني في وضعي، بل ندمت لأنّني أزلت تلك العقدة، وكأنّ التربة سوف تتسلّل إلى الداخل. ثمّ انهمكت للحظة في اختبار آخر. رحت أطرق من حول النعش لأرى إن لم يكن هناك بالصدفة فراغ ما، يميناً أو يساراً. لكنّ صوت الطرْقات كان هو ذاته في كلّ مكان. وحين سدّدت أيضاً ركلات طفيفة برجلي، بدا لي أنّ رجع الصوت أكثر خفّة عند الطرف. ربّما كان ذلك من تأثير صدى الخشب لا غير.

بدأت بالدفع بشكل طفيف بقبضتيّ، قاذفاً ذراعيّ أمامي. لكنّ الخشب قاوم. استخدمت بعدها ركبتيّ، ضاغطاً على قدميّ وحوضي ومقوّساً ساقيّ، دون أن يحدث تشقّق واحد. أخذت أخيراً أدفع بكلّ قوّتي، أضغط بجسدي بكامله، أضرب بعنفٍ حتّى باتت عظامي تصرخ ألماً. عندها جننتُ تماماً.

كنت حتّى ذلك الحين قاومت الدوار وهبّات الخنق التي كانت تعصف في داخلي أحياناً مثل انفعال السّكْر. حرصت خصوصاً على كبت صراخي، لأنّني كنت على يقين من أنّني إن بدأت بالصراخ، فستكون هذه نهايتي. فجأةً أخذت أصرخ، أصيح، أزعق. كان الأمر أقوى من أن أقاومه. كان العويل ينطلق من حنجرتي وصدري يفرغ من الهواء. أنادي مستغيثاً بصوت لم أكن أعرفه، فيزداد ذعري عند كلّ صيحة جديدة، أصرخ أنّني لا أريد أن أموت. أخذت أحفر الخشب بأظافري، أتلوّى في اختلاجات ذئب أسير. كم من الوقت استمرّت هذه الأزمة؟ لا أدري، لكنّني ما زلت أحسّ بصلابة هذا النعش الذي كنت أتخبّط فيه، صلابة لا ترحم. ما زال بوسعي سماع الصيحات والزفرات التي كانت تملأ الفراغ ما بين الألواح الخشبيّة الأربعة. وفي بصيص إدراك أخير، وددت لو أتمالك نفسي، لكنّني لم أستطع.

سيطر عليّ بعد ذلك إحباط مرهق. كنت أنتظر الموت في خدر أليم. ذلك النعش كان من حجر. لن أتمكّن من إحداث أدنى شقّ فيه، وحين أيقنت هزيمتي الحتميّة، بقيت ممدّداً هامداً بلا حراك، فاقداً الشجاعة الكافية لبذل جهود جديدة. إلى البرد والاختناق أضيف إلى معاناتي ألم جديد هو الجوع. كانت قواي تفارقني. سرعان ما اشتدّت هذه المحنة الأخيرة إلى حدّ لم يعد يُحتمل. حاولت إدخال رشّات من التراب من

العقدة التي نزعتها، والتهمت هذا التراب، وهو ما زاد من عنائي. عضضت ذراعيّ دون أن أجرؤ على المضيّ إلى حدّ إدمائهما. كان لحمي يثير شهيّتي، فرحت أمتصّ جلدي وتتملّكني رغبة في غرز أسناني فيه.

آه كم وددت في تلك الساعة لو أموت! طوال حياتي ارتعدتُ أمام فكرة العدم، وها أنّني أتوق إليه، أرجوه. لن يكون بالسواد الذي أودّه. كم هو سخيفٌ أن نخشى ذلك النوم المنعدم الأحلام، تلك الأبديّة من الصمت والظلمة! الموت طيّب لمجرّد أنّه يلغي الكيان دفعة واحدة نهائيّاً. آه! أن أنام مثل الأحجار، أن أتغلغل في الطين، ولا يعود لي وجود!

كانت يداي لا تزالان تتلمّسان الخشب، تسريان على الألواح بشكل تلقائيّ. فجأةً شككتُ إبهامي الأيسر، فشعرتُ بألم طفيف أخرجني من خدري. ما كان ذلك؟ فتّشت من جديد ووجدت مسماراً، مسمار دقّه الحمّالون بصورة مائلة فلم ينغرز في حافّة النعش. كان طويلاً جدّاً وحادّ الطرف. رأسه مثبّت في الغطاء، لكنّني شعرت به يتحرّك. انطلاقاً من تلك اللّحظة، استولت عليّ فكرة واحدة، هي الحصول على ذلك المسمار. مددت يدي اليمنى فوق بطني وبدأت أهزّه. لم يتزحزح من مكانه. ذلك العمل يتطلّب مجهوداً كبيراً. كنت أُناوب غالباً ما بين يديّ، لأنّ يدي اليسرى كانت في وضعيّة غير مناسبة وتتعب سريعاً. وفيما كنت منكبّاً على هذا النحو، أعددت خطّة كاملة في رأسي. ذلك المسمار أضحى هو الخلاص. لا بدّ لي من الحصول عليه بأيّ ثمن. لكن هل يكون عندئذٍ فات الأوان؟ فالجوع يؤلمني. اضطررت إلى التوقّف، وقد سيطر عليّ دوار جعل يديّ تتراخيان وذهني يترنّح. مصصت القطرات المنسابة من خدشٍ إبهامي. بعدها عضضت ذراعي، امتصصت دمي، وقد أحياني الألم، وأنعشتني تلك الخمرة الدافئة الحادّة التي بلّلت لساني. عدت

وصببت جهودي بيديّ على المسمار ونجحت في اقتلاعه.

اعتباراً من هنا، ظننت نفسي نجحت. كانت خطّتي بسيطة. غرزت رأس المسمار في الغطاء ورسمت به خطّاً مستقيماً بأطول ما أمكنني، ورحت أمرّر المسمار فيه ذهاباً وإياباً لإحداث شقّ في الخشب. كانت يداي تتيبّسان، لكنّني أتابع بتعنّت شرس. وحين ظننت أنّني حفرت في الخشب بقدرٍ كافٍ، خطر لي أن أستدير وأتمدّد على بطني، ثمّ أرفع نفسي على ركبتيّ ومرفقيّ وأضغط بحوضي. لكنّ الغطاء تشقّق دون أن ينقصف. لم يكن الثلم الذي حفرته عميقاً بما يكفي. اضطررت إلى الانقلاب على ظهري من جديدٍ واستئناف الحفر بعناء شديد. أخيراً قمت بمجهود جديد، وهذه المرّة تحطّم الغطاء من طرف إلى الطرف المقابل.

هذا لا يعني بالطبع أنّني نجوت، لكنّ قلبي كان يفيض أملاً. توقّفت عن الدفع وبقيت بلا حراك، خشية أن أتسبّب بانهيار تربة يطمرني. كانت خطّتي تقضي باستخدام الغطاء درعاً تحميني، فيما أحاول حفر ما يشبه نفقاً في التربة. لكنّ هذا العمل تعترضه للأسف صعوبات كثيرة. فالكتل الضخمة التي تنفصل من التربة كانت تعيق الألواح فلا يعود بوسعي تحريكها. لن أصل أبداً إلى سطح الأرض. فكانت انهيارات تربة صغرى تنهمر على ظهري فتسمّره وتغرز وجهي في التراب. استولى الخوف عليّ من جديد، حين بدا لي وأنا أتمدّد بحثاً عن نقطة ارتكاز، أنّني شعرت باللّوح الخشبيّ الذي يغلق النعش تحت قدميّ ينفصل تحت الضغط. أخذت عندها أخبط بعقبيّ بقوّة، وقد خطر لي أنّه قد يكون هناك في ذلك الموقع تحديداً مقبرة أخرى يحفرونها.

فجأةً خرجت رجلاي في الفراغ. صحّت توقّعاتي. كانت هناك

حفرة جديدة. لم تكن تفصلني عنها سوى طبقة رقيقة من التراب، ثقبتها وتدحرجت في تلك الحفرة. ربّاه! نجوت!

5

خطر لي للوهلة الأولى أن أذهب إلى حارس المقبرة حتّى يقلّني إلى منزلي. لكنّ أفكاراً لا تزال مبهمة في رأسي استوقفتني. سوف أفزع الجميع. لماذا أتسرّع على هذا النحو، في حين أنّني بتّ أسيطر على الموقف؟ تحسّست أطرافي، إصابتي الوحيدة كانت هي عضّتي الطفيفة في ذراعي اليسرى، والحمّى الخفيفة الناتجة عنها كانت تستحثّني، تمنحني قوّة غير متوقّعة. بالطبع، سيكون بوسعيَ السّير دون أن يساعدني أحد.

عندها تمهّلت وأخذت وقتي. شردَت أفكاري وعبرَت رأسي أحلامٌ كثيرة مشوّشة على اختلاف أنواعها. لامست بقربي في الحفرة أدوات الحفّارين وتملّكتني الحاجة إلى أن أصلح الضرر الذي كنتُ أحدثته، أن أعيد سدّ الثقب حتّى لا يتنبّه لقيامتي أحد. لم تكن أفكاري واضحة في تلك اللّحظة، لكنّني فقط وجدت من غير المجدي أن تذيع مغامرتي. أحسست بالخزي لبقائي على قيد الحياة، في حين يظنّني الجميع ميتاً. ما هي إلّا نصف ساعة من العمل، وتمكّنت من محو أيّ أثر. قفزت خارج الحفرة.

كم كان اللّيل جميلاً! المقبرة غارقة في صمت عميق والأشجار الحالكة تلقي ظلالاً هامدة بلا حراك بين بياض المقابر. وفيما كنت أبحث عن وجهتي، لاحظت أنّ نصف السماء كان مشتعلاً كأنّما تلهبه انعكاسات حريق. باريس هناك. اتّجهت صوب تلك الناحية وسلكت ممرّاً غارقاً في عتمة الأشجار. لكن بعد خمسين خطوة أو أقلّ، فقدت أنفاسي وتوجّب

عليّ التوقّف. جلست على مقعد حجريّ. عندها فقط تفحّصت مظهري: كنت مرتدياً ملابسي بالكامل، منتعلاً حتّى حذائي. لم تكن تنقصني سوى قبّعة. كم شكرت حبيبتي مارغريت بحرارة على تلك المحبّة التي جعلتها تُلبسني ثيابي! ذكرى مارغريت التي عاودتني فجأةً أعطتني القوّة لأنهض من جديد. أردت أن أراها.

عند طرف الممرّ اعترضني جدار. تسلّقت قبراً وبعدما تدلّيت من الإفريز في الجانب الآخر من الجدار، أفلتّ يديّ وقفزت. كان الارتطام بالأرض شاقّاً. بعد ذلك مشيت بضع دقائق في شارع عريض مقفر يلتفّ حول المقبرة. كنت أجهل تماماً موقعي، لكنّني أردّد لنفسي، بتعنّت الفكرة التي استحوذت عليّ، أنّني سأعود إلى باريس وأتدبّر أمري للاستهداء إلى شارع دوفين. عبرَ بعض المارّة لكنّني لم أسألهم حتّى عن طريقي. كنت مرتاباً ولم أشأ الكشف عن نفسي لأيّ كان. اليوم أُدرك أنّ حمّى شديدة كانت تهزّني وقتها وكنت أفقد صوابي. وفي نهاية المطاف، إذ وصلت إلى شارع رئيسيّ، صرعني الدوار وسقطت بكلّ ثقلي على الرصيف.

هنا أجد فجوة في حياتي. بقيْتُ ثلاثة أسابيع فاقداً الوعي. وحين استفقت أخيراً، وجدتُني في غرفة غريبة. كان هناك رجل يُعنى بي. أخبرني بكلّ بساطة أنّه لمّني ذات صباح على جادّة مونبارناس ونقلني إلى منزله. كان طبيباً سابقاً لم يعد يمارس الطبّ. لكن حين تشكّرته، أجابني بجفاء أنّ حالتي أثارت فضوله وأراد أن يدرسها. وفي مطلق الأحوال، لم يسمح لي في بداية تماثلي للشّفاء بطرح أيّ سؤال عليه. وفيما بعد، لم يطرح عليّ هو نفسه أيّ سؤال. لزمت السرير لثمانية أيّام إضافية. كان رأسي ضعيفاً ولم أكن أسعى حتّى لأستعادة ذكرياتي. كان يتملّكني مزيج من الخفر والخشية. حين يصبح بوسعي الخروج، سوف أذهب وأرى. ربّما

وسط هذيان الحمّى أفصحت عن اسم، غير أنّ الطبيب لم يقم بأيّ تلميح إلى ما قد أكون قلته. بقي متكتّماً في إحسانه تجاهي.

حلّ الصيف وفي صبيحة أحد أيّام حزيران، حصلت أخيراً على الإذن بالقيام بنزهة قصيرة. كان نهاراً رائعاً، تشعّ فيه شمس فرحة تبثّ الشباب في شوارع بلدة باريس القديمة. سرت متمهّلاً، سائلاً المتنزّهين عن طريقي عند كلّ مفرق، مستفسراً عن شارع دوفين. حين وصلت أخيراً، كدت لا أعرف الفندق المفروش الذي كنّا نزلنا فيه. اضطربت وتملّكني خوفٌ طفوليّ. خشيت أن أقتل مارغريت إن أنا ظهرتُ عليها فجأةً. ربّما كان من الأفضل أن أنبّه أولّا تلك العجوز، السيّدة غابان، التي كانت تسكن هنا. لكنّني لم أكن مرتاحاً لفكرة أن يكون هناك أحدٌ بيننا. لا يمكن لشيء أن يوقفني. ثمّة في أعماقي ما يشبه فراغاً كبيراً، مثل تضحية قمت بها منذ وقت طويل.

كان المبنى أصفر في نور الشمس. عرفته من مطعم قذر في الطابق الأرضيّ كنّا نستقدم منه الطعام. رفعت عينيّ ونظرت إلى النافذة الأخيرة في الطابق الثالث، إلى اليسار. كانت مشرّعة. أطلّت منها فجأةً امرأة شابّة منفوشة الشعر في قميص داخليّ متغضّن، يطاردها رجل شابّ مدّ رأسه وقبّلها في عنقها. لم تكن تلك مارغريت. لم أشعر بأيّ دهشة. بدا لي أنّني رأيتُ في المنام ذلك المشهد وأموراً أخرى سوف أعرفها لاحقاً.

بقيت لبرهة واقفاً في الشارع حائراً. خطر لي أن أصعد وأسأل هذين العشيقين اللّذين يضحكان في أشعّة الشمس. لكنّني في نهاية الأمر فضّلت دخول المطعم الصغير في الأسفل. لا بدّ أنّ مظهري تغيّر تماماً. فلحيتي نمت خلال إصابتي بالحمّى الدماغيّة، ووجهي ضمر. لمحت وأنا أجلس إلى طاولة السيّدة غابان تدخل حاملة كوباً لتشتري فيه شيئاً

من البنّ. وقفَتْ أمام منضدة الشّرب وباشرت القيل والقال اليوميّين مع صاحبة المطعم. أرهفتُ السمع.

«إذاً، سألت السيّدة، تلك المسكينة الصغيرة في الطابق الثالث حسمت أمرها في نهاية المطاف؟

- ماذا يسعها أن تفعل؟ أجابت السيّدة غابان، كان هذا أفضل خيار أمامها. السيّد سيمونو أبدى لها الكثير من المودّة!... ومن حسن الحظّ أنّه كان سوّى أموره للتوّ، قضيّة إرث كبير، فعرض عليها أن يصطحبها معه إلى هناك، إلى منطقته، لتعيش عند عمّة له تبحث عن سيّدة جديرة بالثقة».

ضحكت السيّدة خلف منضدة الشّرب بخفّة. خبّأْتُ رأسي خلف صحيفة وقد امتقع وجهي وأخذت يداي ترتجفان.

«الأرجح أنّ المسالة ستنتهي بالزواج، تابعت السيّدة غابان. لكنّني أقسم لك بشرفي أنّني لم ألاحظ أي أمر يدعو إلى الشكّ. الصغيرة كانت تبكي زوجها، والشابّ تصرّف بشكل لائق تماماً... حسناً، غادرا بالأمس. وحين ينتهي الحداد، أليس كذلك؟ سوف يفعلان ما يحلو لهما».

في تلك اللّحظة، فُتح باب المطعم المؤدّي إلى الممرّ على مصراعيه ودخلت ديديه.

«أمّي، ألن تصعدي؟... إنّني أنتظر. هيّا، أسرعي.

- بعد قليل! إنّك تزعجينني!» صاحت الوالدة.

بقيت الطفلة واقفة، تستمع إلى المرأتين، وعلى وجهها تعبير النضج السابق لأوانه، نضج فتاة دُفع بها في سنّ مبكرة إلى شوارع باريس.

«مهما يكن، دعيني أقول لك، شرحت السيّدة غابان، المرحوم لم يكن يساوي السيّد سيمونو... قلّما كنت أستلطفه، ذاك الصُّعلوك. كان

يتشكّى بلا توقّف! ولا فلس في جيبه! آه! قطعاً لا! إنّ زوجاً كهذا إنّها هو غير صالح لامرأة في عزّ شبابها... في حين أنّ السيّد سيمونو، رجل ثريّ، وقويّ...

«آه! قاطعتها ديديه، أنا رأيته في أحد الايّام يغتسل. لن تتصوّرا كميّة الشعر تحت إبطيه!

- اغربي عن وجهي! صاحت العجوز وهي تدفعها. تحشرين أنفك دائماً في غير محلّه».

واختتمت حديثها: «أؤكّد لك! حسناً فعل الآخر إذ مات. إنّها فرصة رائعة».

حين عدت وخرجت إلى الشارع، مشيت بخطى متثاقلة بطيئة. كانت ساقاي محطّمتين. لكنّني لم أكن أتألّم كثيراً. حتّى أنّ ابتسامة ارتسمت على وجهي حين لمحت ظلّي في الشمس. صحيح أنّني هزيل جدّاً. كانت تلك فكرة غريبة عجيبة أن أتزوّج مارغريت. تذكّرت متاعبها في غيراند، نفاد صبرها، حياتها الرتيبة المتعبة. المرأة العزيزة كانت تعاملني بطيبة، لكنّني لم أكن يوماً عشيقاً لها، بل هيَ بكتْ لدى رحيلي شقيقاً. فلِمَ أبلبل حياتها من جديد؟ الميت لا يعرف الغيرة. حين رفعت رأسي، رأيت أمامي حديقة اللّوكسمبورغ. دخلت وجلست في الشمس، مستسلماً لأحلام وديعة عذبة. صرت حين أفكّر بمارغريت يغمرني حنان. أتصوّرها في الريف، سيّدة في بلدة صغيرة، سعيدة جدّاً، محاطة بالمحبّة والحفاوة. أتخيّلها تزداد جمالاً، لديها ثلاثة أولاد وبنتان. حقّاً، حسناً فعلت لها أنّني متّ، ولن أرتكب بالتأكيد حماقة تؤلمها وأعود من بين الأموات.

منذ ذلك الحين وأنا أجوب أرجاء البلاد. أقمت هنا وهناك. إنّني رجل من العموم، أعمل وآكل مثل سائر الرجال. الموت لم يعد يخيفني،

لكن يبدو أنّه لا يرغب فيّ، الآن إذ لم يعد لديّ ما يجعلني أتمسّك بالحياة، وأخشى أن ينساني.

الهجوم على الطاحونة[1]

1

كانت طاحونة السيّد مرلييه في ذلك المساء الصيفيّ الجميل مزيَّنة لحفلة عارمة[2]. في الباحة نُصبت ثلاث طاولات متلاصقة لتشكّل مائدة طويلة تنتظر المدعوّين. المنطقة برمّتها على علم بأنّه يوم خطوبة الابنة مرلييه، فرنسواز، مع دومينيك، فتىً يتّهمونه بالتقاعس والكسل، غير أنّ جميع النساء دون استثناء في أقاصي المنطقة يرمقنه بنظرات ملتهبة من

(1) كتب زولا هذه القصّة أساساً لمجلّة *Le Messager de l'Europe* التي نشرتها بالروسيّة في تمّوز 1877 تحت عنوان «موقعة في غزو 1870» *Un épisode de l'invasion de 1870*، وبالفعل فإنّ الحرب الفرنسيّة–البروسيّة ماثلة في تفاصيل القصّة وأجوائها بوضوح. وبعد عام من ذلك، في 15 آب 1875، نُشرت في ***La Réforme***. اشتهرت هذه القصّة خصوصاً لورودها في مستهلّ المجموعة القصصيّة الجماعيّة «سهرات ميدان» ***Soirées de Médan*** الصادرة في 14 نيسان 1880 عن ناشر كتّاب الحركة الطبيعيّة جورج شاربانتييه. ثمّ نُشر النصّ من جديد في 25 نيسان 1880 في ***Le Figaro***، ثمّ في 25 نيسان و2 أيّار من السنة ذاتها في ***La Vie populaire***. استعاده بعد ذلك الناشر أوجين فاسكيل في مجموعة «السيّدة سوردي» *Madame Sourdis* عام 1929. كما وردت القصّة في مجموعة «حكايات وقصص» الصادرة عن الناشر فرنسوا برنوار F. Bernouard عام 1928. الصيغة الواردة هنا هي نصّ «سهرات ميدان».

(2) في ***Le Messager de l'Europe*** كانت تسبق القصّة مقدّمة كتب فيها زولا: «سوف أروي لكم هذه المرّة قصة معيشة، قصّة حقيقيّة معاشة رواها لي شاهد. إنها حادثة حصلت في غزوة 1870. صوت الحرب يعلو في الوقت الراهن على كلّ الأصوات في أوروبا، لذلك سوف أتكلّم عن الحرب، حتى يقبل الجميع بالاستماع إليّ. صحيح أنّ دراسة أدبيّة، مقالة عن الحياة الباريسيّة، كلّ ذلك سيبدو باهتاً للغاية في الوقت الذي تدوّي فيه المدافع.»

شدّة ما هو فاتن.

طاحونة السيّد مرلييه تلك كانت بهجة خالصة للقلب والعين. تقع في وسط بلدة روكروز[1]، حيث ينعطف الطريق العامّ. في البلدة شارع واحد وصفّان من الأكواخ على جانبَي الطريق. لكن في ذلك الموقع بالذات، عند المنعطف، تمتدّ حقول واسعة وتنبثق أشجار عالية تحفّ بمجرى نهر موريل، فتكسو قاع الوادي بظلال رائعة. منطقة لورين بكاملها لا تحوي بقعة طبيعة أحلى من تلك. يميناً ويساراً، غابات كثّة وأحراج عمرها قرون من الأشجار الباسقة تتسلّق منحدرات تتدرّج بلطف، تغمر الأفق ببحر من الخضرة، فيما إلى الجنوب يمتدّ السهل بخصوبته الرائعة فارشاً على مدى النظر قطع أراضٍ تخترقها أسوار من الشجيرات البريّة. غير أنّ سِحر روكروز يكمن في طَراوة ذلك الوكر من الخضرة في أيّام تمّوز وآب حين يشتدّ الحرّ. ينحدر نهر موريل من غابات غانيي[2] ويظهر أنّه يحمل مع مياهه برودة الأغصان الوارفة الظلال، التي يسيل تحتها على مسافة أميال وأميال. ينقل معه الهمسات والوشوشات، ظلال الغابة المثلجة والورعة. وليست هذه هي الطراوة الوحيدة في الغابة، بل تغنّي فيها مياه جارية على أنواعها، وفي كلّ خطوة نخطوها تنضح ينابيع. نشعر عندما نسير في الدروب الضيّقة وكأنّ بحيرات تحت الأرض تطفو إلى الأعشاب والطحالب، تغتنم أدنى شقوق عند أقدام الأشجار، بين الصخور، لتطفح وتفيض جداول بلّوريّة. ترفع هذه المناهل خريرها الهامس من كلّ مكان عالياً فيطغى على تغريد عصافير الدوريّ. لكأنّنا في بستان مسحور تدفق فيه شلّالات أينما قلّبنا النظر.

(1) بلدة وهميّة.

(2) غانيي Gagny اسم مدينة شرق باريس. يمزج زولا لبلدات سرده التخييليّ أسماء حقيقيّة ووهميّة، أسماء مواقع وأسماء أشخاص.

المراعي في الأسفل مبتلّة. أشجار الكستناء العملاقة تلقي ظلالاً قاتمة. وعند أطراف المروج، تسدل أشجار الصفصاف ستائرها الطويلة التي تضجّ بالحفيف. يمتدّ طريقان تحيط بهما أشجار دلب، يرتقيان إلى قصر غانيي القديم الذي لم يبق منه اليوم سوى أنقاض. في تلك الأرض التي ترويها المياه باستمرار تنمو الأعشاب وتنبثق عاليةً. كأنّه قعر بستان بين الهضبتين المشجّرتين، لكنّه بستان طبيعيّ، المروج أحواضه المكسوّة بالعشب وأشجاره العملاقة ترسم نحلاً ضخماً. وحين تسكب شمس الظهيرة نورها عموديّاً، تزرورق الظلال وتغفو الأعشاب الملتهبة وسط القيظ، فيما تسري ارتعاشة برودة تحت الأغصان.

في تلك البقعة كانت طاحونة السيّد مرلييه تبعث طقطقتها مضفيةً بهجة إلى تلك الزاوية المكسوّة بالأعشاب البريّة. البناء المشيّد بالجصّ والألواح الخشبيّة يبدو عتيقاً وكأنّه شهد نشأة العالم. يتقدّم حتّى منتصف قاعدته في مياه موريل التي تتّسع في ذلك الموقع مشكّلةً حوضاً مستديراً ضحلاً.

هناك أقيم هُوَيس[1]، وبعده ينهمر الشلّال عن ارتفاع بضعة أمتار على دولاب الطاحونة الذي يدور باعثاً قرقعة أشبه ما تكون بسعالِ خادمة عجوز مصابة بالربو، شاخت في البيت وبقيت مخلصة له. حين ينصحون السيّد مرلييه بتغييره، يهزّ رأسه قائلاً إنّ دولاباً فتيّاً سيكون أكثر خمولاً ولن يعرف بقدرِ القديم كيف ينجز العمل. كان يصلح الدولاب القديم بكلّ ما تيّسر لديه، ضلوع براميل، خردة صدئة، قطع من الزنك أو قضبان من الرصاص. هذا ما كان يجعل الدولاب يبدو زاهياً أكثر بمظهره الغريب العجيب، مكلّلاً بشُلَلٍ من الأعشاب والطحالب.

(1) محبِس للمياه.

وحين تدفعه المياه بمدّها الفضيّ، يكتسي باللآلئ فنرى هيكله المدهش يدور غنِجاً في حلّة باهرة من العقود البرّاقة بتماوجات الصَّدف.

قسم الطاحونة الذي كان ينغمس في مياه موريل كان يبدو أشبه ما يكون بسفينة همجيّة رست في تلك الناحية. كان قسم كبير من العمارة مشيّداً على ركائز. المياه تعبر من تحت أرضيّته وكان هناك ثقوب معروفة في المنطقة برمّتها لأسماك الحنكليس وجراد النهر الضخم الذي يمكن صيده هناك. وعند أسفل الشلّال كان الحوض نقيّاً صافياً مثل صفحة مرآة. وحين لا يبلبل الدولاب صفحته باثّاً عليها زبَداً، يمكن رؤية رفوف من الأسماك الضخمة تسبح ببطء أسطول بحريّ. تنحدر سلالم محطّمة إلى النهر بجانب وتد رُبط به مركب. من فوق الدولاب يسري ممرّ خشبيّ وتتخلّل البناء شبابيك وكوّات حُفرت بشكل غير متناسق. كان ذلك خليطاً مرتّقاً من الزوايا والجدران الواطئة والإنشاءات التي أضيفت لاحقاً، والعارضات والسقيفات... مزيج يضفي إلى الطاحونة مظهر قلعة قديمة مترهّلة. لكنّ اللّبلاب نما والنبتات المعرُّشة على أنواعها سدّت الفجوات العريضة وكست البناء القديم بمعطف أخضر. تعبر من تلك الناحية فتيات يرسمن على دفاترهنّ طاحونة السيّد مرلييه.

البيت من ناحية الطريق أكثر متانة. هناك بوّابة محفورة في الحجر، تفضي إلى فناء شاسع تحيطه به يميناً ويساراً حظائر واسطبلات. قرب البئر ترتفع شجرة دردار باسقة تظلّل نصف الفناء. وفي القعر تصطفّ النوافذ الأربع للطابق الأوّل من المنزل، يعلوه برج حمام. الالتفاتة الوحيدة التي كان السيّد مرلييه يبديها لمظهر المنزل كانت أن يطلي هذه الواجهة كلّ عشر سنوات. وصدف ذلك اليوم أنّه كان طلاها للتوّ بالكلس الأبيض، فكانت تبهر القرية حين تشعلها الشمس فتتوهّج في وضح النهار.

كان السيّد مرلبيه رئيس بلديّة روكروز منذ عشرين عاماً. كان سكّان البلدة يحترمونه، مقدّرين الثروة التي تمكّن من جنيها بكدّه. كانوا يخمّنون أمواله بحوالى ثمانين ألف فرنك جمعها فلساً تلو الآخر. حين تزوّج مادلين غيار التي قدّمت له الطاحونة مهراً، لم يكن يملك سوى ذراعيه. لكنّ مادلين لم تندم يوماً على خيارها، ما دامَ أحسن إدارة شؤون العائلة بكثير من الاندفاع والحماسة. واليوم بعدما توفّيت زوجته، بقي أرمل مع ابنته فرنسواز. لا شكّ أنّه كان بوسعه أن يستريح، أن يترك دولاب الطاحونة يغفو بين الطحالب، لكنّه لو فعل لكان سئم، ولكان المنزل بدا له ميتاً. لذلك كان لا يزال يواصل العمل، لمجرّد المتعة. السيّد مرلبيه الآن رجل هرم، وجهه مستطيل صامت، لا يبتسم مرّة، لكنّ فرحاً كبيراً يسكنه في داخله. اختاروه رئيساً للبلديّة بسبب أمواله، وبسبب أناقته حين ينظّم عرساً.

فرنسواز مرلبيه بلغت الثامنة عشرة للتوّ. لم تكن تُعتبر من أجمل بنات المنطقة، لأنّها كانت هزيلة البنية. بل ظلّت حتّى سنّ الخامسة عشرة قبيحة. لم يكن أحد في روكروز يفهم كيف أنّ ابنة الأب والأمّ مرلبيه، وكلاهما قويّ البنية، تنمو بشكل أعجف على هذا النحو يعطيها مظهراً كئيباً. لكن عند بلوغها الخامسة عشرة، اتّخذ وجهها ملامح فاتنة، من أجمل ما يمكن، رغم أنّها كانت لا تزال رقيقة البنية. كان لها شعر أسود، وعينان سوداوان، ووجه متورّد طريّ. فم يضحك دوماً، وغمّازتان في وجنتيها، وجبين صافٍ وكأنّ الشمس وضعت عليه إكليلاً. وبالرغم من أنّها كانت تعتبر ضامرة في المنطقة، إلاّ أنّها لم تكن هزيلة على الإطلاق. ما كان يعنيه أهل البلدة أنّها ما كانت ستقدر أن ترفع كيساً من القمح. لكنّها مع السنّ امتلأت. لا شكّ أنّها مع الوقت ستصبح مكتنزة ولذيذة مثل

طير سُماني. لكنّ صمت والدها لفترات طويلة جعلها تتعقّل قبل السنّ. وإن كانت لا تزال تضحك، فذلك لإرضاء الآخرين، في حين أنّها في قرارة نفسها فتاة رزينة.

بالطبع، كان شبّان المنطقة جميعهم يغازلونها ويتودّدون إليها، لأجل نقودها أكثر ممّا لأجل رقّتها. وفي نهاية الأمر حسمت خيارها، خياراً أثار الذهول في المنطقة. من الجانب الآخر من نهر موريل كان يعيش فتىً طويل القامة يسمّونه دومينيك بانكيه. لم يكن من روكروز. وصل قبل عشر سنوات من بلجيكا ليرث عمّاً له كان قد ترك ملْكاً صغيراً عند أطراف غابة غانيي، قبالة الطاحونة، في مرمى بندقيّة منها. جاء لبيع هذا الملْك على حدّ قوله، والعودة إلى دياره. لكن يبدو أنّ المنطقة سحرته، لأنّه لم يغادرها منذ ذلك الحين. كان من الممكن رؤيته يزرع حقله الصغير، يجني بعض الخضار التي يعتاش منها. يصطاد السمك والعصافير، فكاد حرّاس الغابات يوقفونه أكثر من مرّة ويحرّرون محاضرَ بحقّه. ذلك العيش الحرّ الطليق الذي لم يكن الفلّاحون يتبيّنون موارده، أعطاه في نهاية الأمر سمعة سيّئة. كانوا ينعتونه عموماً بالصيّاد غير القانونيّ. وفي مطلق الأحوال، كان كسولاً، لأنّه غالباً ما كانوا يرونه نائماً في العشب، في ساعات يفترض به أن يكون فيها يعمل. الكوخ الذي كان يسكنه، تحت آخر أشجار الغابة، لم يكن يشبه مسكن شابّ نزيه. لو كان يعاشر الذئاب التي تسكن أنقاض غانيي، لما كان ذلك أدهش عجائز البلدة. ورغم ذلك، كانت الفتيات يجازفن أحياناً ويدافعن عنه، لأنه كان رائعاً، ذلك الرجل المشبوه، الرشيق والطويل القامة مثل شجرة حور، الأبيض البشرة بلحية وشعر أشقرين كالذهب في الشمس. وفي صباح أحد الأيّام، أعلنت فرنسواز لوالدها مرلييه أنّها تحب دومينيك وأنّها لن

ترضى أبداً بسواه زوجاً لها.

يمكن تصوّر وقع الصدمة على الوالد مرلييه في ذلك النهار، فكأنّه تلقّى ضربة مطرقة! لم يتفوّه بكلمة، كعادته. احتفظ بوجهه الرزين، غير أنّ بريق ذلك الفرح الداخليّ انطفأ في عينيه. حرد الاثنان على مدى أسبوع كامل. فرنسواز أيضاً كانت عابسة. أكثر ما كان يحيّر السيّد مرلييه كان أن يعرف كيف تمكّن ذلك اللّصّ الصيّاد من أن يخلب لبّ ابنته. دومينيك لم يأتِ يوماً إلى الطاحونة. بقي الطحّان بالمرصاد، وفي نهاية الأمر رأى المتأنّق في الضفّة المقابلة من نهر موريل، ممدّداً في العشب يتظاهر بالنّوم. بوسع فرنسواز أن تراه من غرفتها. المسألة واضحة وضوح الشمس، لا بدّ أنهما تبادلا نظراتِ حنانٍ ورقّةٍ من فوق دولاب الطاحونة، ووقعا في الغرام.

انقضت ثمانية أيّام أخرى، وازدادت فرنسواز تجهّماً. السيّد مرلييه بقي صامتاً. ثمّ ذات مساء، جاء هو نفسه بدومينيك بصمت. كانت فرنسواز تعدّ مائدة العشاء. لم تظهر عليها أيّ دهشة، اكتفت بوضع طبق إضافيّ، لكنّ الغمّازتين الصغيرتين عادتا إلى وجنتيها وظهرت ضحكتها من جديد. كان السيّد مرلييه قصدَ دومينيك في الصباح في كوخه عند أطراف الغابة. هناك تكلّم الرجلان طوال ثلاث ساعات، وجميع الأبواب والنوافذ مغلقة. لم يعلم أحد يوماً ما دار بينهما من كلام. الأمر الأكيد أنّ السيّد مرلييه كان عند خروجه من الكوخ يعامل دومينيك وكأنّه ابنه. لا شكّ أنّ العجوز عثر على الفتى الطيّب الذي ذهب هو باحثاً عنه، في ذلك الخمول الذي كان يتمدّد في العشب ليوقع الفتيات في غرامه.

ضجّت روكروز بالنميمة والثرثرة. النساء على أبواب منازلهنّ يتكلّمن بلا كلل عن جنون السيّد مرلييه الذي أدخلَ إلى بيته فتى طائشاً. لكنّه

تجاهل كلّ ما كان يقال. ربّما تذكّر زواجه. هو أيضاً لم يكن يملك فلساً واحداً حين تزوّج مادلين وطاحونتها، لكنّ ذلك لم يمنعه من أن يكون زوجاً صالحاً. وفي مطلق الأحوال، فإنّ دومينيك تصدّى للقيل والقال بانكبابه على العمل بحميّة أثارت إعجاب الجميع. صدف أنّ الفتى الذي كان يعمل في الطاحونة تمّ اختياره بالقرعة للخدمة العسكريّة، ولم يرضَ دومينيك أن يوظّفوا فتى آخر. حمل الأكياس، قاد العربة، تعارك مع الدولاب القديم حين كان يقاوم ويأبى أن يدور، منجزاً هذه المهامّ بطيبة خاطر وحماس جعلا الجميع يأتون لمجرّد الاستمتاع برؤيته وهو يعمل. كان السيّد مرلييه يضحك ضحكته الصامتة. هو يعتزّ بأنّه حدسَ ذلك الفتى. ليس هناك أفضل من الحبّ لإعطاء الشبيبة الجرأةَ والإقدام.

وسط كلّ هذه المهامّ الشاقّة، كان دومينيك وفرنسواز يتحابّان بجنون. قلّما كانا يتحادثان، لكنّهما يتبادلان نظراتِ حنانٍ وابتسامات. لم يأت السيّد مرلييه حتّى ذلك الحين على ذكر الزواج، وكلاهما كان يحترم هذا الصمت، في انتظار مشيئة العجوز. وأخيراً، عند أواسط تمّوز، أمر ذات يوم بنصب ثلاث طاولات في الباحة تحت شجرة الدردار العالية، ودعا جميع أصدقائه من روكروز إلى تناول كأس معه في المساء. وحين امتلأت الباحة ورفع الجميع كؤوسهم، رفع السيّد مرلييه كأسه عالياً وأعلن:

«دعوتكم لأنّه يسرّني أن أعلن لكم أنّ فرنسواز ستتزوّج هذا الفتى بعد شهر، في يوم عيد القدّيس لويس».

دقّ الجميع كؤوسهم بصخب وعلت الضحكات. رفع السيّد مرلييه صوته مرّة جديدة وصاح:

«دومينيك، قبّلْ خطيبتك. هكذا ينبغي أن تفعل».

تبادلا قبلة وقد احمرّ وجهاهما، فيما المدعوون يقهقهون ضاحكين. كانت حفلة عامرة. أفرغوا برميلاً صغيراً من الخمر. ثمّ حين لم يبقَ هناك سوى الأصدقاء المقرّبين، هدأت الأحاديث. كان اللّيل هبط، ليل صافٍ مليء بالنجوم. جالسَين جنباً إلى جنب على مقعد، لم يكن دومينيك وفرنسواز ينبسان ببنت شفة. راح مزارع عجوز يتحدّث عن الحرب التي أعلنها الامبراطور على بروسيا. جميع فتيان القرية ذهبوا. بالأمس عبرت قوّات عسكريّة جديدة. لا شكّ أنّ المعارك ستكون ضارية.

«لا خوف! قال السيّد مرلييه بأنانيّة رجل سعيد. دومينيك أجنبيّ ولن يذهب للحرب. وإن جاء البروسيّون، فسوف يكون هنا للدفاع عن زوجته».

فكرة قدوم البروسيّين تلك كانت بمثابة طرفة مضحكة. سوف يلقّنونهم درساً كما ينبغي، وينتهون منهم على وجه السرعة.

«رأيتهم بأمّ عيني، رأيتهم بأمّ عيني»، ردّد المزارع بصوت مكتوم.

خيّم صمت. ثمّ رفعوا كؤوسهم من جديد. فرنسواز ودومينيك لم يسمعا شيئاً. كانا يمسكان أحدهما بيد الآخر برفق خلف المقعد دون أن يراهما أحد، وبدا لهما ذلك الإحساس طيّباً حتّى أنّهما بقيا هناك، أنظارهما تائهة في عمق العتمة.

كم كان ذلك اللّيل الدافئ رائعاً! القرية تغفو من جانبَي الطريق الأبيض، هانئة كطفل. لم يعد يُسمع بين الحين والآخر سوى صياح ديك في البعيد استيقظ أبكر ممّا ينبغي. من الغابات الشاسعة المجاورة تهبط نسائم مديدة تعبر على السطوح كأنّها تداعبها. المروج بظلالها الداكنة ترتدي جلالاً غامضاً مهيباً، فيما كلّ الينابيع والجداول تندفع في العتمة وكأنّها أنفاس نديّة هادئة منبعثة من الحقول الغافية. أحياناً يبدو دولاب

الطاحونة القديم النّاعس وكأنّه يحلم، مثل كلاب الحراسة الهرمة تلك التي تنبح في نومها، فيصدر قرقعةً، يتكلّم وحده، يهدهده دفقُ نهر موريل الذي تبعث مياهه موسيقى متواصلة مثل أنبوب أرغن. لم يهبط يوماً سلام أكبر على بقعة من الطبيعة أكثر رضىً وهناء[1].

2

بعد شهر بالتمام، عشيّة عيد القدّيس لويس، كان الذعر مسيطراً على روكروز. البروسيّون هزموا الامبراطور ويزحفون بسرعة كبيرة في اتّجاه القرية. مضى أسبوع والمارّة على الطريق يعلنون عن وصولهم: «إنّهم في لوميار، إنّهم في نوفيل». ومع توارد الأخبار عن تقدّمهم السريع، كانت روكروز تخال في كلّ صباح أنّها تراهم ينحدرون من غابات غانيي. غير أنّهم لم يصلوا، وهو ما كان يؤجّج الرعب أكثر. من المؤكّد أنّهم سيُطْبقون على القرية أثناء اللّيل وسيذبحون الجميع.

في عشيّة ذلك اليوم، قبيل طلوع الفجر، انطلق إنذار. استيقظ السكّان على صخب يحدثه رجال على الطريق. جثت النساء على وجه السرعة على ركبهنّ وهنّ يرسمن على صدورهنّ إشارة الصليب، حين ميّز البعض، لدى التلصّص بحذرٍ من النوافذ الموارَبة، السراويل الحُمر التي كانوا يرتدونها. كانت تلك كتيبة فرنسيّة. سارع النّقيب إلى طلب رئيس بلديّة القرية، وبقي في الطاحونة بعدما تكلّم مع السيّد مرلييه.

طلعت الشمس بهيّةً في ذلك اليوم، منذرةً باشتداد الحرارة عند الظهر. فوق الغابات طفا نور أشقر ومن عمق الوادي فوق المروج تصاعد بخار

(1) مطلع «الهجوم على الطاحونة» يشبه مطلع قصّة «الفيضان»، حيث تبدأ القصّة بتوازن بين الطبيعة والبشر وسط سلام عميق يبرز بشكل أفضل البعد المأساويّ للكارثة التي تحلّ لاحقاً.

أبيض. كانت القرية النظيفة الجميلة تستيقظ في الجوّ العليل، والحقول بنهرها وينابيعها ترتدي رقّةَ باقةٍ نديّة. غير أنّ ذلك اليوم الجميل لم يكن يبعث الفرح في أيّ نفْس. فقد رأى سكّان القرية النّقيب ينعطف قرب الطاحونة، يحدّق بالمنازل المحيطة، ينتقل إلى الضفّة الأخرى من نهر موريل، ومن هناك يتفحّص المنطقة بنظّارة. بدا السيّد مرلييه الذي كان يرافقه وكأنّه يشرح له شيئاً. ثمّ نشر النّقيب جنوده خلف الجدران، خلف الأشجار وفي الحفر. خيّم القسم الأكبر من الكتيبة في باحة الطاحونة. هل يا ترى سوف تدور معارك في تلك الباحة؟ حين عاد السيّد مرلييه سأله الجميع. هزّ رأسه مطوّلاً دون أن يتفوّه بكلمة. نعم، سوف تدور معارك.

فرنسواز ودومينيك كانا واقفَين في الباحة، ينظران إليه. وبعد وقت، نزع هوَ الغليون من فمه وقال هذه الجملة البسيطة:

«آه! يا طفليّ المسكينَين، زواجكما لن يتمّ غداً!»

كان دومينيك يتطاول بقامته أحياناً، شادّاً على شفتيه، فيما تعترض جبينه ثنية غضب، يحدّق مطوّلاً في غابات غانيي، وكأنّه يترقّب قدوم البروسيّين. فرنسواز، شاحبة ورزينة، تذرع المكان ذهاباً وإياباً، تقدّم للجنود ما يحتاجون إليه. كانوا يعدّون الحساء في زاوية من الباحة ويمازحون في انتظار الطعام.

غير أنّ النّقيب بدا في غاية السرور. فقد تفقّد غرف الطاحونة والصالة الكبرى المطلّة على النهر. والآن، جالساً قرب البئر، كان يتحدّث مع السيّد مرلييه.

«لديك هنا حُصن حقيقيّ، قال له. سوف نصمد بالتأكيد حتّى المساء... قطّاع الطّرق هؤلاء تأخّروا. من المفترض أن يكونوا وصلوا

إلى هنا».

بقي الطحّان رصيناً. بوسعه أن يرى طاحونته تشتعل فيها النيران وكأنّها مشعل. لكنّه لم يكن يتشكّى، فذلك لن يجدي نفعاً. اكتفى بالقول:

«يجدر بكم إخفاء المركب خلف الدولاب. هناك فجوة تتّسع له... ربّما تستخدمونه لاحقاً».

أعطى النّقيب أمراً. كان النّقيب ذاك رجلاً أربعينيّاً وسيماً، طويل القامة بشوش الوجه. بدا مسروراً لمشهد فرنسواز ودومينيك. كان يصبّ انتباهه عليهما وكأنّه نسي المعركة الوشيكة. يتابع فرنسواز بنظره، ووجهه يعبّر بوضوح عن استلطافه لها. ثمّ التفت صوب دومينيك.

«ألست في الجيش يا بنيّ؟ سأله بشكل مفاجىء.

- أنا أجنبيّ»، أجاب الشابّ.

لم يستحسن النّقيب هذا التبرير كثيراً، على ما ظهر على ملامحه. طرفَ بعينيه وابتسم. لا شكّ أنّ قرب فرنسواز ألذّ من معاشرة المدفع. عندما رآه يبتسم، أضاف دومينيك:

«أنا غريب، لكنْ بوسعي إصابة تفّاحة على مسافة خمسمئة متر... انظر، بندقيتي للصّيد هنا، خلفك.

- قد تضطرّ إلى استخدامها»، قال النّقيب ببساطة.

اقتربت فرنسواز وهي ترتجف قليلاً. أمسك دومينيك بيديها اللّتين مدّتهما له كأنّها لتضع نفسها في حمايته وشدّ عليهما، غير آبه لكلّ الموجودين. ابتسم النّقيب من جديد، دون أن يضيف كلمة. بقي جالساً، سيفه بين ساقيه وعيناه تائهتان في الفراغ وكأنّه يحلم.

كانت الساعة بلغت العاشرة. اشتدّ الحرّ وخيّم صمت ثقيل. في الباحة أخذ الجنود يتناولون حساءهم في ظلّ الحظائر. لم تكن أيّ أصوات

ترِد من القرية، وقد أغلق سكّانها منازلهم بإحكام وأوصدوا الأبواب والنوافذ. بقي كلب وحيداً في الشارع يطلق عويلاً. من الغابات والحقول المجاورة الرازحة تحت الحرّ تصاعد صوتٌ ناءٍ متواصل، اجتمعت فيه كلّ الزفرات المنبعثة من هنا ومن هناك. صدح طائر وقواق بتغريده. ثمّ عاد الصمت أعمق وأوسع.

وفي وسط هذا الهواء الغارق في السبات، اندلعت طلقة نار فجأةً. وثب النّقيب ونهض، وأفلت الجنود أطباقهم التي كانت لا تزال ملأى إلى نصفها بالحساء، وما هي إلى ثوانٍ حتّى كان الجميع في مواقعهم القتاليّة. شغلوا الطاحونة بالكامل من أعلاها إلى أسفلها. غير أنّ النّقيب الذي تقدّم إلى الطريق لم يبصر شيئاً. وحدها الطريق كانت تمتدّ يميناً ويساراً، مقفرة وبيضاء. اندلعت طلقة ناريّة ثانية، دون أن يلوح شيء، لا ظلّ في الأفق. لكن حين استدار، رأى بين شجرتين من ناحية غانيي غيمة دخان تتصاعد مثل خيوطٍ من نسيج العناكب متطايرة، فيما الغابة تبقى وادعةً تعمّها ظلال غامضة.

«الأوغاد! احتموا في الغابة، تمتم. يعلمون أنّنا هنا».

عندها تواصل إطلاق النار وازداد كثافةً بين الجنود الفرنسيين المتمركزين حول الطاحونة، والبروسيّين المختبئين خلف الأشجار. كان الرصاص يئزّ من فوق مياه موريل، دون أن يوقع ضحايا في أيّ من الجانبين. طلقات متقطّعة بلا انتظام، تنطلق من خلف كلّ دغل من الشجيرات. ولم تكن تظهر حتّى ذلك الحين سوى غيمات صغيرة من الدخان تتأرجح متراخية في الريح. استمرّ الوضع على حاله قرابة ساعتين. كان الضابط يدندن، غير مبالٍ. فرنسواز ودومينيك اللّذان بقيا في الباحة كانا يتطاولان بقامتيهما ويسترقان النظر من فوق جدار منخفض. كانا

يراقبان باهتمام خاصّ جنديّاً صغير القامة متمركزاً على ضفّة موريل، خلف هيكل سفينة قديمة. كان منبطحاً على بطنه يترصّد ويوجّه طلقة ناريّة، ثمّ ينزلق في حفرة إلى الخلف قليلاً ويلقّم بندقيّته من جديد. كانت حركاته طريفة وحاذقة ورشيقة فلا يمكن للواحد إلّا أن يبتسم وهو يراه. لا بدّ أنّه لمح رأسَ بروسيّ، لأنّه نهض متوثّباً وركّز البندقيّة على كتفه مصوّباً. لكن قبل أن يتسنّى له إطلاق النار، صرخ واستدار على نفسه وسقط متدحرجاً في الحفرة حيث راحت ساقاه للحظة تنتفضان في اختلاجات تشنّجيّة مثل قائمتَي دجاجة عند ذبحها. الجنديّ الصغير أصيب برصاصة في وسط صدره مباشرةً. كان ذلك أوّل قتيل. أمسكت فرنسواز بلا شعورٍ بيدِ دومينيك وشدّت عليها في انقباض عصبيّ.

«لا تبقيا هنا، قال النّقيب. الرصاص يصل إلى هنا».

بالفعل، سُمعت طقّة مكتومة وجافّة في شجرة الدردار القديمة، وهوى طرفُ غصن متأرجحاً. لكنّ الشابيّن لم يبارحا مكانهما، وقد تسمّرا لَهَفاً إزاء المشهد. عند أطراف الغابة، خرج بروسيّ فجأةً من خلف شجرة كأنّها من كواليس مسرح، وهو يخبط ذراعيه في الهواء، وسقط على ظهره. لم يتحرّك شيء بعدها. بدا القتيلان وكأنّهما نائمان في نور الشمس، وما كان يمكن رؤية أيٍّ كان في الحقول المتثاقلة. حتّى لعلعة النيران توقّفت. وحده نهر موريل واصل وشوشاته، باعثاً خريره الصافي.

نظر السيّد مرلييه بذهول إلى النّقيب، كأنّما ليسأله إن كان الأمر انتهى.

«الآن ستأتي الضربة الكبرى، تمتم الضابط. حذار! لا تبقوا هنا».

لم يكد ينهي جملته حتّى دوّى انفجار مروّع، بدا وكأنّه أطاح بشجرة الدردار الضخمة، فتطايرت سحابة من الأوراق وراحت تدور في الجوّ. من حسن الحظّ أنّ البروسيّين صوّبوا عالياً جدّاً. دفع دومينيك فرنسواز،

بل حملها تقريباً، وتبعهما السيّد مرلييه وهو يصيح:

«انزلا إلى القبو الصغير، الجدران متينة».

لكنّهما لم يستمعا إليه ودخلا القاعة الكبرى حيث كان عشرة جنود ينتظرون بصمت، وقد أغلقوا الستائر الخشبيّة وراحوا يراقبون الجوار من خلال شقوقها. بقي النّقيب وحيداً في الباحة، جالساً القرفصاء خلف الجدار الواطئ، فيما إطلاق النار متواصل بضراوة. في الخارج، لم يكن الجنود الذين وزّعهم على مواقع متفرّقة يتراجعون إلّا شبراً شبراً. غير أنّهم كانوا يعودون الواحد تلو الآخر زحفاً، بعدما يطردهم العدوّ من مخابئهم. كانت تعليماتهم تقضي بكسب الوقت، وعدم الظهور، حتّى لا يخمّن البروسيّون عديد القوّات التي يواجهونها. انقضت ساعة أخرى. واذ وصل رقيب معلناً أنّه لم يعد هناك في الخارج سوى رجلين أو ثلاثة رجال، أخرج النّقيب ساعته وتمتم:

«ساعتان ونصف الساعة... هيّا، علينا أن نصمد أربع ساعات».

أمر بإغلاق بوّابة الباحة واتّخذت كلّ الاستعدادات للتصدّي للهجوم بشدّة. لم يكن يُخشى وقوع هجوم وشيك، إذ كان البروسيّون عند الضفّة المقابلة للنهر. صحيح أنّ هناك جسراً على مسافة كيلومترين، لكنّهم لا يعرفون على الأرجح بوجوده، وبدا من المستبعد أن يجازفوا ويقطعوا النهر سيراً على الأقدام. بالتالي، اكتفى النّقيب بإعطاء تعليمات بمراقبة الطريق. المجهود برمّته سينصبّ من ناحية الحقول.

توقّف إطلاق النار من جديد. بدت الطاحونة وكأنّها ميتة تحت الشمس المتوهّجة. النوافذ كلّها مغلقة بالستائر الخشبيّة، ولا صوت ينبعث في الداخل. لكنّ البروسيّين بدأوا يظهرون شيئاً فشيئاً عند أطراف غابة غانيي. يمدّون رؤوسهم، مُعربين عن جسارة متزايدة. في الطاحونة،

باشر عدد من الجنود تسديد بندقيّاتهم، لكنّ النّقيب صاح بهم:
«لا، لا، انتظروا... دعوهم يقتربون».

لزم البروسيّون حذراً شديداً، وكانوا يتأمّلون الطاحونة بريبة، متوجّسين من ذلك البناء القديم، الصامت والموحش، المحتجب بستائر من اللّبلاب المتدلّي. غير أنّهم واصلوا التقدّم رغم ذلك. وحين باتوا على مسافة خمسين متراً في المرج المقابل، قال النّقيب كلمة واحدة:

«هيّا!»

فدوّى صوت أليم كأنّ شيئاً ينسلخ، تلته طلقات متفرّقة. سدّت فرنسواز أذنيها بيديها في حركة تلقائيّة، وهي ترتجف. كان دومينيك ينظر، واقفاً خلف الجنود، وحين تبدّد الدخان قليلاً، رأى ثلاثة بروسيّين ممدّدين على ظهورهم في وسط المرج. الآخرون ارتموا خلف أشجار الحور والصفصاف. عندها بدأ الحصار.

على مدى أكثر من ساعة، أطلقوا وابلاً من الرصاص على الطاحونة. كانت النيران تلفح الجدران كزخّة بَرَد. وحين تصيب الحجر، يسمعونها ترتطم به فترتدّ وتسقط في المياه. في الخشب، كان الرصاص ينغرز بصوت مكتوم. أحياناً ترتفع طقطقة تنذر بإصابة الدولاب. الجنود في الداخل يدّخرون الرصاص، فلا يطلقون النار إلّا حين يكون في مقدورهم التصويب. وبين الحين والآخر، يلقي النّقيب نظرة إلى ساعته. وإذ شقّت رصاصةٌ إحدى الستائر الخشبية وانغرزت في السقف، تمتم:

«أربع ساعات. غير ممكن أن نصمد هذا الوقت».

فالطاحونة القديمة أخذت تهتزّ شيئاً فشيئاً وتتداعى تحت قوّة النيران المريعة. سقطت ستارة خشبيّة في المياه، مخرّمة بالرصاص وكأنّها منديل دنتيل، وتوجّب تبديلها بفراش. كان السيّد مرلييه يعرّض نفسه في كلّ

لحظة للخطر للكشف على أضرار دولابه المسكين الذي كانت طقطقاته تفطر قلبه. انتهى أمره نهائيّاً هذه المرّة، لن يتمكّن أبداً من رتقه. توسّل دومينيك إلى فرنسواز أن تغادر مكانها، لكنّها كانت عازمة على البقاء معه. جلست خلف خزانة كبيرة من خشب البلّوط كانت تحميها. غير أنّ رصاصة أصابت الخزانة التي بعثت ألواحها صوتاً عميقاً. وقف دومينيك عندها أمام فرنسواز. لم يكن أطلق رصاصة بعد. كان يمسك بندقيّته بيده، دون أن يتمكّن من الاقتراب من النوافذ التي يحتلّها الجنود على عرضها. وعند كلّ زخّة جديدة من الرصاص تهتزّ الأرضيّة تحت أقدامهم.

«انتبهوا! انتبهوا!» صاح النّقيب فجأةً.

كان شاهد لتوّه كتلة قاتمة ضخمة تخرج من الغابة. عندها فُتحت النار بطاقة مذهلة وكأنّ فرقة كاملة تفرغ بنادقها. بدا وكأنّ عاصفة انقضّت على الطاحونة. سقطت ستارة خشبيّة ثانية، ومن فتحة النافذة الفاغرة انهمر الرصاص. سقط جنديّان أرضاً. أحدهما لم يعد يتحرّك. دفعوه إلى الحائط لأنّه كان يعيق حركة الآخرين. الثاني راح يتلوّى مطالباً بالإجهاز عليه، لكنّ أحداً لم يعره انتباهاً. فالرصاص ما زال يمطر والكلّ يحتمي ويبحث عن كوّة يردّ منها. أصيب جنديّ ثالث، لكنّه لم يتفوّه بكلمة، استسلم وانزلق على حافة طاولة، عيناه شاخصتان تائهتان. أمام منظر هؤلاء القتلى، دفعت فرنسواز تلقائيّاً كرسيّها الى الخلف مذعورة، وجلست أرضاً لصق الحائط. هكذا تخال نفسها أصغر حجماً وأقلّ عرضة للخطر. في هذه الأثناء ذهب الجميع وجلبوا كلّ فُرُش المنزل وسدّوا نصف النافذة. كانت القاعة تمتلئ بالحطام وقطع الأسلحة المكسّرة والأثاث المبقور.

«الساعة الخامسة، أعلن النّقيب. اصمدوا... سوف يحاولون عبور النهر».

في هذه اللّحظة أطلقت فرنسواز صرخة. فقد لامست رصاصة مرتدّة جبينها حيث نضحت بضع قطرات دم. نظر دومينيك إليها، ثمّ اقترب من النافذة وأطلق رصاصته الأولى، ولم يتوقّف بعدها. كان يلقّم ويطلق النار، دون أن يكترث لما يجري قربَه. فقط بين الحين والآخر، يلقي نظرة إلى فرنسواز. على كلّ حال، لم يكن متسرّعاً، بل كان يصوّب بتأنٍّ. كان البروسيّون ينسلّون بمحاذاة أشجار الحور، محاولين عبور موريل، مثلما توقّع النّقيب. لكن ما إن يجازف أحدهم ويخرج في العراء، حتّى يسقط أرضاً، وقد سدّد له دومينيك رصاصة في رأسه. ذُهِل النّقيب الذي كان يتابع تحرّكات دومينيك. هنّأ الشابَّ قائلاً له إنّه لو كان لديه الكثير من الرماة ببأسه في فرقته لكان في غاية السرور. لم يكن دومينيك يسمعه. خدشت رصاصة كتفه، وأصابته أخرى في ذراعه، وهو يواصل إطلاق النار.

وقع قتيلان آخران. الفُرُش الممزّقة لم تعد تسدّ النوافذ. أُطلِق رشق أخير بدا وكأنّه سيقتلع الطاحونة. لم يعد من الممكن الدفاع عن الموقع. لكنّ النّقيب كان يردّد:

«اصمدوا... لم يبق سوى نصف ساعة».

أصبح يعدّ الدقائق. وعد قادتَه بوقف العدوّ هنا حتّى المساء، وكان مصمّماً على عدم التراجع شبراً قبل الساعة التي حدّدها للانسحاب. كان يحتفظ بوجهه الودود، ويبتسم لفرنسواز ليطمّنها. هو نفسه رفع عن الأرض بندقيّة جنديّ ميت وراح يطلق النار.

لم يعد هناك سوى أربعة جنود في الغرفة. أخذ البروسيّون يخرجون

بأعداد كبيرة من الطرف الآخر من النهر. كان من الواضح أنّهم سيعبرون النهر بين لحظة وأخرى. انقضت بضع دقائق. بقي النّقيب متعنّتاً، لم يشأ إعطاء الأمر بالانسحاب. عندها هرع رقيب يقول:

«إنّهم على الطريق، سوف يهاجموننا من الخلف».

لا بدّ أنّ البروسيّين عثروا على الجسر. سحب النّقيب ساعته.

«ما زال هناك خمس دقائق، قال. لن يصلوا إلى هنا قبل خمس دقائق».

ثمّ في تمام الساعة السادسة، وافق أخيراً على إخراج رجاله من باب صغير يطلّ على زقاق. من هناك ارتموا في حفرة وفرّوا إلى غابة سوفال. قبل أن يخرج، سلّم النّقيب بلباقة على السيّد مرلييه معتذراً منه. حتّى أنّه قال له:

«حاولوا إلهاءهم... سوف نعود».

لكنّ دومينيك بقي وحيداً في الصالة. كان يواصل إطلاق النار من غير أن يسمع شيئاً أو يفهم شيئاً. كلّ ما كان يحسّ به هو الحاجة إلى الدفاع عن فرنسواز. خرج الجنود حتّى من غير أن يلاحظ. ظلّ يصوّب وفي كلّ مرّة يقتل «رجله». ارتفعت فجأةً جلبة. البروسيّون اجتاحوا الباحة من الخلف. أطلق رصاصة أخيرة قبل أن ينقضّوا عليه وبندقيّته لا تزال تبعث دخاناً.

أمسك به أربعة رجال وراح آخرون يشيرون ويصيحون من حوله بلغة مرعبة. كادوا يذبحونه على الفور. وثبت فرنسواز وارتمت أمامه متوسّلة. عندها دخل ضابط وأمر بتسليمه الأسير. وبعدما تكلّم قليلاً مع الجنود بالألمانيّة، التفت نحو دومينيك وقال له بقسوة بلغة فرنسيّة ممتازة:

«سوف يتمّ إعدامك رمياً بالرصاص بعد ساعتين[1]».

3

كانت تلك قاعدة وضعتها قيادة الأركان الألمانيّة: أيّ فرنسيّ لا ينتمي إلى الجيش النظاميّ ويُضبط حاملاً السلاح يُعدم بالرصاص. حتّى وحدات الميليشيات المحليّة لم تكن تُعتبر قوّات محاربة. فمن خلال إنزال عقاب فظيع بفلّاحين كانوا يدافعون عن بيوتهم وعائلاتهم لجعلهم عبرة للآخرين، أراد الألمان تفادي انتفاضة شعبيّة كانوا يخشونها.

أخضع الضابط دومينيك لاستجواب مقتضب: ومع أنّه كان يتكلّم الفرنسيّة بطلاقة، إلّا أنّه كان يبدي تشنّجاً بروسياً أنموذجياً[2].

«هل أنت من المنطقة؟

– لا، أنا بلجيكي.

– ولماذا حملت السلاح؟... كلّ هذا يفترض ألّا يعنيك».

لم يردّ دومينيك. عندها رأى الضابط فرنسواز واقفة شاحبة الوجه، تستمع. على جبينها الأبيض يرسم جرحها الطفيف خطّاً أحمر. نقّل نظره بين الشابّ والفتاة، بدا وكأنّه فهم. اكتفى بالقول:

«إذاً لا تنكر أنّك أطلقت النار؟

– أطلقت النار بقدر ما استطعت»، أجاب دومينيك بهدوء.

(1) زولا الذي لم يكن يوماً جنديّاً، استوحى وصفه للمعركة من قصص الحرب التي راجت بكثرة بعد 1870. يذكر روجيه ريبول أنّ اهتمام الكتّاب بالحرب يتركّز بصورة عامّة حول المناوشات والقصص الطريفة والبطولات. وهم لم يواكبوا التطوّر نحو الحرب المعاصرة التي تُشنّ على نطاق أوسع، والتي وصفها زولا بمزيد من الدقّة في روايته «الهزيمة» *La Débâcle* (1892).

(2) نلاحظ هنا النمطيّات أو الكليشهات السائدة: فقسوة الضابط البروسيّ تقابلها لباقة التقيب الفرنسي.

لم يكن هذا الاعتراف ضرورياً، فهو أسود من البارود، يتصبّب عرقاً وعليه قطرات دم سالت من الخدش في كتفه.

«حسناً، ردّد الضابط. سوف يتمّ إعدامك بعد ساعتين».

لم تطلق فرنسواز أيّ صرخة. ضمّت يديها ورفعتهما في إشارة يأس صامت. لاحظ الضابط حركتها. كان جنديّان اقتادا دومينيك إلى قاعة مجاورة حيث يترتّب عليهما حراسته. هوت الفتاة على كرسيّ، عاجزة عن الوقوف على ساقيها المحطّمتين. لم يكن بوسعها أن تبكي، كانت تختنق. كان الضابط لا يزال يحدّق بها وفي نهاية الأمر توجّه إليها:

«هذا الفتى أخوك؟» سألها.

هزّت رأسها نافية. بقي متصلّباً دون أن يبتسم. ثمّ بعد برهة صمت:

«هل يقيم في المنطقة منذ زمن طويل؟»

أشارت برأسها من جديد إيجاباً.

«إذاً لا بدّ أنّه يعرف الغابات المجاورة بشكل جيّد؟»

هذه المرّة تكلّمت.

«نعم سيّدي»، قالت وهي تنظر إليه وقد فوجأت بسؤاله.

لم يضف كلمة. استدار وطلب أن يجلبوا إليه رئيس بلديّة القرية. لكنّ فرنسواز نهضت. علت وجهها حمرة طفيفة، وقد استعادت بعض الأمل، ظنّاً منها أنّها فهمت الغاية من أسئلته. هرعت بنفسها بحثاً عن والدها.

كان السيّد مرلييه انحدر مسرعاً على الممرّ الخشبيّ ما إن توقّف إطلاق النار لمعاينة دولابه. كان يعبد ابنته، ويكنّ عاطفة قويّة لدومينيك، صهره المقبل. غير أنّ دولابه يشغل مكانة مماثلة في قلبه. وبما أنّ الصغيرين كما يدعوهما هو خرجا سالمين من المعركة، فهو صار يفكّر في حبّه الآخر الذي كانت حصّته من المعاناة أليمة. منحنياً فوق الهيكل الخشبيّ الضخم، كان

يتفحّص إصاباته بحسرة شديدة. وجد خمس شفرات مهشّمة، والهيكل المركزيّ منخوراً بالرصاص. كان يحشر أصابعه في الثقوب ليقدّر عمقها، ويفكّر في وسيلة ممكنة لإصلاح هذه الأعطال. وجدته فرنسواز وقد بدأ يسدّ الشقوق بواسطة مزيج من الحطام والطحالب.

«أبي، قالت له، إنّهم يطلبونك».

وانهارت أخيراً بالبكاء، راويةً له ما سمعته للتوّ. هزّ السيّد مرلبيه رأسه. لا يمكن إعدام الناس هكذا بهذه السهولة. سوف يرى. عاد ودخل الطاحونة بوجهه الصامت الهادئ. وحين طلب منه الضابط إمدادات لرجاله، ردّ أنّ أهالي روكروز غير معتادين على المعاملة القاسية، وأنّه لا يمكن الحصول على أيّ شيء منهم بالعنف. يمكنه التكفّل بكلّ شيء، لكن بشرط أن يدعوه يتصرّف وحيداً. بدا الضابط مستاء في بادئ الأمر لهذه النبرة الهادئة، لكنّه بعد ذلك تنازل أمام كلام العجوز المقتضب والواضح. ثمّ ناداه من جديد ليسأله:

«تلك الغابات في القبالة، ما هو الاسم الذي تطلقونه عليها؟

- غابات سوفال.

- وما هي مساحتها؟»

حدّق فيه الطحّان دون أن يرفّ له جفن.

«لست أدري»، أجاب.

وابتعد. بعد ساعة، كانت المساهمة الحربيّة بالمؤن والمال التي طلبها الضابط في باحة الطاحونة. اللّيل أوشك على الهبوط، وفرنسواز تتابع بقلق تحرّكات الجنود. لم تكن تبتعد عن الغرفة التي يحتجزون فيها دومينيك. قرابة الساعة السابعة، أحسّت بفزع مروّع: رأت الضابط يدخل على الأسير، وسمعتهما طوال ربع ساعة يرفعان صوتيهما. ثمّ

ظهر الضابط للحظة على الباب ليصدر أمراً بالألمانيّة لم تفهمه. لكن حين قدِم اثنا عشر رجلاً واصطفّوا في الباحة حاملين بنادقهم، أخذت ترتعد، أحّست بأنّها تموت. حُسم الأمر إذاً، ستتمّ عمليّة الإعدام. بقي الرجال الاثنا عشر في مكانهم عشر دقائق، فيما صوت دومينيك ما زال يلعلع بنبرة رفض شديد وقاطع. أخيراً خرج الضابط وأغلق الباب بعنفٍ خلفه وهو يقول:

«حسناً، فكّر بالأمر... أمهلك حتّى صباح غد».

وبإشارة من يده، أمر الرجال الاثني عشر بالانصراف. بقيت فرنسواز مذهولة. السيّد مرلييه الذي واصل تدخين غليونه وهو يتأمّل فرقة الإعدام بفضول لا غير، اقترب منها وأمسكها بذراعها برفق أبويّ، واقتادها إلى غرفتها.

«حافظي على هدوئك، قال لها، وحاولي أن تنامي... غداً يطلع النهار وسوف نرى».

وعند خروجه، أقفل عليها الباب لمزيد من الحيطة. كان متمسّكاً بمبدأ، هو أنّ النساء لا يجدين نفعاً ويفسدن كلّ شيء حين يتدخّلن في مسألة جديّة. غير أنّ فرنسواز لم تنم. بقيت لفترة طويلة جالسة في سريرها، تنصت لأصوات المنزل. الجنود الألمان الذين تمركزوا في الباحة كانوا يغنّون ويضحكون. لا بدّ أنّهم ظلّوا يأكلون ويشربون حتّى الساعة الحادية عشرة، لأنّ الجلبة لم تتوقّف لحظة. في داخل الطاحونة، كان يُسمع بين الحين والآخر وقع خطى ثقيلة، خطى جنود الحراسة الذين يتمّ تبديلهم على الأرجح. لكنّ ما كان يهمّها بشكل خاصّ كانت الأصوات التي يمكنها تمييزها في الغرفة الواقعة تحت غرفتها مباشرةً. تلك كانت تحديداً الغرفة التي حبسوا فيها دومينيك. لا بدّ أنّه يذرع الغرفة ذهاباً

وإياباً بين الجدار والنافذة لأنّها ظلّت لوقت طويل تسمع إيقاع خطواته المنتظم. ثمّ حلّ صمت كبير. لا شكّ أنّه جلس. في مطلق الأحوال، توقّفت كلّ الأصوات والضجيج وغفا كلّ ما هنالك. حين بدا لها أنّ المنزل استسلم للنوم، فتحت نافذتها بأكبر قدر ممكن من الهدوء واتّكأت إليها.

في الخارج كان يخيّم سكون ليليّ دافئ. هلال القمر الرقيق الذي يغيب خلف غابات سوفال يبعث نوراً خافتاً على الحقول. الأشجار تلقي ظلالاً متطاولة تعترض المروج بسوادها، فيما العشب في المساحات العارية يتّخذ رقّة مخمل أخضر. لكنّ فرنسواز لم تكترث لسحر اللّيل الغامض، بل كانت تراقب الحقول، بحثاً عن العسس الذين نشرهم الألمان حتماً في تلك الناحية. كانت ترى بوضوح ظلالهم موزّعة على امتداد نهر موريل. كان واحد فقط متمركزاً أمام الطاّحونة، عند الضفّة الأخرى للنهر، قرب شجرة حور تتدلّى أغصانها في المياه. بوسع فرنسواز أن تميّزه بوضوح. كان فتى جسيماً يقف بلا حراك، رافعاً وجهه نحو السماء مثل راعٍ حالم.

عندها، وبعدما تفحّصت الجوار بدقّة وعناية، عادت وجلست على سريرها. بقيت جالسة ساعة كاملة، مستغرقة تماماً في أفكارها. ثمّ أنصتت من جديد: لم تعد أدنى زفرة تتصاعد في المنزل. عادت إلى النافذة وألقت نظرة. لكن لا بدّ أنّها لم تطمئنّ إلى قرني الهلال اللّذين لا يزالان يلوحان من خلف الأشجار، فعاودت الانتظار. أخيراً بدا لها الوقت مؤاتياً. فاللّيل دامس، لم تعد ترى الكشّاف في الجهة المقابلة والحقول تفرش سوادها مثل بحيرة من الحبر. أرهفت السمع للحظة، ثمّ حسمت أمرها. كان هناك سلّم حديد يعبر بقرب النافذة، درجاته محفورة في الحجر، كان الطحّانون يستخدمونه في الماضي لتفقّد بعض مفاصل الدولاب، قبل أن

يتمّ تعديل الآليّة. ثمّ بات السلّم منسيّاً منذ زمن طويل، يحجبه اللّبلاب الكثّ الذي يكسو هذا الجانب من الطاحونة.

تسلّقت فرنسواز بجرأةٍ درابزون نافذتها، التقطت أحد قضبان السلّم ووجدت نفسها في الفراغ. باشرت الهبوط. كانت تنانيرها تعيق حركتها بشكل كبير. فجأةً انفصل حجر عن الحائط وسقط في النهر محدثاً وشّة عالية. تسمّرت هي في ارتعاشة مذعورة. لكنّها أدركت أنّ شلّال المياه يغطّي من بعيدٍ بهديره المتواصل كلّ الأصوات التي قد تُحْدثها. عندها هبطت بجسارة متزايدة، متحسّسة اللّبلاب بقدميها للتثبّت من القضبان. وحين باتت بمستوى الغرفة التي احتُجز فيها دومينيك، توقّفت. اعترضتها عقبة لم تكن في الحسبان، كادت تُحبط عزيمتها: فالنافذة في الأسفل لم تكن محفورة بانتظام تحت نافذة غرفتها، بل كانت تبعد عن السلّم. وحين مدّت يدها، لم تجد سوى الجدار. هل سيترتّب عليها الصعود مجدّداً دون أن تنفّذ مخطّطها حتّى النهاية؟ بدأت ذراعاها تتعبان، وهمهمة النهر من تحتها أخذت تثير لها الدوار. عندها اقتلعت من الحائط قطعاً صغيرة من الجبس ورشقت بها نافذة دومينيك. لم يسمع. ربّما هو نائم. فتّتت قطعاً أخرى من الجدار، سالخة أصابعها على الحجارة. وحين باتت منهكة تماماً، على وشك السقوط، فتح دومينيك أخيراً النافذة دون أن يحدث صوتاً.

«هذه أنا، همست له. أمسكني بسرعة، سوف أسقط».

كانت هذه أوّل مرّة تكلّمه بإلفة. انحنى، أمسك بها وحملها إلى داخل الغرفة. هناك انهارت باكية، وهي تكبت زفراتها حتّى لا يسمعها أحد. ثمّ بذلت جهدا جبّاراً لتتمالك نفسها، واستعادت هدوءها.

«هل هناك من يحرسك؟» سألته بصوت خافت.

اكتفى دومينيك بالإشارة إلى الباب، وهو ما زال مذهولاً لظهورها بهذه الطريقة. من الجانب الآخر من الباب كان يُسمع شخير. لا بدّ أنّ الحارس استسلم للنوم وغفا على الأرض لصق الباب، ثقةً منه بأنّ الأسير لن يتمكّن عندها من التحرّك.

«يجب أن تهرب، قالت بحدّة. جئت أتوسّل إليك أن تهرب وأودّعك».

لكنّه لم يسمع كلامها، بل كان يردّد:

«كيف يمكن؟ هذا أنت، أنت... آه! كم خفت عليك! كان يمكن أن تُقتلي!»

أمسك بيديها وقبّلهما.

«كم أحبّك يا فرنسواز!... إنّك شجاعة بقدر ما أنت رقيقة. الأمر الوحيد الذي كنت أخشاه هو أن أموت دون أن أراكِ من جديد... لكنّك هنا، وبوسعهم الآن إعدامي. بعدما أقضي ربع ساعة معك، سأكون جاهزاً».

جذبها إليه شيئاً فشيئاً وهو يتكلّم، فأتكأت برأسها على كتفه. الخطر المحدق بهما يقرّبهما الواحد من الآخر. نسيا كلّ شيء في عناقهما.

«آه فرنسواز! تابع دومينيك بصوت عذب مثل مداعبة، اليوم عيد القديس لويس، يوم زفافنا الذي انتظرناه طويلاً. لم ينجح شيء في تفريقنا، فها نحن وحيدان في الموعد... أليس كذلك؟ هذا صباح زفافنا».

«أجل، أجل، ردّدت. صباح زفافنا».

تبادلا قبلة وهما يرتعشان. لكنّها استدركت فجأةً وتفلّتت من ذراعيه. الواقع الفظيع عاد وفرض نفسه عليها.

«يجب أن تهرب، يجب أن تهرب، قالت متلعثمة. علينا ألّا نضيّع ثانيةً واحدة».

-وإذ مدّ ذراعيه في العتمة ليضمّها إليه من جديد، قالت له بنبرة حميمة: «آه اسمعني أرجوك... إن متَّ، فسوف أموت أنا. بعد ساعة يكون الفجر طلع. أريدك أن ترحل حالاً».

عندها عرضت عليه خطّتها بسرعة. السلّم الحديد ينحدر إلى الدولاب. هناك بوسعه الاستعانة بالشفرات والوصول إلى القارب الراسي في تجويف في الضفّة.

«لكن لا بدّ أنّ هناك حرّاساً، قال.

- حارس واحد، في الجهة المقابلة، عند أسفل أوّل شجرة صفصاف.

- وإن لمحني وأراد أن يصرخ؟»

ارتعشت فرنسواز. وضعت في يده سكّيناً جلبتها معها. صمتا لدقيقة.

«ووالدك؟ وأنت؟ أضاف دومينيك. لا، لا يمكنني الفرار... حين لا أعود هنا، فإنّ هؤلاء الجنود قد يقتلونكما... أنتما لا تعرفانهم. عرضوا عليّ أن يعفوا عنّي إن وافقت على مساعدتهم على عبور غابة سوفال. إن لم يجدوني، فبمقدورهم القيام بأيّ شيء».

ظلّت الفتاة تجادله. كانت تجيب على كلّ تبريراته قائلة:

«إن كنت تحبّني، فعليك أن تهرب... إن كنت تحبّني يا دومينيك، فلا تبقَ هنا لحظة واحدة بَعد».

ثمّ وعدته بالصعود مجدّداً إلى غرفتها. لن يعرف أحد أنّها ساعدته. وفي نهاية الأمر، عانقته وقبّلته لتقنعه، في اندفاعة شغف جارف. غلبته هذه المرّة. لم يبقَ له سوى سؤال واحد:

«أقسمي لي أنّ والدك يعلم بما تفعلينه، وأنّه ينصحني بالهروب؟

- والدي هو الذي أرسلني»، أجابت فرنسواز بجسارة.

كانت تكذب. في تلك اللّحظة بالذات، لم تكن تشعر سوى بحاجة

واحدة لا تقاوم، وهي أن تعرف أنّه بمأمن، أن تتخلّص من تلك الفكرة الفظيعة بأنّ طلوع الشمس سيكون نذير موته. بعدما يصبح بعيداً، بوسع كلّ المصائب أن تنهال على رأسها، سوف تجدها في غاية العذوبة، طالما أنّه على قيد الحياة. أنانية حبّها له تريده أن يبقى حيّاً قبل أيّ شيء آخر.

«حسناً، قال دومينيك، سوف أفعل كما تشائين».

لم ينطقا بكلمة بعد ذلك الوعد. توجّه دومينيك إلى النافذة وشرّعها من جديد. لكنّ صوتاً باغتهما، زارعاً الرعب في نفسيهما. اهتزّ الباب، وظنّا أنّ أحدهم يفتحه عليهما. لا شكّ أنّ دوريّة سمعتْهما يتكلّمان. وقفا جنباً إلى جنب، ينتظران في فزع لا يوصف. اهتزّ الباب من جديد، لكنّه لم يُفتح. أطلقا تنهيدة مكبوتة. فَهِما ما يجري. لا بدّ أنّ الجندي النائم في عرض الباب استدار في سباته. خيّم الصمت بعدها، وارتفع الشخير من جديد.

أصرّ دومينيك على أن تصعد فرنسواز إلى غرفتها أوّلاً. حملها بين ذراعيه، ودّعها بصمت، وساعدها على التمسّك بالسلّم، ثمّ تشبّث به بدوره. لكنّه رفض أن ينزل درجة واحدة قبل أن يتثبّت من أنّها في غرفتها. وبعدما دخلت فرنسواز، همست له بصوت خفيف مثل نفس خافت:

«إلى اللّقاء، أحبّك!»

بقيت متّكئة إلى النافذة، جاهدةً لمتابعة دومينيك بعينيها. اللّيل لا يزال حالكاً. بحثت عن الحارس فلم تلمحه. وحدها شجرة الصفصاف كانت ترسم بقعة شاحبة وسط الظلام. ظلّت للحظة تسمع حفيف جسد دومينيك على طول اللّبلاب. ثمّ طقطق الدولاب وارتفعت في المياه ضجّة طفيفة أبلغتها بأنّ الشاب وجد القارب. وبعد دقيقة، ميّزت

ظلّ القارب القاتم على صفحة النهر الرماديّة. عندها أطبق قلق شديد عليها من جديد. كان يُخيَّل لها في كلّ لحظة أنّها تسمع الحارس يطلق صرخة إنذار. أدنى صوت كان ينبعث في العتمة تخاله وقع أقدام جنود يهرعون، حفيف أسلحة، وطرطقة بنادق يتمّ تلقيمها. غير أنّ الثواني تعاقبت وانقضت، وبقيت الحقول غارقة في سكون مطلق. من المفترض أن يعبر دومينيك إلى الضفة الأخرى. لم تعد فرنسواز ترى شيئاً. كان الصمت المخيّم مهيباً. سمعت دعس أقدام، صرخة مبحوحة، وارتطامَ جسد يسقط أرضاً محدثاً صدمة مكتومة. ثمّ عاد الصمت أعمق من ذي قبل. عندها بقيت فرنسواز واقفة تشعر بالصقيع في مواجهة اللّيل الكثيف، وكأنّها أحسّت بالموت يعبر.

4

منذ طلوع الفجر، هزّت الطاحونةَ صيحات. حضر السيّد مرلييه وفتح باب غرفة فرنسواز. نزلت إلى الباحة، شاحبة وهادئة تماماً. لكنّها هناك لم تتمالك نفسها واعترتها ارتعاشة أمام جثّة جنديّ بروسيّ ممدّدة قرب البئر فوق معطف مفروش أرضاً.

حول الجثّة، كان الجنود يشيرون ويصرخون بنبرة حانقة، بعضهم يشير بقبضته إلى القرية. أمر الضابط بجلب السيّد مرلييه بصفته رئيس بلديّة القرية.

«انظر، قال له بصوت يخنقه الغضب، هذا أحد رجالنا عثرنا عليه مقتولاً على حافّة الطريق... لا بدّ أن نعطي عبرة قويّة، وأنتظر منك أن تساعدنا على كشف القاتل.

– كما تريد، أجاب الطحّان ببرودته المعهودة. لكنّ ذلك لن يكون

سهلاً».

انحنى الضابط ليبعد طرف المعطف الذي كان يحجب وجه القتيل. عندها ظهر جرح مريع. كان المهاجم قد ضرب الحارس في عنقه، والسلاح كان لا يزال مغروزاً في الجرح. كانت سكّين مطبخ ذات مقبض أسود.

«انظر إلى هذه السكّين، قال الضابط للسيّد مرلييه، ربّما تساعدنا في أبحاثنا».

جفل العجوز لكنّه تدارك على الفور وردّ دون أن تهتزّ عضلة واحدة من وجهه:

«الجميع في أريافنا لديهم سكاكين مماثلة... ربّما سئم رجلكم من المعارك وقتل نفسه بيده. هذا ما يظهر.

- اصمتْ! صاح الضابط بحنق، لست أدري ما يمنعني من إحراق القرية عن بكرة أبيها».

من حسن الحظّ أنّ سخطه منعه من رؤية ردّ فعل فرنسواز التي تبدّل وجهها وامتقع. اضطرّت إلى الجلوس على المقعد الخشبيّ قرب البئر. لم يكن بوسعها تحويل نظرها عن تلك الجثّة الممدّدة أرضاً، عند قدميها تقريباً. كان فتى طويل القامة وسيماً يشبه دومينيك بشعره الأشقر وعينيه الزرقاوين. ذلك الشبه كان يفطر قلبها. فكّرت أنّ القتيل ربّما ترك عاشقة هناك في ألمانيا، سوف تبكيه. وتلك السكين في عنق القتيل هي سكّينها. هي التي قتلته.

غير أنّ الضابط كان يتوعّد بضرب روكروز بتدابير فظيعة، حين هرع جنود. تنبّهوا للتوّ لفرار دومينيك. أثارت المسألة بلبلة كبيرة. تفقّد الضابط المكان، ألقى نظرة من النافذة التي تُركت مفتوحة، فهم كلّ ما

جرى وعاد مغتاظاً.

بدا السيّد مرلييه مستاء للغاية من فرار دومينيك.

«الأبله! تمتم، لقد أفسد كلّ شيء».

سمعته فرنسواز وسيطر عليها القلق. في مطلق الأحوال، لم يكن والدها ليعتقد بتواطئها. هزّ رأسه وقال لها خافضاً صوته:

«ها أنّنا في ورطة الآن!

- إنّه ذلك اللّعين! إنّه ذلك اللّعين! صاح الضابط. لا بدّ أنّه اختبأ في الغابات... لكن يجب أن تجدوه لنا، وإلّا فإنّ القرية ستدفع الثمن عنه».

ثمّ التفت إلى الطحّان:

«قل لي، لا شكّ أنّك تعرف أين يختبئ؟»

ضحك السيّد مرلييه ضحكته الصامتة وهو يشير إلى الروابي المكسوّة بالأشجار الممتدّة على مساحة شاسعة من حولهم.

«كيف تريدون العثور على رجل في هذه المساحة؟

- آه! لا بدّ أنّ هناك مخابئ تعرفها. سوف أعطيك عشرة رجال، سوف ترشدهم.

- إنّني على استعداد. لكن يلزمنا ثمانية أيّام لتمشيط كلّ غابات الجوار».

كان هدوء العجوز يثير غيظ الضابط. الحقيقة أنّه أدرك مدى سخافة مثل هذه الحملة. عندها تنبّه لفرنسواز جالسة على المقعد، ترتجف شاحبة. تفاجأ بالقلق الظاهر على الفتاة. بقي لحظة صامتاً، يجول بنظره بين الطحّان وفرنسواز. وفي نهاية الأمر، سأل العجوز بفظاظة:

«ذلك الرجل، أليس عشيق ابنتك؟»

انحسر الدم من وجه السيّد مرلييه، وبدا وكأنّه سينقضّ على الضابط ليخنقه. تشنّج ولم يجب. خبّأت فرنسواز وجهها بين يديها.

«أجل، هذا ما حصل، تابع البروسيّ، ساعدَه أحد، إمّا انت او ابنتك، على الفرار. إنّك متواطئ معه... للمرّة الأخيرة، هل تريد أن تسلّمه لنا؟»

لم يجب الطحّان. حوّل رأسه ونظر إلى البعيد غير مبالٍ، وكأنّ الضابط لا يكلّمه. عندها جنّ جنون الضابط.

«حسناً، أعلن، سوف يتمّ إعدامك محلّه».

وأمر مرّة جديدة بحضور فرقة الإعدام. حافظ السيّد مرلييه على برودته. رفع كتفيه بشكل طفيف. كلّ هذا التهويل بدا له سخيفاً. لا شكّ أنّه لم يكن يعتقد أنّ بالإمكان إعدام رجل بهذه السهولة. ثمّ حين حضرت فرقة الإعدام قال برصانة:

«إذاً المسألة جدّيّة؟... حسناً، إنّني موافق. إن كان لا بدّ من إنزال العقاب بأحد، سواء أنا أو سواي، لا فرق».

لكنّ فرنسواز نهضت مذعورة وهي تتمتم:

«رجاء سيّدي، لا تؤذِ والدي. اقتلني محلّه... أنا التي ساعدت دومينيك على الفرار. أنا وحدي المذنبة.

- اصمتي أيّتها الفتاة، صاح السيّد مرلييه. لماذا تكذبين؟... قضت اللّيل محتجزة في غرفتها سيّدي. إنّها تكذب، أؤكّد لك ذلك.

- لا، لست أكذب، أكملت الفتاة باندفاع. نزلتُ من الشبّاك وأقنعتُ دومينيك بالفرار... هذه هي الحقيقة سيّدي، الحقيقة الوحيدة...»

شحب وجه العجوز. كان يرى بوضوح في عينيها أنّها لا تكذب، وهذه القصّة كانت ترعبه. يا لهؤلاء الأولاد، كم يفسدون كلّ شيء بقلوبهم! عندها غضِبَ.

«إنّها مجنونة، لا تستمع إليها. تلفّق لك قصصاً غبيّة... هيّا، دعونا ننتهي من هذه المسألة».

أرادت أن تحتجّ من جديد. جثت على ركبتيها وضمّت يديها مترجّية. كان الضابط يراقب بهدوء هذا الصراع الأليم.

«ربّاه! قال أخيراً، آخذُ والدك لأنّ الآخر لم يعد في قبضتي... حاولي العثور عليه، ونطلق سراح والدك».

نظرت إليه للحظة بعينين جاحظتين إزاء فظاعة هذا العرض.

«هذا رهيب، تمتمتْ. أين تريدني أن أجد دومينيك في مثل هذه الساعة؟ لقد رحل، لم أعد أدري.

- عليك أن تختاري. إمّا هو، أو والدك.

- يا إلهي؟ كيف يمكنني أن أختار؟ حتّى لو كنت أعلم أين دومينيك، لن يكون بوسعي الاختيار!... إنّك تمزّق قلبي... أفضّل أن أموت حالاً. أجل، سيكون هذا أسهل عليّ. اقتلني، أرجوك، اقتلني...»

بدأ الضابط يضيق ذرعاً أمام مشهد اليأس والدموع هذا. صاح:

«كفى! بودّي أن أكون منصفاً. أوافق على منحك ساعتين... إن لم يحضر حبيبك بعد ساعتين، فإنّ والدك سيدفع الثمن عنه».

أمر باقتياد السيّد مرلييه إلى الغرفة التي كانوا قد احتجزوا فيها دومينيك. طلب العجوز بعض التبغ وراح يدخّن غليونه. لم تكشف ملامحه عن أيّة مشاعر. لكن حين أصبح وحيداً، عندها فقط بكى وهو يدخّن، وانزلقت دمعتان ضخمتان على وجنتيه. طفلته العزيزة المسكينة، كم تتألّم!

بقيت فرنسواز في وسط الباحة. كان جنود بروسيّون يعبرون ضاحكين. بعضهم يوجّه لها كلاماً ومزاحاً لا تفهمه. كانت عيناها

شاخصتين في الباب الذي اختفى منه والدها. وبحركة بطيئة، رفعت يدها إلى جبينها، كأنّها لتمنعه من الانفجار.

استدار الضابط وردّد لها:

«أمامك مهلة ساعتين. حاولي اغتنامها».

أمامها مهلة ساعتين. تلك الجملة كانت تطنّ في رأسها. خرجت من الباحة في حركة آليّة وسارت على وجهها. أين عساها تذهب؟ ماذا تفعل؟ لم تحاول حتّى أن تحسم خيارها، لأنّها كانت على يقين من أنّ جهودها لن تكون مجدية. لكنّها كانت تتمنّى لو ترى دومينيك. لكانا توافقا، وجدا وسيلة ربّما. تائهةً في أفكارها المشوّشة، انحدرت مع النهر، عبرت إلى أسفل الهويس، حيث تتوزّع صخور ضخمة في المياه. قادتها قدماها تلقائيّاً إلى أوّل شجرة صفصاف عند زاوية المرج. وإذ انحنت، رأت بركة دماء. امتقع وجهها لهذا المشهد. هنا حصلت الواقعة. تبعت آثار دومينيك في الأعشاب التي داسها. لا بدّ أنّه كان يركض، فقد ترك خطّاً من الخطى الطويلة يقطع الحقل بالعرض. ثمّ انطلاقاً من هناك، فقدت أثر تلك الخطى. لكنّها ظنّت بعد ذلك أنّها عثرت عليها مجدّداً في مرج قريب. قادها الأمر إلى أطراف الغابة، حيث توارت كلّ إشارة.

ولجت فرنسواز رغم ذلك تحت الأشجار. كانت الوحدة تريحها. جلست للحظة. ثمّ خطر لها أنّ الوقت ينفد، فنهضت من جديد. كم من الوقت انقضى منذ غادرت الطاحونة؟ خمس دقائق؟ نصف ساعة؟ فقدت أيّ حسّ بالوقت. ربّما دومينيك اختبأ في غيضة تعرفها، حيث أكلا بندقاً مرّة معاً في ما بعد ظهيرة. قصدت الغيضة وفتّشتها. وحده شحرور طار من بين الشجيرات، مطلقاً صفيره الحنون الكئيب. عندها خطر لها أنّه قد يكون لجأ إلى تجويف بين الصخور حيث كان يختبئ أحياناً

مترصّداً، لكنّها وجدته خالياً. ما الفائدة من البحث عنه؟ لن تعثر عليه. شيئاً فشيئاً تملّكتها رغبة جامحة في اكتشاف موقعه. راحت تسير بخطى متسارعة. خطر لها فجأةً أنّه قد يكون تسلّق شجرة، فأخذت تتقدّم رافعةً أنظارها إلى الأعلى، ولكي يعلم أنّها بالقرب منه، كانت تناديه كلّما خطت حوالى عشرين خطوة، فتجيبها طيور وقواق. يمرّ نسيم بين الأغصان، فتخاله هنا، يهبط عن شجرة. حتّى أنّها تصوّرت مرّة أنّها تراه، فتوقّفت وفي صدرها غصّة تخنقها. ودّت لو تهرب. ماذا ستقول له؟ هل أنّها جاءت لتقتاده إلى الإعدام؟ آه! لا، لن تتكلّم في هذه المسائل إطلاقاً. سوف تصرخ به أن يهرب، ألّا يبقى في الجوار. ثمّ راودتها صورة والدها ينتظرها، فأحسّت بألم حادّ يصرعها. سقطت على العشب وهي تبكي وتردّد بصوت عالٍ:

«يا إلهي! يا إلهي! ماذا أفعل هنا؟»

كان ضرباً من الجنون أن تأتي إلى هنا. أخذت تركض كأنّما تملّكها الفزع، أرادت أن تخرج من الغابة. ثلاث مرّات ضلّت طريقها وظنّت أنّها لن تعثر على الطاحونة، حين وجدت نفسها في مرج مقابل لروكروز. ما إن لمحت القرية حتّى تسمّرت في مكانها. كيف تعود وحيدة؟

كانت لا تزال واقفة حين ناداها صوت خافت: «فرنسواز! فرنسواز!»

رأت دومينيك يرفع رأسه في قعر حفرة. ربّاه! ها أنّها وجدته! هل يعقل أن تكون السماء تريد له الموت؟ كبتت صرخة وانزلقت في الحفرة.

«كنت تبحثين عنّي؟ سألها.

- أجل، أجابت، ورأسها مليء بطنين، من غير أن تدري ما تقول.

- آه! ماذا يحصل؟»

خفضت نظرها وتمتمت متلعثمة:

«لا شيء على الإطلاق، كنت قلقة، وأردت أن أراك».

عند سماع هذا الكلام، اطمأنّ وشرح لها أنّه لم يشأ الابتعاد. كان يخشى عليها. فهؤلاء البروسيّون الأوغاد قادرون على الانتقام من النساء والشيوخ. مهما يكن، كلّ شيء إذاً على ما يرام. أضاف ضاحكاً:

«سنحتفل بزفافنا بعد ثمانية أيّام، هذا كلّ ما في الأمر».

لكن حين رأى أنّها لا تزال متكدّرة، استعاد نبرته الرصينة.

«ما بك؟ إنّك تخفين أمراً ما عنّي.

- لا، أقسم لك. لكنّني ركضت حتّى آتي إليك».

قبّلها وقال لها إنّهما إن أمضيا هناك مزيداً من الوقت في الكلام، فسوف يكون كلاهما معرّضاً للخطر. أراد أن يتبع الحفرة صعوداً للعودة إلى الغابة، لكنّها استوقفته وهي ترتجف.

«اسمع، ربّما يجدر بك رغم كلّ شيء أن تبقى هنا... لا أحد يبحث عنك، لست بخطر.

- فرنسواز، إنّك تخفين أمراً ما عنّي»، ردّد.

أقسمت له من جديد أنّه ليس هناك ما تخفيه. كلّ ما في الأمر أنّها تطمئنّ حين تعلم أنّه قربها. شرحت له متلعثمةً أسباباً أخرى. بدا له سلوكها غريباً، حتّى أنّه هو نفسه كان في تلك اللّحظة سيرفض الابتعاد لو طلبت منه ذلك. وفي مطلق الأحوال، فهو مقتنع بأنّ الفرنسيّين عائدون. شوهدت قوّات من جانب سوفال.

«آه! أرجو أن يسرعوا، أن يصلوا إلى هنا في أسرع وقت ممكن!» تمتمت بحرارة.

في تلك اللّحظة، دقّ جرس روكروز الساعة الحادية عشرة. وصلت الدقّات إليهما صافية واضحة. نهضت مذعورة، فقد مضت ساعتان على

مغادرتها الطاحونة.

«اسمع، قالت مستعجلة، إن احتجنا إليك، فسوف أصعد إلى غرفتي وألوّح لك بمنديلي».

وابتعدت راكضة، أمّا دومينيك فقد تمدّد عند حافة الحفرة ليراقب الطاحونة، وقد تملّكه قلق شديد. صادفت فرنسواز وهي على وشك دخول روكروز متسوّلاً عجوزاً، العمّ بونتان، الذي يعرف المنطقة برمّتها. حيّاها، وقال لها إنّه شاهدَ للتوّ الطحّان محاطاً بالبروسيّين، ثمّ تابع طريقه وهو يرسم بيده إشارة الصّليب على صدره ويتمتم بكلمات متقطّعة.

«انقضت السّاعتان»، قال الضابط ما إن ظهرت فرنسواز.

كان السيّد مرلييه هناك، جالساً على المقعد قرب البئر، لا يزال يدخّن. توسّلت الفتاة من جديد، بكت وركعت. كانت تسعى لكسب الوقت. فكرة عودة الفرنسيّين استولت عليها، وفيما تتشكّى وتنتحب، كان يُخيّل لها أنّها تسمع في البعيد وقع جزمات جيش. آه! لو يظهرون ويخلّصونهم جميعهم!

«اسمع سيّدي، ساعة، ساعة أخرى لا غير... بوسعك أن تمهلنا ساعة!»

لكنّ الضابط بقي متعنّتاً، لا بل أمر اثنين من رجاله بالقبض عليها وإبعادها حتّى يتفرّغوا لإعدام العجوز. عندها دار صراع أليم في قلب فرنسواز. لا يمكنها أن تدعهم يقتلون والدها هكذا، لا بل هي تفضّل أن تموت هي نفسها ودومينيك. همّت مندفعة إلى غرفتها حين دخل دومينيك نفسه الباحة.

أطلق الضابط والجنود صيحة انتصار. لكنّه توجّه صوب فرنسواز

بهدوء وببعض الملامة، وكأنّه لم يكن هناك سواها في المكان.

«أخطأتِ، قال لها. لماذا لم تقولي لي أن أعود؟ ما كنت سأعلم لو لم يخبرني العمّ بونتان بما جرى... على كلّ حال، ها أنا هنا».

5

كانت الساعة الثالثة. ملأت غيومٌ سوداءُ ضخمةٌ السماءَ شيئاً فشيئاً، ذيولُ عاصفةٍ ضربت مكاناً ما في الجوار. تلك السماء الصفراء المكسوّة بتلك الأسمال النحاسيّة بدّلت وادي روكروز الزاهي في الشمس إلى أرض هلاك مقفرة تسكنها ظلال مريبة. اكتفى الضابط البروسيّ بإعطاء تعليمات بسجن دومينيك، دون أن يعلن المصير الذي ينتظره. منذ الظهر، كانت فرنسواز تنازع في قلق رهيب. لم تشأ مغادرة الباحة مهما طلب منها والدها بإصرار. كانت تنتظر الفرنسيّين. لكنّ الساعات انقضت وأوشك اللّيل على الهبوط. ما كان يزيد من معاناتها أنّ كل ذلك الوقت الذي يكسبونه لا يبدو أنّه سيغيّر النهاية المحتومة الفظيعة.

لكنْ قرابة الساعة الثالثة، استعدّ البروسيّون للرحيل. وكما في اليوم السابق، كان الضابط مختلياً منذ لحظة مع دومينيك. أدركت فرنسواز أنّ حياة الشابّ كانت تتقرّر في تلك اللحظة، فضمّت يديها وراحت تصلّي. السيّد مرلييه بجانبها احتفظ بصمته وتصلّبه، متمسّكاً بموقف الفلّاح العجوز الذي لا يقاوم حتميّة الواقع.

«آه! يا إلهي! آه! يا إلهي! تمتمت فرنسواز، سوف يقتلونه...»

جذبها الطحّان إليه وأجلسها في حضنه وكأنّها طفلة.

في تلك اللّحظة خرج الضابط يتبعه رجلان يقتادان دومينيك.

«أبداً! أبداً! كان الشابّ يصرخ: إنّني مستعدّ للموت.

– فكّرْ جيّداً، أضاف الضابط. هذه الخدمة التي ترفض إسداءها لنا، سيسديها غيرك. أعرض عليك الحياة، إنّني سخيّ... كلّ ما هو مطلوب منك أن تقودنا إلى مونترودون عبر الغابة. لا بدّ أنّ هناك مسالك».

لم يعد دومينيك يردّ عليه.

«هكذا إذاً؟ تتعنّت في موقفك؟

– اقتلوني ودعونا ننتهي»، أجاب.

كانت فرنسواز تتوسّله من بعيد بيديها المضمومتين. نسيت كلّ ما يحيط بها، وكانت ستنصحه بالقيام بعملٍ جبان. لكنّ السيّد مرلييه أمسك بيديها حتّى لا يرى البروسيّون إيماءة المرأة المذعورة تلك.

«إنّه على حقّ، همس لها. من الأفضل الموت».

كانت فرقة الإعدام في موقعها، والضابط يترقّب لحظة ضعف قد تعتري دومينيك. ما زال يعوّل على إقناعه. خيّم صمت طويل. في البعيد كان يدوّي قصفُ رعدٍ عنيف والحقول رازحة تحت حرارة ثقيلة. وفي وسط هذا الصمت تردّدت صيحة:

«الفرنسيّون! الفرنسيّون!»

كان الفرنسيّون قادمين بالفعل. كان يمكن تمييز صفّ بناطلهم الحمراء على طريق سوفال، عند أطراف الغابة. انتشرت بلبلة هائلة في الطاحونة. كان الجنود البروسيّون يهرعون في كلّ الاتّجاهات مطلقين صيحات مخنوقة تخرج من عمق حلوقهم. وفي مطلق الأحوال، لم تُطلَق أيّ رصاصة بعد.

«الفرنسيّون! الفرنسيّون!» صاحت فرنسواز مصفّقةً بيديها. بدت وكأنّها فقدت صوابها. تفلّتت من ذراعَي أبيها وراحت تضحك

رافعةً ذراعيها في الهواء. ها أنّهم يصلون أخيراً، ويصلون في الوقت المناسب، بما أنّ دومينيك ما زال هناك، واقفاً على قدميه!

استدارت عند سماع نيران فظيعة، نيران فرقة اندلعت مثل قصف الرعد في أذنيها. كان الضابط تمتم:

«دعونا ننهي هذه المسألة أوّلاً».

كان قد دفع دومينيك بنفسه لصق جدار مخزن وأمر بإطلاق النار. حين التفتت فرنسواز، كان دومينيك ممدّداً أرضاً، وقد اخترقت صدره اثنتا عشرة رصاصة.

لم تبكِ، بقيت واقفة مصعوقة، عيناها مسمّرتان. ذهبت وجلست في ظلّ المخزن، على مسافة خطوات من الجثّة. كانت تنظر إليها، وبين الحين والآخر تقوم بإشارة طفوليّة مبهمة بيدها. قبض البروسيّون على السيّد مرلييه رهينة.

كانت معركة حامية. وزّع الضابط رجاله على وجه السرعة، مدركاً أنّه لن يتمكّن من الفرار دون أن تسحقهم القوّات. من الأفضل في هذه الحالة أن يُدافعوا عن حياتهم بشكل مستميت. آنئذٍ كان البروسيّون هم الذين يدافعون عن الطاحونة، والفرنسيّون يهاجمونها. بدأ تبادل إطلاق النار بعنف مروّع واستمرّ نصف ساعة بلا توقّف. ثمّ سُمع دويّ عميق وانطلقت قذيفة حطّمت أحد الأغصان الرئيسيّة لشجرة الدردار المنتصبة منذ قرن. كان الفرنسيّون مجهّزين بمدافع[1] وأخذت بطاريّة نصبوها مباشرةً فوق الحفرة التي كان دومينيك مختبئاً فيها تقصف شارع روكروز الرئيسيّ. لا يمكن أن تصمد المقاومة طويلاً.

آه! يا للطاحونة المسكينة! كانت القذائف تخترقها. اقتُلع قسم من

(1) الحقيقة أنّ الفرنسيّين والألمان كانوا في تلك الفترة باشروا استخدام القذائف والمدافع.

سطحها. انهار جداران. غير أنّ الكارثة الحقيقيّة الأليمة كانت من جهة نهر موريل، حيث كانت أشرطة من اللّبلاب انفصلت عن الجدران المهتزّة تتدلّى مثل خِرَق، والنهر يحمل معه جميع أنواع الحطام. من أحد الشقوق يمكن رؤية غرفة فرنسواز بسريرها وستائرها المغلقة بعناية. تلقّى دولاب الطاحونة القديم قذيفتين الواحدة تلو الأخرى، وأطلق أنيناً أخيراً. سقطت شفراته في المياه التي حملتها معها وانسحق هيكله. تلك كانت روح الطاحونة الفرحة التي لفظت نفَسها الأخير.

ثمّ شنّ الفرنسيّون الهجوم. وقعت معركة عنيفة بالسلاح الأبيض. تحت السماء الصدئة، امتلأ الوادي المروَّع بالقتلى. بدت السهول الشاسعة موحشة، بأشجارها الباسقة المعزولة، وصفوف الصفصاف التي تلقي عليها بقعَ ظلالٍ متطاولة. الغابات يميناً ويساراً أشبه ما تكون بجدران حفل شعبيّ تُحاصر المقاتلين وتحتجزهم، فيما الينابيع والجداول والغدران تترقرق مطلِقةً زفرات في الحقول الهلعة.

لم تبارح فرنسواز مكانها تحت المخزن، جالسةً القرفصاء في مواجهة جثّة دومينيك. وكان السيّد مرلييه قُتِل للتوّ، حصدته رصاصة طائشة. عندها، وفيما كان البروسيّون يسقطون الواحد تلو الآخر والطاحونة تلتهمها النيران، كان النّقيب الفرنسي أوّل من دخل الباحة. كان ذلك هو الانتصار الوحيد الذي يحقّقه منذ اندلاع الحرب، فراح يضحك بلباقة فارس فاتن، متطاولاً بقامته، والحماسة تلهب صدره. وحين لمح فرنسواز جالسة في ذهول بين جثّتي عريسها ووالدها وسط حطام الطاحونة التي يتصاعد منها الدخان، حيّاها بسيفه بنخوة وكياسة وهو يصيح:

«النصر! النصر!»

آنجيلين[1]

1

قبل نحو سنتين، كنت أمرّ على درّاجتي[2] على طريق مقفر من جانب أورجيفال، إلى أعلى بواسي[3]، حين ظهر لي فجأةً على حافّة الطريق منزل أدهشني حتّى أنّني قفزت عن الدرّاجة لأتأمّله. تحت سماء نوفمبر الرماديّة، كان منزلاً من حجر الآجر لا يتفرّد بطابع خاصّ به، ينتصب وسط حديقة واسعة مزروعة بأشجار قديمة، في الريح الباردة التي تجرف معها الأوراق اليابسة. لكنّ ما يجعله خارقاً، على غرابة موحشة تعصر القلب، انّه كان مهجوراً في حال فظيع من التداعي. كان أحد مصراعي البوّابة مخلوعاً، وعند المدخل عُلّقت لافتة ضخمة تعلن أنّ المنزل للبيع، فدخلت إلى الحديقة، مستسلماً لفضول يشوبه القلق والتوجّس.

(1) «آنجيلين» هي آخر قصّة قصيرة لزولا، كتبها خلال ثلاثة أيّام بين 17 و19 تشرين الأوّل 1898، في منفاه في إنكلترا. ونُشرت بالإنجليزيّة في صحيفة *The Star* في 16 كانون الثاني 1899. في 4 شباط التالي، نُشرت من جديد ولكن مترجمة عن الإنجليزيّة ومع تعديلات كثيرة، في *Le Petit Bleu de Paris*. ومن أبرز هذه التعديلات أنّ الشخصيات لم تعد تُذكر بالأحرف الأولى من اسمها. صدرت «آنجيلين» للمرّة الأولى في المكتبات في طبعة «حكايات وقصص» *Contes et nouvelles* لدى الناشر برنوار (1928)، طبقاً لنصّ المخطوطة التي باتت مفقودة اليوم. وهي الصيغة المدرجة هنا.

(2) كان زولا مولعاً بركوب الدرّاجة الهوائيّة التي اكتشف لذّتها عام 1893. وكان يقوم بنزهات شبه يوميّة على الدرّاجة.

(3) ينقل زولا الى فرنسا، في موقع يعرفه جيّداً قرب ميدان Medan، هذه القصّة التي استلهمها أساساً من منزل مهجور قرب سامرفيلد حيث كان الكاتب يقيم في آدلستون بمنطقة سورّي Surrey، على مقربة من لندن.

لا شكّ أنّ المنزل كان متروكاً منذ ثلاثين عاماً أو أكثر. فأحجار الآجر في الأفاريز وأُطر النوافذ والأبواب تفكّكت على مرّ فصول الشتاء، واجتاحتها الطحالب والأشنيّات. على الواجهة سرت تشقّقات شبيهة بتجاعيد مبكّرة تغضّن هذا البناء الذي كان لا يزال متيناً غير أنّه مهمل تماماً. عند الأسفل، يعترض العلّيق والأشواك درجات المدخل المتصدّعة بفعل الجليد، فتبدو وكأنّها عتبة الخراب والموت. الإحساس الفظيع بالوحشة والكآبة المنبعث من المنزل كان ناجماً بصورة خاصّة عن النوافذ المنعدمة الستائر، عارية ومريبة، وقد حطّم أولادٌ زجاجها بالحجارة، جميعها تكشف عن فراغ الغُرَف الكئيب، لكأنّها عيون مطفأة لا تزال مشرّعة على جسد بلا روح. ثمّ، من حول المنزل، تمتدّ الحديقة الفسيحة مثل مساحة دمار. ما كان في الماضي أحواضَ زهور يصعب تمييزها تحت الأعشاب البريّة التي التهمتْها بنهم، غيضات الشجيرات التي تحوّلت الى غابات عذراء، نبتات تنمو على هوّاها مذكّرةً بمقبرة مهجورة، في نداوة الأشجار الظّليلة العالية، أشجار مرّت عليها مئات السنين، تعصف بها الريح الخريفيّة مطلقةً أنينها الكئيب، فتقتلع آخر ما تبقّى لها من أوراق.

تهت هناك طويلاً ناسياً الوقت، وسط تلك الشكوى اليائسة المنبعثة من كلّ ما يحيط بي، وقلبي مضطرب في وجل غامض وكرب متزايد، غير أنّ رأفة حارّة تتملّكه، حاجة لمعرفة كلّ ما كنت أحسّ به حولي من بؤس وألم، والتعاطف معه. وحين صمّمت على الخروج، لمحت من الجانب الآخر من الطريق، حيث يتفرّع إلى مفرقين، ما يشبه نزْلاً، كوخاً يقدّمون فيه المشروب، فدخلت، مصمّماً على انتزاع معلومات من أهالي المنطقة.

لم أجد هناك سوى عجوز قدّمت لي كوباً من البيرة وهي تتأوّه وتتأفّف. كانت تتشكّى من موقع حانتها على تلك الطريق النائية حيث

لا يعبر سائقا درّاجة في اليوم. راحت تثرثر بلا توقّف، تروي قصّتها. قالت إنّها تدعى الأمّ توسّان، قدمت من فرنون مع زوجها لإدارة هذا النزل. أحوالهما لم تكن سيئة في بادئ الأمر، غير أنّ الأوضاع في تدهور منذ أصبحت أرملاً. لكن بعد هذا الفيض من الكلام، لزمت فجأةً الحذر والاحتراس حين أخذت أسألها عن المنزل المجاور، فرمقتني بنظرة مرتابة وكأنّني أريد أن أنتزع منها أسراراً مخيفة.

«آه! أجل، «بيت البريّة»، أو البيت المسكون كما يقولون في المنطقة... أنا لا أعرف شيئاً سيّدي. القصّة برمّتها لم تحصل في زمني، لم أنتقل إلى هنا إلّا منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً، في عيد الفصح، وهذه الأحداث تعود إلى حوالى أربعين عاماً. حين انتقلنا إلى هنا، كان المنزل في الحال الذي تراه عليه اليوم نوعاً ما... تعبر فصول الصيف، وتعبر فصول الشتاء، ولا شيء يتزحزح، سوى الأحجار التي تتساقط.

– لكن لماذ لا يبيعونه في نهاية الأمر، سألتُ، بما أنّه للبيع؟

– آه! لماذا... لماذا... وما أدراني؟... يقال الكثير...»

لا شكّ أنّني أوحيت لها بالثقة في نهاية المطاف. ثمّ أنّها كان تتحرّق شوقاً لتنقل لي هذا الكلام الذي يُقال. روت لي بدايةً أنّ أياً من فتيات القرية المجاورة لن تتجرّأ على الدخول الى «بيت البريّة» بعد الغروب، لأنّه يُقال إنّ روحاً مسكينة تسكن المكان في الليل. وإذ استغربتُ أن تكون قصّة كهذه تجد من يصدّقها على مثل هذه المسافة القصيرة من باريس، هزّتْ كتفيها، معتزمةً في بادئ الأمر التظاهر بالبأس والشجاعة، لكنّها سرعان ما أبدت بعد ذلك ذعراً تأبى الاعتراف به.

«لكن هناك وقائع سيّدي. لماذا لا يبيعون المُلك؟ رأيت أعداداً غفيرة من المشترين يتعاقبون، وجميعهم غادروا بأسرع ممّا جاؤوا، من غير أن

نرى يوماً أيّاً منهم يعود. دعني أقول لك، الأمر المؤكدّ هو أنّه ما إن يتجرّأ زائر على دخول المنزل، حتّى تحصل أمور لا تصدّق: أبواب تصفق، تنغلق لوحدها بصخب، وكأنّ ريحاً فظيعة تعصف، صراخ، أنين، نشيج يتصاعد من الأقبية. وإن تعنّتنا في تجاهل الأمر، انبعث صوت يقشعرّ له البدن يطلق تلك الصيحة المتواصلة: «آنجيلين! آنجيلين! آنجيلين!» في نداء أليم تصطكّ العظام منه ذعراً... أكرّر أنّ كلّ هذا مؤكّد ومُثْبت، لن تجد من يقول لك العكس».

أعترف أنّ هذه القصّة بدأت تسحرني، وقد اعترتني قشعريرة باردة طفيفة سرت تحت جلدي.

«ومن هي آنجيلين تلك؟

– آه سيّدي! لا بدّ من إخبارك القصّة كاملة. لكنْ هنا أيضاً، أردّد لك أنّني لا أعرف شيئاً».

وفي النهاية أخبرتني كلّ شيء. قبل أربعين سنة، قرابة العام 1858، يومَ كانت الامبراطورية الثانية المنتصرة تعيش في جذل على وقع احتفالات متواصلة، توفّيت زوجة السيّد دو غ.[1]، الذي كان يشغل منصباً في قصر التويلري، تاركةً له ابنة في العاشرة من العمر تدعى آنجيلين. آية من الجمال، صورة حيّة عن والدتها. وبعد سنتين، اتّخذ السيّد دو غ. زوجة ثانية، امرأة رائعة الجمال أيضاً ومعروفة، أرملة جنرال. قيل أنّه منذ اللّحظة التي عقد فيها هذا الزواج الثاني، نشأت غيرة رهيبة بين آنجيلين وعمّتها، الأولى انفطر قلبها لرؤية والدها يطوي صفحة والدتها لتحلّ محلّها بهذه السرعة في البيت تلك المرأة الغريبة، والثانية مرتاعة لرؤية

(1) اسمه السيّد دو غوران M. De Gourand، حسبَ الصيغة المنشورة في *Le Petit Bleu de Paris*.

هذه الصورة الحيّة أمامها لامرأة تخشى ألّا تنجح في احتلال مكانتها، حتّى بات الأمر هاجساً يلاحقها. كان «بيت البريّة» ملكاً للسيّدة دو غ. الجديدة، وهناك رأت ذات مساءٍ الوالدَ يقبّل ابنته بشغف، فيقال إنّه، في نوبة غيرة ممسوسة، سدّدت للفتاة ضربة شديدة حتّى أنّ المسكينة قُتِلت على الفور، وقد حطّمت لها عنقها. وهنا يغدو باقي القصّة مروّعاً: من الوالد المولّه يوافق على دفن ابنته بيديه في أحد أقبية المنزل لإنقاذ القاتلة، إلى الجسد الصغير يبقى مطموراً هناك لسنوات، فيما يُقال للجميع إنّ الفتاة عند إحدى عمّاتها، فنباح كلب كان ينبش الأرض بإصرار، كاشفاً أخيراً عن الجريمة التي سارع قصر التويلري إلى طمس فضيحتها. واليوم وقد توفّي كلا السيّد والسيّدة دو غ.، لا تزال آنجيلين تعود كلّ ليلة، مستجيبةً للصّوت الأليم الذي يناديها من غياهب تلك الآخِرة الغامضة.

«لن تجد من يكذّبني، ختمت الأمّ توسّان. كلّ هذا صحيح، تماماً مثلما تطلع الشمس كلّ يوم».

استمعْتُ إليها مذعوراً، مصدوماً إزاء تفاصيل يصعب تصديقها، وفي الأوان ذاته مأخوذاً بغرابة المأساة العنيفة والقاتمة. ذلك السيّد دو غ.، كنتُ سمعتُ به من قبل، قيل لي على ما أظنّ إنّه تزوّج من جديد وإنّ فاجعة عائليّة ألقت بظلالها على حياته. هل القصّة حقيقيّة إذاً؟ يا لها من قصّة مأساويّة ومؤثّرة! كلّ المشاعر والشجون البشريّة تغلي، تثور حتّى الجنون، حتّى أفظع جريمة عاطفيّة يمكن أن نشهدها. فتاة جميلة كالبدر، معبودة والدها، تقتلها عمّتها ويُرغم أبوها على دفنها في زاوية قبو! قصّة رائعة تقْطر إحساساً وهولاً. هممتُ بطرح المزيد من الأسئلة ومجادلة المرأة العجوز، لكن ما الجدوى؟ لماذا لا أرحل حاملاً معي تلك القصّة المروّعة في الزهرة التي نسجتها لها المخيّلة الشعبيّة.

امتطيت درّاجتي وألقيت نظرة أخيرة إلى البيت المهجور. كان اللّيل يهبط، والمنزل الكئيب ينظر إليّ من نوافذه الفاغرة الغامضة مثل عيون ميتة، فيما ريح الخريف تئنّ في الأشجار القديمة.

2

ما الذي جعل هذه القصّة ترْسخ في دماغي، إلى أن تصبح هاجساً يستحوذ عليّ، لوعة حقيقيّة؟ تلك من مشكلات الذهن التي يصعب فهمها. ومهما ردّدت لنفسي أنّ مثل هذه الخرافات شائعة في الأرياف، وأنّ هذه القصّة تحديداً ليس فيها أيّ فائدة مباشرةً يمكن أن تهمّني، كانت الطفلة القتيلة تسكنني، آنجيلين تلك الجميلة المؤثّرة، التي يناديها صوت مولّه كلّ ليلة منذ أربعين عاماً، عبر غرف المنزل المهجور الفارغة.

قضيت الشهرين الأوّلين من فصل الشتاء أجري أبحاثاً. مهما كان من ضآلة المعلومات التي رشحتْ عن مثل هذا الاختفاء، عن مغامرة مأساويّة إلى هذا الحدّ، فلا بدّ أنّ تكون صحف تلك الحقبة ذكرت المسألة. بحثت في مجموعات المكتبة الوطنيّة، دون أن أعثر على شيء، ولا حتّى سطر واحد يتعلّق بقصّة مشابهة. ثمّ استجوبتُ معاصرين للقضيّة، رجالاً في قصر التويلري، دون أن يكون بوسع أيّ منهم أن يعطيني إجابة واضحة. لم أحصل سوى على معلومات متضاربة ومتناقضة، حتّى أنّني فقدت أيّ أمل في التوصّل إلى الحقيقة، رغم أنّني بقيت فريسة لوعة ذلك اللّغز. عندها أمسكتُ بالصدفة ذات صباح بخيط جديد.

كنت أقوم كلّ أسبوعين أو ثلاثة أسابيع بزيارة زمالة ومودّة وإعجاب إلى الشاعر العجوز ف.[1]، الذي توفّي في أبريل الماضي، عن سنّ يناهز

(1) اسمه فالواز Valoise، حسبَ الصيغة المنشورة في *Le Petit Bleu de Paris*.

السبعين. كان مصاباً منذ سنوات مديدة بشلل في ساقيه يبقيه مسمّراً في أريكة في مكتبه الصغير في شارع أساس، الذي تطلّ نافذته على حديقة اللّوكسمبورغ. هناك كان ينهي بهدوءٍ حياة قضاها في أحلامه، لم يعرف فيها سوى الخيال، مشيّداً لنفسه القصر المثاليّ الذي أحبّ فيه وعانى، بعيداً عن الواقع. من منّا لا يذكر وجهه الرقيق الودود، شعره الأبيض المنسدل في خصل مجعّدة مثل شعر طفل، عينيه الزرقاوين الشاحبتين اللّتين احتفظتا ببراءة الشباب؟ لم يكن من الممكن القول إنّه يكذب على الدوام، لكنّ الحقيقة أنّه كان يبتكر ويخترع بلا توقّف، بحيث لا يمكن مرّةً تحديد النقطة التي يتوقّف عندها الواقع بالنسبة له، ويبدأ الخيال. كان عجوزاً دمثاً فاتناً، بات منذ زمن بعيد خارج الحياة، حديثه غالباً ما يثير مشاعري وكأنّه بوحٌ خفِرٌ ومبهمٌ بالمجهول[1].

وعليه، فقد جالستُه في ذلك اليوم قرب النافذة، في الغرفة الضيّقة التي تدفّئها على الدوام نار مشتعلة. في الخارج كان الجليد فظيعاً، وحديقة اللّوكسمبورغ تمتدّ بيضاء تحت الثلج، فارشةً أفقاً فسيحاً من البراءة الناصعة. لست أدري كيف تطوّر الحديث فكلّمته عن «بيت البريّة»، عن تلك القصّة التي كانت لا تزال تشغلني: الوالد الذي تزوّج من جديد، الزوجة الحسود التي تغار من الفتاة، الطفلة التي هي صورة حيّة لوالدتها، ثمّ دفْنها في قعر القبو. استمع لي بتلك الابتسامة الهادئة التي

(1) هذه الصورة للشاعر هي صورة نمطيّة غالباً ما ردّدها زولا في نقده الأدبيّ، عندما كان يكتب مثلاً عن تيوفيل غوتييه أو تيودور دو بانفيل. عن الأوّل الذي أدرجه في سلسلة «منحوتات الرخام والجبس» *Marbres et plâtres*، كتب بمبالغة ساخرة: «في قصر هيميرا، وجدت الأمير نصف ممدّد في سرير قرمزيّ عيناه الزائغتان تعكسان نشوة ورعة، ووجنتاه المترهّلتان تحتفظان بجمود الحجر». (هيميرا، بالفرنسية Chimère، مخلوق أسطوريّ تصوّره الميثولوجيا الإغريقيّة برأس أسد وجسم عنز وذنب خرتيت، ينفث النّار، ويرمز في الأدب إلى الأطياف والأوهام والمُحال).

يحتفظ بها حتّى في حزنه. ثمّ خيّم الصمت، وتاه نظره الأزرق الشاحب في البعيد، في بياض اللّوكسمبورغ الشاسع، فيما انبثق منه ظلّ حالم أحاطه كأنّما بارتعاشة طفيفة.

«عرفت السيّد دو غ. لفترة طويلة، قال ببطء. عرفت زوجته الأولى، امرأة ذات جمال يفوق التصوّر. عرفت الثانية، لا تقلّ عنها جمالاً. حتّى أنّني أحببت الاثنتين بشغف مطلق دون أن أتفوّه يوماً بكلمة. عرفت آنجيلين التي كانت أكثر جمالاً، والتي كان الرجال سيجثون أمامها ويعبدونها... لكنّ الأمور لم تحصل كما تقول تماماً».

أحسست بصدمة هائلة. أهي إذاً الحقيقة المباغتة التي كنت فقدت الأمل في الوصول إليها؟ هل سينكشف لي السرّ بالكامل؟ لم أشعر بأيّ ريبة في بادئ الأمر وقلت له:

«آه يا صديقي! إنّك تسدي لي خدمة كبرى! أخيراً سيعرف بالي الطمأنينة. كلّمني بسرعة، أخبرني كلّ شيء».

لكنّه لم يكن يستمع لي، بل ظلّت عيناه تائهتين في البعيد. ثمّ تكلّم بصوت شارد، وكأنّه يبتكر الكائنات والأشياء إذ يستحضرها.

«كانت آنجيلين في الثانية عشرة من العمر، روحاً أزهر فيها الحبّ الأنثويّ كاملاً، بكلّ ما يختلج فيه من فرح وألم. هي التي شعرت بغيرة جارفة حيال الزوجة الجديدة التي كانت تراها كلّ يوم متأبّطةً ذراع والدها. كانت تعاني من هذا الأمر فترى فيه خيانة رهيبة. لم يكن الزوجان الجديدان يهينان والدتها فحسب، وإنّما كانا يعذّبانها هي نفسها، يمزّقان قلبها. كانت تسمع والدتها تناديها كلّ ليلة من قبرها، وفي إحدى الليالي اشتدّت عليها المعاناة، فأرادت أن تلاقيها، وهي تموت من فرط الحبّ، فغرزت طفلة الثانية عشرة سكّيناً في قلبها».

أطلقْتُ صرخة.

«ربّاه! هل يعقل؟

– لا يمكن وصف الهول والذعر، تابعَ دون أن يسمعني، حين عثر السيّد والسيّدة دو غ. في اليوم التالي على آنجيلين في سريرها الصغير، وتلك السكّين مغروزة في صدرها حتّى المقبض! كان ذلك عشيّة مغادرتهما في رحلة إلى إيطاليا، ولم يبق في المنزل سوى خادمة عجوز هي التي ربّت الطفلة. وإذ تملّكهما الرعب خشية أن يتمّ اتّهامهما بارتكاب جريمة، طلبا منها أن تساعدهما. دفنا فعلاً الجسد الصغير، ولكن في زاوية من دفيئة النبتات خلف المنزل، عند أسفل شجرة ليمون عملاقة. وهناك عثروا عليها يوم روت الخادمة العجوز هذه القصّة بعد وفاة الوالدين».

ساورتني بعض الشكوك، فتفحّصته قلِقاً، وأنا أتساءل إن لم تكن هذه القصّة من ابتكاره.

«لكن، سألته، هل تعتقد أيضاً أنّ من الممكن أن تعود آنجيلين كلّ ليلة عند سماع الصوت الغامض يناديها بصراخه الأليم؟»

نظر إليّ هذه المرّة، وعاد يبتسم برفق.

«العودة يا صديقي!، إنّ الجميع يعودون. لماذا لا تريد لروح تلك القتيلة الصغيرة العزيزة أن تسكن حتّى الآن تلك الأماكن حيث أحبّت وتألّمت؟ إن كنّا نسمع صوتاً ينادي، فهذا يعني أنّ الحياة لم تبدأ بَعد من جديد بالنسبة لها. وستبدأ من جديد، كن واثقاً من ذلك، لأنّ كلّ شيء يبدأ من جديد، لا شيء يتبدّد ويضيع، لا الحبّ ولا الجمال... آنجيلين! آنجيلين! آنجيلين! وسوف تنبعث من جديد في الشمس وفي الأزهار».

الواقع أنّني لم أقتنع بالقصّة ولم أطمئنّ لها. بل أنّ صديقي القديم

الشاعر الطفل ف. لم يقدّم لي سوى المزيد من البلبلة. من المؤكّد أنّه يخترع ويتخيّل. لكن ربّما هو يحدس الحقيقة، شأنه في ذلك شأن كلّ العرّافين.

«هل هو صحيح ما ترويه لي؟» سألته بجرأة وأنا أضحك.

انشرح بدوره شيئاً فشيئاً.

«طبعاً هذا صحيح. أليس الكون غير المتناهي برمّته صحيحاً؟»

كانت هذه آخر مرّة رأيته فيها، إذ اضطررت إلى التغيّب عن باريس بعض الوقت. ما زلت أراه بعينيه الحالمتين، التائهتين فوق بقع اللّوكسمبورغ البيضاء، مستكيناً في ثقة حلمه الذي لا يعرف نهاية، فيما أنا أتحرّق في حاجتي إلى التثبّت بشكل قاطع من حقيقة تتلاشى أبداً.

3

مرّت ثمانية عشر شهراً. اضطررت إلى السفر، عرفت هموماً كبرى وفرحات عارمة قلبت حياتي واستأثرت بها. لكن دوماً في وسط العاصفة التي تجرفنا جميعاً نحو المجهول، كنت أسمع من بعيد بين الحين والآخر الصرخة الموحشة تخترقني: «آنجيلين! آنجيلين! آنجيلين!»، فأبقى مرتجفاً وتعاودني الشكوك وتلك الحاجة الأليمة لمعرفة الحقيقة. لم يكن بوسعي أن أنسى، ولا حجيم أكثر عذاباً لي من الريبة.

لست أدري كيف وجدتُني في مساء رائع من شهر حزيران أسلك على درّاجةٍ الطريقَ المقفر المؤدّي إلى «بيت البريّة». هل تعمّدت رؤية المنزل من جديد؟ أم أنّ غريزة تلقائيّة هي التي جعلتني أنحرف عن الطريق العامّ لأسلك تلك الناحية؟ كان الوقت قرابة الساعة الثامنة، لكنّ السماء في أطول أيّام السنة تلك كانت لا تزال تشعّ، يلهبها غروب مجيد لا تعكّره غيمة، مجرّد ذهب وزرقة لامتناهية. كم كان الهواء صافياً